

المركز القومي للترجمة
نوبل في الاقتصاد 2008
بول كروجمان
ضمير شخص ليبرالي
الاقتصاد السياسي لتطور الحياة السياسية والحزبية الأمريكية
ترجمة: مجدي صبحي
اقتصاد
3216
المحروسة

ضمير شخص ليبرالي

الاقتصاد السياسي لتطور الحياة السياسية والحزبية الأمريكية

تأليف: بول كروجمان

ترجمة: مجدي صبحي



تأسس فى أكتوبر 2006
تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف : 284432157 - 02 - 002
www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران

- ضمير شخص ليبرالي
- بول كروجمان
- مجدي صبحي

....

- العدد: 3216
- الطبعة الأولى: 2018
- اللغة: الانجليزية
- رقم الإيداع: ١٦٣١٣
- الترقيم الدولى: 978-977-313-733-5

هذه ترجمة كتاب:

The Conscience of a Liberal
By: Paul Krugman
Copyright © 2009, 2007 by Paul Krugman
Published by kind permession from W. W. Norton & company Inc.

....

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
ومركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ضمير شخص ليبرالي

الاقتصاد السياسي لتطور الحياة السياسية والحزبية الأمريكية

تأليف: بول كروجمان

ترجمة: مجدي صبحي



فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كروجمان، بول، ١٩٥٣-
ضمير شخص ليبرالي: الاقتصاد السياسي لتطور الحياة السياسية
والحزبية الأمريكية/ تأليف: بول كروجمان؛
ترجمة: مجدي صبحي.-ط1.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، 2018.
325 ص؛ 17 × 24

تدمك 978-977-313-733-5
1 - الازمات الاقتصادية
2 - الولايات المتحدة الامريكية- الاحوال السياسية
أ- صبحي، مجدي (مترجم)
ب- العنوان
338.54
رقم الإيداع: ١٦٣١٣ / ٢٠١٨

المحتويات

مقدمة لطبعة 2009 ذات الغلاف الورقي

جوهر هذا الكتاب هو التأكيد على أن أمريكا جاهزة لتبني أجندة سياسية تقدمية جديدة:"صفقة جديدة[1]جديدة". وكان هناك بالفعل العديد من الأدلة على هذاالتوجه في صيف 2007، حينما ذهبت الطبعة ذات الغلاف المقوى من هذا الكتاب إلى المطبعة، فقد بينت نتائج استطلاعات للرأي أن الناخبين الأمريكيين قد تحولوا تجاه اليسار في شأن عدد من القضايا، كما كانت انتخابات الكونجرس عام 2006 قد أسفرت عن انتصار مذهل للديمقراطيين، وحملت نهاية مفاجئة وحادة لما يفترض أنه أغلبية جمهورية دائمة في الكونجرس. ومع ذلك كان لا يزال هناك مكان للشك؛ فلربما كانت انتخابات 2006 فعلا بمثابة استفتاء على حرب

(1) الإشارة هنا إلى "الصفقة الجديدة" أو "New Deal" وهي مجموعة من البرامج الاقتصادية التي أطلقت بين عامي 1933 و1936 أثناء الفترة الرئاسية الأولى للرئيس فرانكلين روزفلت، وكانت تلك البرامج استجابة للكساد العظيم وقد تم تضمين هذه البرامج في مراسيم رئاسية أو قوانين أصدرها الكونجرس. وقد تركزت تلك البرامج في ثلاثة عناوين رئيسية هي "الإغاثة، والانعاش، والإصلاح" وتشير إلى إغاثة العاطلين والفقراء، وإنعاش الاقتصاد ليعود لمستويات أداءه المعتادة، وإصلاح النظام المالي للحيلولة دون حدث الكساد مرة أخرى. (المترجم) نقلا عن: موسوعة ويكبيديا مادة "الصفقة الجديدة".

العراق وعلى قيادة جورج دبليو بوش، أكثر منها معارضة إجمالية لمبادئ الحركة المحافظة التي هيمنت على السياسة الأمريكية منذ السبعينات.

وقد جادل من يتشككون بشكل خاص في احتمالات وجود صفقة جديدة جديدة، بأن التغيرات العاصفة في السياسة المحلية لا تحدث إلا مع وقوع أزمة اقتصادية. وفي صيف عام 2007 لم يكن الأداء الاقتصادي بالغ السوء، على الأقل عند التركيز على الأرقام البارزة، فمعدل البطالة كان منخفضا وفقا للمعايير التاريخية، وكان مؤشر داو جونز للبورصة الأمريكية قد حقق ارتفاعات جديدة. وصحيح أنه كانت تجري تحت سطح هذا الرخاء الظاهر توترات خفية عميقة: فقد كانت أعداد الأمريكيين الذين لا يغطيهم تأمين صحي في ازدياد، وكانت الأجور تبقى بالكاد على مستواها مع الارتفاع في معدلات التضخم، وكانت القوة الشرائية للعائلة الأمريكية المتوسطة لا تزال أقل من المستوى الذي كانت عليه في عام 2000، وذلك على الرغم من مرور ستة أعوام على الانتهاء الرسمي لركود عام 2001. ولكن كان يمكن المجادلة بأن القلق والتوتر الاقتصادي للجمهور لم يكن قد ارتفع إلى المستوى المطلوب الذي يستدعي إجراء تغيرات أساسية في الاتجاه الذي تسير عليه الأمة.

وليست هناك حاجة للقول بأن هناك القليل من الأشياء التي حدثت منذ ذلك الحين في كل من الاقتصاد والمشهد السياسي. ومثله مثل العصر المُذهَّب[1]

(1) العصر المُذهَّب في تاريخ الولايات المتحدة يقع في أواخر القرن التاسع عشر، وتحديدا من سبعينات هذا القرن وحتى عام 1900. وقد صك مصطلح العصر المُذهَّب الكاتب الأمريكي مارك توين في قصته "العصر المذهب: قصة اليوم" وهي قصة نشرت عام 1873 وتهجو عصرا من المشكلات الاجتماعية الخطيرة المغطاة بقشرة لامعة. وقد ترافق النصف الأول من العصر المُذهَّب تقريبا مع القسم الأوسط لما يعرف بالعصر الفيكتوري في بريطانيا، ومع ما أطلق عليه العصر الجميل في فرنسا. وكان العصر المذهب عصر نمو اقتصادي سريع، خاصة في شمال وغرب أمريكا حيث كان مستوى الأجور الأمريكية أعلى من مستواها في أوروبا، خاصة أجور العمال المهرة، ولذا فقد شهدت هذه الفترة فيضا من تدفق ملايين المهاجرين الأوروبيين نحو أمريكا. وقد أدى التوسع السريع في التصنيع إلى نمو الأجور الحقيقية بمقدار 60% بين عامي 1860 و1890، على الرغم من الزيادة الكبيرة في أعداد القوة العاملة. وعلى أية حال، فقد كان العصر المُذهَّب هو أيضا عصرا للفقر البائس ولعدم المساواة، حيث تدفق ملايين المهاجرين-والعديد منهم من الأمم الأوروبية الفقيرة- على الولايات المتحدة، كما كان هذا العصر عصر تركز شديد في الثروة. وتعد هذه الفترة من أكثر الفترات ديناميكية، كما أنها توصف بأنها أكثر الفترات إثارة للنزاعات وللتقلبات في التاريخ

الأصلي، الـذي يجادل هـذا الكتـاب بأنـه لم ينته حقيقـة حتـى الثلاثينـات، فقـد جاء في عقـب العـصر المذهـب الجديد-مـع هيمنـة المحافظـين عـلى حياتنـا السياسـية وبلـوغ عـدم المسـاواة مسـتويات لم نرهـا منـذ عـام 1929-أزمـة اقتصاديـة وماليـة ضخمـة. وحقـق الديمقراطيـون انتصـارا انتخابيـا مذهـلا، وهـو مـا يعـود -جزئيـا عـلى الأقـل- لإدراك الجمهـور بـأن السياسـات الاقتصاديـة للمحافظـين سـاعدت عـلى خلـق هـذه الأزمـة. ونتيجـة لهـذا، فنحـن نعيـش اليـوم في بيئـة عائليـة تتشـابه بقـوة مـع البيئـة التـي صعـد فيهـا فرانكلـين روزفلـت[1] والصفقـة الجديـدة الأصليـة لموقـع السـلطة. وادعـاء أن أمريـكا جاهـزة لصفقـة جديـدة جديدة-والـذي اعتـبره بعـض القـراء خياليـا ورومانسـيا حينـما نـشرت الطبعـة ذات الغـلاف المقـوى مـن هـذا الكتاب-بـات يعـد الآن إلى حـد كبـير مـن قبيـل الحكمـة التقليديـة.

ولكـن إلى أي حـد يمكـن تسـويغ هـذه الحكمـة التقليديـة؟ للإجابـة عـن هـذا السـؤال، دعنـا ننظـر في التطـورات الاقتصاديـة والسياسـية التـي حدثـت بـين موعـد ظهـور طبعتـي هـذا الكتـاب. (المترجـم: أي الطبعـة ذات الغـلاف المقـوى والطبعـة الحاليـة ذات الغـلاف الورقـي).

الأمريكي.(المترجم) انظر:

.Gilded Age, Wikipedia, the free encyclopedia

وأيضا موقع shmoop على الرابط التالي:

/http://www.shmoop.com/gilded-age

(1) فرانكلـين ديلانـو روزفلـت (30 ينايـر 1882-12 أبريـل 1945) الرئيـس الثـاني والثلاثـين للولايـات المتحـدة خـلال الفـترة مـا بـين 4 مـارس 1933 و12 أبريـل 1945 وقـد انتخـب لأربـع فـترات متتاليـة، إلا أنـه تـوفي في العـام الأول مـن ولايتـه الرابعـة. كان ينتمـي للحـزب الديمقراطـي، وشـغل منصـب حاكـم ولايـة نيويـورك مـا بـين 1 ينايـر 1929 و31 أكتوبـر سـنة 1932.
بعـد نجاحـه في الحصـول عـلى ترشـيح الحـزب الديمقراطـي لـه للانتخابـات الرئاسـية عـام 1932، ركـز في حملتـه عـلى الكسـاد العظيـم، ومـا تسـتطيع الحكومـة الفدراليـة فعلـه. وكـوّن مجموعـة مـن الخـبراء والاستشـاريين لاقـتراح سياسـة اقتصاديـة يسـتطيع إقنـاع الناخبـين بهـا والحصـول عـلى تأييدهـم، وهـو مـا سـيعرف ببرنامـج الصفقـة الجديـدة. وقـد شـن الجمهوريـون حملـة تشـكك في قدرتـه عـلى تـولي شـؤون البـلاد لأنـه كان مصابـا بالشـلل. وخلافـا لجميـع التوقعـات حقـق روزفلـت عـام 1932 فـوزا سـاحقا بحصولـه عـلى 57% مـن الأصـوات بينـما حصـل منافسـه الجمهـوري الرئيـس هوفـر عـلى 40% فقـط. (المترجـم) نقـلا عـن: موسـوعة ويكيبيديـا، مـادة "فرانكلـين روزفلـت".

الأزمة الاقتصادية

كما سبق وأشرت بالفعل، لم يكن "الازدهار في وقت بوش" يتمتع بمذاق الرخاء بالنسبة لمعظم الأمريكيين. وذلك على الرغم من أن الأرباح، وأسعار الأسهم، ودخول الأمريكيين المتميزين ظلت جيدة للغاية، وهو ما أدى إلى ادعاء إدارة بوش نجاحها. وفي الواقع، فقد ارتفع مؤشر داو جونز في 19 يوليو 2007، فوق مستوى 14000 نقطة للمرة الأولى. وبعد أسبوعين من ذلك التاريخ نشر البيت الأبيض "ورقة معلومات وحقائق" كشفت عن رؤية إدارة بوش للأداء الاقتصادي: "إن سياسات الرئيس بوش المناصرة للنمو ساعدت في الحفاظ على اقتصادنا قويا، ومرنا، وديناميكا".

بينما حذر بعض الاقتصاديين، وأنا من بينهم، من أن النجاح الاقتصادي، على النحو الذي كان قائما، ينهض على أسس مزعزَعة، حيث إن أغلب النمو الاقتصادي تحقق نتيجة لفقاعة غير مستقرة في أسعار المنازل، وسوف يشهد الاقتصاد مشكلات جوهرية حينما تنفجر هذه الفقاعة. ومع حلول صيف عام 2007 كانت فقاعة السكن قد بدأت في التنفيس. ولكن مسؤولي الإدارة استخفوا بالمخاطر، إذ قال وزير الخزانة هنري بولسون في أثناء حديث له في بكين في 1 أغسطس 2007 إن مشكلات قطاع السكن والرهونات العقارية قد تم "احتواؤها إلى حد كبير".

ولكن الحقيقة أنه لم يكن قد تم احتواؤها، ففي التاسع من أغسطس 2007، علق بنك بي إن بي باريبا، وهو بنك فرنسي، السحب من ثلاثة من صناديقه. وقد اعتُبر هذا الحدث بشكل عام علامة على بداية الأزمة المالية الحالية، وهي بالفعل الأسوأ من بين كل الأزمات التي وقعت منذ انهيار المصارف في بداية الثلاثينات من القرن العشرين، وهو الانهيار الذي يتفق معظم الاقتصاديين على أنه ما عمل على تحويل ركود كريه إلى الكساد العظيم.[1]

---

(1) الركود recession هو فترة من التدهور الاقتصادي العام، تعرف عادة بانخفاض الناتج المحلي الإجمالي لمدة ستة أشهر متتالية (ربعين سنويين متتاليين) أو أطول من ذلك. ويتسم الركود بارتفاع معدلات البطالة، وانخفاض أسعار التجزئة، ولا يستغرق الركود عادة فترة تزيد على العام، وهو أقل قوة من الكساد. وعلى الرغم من أن الركود يعد ملمحا معتادا في الاقتصاد الرأسمالي، ليس هناك إجماع بين الاقتصاديين على أسبابه.

وكما حدث في الثلاثينات من القرن الماضي، عاشت أزمة النظام المالي فسادا في الاقتصاد الحقيقي، فالارتباك الذي انتاب القنوات الاعتيادية للاقتراض والإقراض غاص بالاقتصاد الأمريكي نحو ركود يبدو واضحا أنه سوف يكون عميقا وممتدا. فمعدل البطالة بات من شبه المؤكد ارتفاعه إلى أعلى مستوياته منذ بداية الثمانينات، ومن المحتمل ارتفاعه إلى مستويات لم نشهدها منذ الحرب العالمية الثانية. وعليك أن تحتفظ في ذهنك بمعلومة أن التأمين الصحي بالنسبة لمعظم الأمريكيين مرتبط بالعمل، وهو ما يعني أن معظم العاطلين الجدد سوف يفقدون تغطيتهم الطبية أيضا. إضافة إلى ذلك، سوف تفقد ملايين العائلات منازلها، وآخرون عديدون سوف يرون معظم مدخراتهم وقد تبخرت.

ما الذي يجعل هذه الكارثة محتملة الوقوع؟ الإجابة هي أنه حدث خلال ربع القرن المنصرم تآكل تدريجي في إجراءات الحماية المالية التي كانت الصفقة الجديدة قد طبقتها. ففي مواجهة أزمة المصارف في بداية الثلاثينات، سن الكونجرس تشريعا لخلق شبكة أمان مالية؛ فمن جهة تم تأمين الودائع المصرفية، ومن جهة أخرى تم إعادة تنظيم وضبط المصارف، بحيث يجري إبعادها عن الاتجاه نحو المخاطر المفرطة. وكان الجمع بين التأمين والتنظيم قد تم تصميمه بحيث يحول دون عودة عدوى سحب العملاء لودائعهم من البنوك في نفس الوقت، وهو ما كان يشكل ملمحا اعتياديا فيما قبل اقتصاد الصفقة الجديدة، وهو ما عاث فسادا في 1932-1931. ولكن منذ الثمانينات، على أية حال، أصبح نظامنا المالي معتمدا بشكل متزايد على ما عرف على نطاق واسع على أنه

أما الكساد depression فهو يعد النقطة الدنيا في قاع الدورة الاقتصادية ويتسم بعدة سمات من أهمها: -1 تدهور القوة الشرائية -2 البطالة الجماعية -3 زيادة العرض على الطلب (وجود فائض عرض) -4 انخفاض الأسعار، أو ارتفاعها بمعدلات أقل مما كان معتادا -5 انخفاض الأجور، أو ارتفاعها بمعدلات أقل مما كان معتادا -6 فقدان عام للثقة في المستقبل. ويتسبب الكساد في انخفاض كافة مناحي النشاط الاقتصادي. وقد يمتد الكساد الكبير لعدة سنوات، مثل الكساد العظيم (-1930 1940) الذي كانت له آثاره في كافة أرجاء العالم. (المترجم)، أنظر:

recession, http://www.businessdictionary.com/definition/recession.html

depression, http://www.businessdictionary.com/definition/depression.html

وهناك تعريف في هيئة مزحة بين الاقتصاديين ينصرف إلى أن الفارق بين الركود والكساد هو: الركود حينما يتم فصل جارك من العمل، أما الكساد فهو حينما يتم فصلك أنت شخصيا من عملك.

"نظام مصارف الظل": مؤسسات تمارس في الواقع وظائف المصارف، ولكن تتم هيكلتها بحيث تتجنب القواعد المنظمة لعمل النظام المصرفي.

وكان لا بد لقيام نظام مصارف الظل أن يتسبب في قلق عظيم، فقد تم وضع القواعد المنظمة للمصارف لسبب وجيه للغاية، وكان لا بد لنمو المؤسسات غير الخاضعة لهذه القواعد المنظمة من أن يؤدي إلى قرع أجراس التنبيه. ولكن التغيرات في النظام المالي حدثت حينما كان يهيمن على المشهد السياسي الأمريكي هؤلاء الذين كانوا ملتزمين بتقويض ميراث الصفقة الجديدة. فبالنسبة لهم كانت القيود التنظيمية وشبكات الأمان الحكومية هي العدو، وكانت مهمتهم هي التخلص من القواعد التنظيمية والقيام بالخصخصة بقدر ما يستطيعون. ومن وجهة نظرهم، من الآن فصاعدا كلما كان النظام المالي يعمل من دون شبكة أمان كان ذلك أمرا طيبا، وبكل تأكيد لم يكن لديهم أي اهتمام بمد القواعد التنظيمية لكي تتواكب مع تطورات الوقائع الاقتصادية.

ولم يكن الأمر محض مصادفة، أن التخلص من القواعد التنظيمية في الأسواق المالية ساعد الأغنياء على أن يصيروا أكثر غنى. وخلقت عملية إعادة الهيكلة المالية للأصول أو ما يدعى إعادة التغليف repackaging[1] فيضا من الأرباح في وول ستريت، مع قيام الطرق المحاسبية المريبة بتضخيم قيمة أصول الشركة وقيادة أسعار الأسهم لأعلى. وتغذي أسعار الأصول مستويات أعلى من الدَّين، والمزيد من المعاملات، والمزيد من الرسوم، وذلك فيما يبدو أنه توسع لا يتوقف للثروة في وول ستريت.

ثم عندئذ تتوقف الموسيقى.

لقد تم تضخيم فقاعة السكن عن طريق قروض "الرهن العقاري" subprime[2]: وهو نوع من الرهن تم إصداره للمقترضين الذين لا يوفون بالمعيار المعتاد

(1) حينما تقوم شركة خاصة بالاستيلاء على شركة مساهمة عامة باشتراء جميع أسهمها عن طريق قروض مصرفية، وذلك بهدف عمل عدة تغييرات في الشركة، وبحيث تبدو في الواقع أكثر تأنقا، وتكون عين تلك الشركة الخاصة على جعل الشركة التي استولت عليها شركة مساهمة عامة مرة أخرى عن طريق الطرح العام الأولي في البورصة. (المترجم) انظر:

http://www.investopedia.com/terms/r/repackaging.asp

(2) هو نوع من قروض الرهن العقاري الذي يتم تقديمه للمقترضين ذوي التصنيف الائتماني

للحصول على ائتمان. ومع تصاعد الرهن العقاري subprime حذر بعض الناس، ومن بينهم مسؤولون كبار في نظام الاحتياط الفيدرالي[1] مثل الراحل نيد جراmليتش[2]، من المخاطر. ولكن القائمين على السلطة تجاهلوا هؤلاء، وخاصة آلان جرينسبان.[3] وعندما سعى نواب العموم في الخمسين ولاية للتحقيق في ممارسات قروض الرهن العقاري subprime، تم اعتراض سبيلهم عن طريق تحالف البنوك الكبرى وإدارة بوش التي استحضرت مرسوم البنوك الوطني لعام 1863 قليل الاستخدام، للحيلولة دون أي عمل على مستوى الولاية. ثم انفجرت فقاعة السكن، وارتفع بشكل جنوني عدم القدرة على سداد رهون المنازل. وحيث إن معظم الرهون قد تم "تسنيدها"-وتم تقسيمها ودمجها في مطالبات مالية معقدة يتم بيعها لمستثمرين لديهم فكرة محدودة عن طبيعة المخاطر التي يتحملونها- فتنتشر الخسائر من عدم القدرة على سداد القروض في كل مكان، لتقوض رأس مال العديد من المؤسسات المالية ولتضعف من الثقة في جميع جنبات النظام. وقد صمدت المصارف التقليدية المحمية بشبكة الأمان العتيقة للصفقة الجديدة

المنخفض. فنتيجة لانخفاض التصنيف الائتماني للمقترضين، كان لا يمكن تقديم الرهون التقليدية لهم مع وضع المقرض في اعتباره أن المقترض لديه خطر أكبر من المتوسط بعدم القدرة على سداد الدَّين. وتقوم مؤسسات الإقراض بتقاضي فائدة على هذا النوع من الرهن أعلى من الفائدة التي يتم تقاضيها على الرهون التقليدية، وذلك بهدف تعويض المقرضين لأنفسهم عن تحملهم لمخاطر أكبر. (المترجم) انظر: INVESTOPEDIA على الرابط التالي:
http://www.investopedia.com/terms/s/subprime_mortgage.asp

(1) البنك المركزي للولايات المتحدة الأمريكية (المترجم)

(2) إدوارد جراmليتش (18 يونيو 5-1939 سبتمبر 2007) أستاذ اقتصاد في جامعة ميتشجان وعضو في مجلس محافظي النظام الفيدرالي الأمريكي (بنك الولايات المتحدة المركزي). اختاره الرئيس بيل كلينتون في عام 1997 لنظام الاحتياطي الفيدرالي واستقال في أغسطس 2005. وخلال معظم فترة عمله في النظام كان رئيسا للجنة شؤون المستهلك والمجتمع. وقد سلط جراmليتش الضوء على مشكلات الرهون العقارية subprime قبل الأزمة المالية 2009-2007. وقد نشر كتابه "الرهون العقارية subprime: الازدهار والكساد الأمريكي الأخير" قبل إدراك الأزمة على مدى واسع، وكان قد جهر بآرائه حول تلك المشكلات في وقت باكر. (المترجم)، انظر:
Edward M. Gramlich,Wikipedia, the free encyclopedia.

(3) المحافظ الأسبق لنظام الاحتياط الفيدرالي الأمريكي (المترجم)

بشكل معقول، بينما انهارت إلى حد كبير مصارف نظام الظل غير الخاضعة للقواعد التنظيمية.

يعد الاقتصاد المضطرب على الدوام أمرا سيئا بالنسبة للحزب الموجود في البيت الأبيض، حتى ولو كانت المتاعب هي نتيجة لعوامل تقع خارج يد من يحتل المنصب. جادل البعض بأن هذه كانت حالة جيمي كارتر الذي تقوضت رئاسته بسبب أحداث في الشرق الأوسط أدت إلى قطع الإمدادات العالمية من النفط. وكانت أزمة عام 2008، على أية حال، تعد حقيقة درسا موضوعيا في خطأ توجه الفلسفة الاقتصادية المحافظة.

ويعارض الجمهوريون القواعد التنظيمية من أي نوع بسبب إيمانهم بالقول الفصل الذي أعلنه ريجان في خطاب تنصيبه للرئاسة: "إن الحكومة ليست هي الحل لمشكلاتنا؛ الحكومة هي المشكلة." ولكن حينما تقع الكارثة، يصبح من الواضح أن ريجان كان على خطأ وأن فرانكلين ديلانو روزفلت كان على صواب. ففي خطابه عام 1936 بقبول ترشيح الديمقراطيين له في انتخابات الرئاسة، أعلن "كنا نعرف دائما أن الحرص الأهوج على المصلحة الشخصية سيئ لروح التعاون؛ ونحن نعلم الآن أنه سيئ للاقتصاد أيضا"، ولم يكن هذا السطر أكثر صحة منه الآن.

الانتخابات

انتابت هؤلاء الذين كانوا من بيننا يأملون صفقة جديدة جديدة بعض لحظات من القلق خلال مجرى الحملة الانتخابية في عام 2008. أولا، كانت هناك تساؤلات عما إذا كان المرشح الديمقراطي يؤمن حقيقة بأجندتنا، فقد استمر باراك أوباما أولا متمسكا ببرنامج متخطٍّ للحزبية، لائما اليسار واليمين بشكل متساو كسبب لما نعانيه من مشكلات. وخلال سعيه للحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي كرر هجومه على هيلاري كلينتون، منافسته الرئيسية على الترشيح، من موقع اليمين، وبخاصة هجومه على اقتراحها بأن تمتد مظلة الرعاية الصحية بشكل إلزامي بحيث تغطي كل الأفراد، وهو، كما سيتم شرحه في الفصل 11، مقترح يشكل جزءا لا يتجزأ من إستراتيجيتنا التي نتمناها من أجل تحقيق رعاية

صحيـة شـاملة. وبعـد فـوزه بالترشـيح، بـدا أوبامـا في البدايـة غـير راغـب في شـجب السياسـات الاقتصاديـة المحافظـة.

وقـد رفـع كل هـذا مـن حـدة المخاطـر فيـما إذا كان أوبامـا سـوف يسـعى لتنفيـذ سياسـات تقدميـة لـو حـدث وفـاز بمقعـد الرئاسـة. إذ كانـت هنـاك، عـلاوة عـلى ذلـك، شـكوك حقيقيـة حـول مـا إذا كان سـيفوز بالانتخابـات، فبحلـول سـبتمبر 2008 تبخـر تقـدم أوبامـا الـذي كان هائـلا في الاسـتطلاعات، وتنبـأت أسـواق المراهنات بفـوز ماكين.

لمـاذا تخلـف أوبامـا عـن الركـب، ولـو لوقـت قصـير، في مثـل هـذا العـام الأفضـل بالنسـبة للديمقراطيـين؟ ربمـا كان تـردده الأولي في طـرح حجـة قويـة تدعـو للتغيـير في السياسـة الاقتصاديـة جـزءا مـن المشـكلة. فعنـد تجـاذبي أطـراف الحديـث مـع أحـد مسـؤولي الحـزب الديمقراطـي قـال لي، بيـأس، إن أوبامـا رفـض الطـرق بقـوة عـلى هـذا الموضـوع، مفضّـلا، بـدلا عـن ذلـك، إعطـاء أحاديـث حـول "الأمـل والتغيـير" hopey-[1] changyوهـي أحاديـث ألقـت جانبـا بأفضـل حجـج الحـزب ضـد الجمهوريـين.

كـما كان هنـاك أيضـا القضيـة التـي لا يمكـن إنكارهـا حـول العـرق. فالهيمنـة الانتخابيـة للحـزب الجمهـوري مـن عـام 1980 وحتـى 2004 يمكـن تفسـيرها بالكامـل تقريبـا في خمـس كلـمات: بـدأ البيـض الجنوبيـون في التصويـت للجمهوريـين. والحجـة المفتـاح في هـذا الكتـاب هـي أن إسـتراتيجية الجمهوريـين الجنوبيـة (المترجـم: أي التركيز عـلى موضـوع العـرق) تفقـد فاعليتهـا. ولكـن القـول بـأن العـرق قضيـة ذات قـوة متناقصـة لا يسـاوي القـول بـأن القضيـة قـد اختفـت بالكامـل. وكان الديمقراطيـون، عـلى المـرء القـول، يخاطـرون أشـد المخاطـرة بترشـيحهم أمريكيّـا مـن أصـول إفريقيـة كمرشـح لمقعـد الرئاسـة.

وفي الحقيقـة، فقـد أظهـرت نتائـج الانتخابـات بصمـة واضحـة للسياسـة القائمـة عـلى العـرق. فعـلى المسـتوى الوطنـي كان هنـاك تحـول كبـير باتجـاه الديمقراطيـين، بين عامـي 2004 و2008، ولكـن هـذا التحـول كان غائبـا أو حتـى جرى في الاتجـاه المعاكس، في عـدد مـن الولايـات الجنوبيـة التـي تتضمـن لويزيانـا، وأركنسـاس، وأوكلاهومـا، وألابامـا، ومسيسـبي، وكنتـاكي، وتنيـسي. وقـد قيـل في ذلـك مـا فيـه الكفايـة. وبشـكل

(1) تعبـير ملطـف ابتكـر في أثنـاء حملـة الانتخابـات الرئاسـية عـام 2008 ليسـخر مـن الوعـود المخادعـة لأوبامـا حـول الأمـل والتغيـير. (المترجـم)

عـام، ففـي تقديـر تقريبـي وُجِـد أن عـرق المرشـح قـد كلـف الديمقراطيـين نقطتـين أو ثـلاث نقـاط مئويـة عـلى المسـتوى الوطنـي، وكان يمكـن أن يكلفهـم البيـت الأبيـض لـو لم يكـن عـام الانتخابـات عامـا ديمقراطيـا.[1]

ولكنـه كان عامـا ديمقراطيـا، ومـضى كل شيء بشـكل صحيـح بالنسـبة للديمقراطيـين خـلال الأسـابيع السـبعة الأخـيرة مـن الحملـة. فقـد زادت حـدة الأزمـة الاقتصاديـة فجـأة مـع إعـلان إفـلاس بنـك ليـمان بـرازرز في 15 سـبتمبر 2008، واسـتجاب أوبامـا بشـكل رائـع للبيئـة المتغـيرة. فقـد اسـتطاع أن يجمـع بـين رباطـة الجـأش وإيصـال الشـعور بأنـه يعـي خطـورة الموقـف، وذلـك في تناقـض حـاد مـع معارضيهالذيـن تأرجحـوا بشـدة، في تصريحاتهـم، بـين القـول بـأن الأساسـيات سـليمة ومـا بـين الدعـوة لتعليـق الحملـة الانتخابيـة. وعـلاوة عـلى هـذا، فقـد بـدا أن الأزمـة قـد أدت إلى شـحذ مفاجـئ لرسـالة أوبامـا الاقتصاديـة، فقـد أخلـت وعـود "الأمـل والتغيـير" hopey-changy السـاحة لأحاديـث مقنعـة وقويـة حـول تكاليـف "الفلسـفات الفاشـلة" وهـو مـا لاقـى تهليـل التقدميـين.

وفي النهايـة، كسـب أوبامـا البيـت الأبيـض بسـهولة. كـما كانـت هنـاك مكاسـب كبـيرة للديمقراطيـين أيضـا في الكونجـرس، بالبنـاء عـلى انتصارهـم في عـام 2006. وفي الحقيقـة، فقـد أدت النتائـج المجمعـة لانتخابـات الكونجـرس في عامـي 2006 و2008 إلى تحـول مدهـش في الحـظ، مـا كان يفـترض أنـه أغلبيـة جمهوريـة دائمـة إلى سـيطرة ديمقراطيـة سـاحقة. فقـد انتقـل الديمقراطيـون مـن أقليـة يقـل عـدد مقاعدهـا بـ29 مقعـدا عـن مقاعـد الجمهوريـين، إلى أغلبيـة بأكـثر مـن 80 مقعـدا في مجلـس النـواب؛ وانتقلـوا مـن أقليـة لديهـا مقاعـد تقـل عـن الجمهوريـين بعـشرة مقاعـد إلى أغلبيـة لديهـا 14 مقعـدا، عـلى الأقـل، أكـثر مـما هـو لـدى الجمهوريـين في مجلـس الشـيوخ. (عنـد كتابـة هـذه المقدمـة، كان هنـاك العديـد مـن السـباقات الانتخابيـة التـي لم تحسـم نتيجتهـا بعـد، ويبـدو مـن المحتمـل حصـول الديمقراطيـين عـلى مقعـد آخـر عـلى الأقـل مـن مقاعـد مجلـس الشـيوخ).

---

(1) يقصـد الكاتـب أنـه كان عامـا التأييـد فيـه للحـزب الديمقراطـي كبـير بـصرف النظـر عـن المرشـح، كقولنـا في التعبـير الـدارج "اليـوم يومـك" أو "السـنة سـنتك" (المترجـم)

أمة يسار الوسط

حتى قبل أن تظهر نتائج انتخابات عام ٢٠٠٨، كان العديد من المعلقين يحذرون الديمقراطيين من أن يتخيلوا أنهم قد حصلوا على تفويض بإجراء تغييرات كبرى. فأمريكا، كما ادعت قصة الغلاف لمجلة النيوزويك، هي "أمة يمين الوسط". وتَبرز قصة فشل بيل كلينتون في ١٩٩٣-١٩٩٤ في تمرير إصلاحاته للرعاية الصحية، رغم أن حزبه كان لديه أغلبية في الكونجرس، وهي أغلبية تقارب الأغلبية التي حققها الحزب بنتائج انتخابات عام ٢٠٠٨، كقصة تحذيرية.

والنظر بجدية في الدلائل التي تقدمها الاستطلاعات، على أية حال، يدحض ادعاء أن يمين الوسط يستحوذ على ولاءات المصوتين. وبينما من الصحيح أن معظم الأمريكيين من المحتمل أكثر أن يصفوا أنفسهم بأنهم محافظين وليس ليبراليين، ومثل هذه التسميات بدورها تصبحمضللة. فمن يصفون أنفسهم بأنهم معتدلون، وهي الفئة الأكبر، حينما يتم سؤالهم عن آرائهم في قضايا السياسة الواقعية، تتحول هذه الآراء بحيث لا يمكن تمييزها عن آراء هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأنهم ليبراليون. وتؤكد نتائج انتخابات ٢٠٠٨، التي كان الناخبون خلالها ينظرون لأوباما باعتباره ليبراليا ومع ذلك انتخبوه، على أية حال، أننا لسنا بلدا محافظا، بل نحن بلد يسار الوسط.

في هذا السياق، وفيما يتعلق بالأغلبية في الكونجرس، تتشابه الأرقام مع الأرقام التي حدثت في عام ١٩٩٣، ولكن الأمر يذهب لحدود أبعد من مجرد التشابه، فالأغلبية الديمقراطية القديمة كانت عبارة عن تحالف ضعيف بين ليبراليي الشمال ومحافظي الجنوب. بينما الأغلبية الجديدة هي أغلبية تقدمية متماسكة أكثر، ويرجع ذلك إلى حد كبير لتكون هذه الأغلبية على الرغم من اختفاء الديكسكراتيينDixiecrats[1] (يشير الكاتب هنا إلى أن محافظي الجنوب

(1) حزب الولايات الديمقراطي القويم (يطلق عليه عادة ديكسكراتس) كان حزبا انفصاليا قصير العمر في الولايات المتحدة، في عام 1948، لمعارضة ترشيح هنري ترومان للرئاسة. وقد نشأ الحزب نتيجة لانشقاق فصيل من الحزب الديمقراطي في عام 1948، وكان أعضاء هذا الفصيل قد عزموا على حماية ما يرون أنه أسلوب جنوبي في الحياة يتم تهديده باستمرار من قبل حكومة فيدرالية غاشمة، وكان مناصرو هذا الحزب يسيطرون على الحزب الديمقراطي جزئيا أو كليا في العديد من الولايات الجنوبية. وقد عارض مناصرو حزب الولايات الديمقراطي الاندماج العرقي وأرادوا الحفاظ على قوانين كرو، **وهي** القوانين الخاصة بالتمييز ضد الأمريكيين من أصل إفريقي، وكذا الحفاظ

الذيـن كانـوا ضمـن أسـباب تحقيـق الأغلبيـة الديمقراطيـة في الكونجـرس، في عـام 1993، لم يعـودوا ضمـن الأغلبيـة التـي حققهـا الديمقراطيـين عـام 2008-المترجـم). وفيـما اسـتحوذ الجمهوريـون عـلى الجنـوب خـسروا بقيـة البلـد، وتقلصـوا إلى حـد كونهـم مجـرد ردف جنـوبي، وهـو تطـور تـم التنبـؤ بـه في الفصـل العـاشر مـن هـذا الكتـاب. وتعـد مراهنـة طيبـة في الحقيقـة عـلى أن الجمهوريـين غـير الجنوبيـين المتبقـين في الكونجـرس، خاصـة في مجلـس الشـيوخ، سـوف يحاولـون إثبـات تأقلمهـم النسـبي خوفـا مـن احتـمالات عـدم تجديـد انتخابهـم. وسـوف يكـون لـدى بـاراك أوبامـا فرصـة أكـبر في وضـع أجنـدة تقدميـة موضـع التنفيـذ مقارنـة بمـا سـبق وفعلـه بيـل كلينتـون.

الأجندة

يجـادل هـذا الكتـاب بـأن إصـلاح نظـام الرعايـة الصحيـة ينبغـي أن يشـكل جوهـر أجنـدة الإدارة القادمـة[1]، أي أن تشـكل التغطيـة الصحيـة الشـاملة في الصفقـة الجديـدة الجديـدة مـا سـبق ومثلـه نظـام الضـمان الاجتماعـي في الصفقـة الجديـدة الأصليـة. والدفـاع عـن وضـع إصـلاح نظـام الرعايـة الصحيـة باعتبـاره مركـز أجنـدة تقدميـة جديـدة يعـد أقـوى مـما كان عليـه في أي وقـت مـضى. ولكـن عـلى أيـة حـال، سـوف تكـون لـدى الإدارة القادمـة مهمـة عاجلـة أخـرى: إنقـاذ الاقتصـاد.

في الأوقـات الاعتياديـة يقـع العـبء الأكـبر في محاربـة الركـود عـلى عاتـق السياسـة النقديـة، وهـي ميـدان لمجلـس غـير سـياسي إلى حـد كبـير، هـو مجلـس الاحتيـاط الفيـدرالي. ولكننـا، عـلى أيـة حـال، لا نعيـش في وقـت معتـاد، فعنـد نهايـة عـام 2008 خفـض المجلـس معـدلات الفائـدة التـي يتحكـم فيهـا إلى الصفـر تقريبـا، ورغـم ذلـك لم يتمكـن مـن جـذب الاقتصـاد خـارج دائـرة الهبـوط الحلـزوني. كـما فشـلت أيضـا خطـط الإنقـاذ المـالي المكثفـة للمؤسسـات الماليـة المضطربـة في إيقـاف انـزلاق الاقتصاد. وقـد تَـرك هـذا المجـال مفتوحـا، باعتبـار ذلـك هـو الخيـار السـياسي الوحيـد المتـاح،

عـلى التفـوق العرقـي الأبيـض في وجـه تدخـلات فيدراليـة محتملـة. وقـد أُسـمي أعضـاء هـذا الحـزب الديكسـكراتيين. (المترجـم)، انظـر:

Dixiecrats, Wikipedia, the free encyclopedia.

(1) الإشارة هنا بالطبع هي لإدارة باراك أوباما في فترتها الأولى التي بدأت في يناير 2009 (المترجم)

أمام خطط التحفيز المالي واسعة النطاق. وبعبارة أخرى، كان على إدارة أوباما أن تحاول استخدام الإنفاق الحكومي لانتشال أمريكا من الانهيار الاقتصادي.

ما الشكل الذي سيتخذه هذا الإنفاق؟ من المرجح أن يكون مركبا من الإنفاق على المشروعات العامة، وإعانات للعاطلين، والإعانات لحكومات الولايات والمحليات، ومجالات أخرى كثيرة. وسوف تكون المصاريف ضخمة، فقد طرح عدد من الاقتصاديين المستقلين تقديرات بأن الإنفاق الإضافي في عام 2009 وحده يجب أن يكون في حدود 500 مليار دولار أو أكثر. (تقديراتي الشخصية هي 600 مليار دولار).

ويملي هذا علينا السؤال التالي: هل تكلفة إنقاذ الاقتصاد تترك مجالا لبنود الأجندة المتعلقة بالأجل الطويل؟ وعلى وجه خاص، هل هذا يعد وقتا مناسبا للضغط من أجل الرعاية الصحية الشاملة؟ نعم.

وقد أفردت في الفصل الحادي عشر مكانا للحجج السياسية المؤيدة لإعطاء دفعة سريعة من أجل الرعاية الصحية باعتبارها حججا دامغة أكثر من أي وقت مضى. وفي الحقيقة، ربما من الممكن توصيفها بأنها أكثر من دامغة. وليس الأمر فقط متعلقا بأن الديمقراطيين ورائهم قوة دفع متولدة من الانتصار الانتخابي الكبير الذي حققوه. إذ مع فقدان ملايين العاملين الأمريكيين لوظائفهم، يكون قد جرى تدمير التأمين الصحي المرتبط بقاعدة التوظف بشكل واضح. وقد استخدم فرانكلين ديلانو روزفلت عدم استقرار الاقتصاد في الثلاثينات لكي يجادل بضرورة التأمين ضد البطالة والضمان الاجتماعي؛ ويمكن لخلفائه استخدام عدم استقرار الاقتصاد في القرن الحادي والعشرين للمجادلة بضرورة كفالة الرعاية الصحية.

وبينما على الديمقراطيين الدفع من أجل إقرار قانون إصلاح الرعاية الصحية في أقرب وقت ممكن، فلا يعني هذا أنه ينبغي على البرنامج أن يبدأ العمل فورا. في الواقع، لم يكن هذا أبدا جزءا من الخطة. فكل خطط الديمقراطيين للإصلاح مؤسسة على فرضية أن انتهاء أجل الإعفاءات الضريبية التي قدمها بوش، في عام 2010، سوف تقدم تمويلا لدعم تقديم التأمين الصحي للأمريكيين ذوي الدخل المنخفض. ولذا فيجب سن قانون إصلاح الرعاية الصحية في عام 2009 ولكنه سيوضع موضع التطبيق بعد نحو عامين. ويقدم هذا جوابا جزئيا على الأقل عن السؤال حول كيفية تحمل الأمة لكلفة كل من خطط حفز الاقتصاد الضخمة،

وإجراء إصلاح رئيسي في برنامج الرعاية الصحية. ولو مضت كل الأمور بشكل طيب فسيكون الاقتصاد في طريقه للانتعاش، ولن يكون بحاجة للمزيد من الدعم للإبقاء عليه حيا حينما يتم إطلاق العمل بإصلاح برنامج الرعاية الصحية.

هل سيكون حقا بوسعنا فعل كل هذا؟ أي هل يمكننا إنقاذ الاقتصاد، ووضع الرعاية الصحية الشاملة لأمريكا موضع التطبيق، وجعل الأمة بذلك وبالأساس أمة أكثر ديمقراطية؟ نعم، يمكننا ذلك. ففي وقتنا الحالي تعد آفاق تحقيق تحول درامي تقدمي في السياسة الأمريكية، وفي إعادة التأكيد الجسورة على القيم الليبرالية، اتضح أن فرصها أفضل حتى من اعتقادي الشخصي عما يمكن أن تكون عليه عند ذهاب طبعة هذا الكتاب ذات الغلاف المقوى للمطبعة. فالصفقة الجديدة الجديدة تبدأ الآن.

الفصل الأول
ما كنا عليه

ولـدت عـام 1953. وقـد تعاملـت مـع أمريـكا التـي نشـأت وترعرعـت فيهـا، كأمـر مسـلم بهفـي الواقـع، مثـل العديديـن مـن أبنـاء جيـلي، قمـت بشـجب مظاهـر عـدم العدالـة الحقيقيـة جـدا لمجتمعنـا، وقـد تظاهـرت ضـد قصـف كمبوديـا، وذهبـت مـن بـاب لبـاب دعـما لتأييـد المرشـحين السياسـيين الليبراليـين. ويمكـن بأثـر رجعـي فقـط القـول إن البيئـة الاقتصاديـة والسياسـية لشـبابي تكشـف عـن أنهـا كانـت جنـة مفقـودة، حلقـة اسـتثنائية في تاريـخ أمتنـا.

فأمريـكا في فـترة مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة كانـت، فـوق أي شيء آخـر، مجتمعـا للطبقـة الوسـطى. فالارتفـاع الكبـير في الأجـور الـذي بـدأ مـع نشـوب الحـرب العالميـة الثانيـة رفـع عـشرات الملايـين مـن الأمريكيـين -بمـن في هـؤلاء والداي-مـن العشـوائيات الحضريـة والفقـر الريفـي إلى حيـاة تمتلـك فيهـا الأسرة منزلهـا، وبوسـائل راحـة غـير مسـبوقة. وكان الأغنيـاء، مـن جهـة أخـرى، قـد تراجعـت مكانتهـم، فقـد كان عددهـم محـدودا، كـما كانـوا قياسـا إلى الطبقـة الوسـطى المزدهـرة لا يعـدون أغنيـاء جـدا. وكان الفقـراء أكـثر مـن حيـث العـدد مقارنـة بالأغنيـاء، ولكنهـم كانـوا لا يزالـون

أقليـة صغـيرة نسـبيا. ونتيجـة لـكل هـذا، كان هنـاك إحسـاس غالـب بقواسـم مشـتركة اقتصاديـة، كان معظـم النـاس في أمريـكا يعـون أنهـم يتمتعـون بنفـس المسـتوى مـن الحيـاة الماديـة الطيبـة بشـكل ملحـوظ.

وكانـت المسـاواة في اقتصادنـا قـد ترافقـت مـع اعتـدال في سياسـتنا. فخـلال معظـم -وليـس كل- فـترة شـبابي كان هنـاك توافـق عريض بـين الديمقراطيـين والجمهوريين حول السياسـة الخارجيـة، والعديـد مـن أوجـه السياسـة الداخليـة. فلـم يعـد الجمهوريـون ينزعـون إلى إلغاءإنجـازات الصفقـة الجديـدة؛ إلى حـد أن عـددا معقـولا منهـم أيـد برنامـج الرعايـة الصحيـة. وكانـت الثنائيـة الحزبيـة[1] تعنـي حقيقـة شيء مـا.

عـلى الرغـم مـن الاضطـراب الناجـم عـن حـرب فيتنـام والعلاقـات العرقيـة، وعـلى الرغـم مـن مؤامـرة نيكسـون[2] وأتباعـه المخلصـين الكريهـة، كانـت العمليـة السياسـية الأمريكيـة محكومـة معظـم الوقـت بتحالـف ثنـائي الحزبيـة لرجـال متفقـين عـلى القيـم الأساسـية.

وأي شـخص لديـه معرفـة بالتاريـخ يعلـم أن أمريـكا لم تكـن دائمـا عـلى هـذا النحو، إذ إننـا كنـا ذات يـوم أمـة معروفـة بعـدم المسـاواة الاقتصاديـة المتسـعة، ومخربـة بتحـزب سـياسي مريـر. ومـن وجهـة نظـر سـنوات مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، عـلى أيـة حـال، بـدا مـاضي أمريـكا المتسـم بعـدم المسـاواة المفرطـة، وبالتحـزب الفـظ، كأنـه أمـر عابـر، وطـور غـير ناضـج، وجـزء مـن خشـونة أمـة تمـر بالمراحـل الأولى في عمليـة التصنيـع. أمـا الآن فقـد نضجـت أمريـكا، وفقـا لاعتقادنـا، بحيـث يعـد المجتمـع الـذي يتمتـع نسـبيا بالمسـاواة مـع طبقـة وسـطى قويـة ومشـهد سـياسي رصـين هـو حالتهـا العاديـة.

خـلال الثمانينـات، عـلى أيـة حـال، أصبـح واضحـا بشـكل تدريجـي أن تطـور أمريـكا نحـو مجتمـع طبقـة وسـطى، وسياسـيا أمـة طريـق الوسـط، لم يكـن هـو

---

(1) أي النظـام السـياسي القائـم عـلى حزبـين رئيسـيين هـما الحـزب الديمقراطـي والحـزب الجمهـوري (المترجـم).

(2) يشـير الكاتـب هنـا إلى فضيحـة التجسـس عـلى الحـزب الديمقراطـي في عـام 1972 والتـي نسـبت للرئيـس الأمريـكي نيكسـون وأتباعـه، وهـي الفضيحـة المعروفـة باسـم "فضيحـة ووترجيـت" وقـد أرغمـت هـذه الفضيحـة الرئيـس نيكسـون، في النهايـة، عـلى تقديـم اسـتقالته في أغسـطس 1974 بعـد أن أيقـن بأن غالبيـة الكونجـرس سـتصوت لصالـح عزلـه مـن منصبـه (المترجـم).

نهاية القصة. فقد بدأ الاقتصاديون يوثقون ارتفاعا حادا في عدم المساواة، حيث تم جذب عدد قليل من الناس للأمام كثيرا، بينما معظمالأمريكيين إما شهدوا قليلا من التقدم الاقتصادي،وإما لم يشهدوا أي تقدم على الإطلاق. وبدأ علماء السياسة يوثقون ارتفاعا في الاستقطاب السياسي: تم جذب السياسيين إلى النهايات الطرفية على مقياس يمين-يسار، وأصبح من الممكن بشكل متزايد استخدام مصطلحي "الديمقراطيين" و"الجمهوريين" باعتبارهما مرادفين لمصطلحي "الليبراليين" و"المحافظين". واستمرت هذه الاتجاهات حتى وقتنا الراهن، فعدم المساواة في الدخل يعد مرتفعا مثلما كان عليه في العشرينات[1] أما الاستقطاب السياسي فهو مرتفع كما لم يكن عليه قط في أي وقت من الأوقات.

وقصة ارتفاع الاستقطاب السياسي لا تعود إلى أن كلا من الحزبين يتحرك نحو النهايات المتطرفة. فمن الصعب البرهنة على أن الديمقراطيين قد تحركوا بشكل ملحوظ نحو اليسار، ففيما يخص القضايا الاقتصادية من الرفاهة، وحتى الضرائب، يمكن المجادلة بأن بيل كلينتون لم يحكم فقط على يمين جيمي كارتر، بل وعلى يمين ريتشارد نيكسون. وعلى الجانب الآخر من الواضح أن الجمهوريين قد تحركوا نحو اليمين: قارن فقط المحافظية المتطرفة لجورج بوش باعتدال جيرالد فورد. في الواقع، بعض سياسات بوش-مثل محاولته التخلص من الضريبة العقارية-لا تأخذ أمريكا للخلف فقط إلى حيث الطريق الذي كنا عليه قبل الصفقة الجديدة. إنها تأخذنا إلى الطريق الذي كنا عليه قبل الحقبة التقدمية.[2]

---

(1) الكثير مما نعرفه اليوم عن الاتجاهات طويلة المدى في عدم المساواة يعود الفضل فيه إلى العمل الرائد لتوماس بيكتي وإيمانويل سيز
"Income Inequality in the United States, 1913-1998," Quarterly Journal of Economics 118, no. 1 (Feb, 2003), pp. 1-39.

(2) كانت الحقبة التقدمية هي فترة من النشاطية الاجتماعية الواسعة النطاق ومن الإصلاح السياسي عبر الولايات المتحدة، وقد امتدت هذه الفترة بين تسعينات القرن التاسع عشر وعشرينات القرن العشرين. وكان الهدف الرئيسي للحركة التقدمية هو التخلص من الفساد في الحكومة. وقد استهدفت الحركة بشكل أساسي الماكينات السياسية ورؤساءها. فمع التخلص من الممثلين الفاسدين في الحكومة سوف يتم تأسيس أساليب أكثر للديمقراطية المباشرة. كما استهدفت الحركة أيضا تنظيم الاحتكارات والشركات من خلال قوانين مناهضة الاحتكار. وتم النظر لهذه القوانين باعتبارها طريقة لحفز المنافسة المتكافئة لمصلحة متنافسين شرعيين. (المترجم(، انظر:
Progressive Era, Wikipedia, the free encyclopedia.

وإن كان لنـا أن نلقـي نظـرة أطـول مـدى، فسـنجد أن البدايـة والنهايـة لحقبـة الثنائيـة الحزبيـة تعكـس تغـيرات أساسـية في الحـزب الجمهـوري. فقـد بـدأت الحقبـة حينـما تقاعـد الجمهوريـون الذيـن عارضـوا بشـكل مريـر الصفقـة الجديـدة أو اعترفـوا بالهزيمـة واستسـلموا. وبعـد الانتصـار القلـق لهـاري ترومـان في انتخابـات عـام 1948، قامـت قيـادات الحـزب الجمهـوري بالتصالـح مـع فكـرة أن الصفقـة الجديـدة موجـودة هنـا لتسـتمر، ومـن أجـل الحفـاظ سياسـيا عـلى الكيـان توقفـوا عـن محاولـة إعـادة عقـارب السـاعة للـوراء لفـترة العشرينـات. وجـاءت نهايـة حقبـة الثنائيـة الحزبيـة وظهـور حقبـة جديـدة مـن التحـزب المريـر حينـما تـم الاسـتيلاء عـلى الحـزب الجمهـوري عـن طريـق قـوة جديـدة راديكاليـة في السياسـة الأمريكيـة، هـي الحركـة المحافظيةالتـي سـوف تلعـب دورا كبـيرا في هـذا الكتـاب. وقـد بلـغ التحـزب أوجَـهُ بعـد انتخابـات عـام 2004، حينـما حـاول بـوش المنتـصر تفكيـك الضـمان الاجتماعـي، درة تـاج مؤسسـات الصفقـة الجديـدة.

ولهـذا كان هنـاك، إذن، قوسـان عظيـمان في التاريـخ الأمريـكي الحديـث: قـوس اقتصـادي مـن عـدم المسـاواة الشـديدة إلى المسـاواة النسـبية ثـم العـودة مـرة أخـرى لعـدم المسـاواة، وقـوس سـياسي مـن الاسـتقطاب المتطـرف إلى الثنائيـة الحزبيـة ثـم العـودة للاسـتقطاب مـرة أخـرى. ويتحـرك هـذان القوسـان بالتـوازي، فالعـصر الذهبـي للمسـاواة الاقتصاديـة كان يتطابـق تقريبـا مـع العـصر الذهبـي للثنائيـة الحزبيـة السياسـية. وكـما عبر عـن ذلـك علـماء السياسـة نـولان مـكارتي، وكيـث بـوول، وهـوارد روزنتـال، فالتاريـخ يشـير إلى أن هنـاك نوعـا مـن "الرقـص" حيـث تتحـرك عدم المسـاواة الاقتصاديـة مـع الاسـتقطاب السـياسي كأنهـما شيء واحـد[1]. وقـد اسـتخدموا أسـاليب فنيـة إحصائيـة معقـدة مـن تتبـع المواقـف السياسـية لأعضـاء الكونجـرس. وتظهـر بياناتهـم أن الجمهوريـين تحركـوا نحـو اليسـار، بحيـث صـاروا أقـرب مـن الديمقراطيـين، حينـما انخفـض عـدم المسـاواة في الدخـل، وهـو مـا أنتـج الثنائيـة الحزبيـة في الخمسـينات والسـتينات. ثـم تحـرك الجمهوريـون يمينـا، وخلقـوا التحـزب المريـر الـذي نعيشـه اليـوم، مـع زيـادة عـدم المسـاواة في الدخـل. ولكـن مـا الـذي يجعـل شريـكي الرقـص يبقيـان معـا؟

(1) Nolan McCarty, Keith Poole, and Howard Rosenthal, Polarized America: The Dance of Ideology and Unequal Riches (MIT Press, 2006).

أحد الاحتمالات هو أن عدم المساواة يأخذ الدور القيادي، أي، ومع تغيير المجازات، يتجه سهم السببية من الاقتصاد إلى السياسة. ووفقا لهذه الرؤية فقصة السنوات الثلاثين الأخيرة سوف تجري على النحو التالي: تتسبب القوى غير الشخصية مثل التغير التكنولوجي والعولمة في أن يصبح توزيع الدخل الأمريكي غير متساو بشكل متزايد، حيث تبتعد أقلية نخبوية عن بقية السكان. وقد اختار الحزب الجمهوري أن يلبي مصالح هذه النخبة الصاعدة، ربما بسبب أن ما تفتقر إليه هذه النخبة من حيث العدد، تعمل على تعويضه عبر قدرتها واستعدادها لدفع مساهمات ضخمة في الحملات السياسية. وهكذا فقد تم فتح فجوة بين الحزبين، حيث أصبح الحزب الجمهوري حزب الفائزين من عدم المساواة الآخذ في النمو، بينما يمثل الديمقراطيون هؤلاء الذين تخلفوا.

وهذه، تقريبا، القصة التي آمنت بها حينما شرعت في العمل على هذا الكتاب. وهناك بشكل واضح بعض ما يبررها. فعلى سبيل المثال، إلقاء نظرة أكثر قربا على الحملات السياسية لإلغاء الضريبة العقارية، تبين أنه تم تمويلها إلى حد كبير من حفنة قليلة من العائلات التي لديها عقارات ضخمة تحاول حمايتها. بينما منذ أربعين عاما مضت لم تكن هناك عقارات ضخمة كثيرة، وكان فاحشو الثراء في البلد، وفي الوضع الذي كانوا عليه آنذاك، لا يعدون أغنياء بشكل كاف لتمويل مثل هذا النوع من الحملات. ولهذا تبين هذه الحالة كيف ساعدت الزيادة في عدم المساواة على جذب الجمهوريين نحو اليمين.

ولهذا فقد بِت مقتنعا بشكل متزايد بأن الكثير من السببية تتجه في الاتجاه الآخر، أي أن التغير السياسي في هيئة ارتفاع في الاستقطاب يعد سببا رئيسيا لزيادة عدم المساواة. ولذا، فأنا أقترح قصة بديلة للسنوات الثلاثين الأخيرة تجري على النحو التالي: خلال السبعينات، كان عزم راديكاليي اليمين على التراجع عن منجزات الصفقة الجديدة قد استولى على الحزب الجمهوري، وهو ما فتح فجوة مع الديمقراطيين الذين أصبحوا المحافظين الحقيقيين، والمدافعين عن مؤسسات المساواة القائمة منذ أمد طويل. وقد أدى تمكين اليمين المتشدد إلى تشجيع مجتمع الأعمال على تدشين هجوم شامل على الحركة النقابية، وخفض القدرة التفاوضية للعمال بشكل جذري؛ وحرر المديرين التنفيذيين في قطاع الأعمال من القيود السياسية والاجتماعية التي وضعت في السابق حدودا على انطلاق رواتب

المديريـن التنفيذيـين، وخفـض بشـكل حـاد معـدلات الضرائـب عـلى الدخـول العاليـة، وعـدد مـن الطـرق الأخـرى المتنوعـة التـي سـاهمت في تعزيـز زيـادة عـدم المسـاواة.

الاقتصاد الجديد لعدم المساواة

هـل يمكـن أن يكـون للبيئـة السياسـية حقـا مثـل هـذا الـدور الحاسـم في تقريـر عـدم المسـاواة الاقتصاديـة؟ يبـدو هـذا كأنـه هرطقـة اقتصاديـة، ولكـن هنـاك نمـوا كبـيرا في البحـث الاقتصـادي الـذي يشـير إلى إمكانيـة ذلـك. وسـوف أركـز عـلى أربعـة نمـاذج كدلائـل عـلى هـذا.

أولا، حينـما ذهـل الاقتصاديـون مـن زيـادة عـدم المسـاواة، بـدأوا بالنظـر للـماضي في أصـل الطبقـة الوسـطى الأمريكيـة، فاكتشـفوا -وكان هـذا أمـرا فاجأهـم- أن الانتقـال مـن عـدم المسـاواة في أثنـاء العـصر المُذهَّـب إلى المسـاواة النسـبية، في عـصر مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، لم يكـن تطـورا تدريجيـا. فعـلى النقيـض، تـم خلـق مجتمـع الطبقـة الوسـطى الأمريكيـة بعـد الحـرب في غضـون سـنوات قلائـل، وذلـك عـن طريـق سياسـات إدارة روزفلـت، خاصـة مـن خـلال التحكـم في الأجـور خـلال فـترة الحـرب. وقـد أطلـق المؤرخـان الاقتصاديـان كلوديـا جولديـن وروبـرت مارجـو، -وكانـا أول مـن وثَّـق هـذه الحقيقـة المفاجئـة- عـلى هـذه الظاهـرة اسـم الانضغـاط العظيـم.[1] والآن، فربمـا تتوقـع أن عـدم المسـاواة سـيعود للإينـاع مجـددا ليرجـع لمسـتوياته السـابقة فـور التخلـص مـن التحكـم في الأجـور. ولكـن انتهـى الوضـع، عـلى أيـة حـال، إلى اسـتمرار العدالـة النسـبية في توزيـع الدخـل التـي ابتدعهـا فرانكلـين ديلانـو روزفلـت لأكـثر مـن ثلاثـين عامـا. ويشـير هـذا بقـوة إلى أن المؤسسـات، والأعـراف، والبيئـة السياسـية لهـا شـأن في تقريـر توزيـع الدخل-بينـما قـوى السـوق المجهولـة أقـل شـأنا-أكبر مـما قـد توحـي بـه مقـررات دراسـة الاقتصـاد في السـنة الجامعيـة الأولى.

ثانيـا، إن توقيـت التغـيرات السياسـية والاقتصاديـة تشـير إلى أن السياسـة، لا الاقتصـاد، لهـا دور القيـادة في هـذا المقـام. فلـم يكـن هنـاك ارتفـاع كبـير في عـدم

(1) Claudia Goldin and Robert Margo, "The Great Compression: The Wage Structure in the United States at Mid-Century," Quarterly Journal of Economics, 107, no. 1 (1992), p. 1-34.

المساواة بالولايات المتحدة حتى الثمانينات، فحتى وقت متأخر يصل إلى عام 1983 أو 1984 كان لا يزال هناك بعض المشروعية للمجادلة بما إذا كانت البيانات تظهر انقطاعا واضحا في الاتجاه الخاص بعدم المساواة. ولكن استيلاء الجناح اليميني على الحزب الجمهوري حدثت في منتصف السبعينات، ومؤسسات الحركة المحافظية التي جعلت مثل هذا الاستيلاء ممكنا، ظهرت في حيز الوجود إلى حد بعيد في بداية السبعينات. لهذا يشير التوقيت بقوة إلى أن التغير السياسي نحو الاستقطاب قد أتى أولا، وأن تزايد عدم العدالة الاقتصادية جاء في أعقابه.

ثالثا، بينما اعتاد أغلب الاقتصاديين على التفكير في أن التغير التكنولوجي الذي من المفترض أن يزيد من الطلب على العمال الأكثر تعليما، ويقلل من الطلب على العمال الأقل تعليما، هو السبب الأساسي في تزايد عدم العدالة الأمريكية، ولكن هذا الاعتقاد التقليدي ذبل تدريجيا مع نظر الباحثين نظرة أكثر عمقا في البيانات. وربما كانت الملاحظة اللافتة أكثر هي أنه حتى بين الأمريكيين المتعلمين تعليما عاليا، نجد أن معظمهم لم يشهد مكاسب كبيرة في الدخل. وكان الرابحين الأكبر، عوضا عن ذلك، أعضاء نخبة ضيقة للغاية: نسبة الـ1% أو أقل من السكان المتربعين على القمة. ونتيجة لهذا فقد كان هناك إحساس ينمو بين الباحثين بأن التكنولوجيا ليست هي القصة الرئيسية. وبدلا من ذلك، تحول العديد من الاقتصاديين للاعتقاد بأن التآكل في الأعراف الاجتماعية والمؤسسات التي اعتادت تشجيع المساواة، ومدفوعة في نهاية المطاف بالتحول في اتجاه اليمين في السياسة الأمريكية، هي التي لعبت الدور الحاسم في تصاعد عدم المساواة[1].

أخيرا، تقدم المقارنات الدولية نوعا من اختبارات التحكم. فالتحول الحاد تجاه اليمين في السياسة الأمريكية كان فريدا بين الدول المتقدمة. فبريطانيا التاتشرية[2]،

(1) انظر بشكل خاص

Ian Dew- Becker and Robert Gordon, "Where Did the Productivity Growth Go?" Inflation Dynamics and Distribution of Income," Brookings Paper on Economics Activities, no. 2 (2005), pp. 67-127, and Frank Levy and Peter Temin, "Inequality and Institutions in the 20th-Century America" (MIT Department of Economics working papers, no 07-17, June 2007).

(2) نسبة إلى رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر التي تزعمت حزب المحافظين البريطاني بين عامي 1975 و1990 وهي المرأة الوحيدة حتى ذلك الوقت التي تقلدت منصب رئيس الوزراء،

وهـي الأكـثر قربـا عنـد المقارنـة بأمريـكا، كانـت عـلى الأغلـب مجـرد انعـكاس باهـت. بينـما قـوى التغـير التكنولوجـي والعولمـة، عـلى النقيـض، أثـرت عـلى كل شـخص. وإذا مـا كان للارتفـاع في عـدم المسـاواة جـذور سياسـية تبرزالولايـات المتحـدة، بينـما لـو كان الأمـر يرجـع بشـكل رئيـسي إلى قـوى السـوق المجهولـة، كان ينبغـي لاتجاهـات عـدم المسـاواة أن تكـون متماثلـة في كل أرجـاء العـالم المتقـدم. والحقيقـة هـي أن التزايـد في عـدم المسـاواة في الولايـات المتحـدة لم يكـن لـه نظـير في أي مـكان آخـر في العـالم المتقـدم. فخـلال سـنوات حكـم تاتـشر شـهدت بريطانيـا ارتفاعـا حـادا في تفـاوت الدخـل، ولكنـه لم يكـن مقاربـا للارتفـاع الحـادث في عـدم المسـاواة هنـا، كـما أن عـدم المسـاواة ارتفـع بشـكل معتـدل في كل أرجـاء القـارة الأوروبيـة واليابـان.[1]

يبدو التغير السياسي إذن في قلب القصة. فكيف حدث هذا التغير السياسي؟

سياسة عدم المساواة

ترجـع قصـة كيـف انتهـى الأمـر إلى أن يديـر البـلاد جـورج بـوش وديـك تشـيني إلى نحـو نصـف قـرن مـضى، للسـنوات التـي كانـت فيهـا مجلـة الوطنيـة "ناشـيونال ريفيـو"، وكان محررهـا هـو ويليـام ف. بـاكلي الصغـير، تدافـع عـن حـق الجنـوب في حرمـان السـود مـن التصويت-"المجتمـع الأبيـض يحـق لـه ذلـك، لأنـه في الوقـت الحالي، هـو العـرق المتقدم"-ومـدح الجـنرال فرانشيسـكو فرانكـو[2] الـذي أطـاح بالحكومـة المنتخبـة ديمقراطيـا باسـم الكنيسـة والملكيـة الخاصـة باعتبـاره "بطـلا وطنيـا أصيـلا".

وامتدت خدمتها في هذا المنصب بين عامي 1979 و1990. (المترجم)

(1) Thomas Piketty and Emmanuel Saez, "The Evolution of Top Incomes: A Historical and International Perspective" (National Bureau of Economic Research working paper no. 1195, Jan. 2006).

(2) جـنرال في الجيـش الإسـباني قـام في 18 يوليـو 1936 بانقـلاب عسـكري ضـد حكـم الجبهـة الشـعبية التـي كانـت تحكـم إسـبانيا وكانـت تتكـون مـن الديمقراطيـين والاشـتراكيين، وقـد قاومـت الجمهوريـة الإسـبانية الثانيـة هـذا الانقـلاب، ومـن هنـا بـدأت الحـرب الأهليـة الإسـبانية، واسـتمرت حتـى عـام 1939 وبلـغ عـدد ضحاياهـا نصـف مليـون شـخص. وانتهـت الحـرب بانتصـار فرانكـو بمسـاعدة أساسـية مـن هتلـر وموسـوليني، ليحكـم إسـبانيا حكـما ديكتاتوريـا لمـدة سـتة وثلاثـين عامـا متواصلـة حتـى تـوفي في عـام 1975. (المترجـم: نقـلا عـن موسـوعة ويكيبيديـا، مـادة فرانشيسـكو فرانكـو)

وهـذه الحركـة الصغـيرة التـي عرفـت فيـما بعـد بــ"المحافظيـة الجديـدة" كانـت إلى حـد كبـير، رد فعـل عـلى قـرار دوايـت أيزنهـاور[1] وقـادة جمهوريـين آخريـن بصنـع السـلام مـع مـيراث فرانكلـين ديلانـو روزفلـت.

ومـع مـرور الأعـوام نمـت هـذه الحركـة الصغـيرة إلى قـوة سياسـية جبـارة، وهـي الحركـة التـي أطلـق عليهـا كل مـن داعميهـا ومناهضيهـا "الحركـة المحافظيـة". إنهـا شـبكة مـن البـشر والمؤسسـات التـي تمتـد لأبعـد بكثـير مـما يعتـبر عـادة حياة سياسـية، فإضافـة إلى الحـزب الجمهـوري والساسـة الجمهوريـين، تشـمل الحركـة المحافظيـة منظـمات إعلاميـة، ومراكـز أبحـاث، ودور نـشر، وغيرهـا. وبإمـكان البشربالفعـل قضـاء حياتهـم المهنيـة بالكامـل داخـل هـذه الشـبكة، باطمئنـان، لمعرفتهـم أن الولاء السـياسي سـوف تتـم مكافأتـه بـصرف النظـر عـما يمكـن أن يحـدث. فالليـبرالي الـذي شـن حربـا بطريقـة خرقـاء، ثـم انتهـك القواعـد الأخلاقيـة لـكي يكافـئ عشـيقته، ربمـا يكـون قلقـا حـول احتـمالات مسـتقبله الوظيفـي؛ بينـما وجـد بـول وولفيتـز كرسـيا في انتظـاره في معهـد المبـادرة الأمريكيـة American Enterprise Institute.

وذات مـرة مـن المـرات كان هنـاك عـدد معقـول مـن السياسـيين الجمهوريـين الذيـن لم يكونـوا ضمـن حركـة المحافظـين، ولكـن عـددا ضئيـلا منهـم فقـط هـو المتبقـي، ويرجـع هـذا لحـد بعيـد إلى كـون الحيـاة أصبحـت صعبـة للغايـة بالنسـبة لهـؤلاء الذيـن لا يعـدون جديريـن بالثقـة سياسـيا. فقـط عليكـم سـؤال لينكولـن شـافي، السيناتور السـابق المعتـدل مـن ولايـة رود أيلانـد، والـذي واجـه تحديـا بغيضـا في الانتخابـات داخـل الحـزب مـن قبـل اليمـين في عـام 2006 مـا أدى إلى هزيمتـه

---

(1) دوايـت دايفيـد أيزنهـاور(14 أكتوبـر 1890-28 مـارس 1969): سـياسي وعسـكري أمريـكي، والرئيـس رقـم 34 للولايـات المتحـدة خـلال الفـترة مـن 1953 إلى 1961. شـغل منصـب القائـد الأعـلى لقـوات الحلفـاء في أوروبـا خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة، ثـم أصبـح أول قائـد أعـلى لقـوات حلـف شـمال الأطلنطـي.

أعـاد تنظيـم ميزانيـة الدفـاع الأمريكيـة للتركيـز عـلى الأسـلحة النوويـة، وأطلـق سـباق الفضـاء، ووسـع نظـام الضـمان الاجتماعـي، وبـدأ في إنشـاء نظـم الطـرق السريعـة بـين الولايـات. مـن أقوالـه المأثـورة "إن كل بندقيـة تصنـع وكل سـفينة حربيـة تدشـن، وكل صـاروخ يطلـق، هـو في الحسـابات الأخـيرة عمليـة سرقـة للقمـة العيـش مـن فـم الجيـاع، ومـن أجسـاد الذيـن يرتجفـون مـن شـدة البـرد ويحتاجـون إلى الكسـاء". (المترجـم): نقـلا عـن موسـوعة ويكبيديـا، مـادة "دوايـت أيزنهـاور".

في الانتخابـات العامـة، عـلى الرغـم مـن أنـه كان مـن الواضـح أن الجمهوريـين ربمـا يحتاجونـه بشـدة للإبقـاء عـلى سـيطرتهم عـلى مجلـس الشـيوخ.

والمـال هـو صمـغ الحركـة المحافظيـة، وهـو مـا يتـم تمويلـه لدرجـة كبـيرة عـن طريـق حفنـة مـن الأفـراد شـديدي الـثراء، وعـدد مـن الـشركات الكـبرى، وجميعهـم متأهبـون للكسـب مـن تزايـد عـدم المسـاواة، ولنهايـة الضرائـب التصاعديـة، والتراجـع عـن دولـة الرفـاه، وباختصـار، متأهبـون لإبطـال الصفقـة الجديـدة. إن إعـادة عقـارب السـاعة للـوراء فيـما يتعلـق بالسياسـات الاقتصاديـة، وفي قلبهـا تلـك السياسـات التـي تحـد مـن عـدم المسـاواة، هـو كل مـا تعنيـه الحركـة المحافظيـة. وأفـضى ذات مـرة جروفـر نوركويسـت، وهـو ناشـط معـارض لفـرض الضرائـب، وواحـد مـن الشـخصيات المحوريـة في الحركـة المحافظيـة، بأنـه يريـد أن يرجـع بأمريـكا لمـا كانـت عليـه حتـى "مـا قبـل تيـدي روزفلـت، حينـما اسـتولى الاشـتراكيون عـلى الحكـم. ضريبـة الدخـل، ضريبـة المـوت[1]، القواعـد التنظيميـة، كل هـذا."[2]

ولأن الحركـة المحافظيـة في نهايـة المطـاف تعنـي الرجـوع عـن السياسـات التـي تـضر بنخبـة ثريـة ضيقـة، فهـي في الواقـع ضـد الديمقراطيـة. ولكـن مهـما كان إعجـاب الكثيريـن مـن مؤسـسي الحركـة بالطريقـة التـي أدار بهـا الجـنرال فرانكـو الأمـور، ففـي أمريـكا يجـري المسـار نحـو السـلطة السياسـية عـبر الانتخابـات. ولـن يكـون ممكنـا تدفـق مثـل هـذا الكـم مـن الأمـوال فيـما لـو كان المانحـون المحتملـون لا يزالـون يؤمنـون، وكانـت لديهـم كل الأسـباب لذلـك في أعقـاب الهزيمـة السـاحقة لبـاري جولدووتـر[3] في عـام 1964، بـأن الدعـوة للسياسـات الاقتصاديـة التـي تزيـد مـن عـدم المسـاواة هيتخـلٍ عـن المنافسـة السياسـية قبـل أن تبـدأ. وقـد انتقلـت

(1) التعبير الأمريكي لضريبة التركات (المترجم)

(2) William Greider, "Rolling Back the 20th Century," The Nation (May 12, 2003).

(3) بـاري موريـس جولدووتـر، سـياسي ورجـل أعـمال أمريكي،مرشـح الحـزب الجمهـوري في انتخابـات الرئاسـة عـام 1964 إذ خـسر الانتخابـات بفـارق كبـير أمـام المرشـح الديمقراطـي لينـدون جونسـون. وغالبـا مـا يُنسـب إلى جولدووتـر أنـه مـن أطلـق شرارة الحركـة المحافظـة الأمريكيـة في السـتينات وكان معارضا لمـيراث الصفقـة الجديـدة، وحـارب مـن خـلال تحالـف للمحافظـين تحالـف الصفقـة الجديـدة. يعـد أيضـا أول أمريـكي مـن أصـول يهوديـة يكسـب تأييـد أحـد الأحـزاب الكبـيرة للترشـح لانتخابـات الرئاسـة. (المترجـم) انظـر:

Barry Goldwater, Wikipedia, the free encyclopedia.

الحركة المحافظية من مكانة الجماعة الهامشية إلى صاحبة دور مركزي في السياسة الأمريكية، لأنها أثبتت ذاتها بقدرتها على كسب الانتخابات.

وقد أشار رونالد ريجان، أكثر من أي شخص آخر، إلى هذا الطريق، كما في حديثه عام 1964 "وقت الاختيار" الذي دشن سيرته السياسية، وكذلك في الأحاديث التي أدلى بها خلال حملته الناجحة عام 1966 للتنافس على منصب حاكم ولاية كاليفورنيا والتي أنذرت بإستراتيجيات سياسية ستعمل لمصلحته ومصلحة الآخرين في حركة المحافظين خلال الأربعين عاما اللاحقة. وفي فترة زمنية لاحقة رسم كُتاب سير القديسين[1] لريجان صورة النموذج المثالي لشخص ذي مبادئ محافظة سامية، ولكنه لم يكن قط شخصا من هذه النوعية. فنجاحه السياسي المبكر كان يقوم على قاعدة جاذبيته للجذع الثقافي والجنسي، باللعب على المخاوف من الشيوعية، وفوق كل شيء آخر، بالاستغلال الضمني لردة الفعل البيضاء ضد حركة الحقوق المدنية[2] وما ترتب عليها.

وواحدة من الرسائل الرئيسية لهذا الكتاب، وقد لا يرتاح لها العديد من القراء، أن العرق يقع في قلب ما حدث للبلد الذي ترعرعت فيه. فميراث العبودية، الخطيئة الأمريكية الأصلية، هو السبب أننا البلد المتقدم اقتصاديا الوحيد الذي لا يؤمن الرعاية الصحية لمواطنيه. وردة الفعل البيضاء ضد حركة الحقوق المدنية، هي السبب في أن أمريكا تعد البلد المتقدم الوحيد الذي يوجد به حزب سياسي كبير يريد أن يتراجع عن دولة الرفاه. بدأ رونالد ريجان حملته الانتخابية عام 1980 بحديث عن حقوق الولايات وذلك من خارج ولاية فيلادلفيا، المسيسبي، المدينة التي اغتيل فيها ثلاثة من العاملين في حركة الحقوق المدنية. وكان نيوت جينجريتش[3] قادرا على الاستيلاء على الكونجرس كلية بسبب الانقلاب الجنوبي

(1) الكاتب يسخر هنا من بعض من تصدوا لكتابة السيرة الذاتية لرونالد ريجان (المترجم).

(2) حركة الحقوق المدنية هي حركة اجتماعية في الولايات المتحدة كان هدفها تجريم التمييز العنصري ضد الأمريكيين السود، وإعادة حق التصويت لهم. كان أبرز نشاط لهذه الحركة بين عامي 1955 و1968 وخاصة في جنوبي الولايات المتحدة. (المترجم) نقلا عن موسوعة ويكيبيديا، مادة "حركة الحقوق المدنية".

(3) سياسي شغل منصب رئيس مجلس النواب في الفترة 1999-1995، ترشح للانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية 2012، ودعمه المحافظون في الحزب الجمهوري وكذلك حركة حزب الشاي بالمال والأصوات. (المترجم) نقلا عن: ويكيبيديا، مادة "نيوت جينجريتش".

العظيم، مع التحول في موقف البيض الجنوبيين من التأييد الكاسح للديمقراطيين إلى التأييد الكاسح للجمهوريين.

الصفقة الجديدة الجديدة

بعد انتخابات عام 2004 بأشهر قليلة، وضعت تحت بعض الضغط من زملاء صحفيين قالوا إن علي أن أتوقف عن إهدار وقت طويل في انتقاد إدارة بوش، والمحافظين بشكل أكثر عمومية. لقد قيل لي إن "الانتخابات رسخت بعض الأشياء"، وعند النظر للماضي بأثر رجعي، على أية حال، تبدو انتخابات عام 2004 كما لو كانت هتافات الفرح الأخيرة للمحافظين.

فقد انتصر الجمهوريون انتصارا مذهلا في انتخابات التجديد النصفي باستغلال الإرهاب استغلالا تاما. وتتوافر كل الأسباب للاعتقاد بأن أحد الأسباب التي جعلت بوش يأخذنا للحرب مع العراق هو رغبته في تأبيد نفسية الحرب، بجمعها مع توقعه بأن النصر في حرب صغيرة باهرة سوف يكون أمرا طيبا لاحتمالات إعادة انتخابه. وفي الواقع، فربما يكون العراق قد ساعد على كسب بوش لانتخابات عام 2004، على الرغم من أن مجريات الحرب كانت بالفعل تمضي بشكل سيئ.

ولكن الحرب مضت بشكل سيئ، ولم يحدث هذا مصادفة، فحينما تحرك بوش نحو البيت الأبيض وجدت الحركة المحافظية نفسها أخيرا وهي ممسكة بكافة مقاليد السلطة، وبسرعة أثبتت أنها غير قادرة على الحكم. فتسييس الحركة لكل شيء، وأسلوبها في وضع الولاء السياسي فوق كل شيء آخر، خلق ثقافة من المحسوبية والفساد تغلغلت في كل شيء فعلته إدارة بوش، من الفشل في إعادة بناء العراق، إلى الاستجابة البائسة لإعصار كاترينا. والفشل المتعدد لإدارة بوش هو ما يحدث حينما تدار الحكومة عن طريق حركة مكرسة لسياسات تعد ضد مصالح غالبية الأمريكيين، وعليها أن تحاول التعويض عن هذا الضعف المتأصل فيها عن طريق الخداع، والتشويش، وتوزيع الهبات على مؤيديها. وساعد ازدراء الأمة المتصاعد لبوش وإدارته الديمقراطيين على تحقيق انتصار ساحق في انتخابات التجديد النصفي عام 2006.

وانتخابات واحدة لا تصنع بالطبع اتجاها. ولهذا فهناك، على أية حال، قوى أعمق تقوض من التكتيكات السياسية التي استخدمتها حركة المحافظين منذ ترشح ريجان لانتخابات حاكم كاليفورنيا. فقد أضحت الهيئة الناخبة الأمريكية بشكل حاسم، ونقولها بكل صراحة، أقل بياضا. وقد حاولت إستراتيجيات الجمهوريين التمييز بين جمهور الناخبين الأمريكيين الإفريقيين، وبين هؤلاء ذوي الأصول الأمريكية اللاتينية والآسيوية الذين يلعبون دورا متناميا في الانتخابات، ولكن كما بين الجدال حول الهجرة، ليس هناك استعداد لإجراء أي تمييز لمدى ردة فعل الناخبين البيض، وهم المؤيدون الذين يعتمد عليهم الحزب الجمهوري حديثا. والعامل الأقل فجاجة هو التحول التقدمي في مواقف الأمريكيين، فالاستطلاعات تشير إلى أن الهيئة الناخبة قد تحركت بشكل كبير جهة اليسار في الموضوعات الداخلية منذ التسعينات، وأن العرق قوة تتقلص في أمة، تصبح، حقيقة، أقل عنصرية باطراد.

لا يزال المال في جانب الحركة المحافظية، ولكن هذا لم يكن كافيا أبدا بمفرده. فأي شيء يمكن أن يحدث في انتخابات 2008، ولكن يبدو تخمينا معقولا القول إنه بحلول عام 2009 سوف يكون لدى أمريكا رئيس ديمقراطي وكونجرس ديمقراطي متماسك. علاوة على هذا، فهذه الأغلبية الجديدة، فيما لو بزغت، سوف تكون متماسكة أيديولوجيا أكثر، مقارنة بالأغلبية الديمقراطية خلال العامين الأولين للرئيس بيل كلينتون، إذ كانت الأغلبية عبارة عن تحالف غير سهل بين الليبراليين الشماليين والمحافظين الجنوبيين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو، ما الذي يجب على الأغلبية الجديدة فعله؟ وإجابتي هي أنه عليها، منأجل مصلحة الأمة، أن تسعى من دون خجل لتنفيذ برنامج ليبرالي يقوم على التوسع في شبكة الضمان الاجتماعي، وتخفيض عدم المساواة: صفقة جديدة جديدة. ونقطة البداية في هذا البرنامج، وهو المعادل في القرن الواحد والعشرين للضمان الاجتماعي، يجب أن تكون الرعاية الصحية الشاملة، وهو شيء موجود بالفعل لدى كل بلد متقدم آخر في عالمنا. وقبل أن نتكلم عن كيف يمكننا أن نصل إلى هناك، على أية حال، فمن المفيد أن نلقي نظرة جيدة على ما كنا عليه. وهذه النظرة-قصة قوس التاريخ الأمريكي الحديث-هي موضوع الفصول الثمانية التالية.



الفصل الثاني
العصر المُذهَّب الطويل

النظـر إلى الاقتصـاد السـياسي للولايـات المتحـدة قبـل الصفقـة الجديـدة مـن وجهـة نظـر سـنوات حكـم بـوش، يماثـل النظـر إلى صـورة أبيـض وأسـود قديمـة لجـدك لتـدرك أنـه يشـبهك إلى حـد كبـيرفي الواقـع، يمكـن القـول إلى حـد مـا إنـك تشـبه جـدك أكـثر مـن شـبهك بوالـدك. ومـن سـوء الحـظ أن تكـون ملامـح العائلـة التـي يبـدو أنهـا عـادت للظهـور في وجهـك، بعـد أن تخطـت جيـلا كامـلا، غـير جذابـة للغايـة.

فأمريـكا مـا قبـل الصفقـة الجديـدة، مثـل أمريـكا في بدايـات القـرن الحـادي والعشريـن، كانـت أرضـا لعـدم المسـاواة الواسـع في الـثروة والسـلطة والتـي فشـل فيهـا نظـام سـياسي ديمقراطـي اسـما في تمثيـل المصالـح الاقتصاديـة للأغلبيـة. وعـلاوة عـلى هـذا فالعوامـل التـي أدت إلى سـيطرة نخبـة ثريـة عـلى الحيـاة السياسـية لهـا مظاهـر مـن الممكـن تمييزهـا اليـوم: القصـور المـالي الشـديد الـذي يعمـل في ظلـه المرشـحون السياسـيون الشـعبويون، وانقسـام الأمريكيـين الذيـن لديهـم مصالـح اقتصادية مشـتركة وفقـا لخطـوط عرقيـة وإثنيـة ودينيـة؛ والقبـول غـير الناقـد بأيديولوجيـا محافظـة تحذر مـن أن أي محاولـة لمسـاعدة البـشر الأقـل حظـا سـوف تـؤدي إلى كارثـة اقتصاديـة.

ربما تميل إلى القول بأنني أبالغ في المشابهة بأن أمريكا اليوم ليست أقل من حيث درجة عدم المساواة عما كانت عليه قبل الصفقة الجديدة. ولكن الأرقام على أية حال، تقول شيئا مختلفا. فكما يبين الجدول 1، يعد تركز الدخل في أيدي نخبة ضيقة اليوم مطابقا لتركيزه خلال عشرينات القرن العشرين.

جدول 1: نصيب الفئات المرتفعة الدخل في الدخل الإجمالي، من دون المكاسب الرأسمالية

	فئة الـ10 % الأعلى دخلا	فئة الـ1 % الأعلى دخلا
المتوسط في عشرينات القرن العشرين	% 43.6	% 17.3
عام 2005	% 44.3	% 17.4

Source: Thomas Piketty and Emmanuel Saez, "Income Inequality in the United States, 1913-1998," Quarterly Journal of Economics 118, no. 1 (Feb. 2003). Updated data available at http://elsa.berkeley.edu/-saez/.

والآن، فمن الصحيح أن الطبيعة الأوليجاركية[1] للسياسة قبل الصفقة الجديدة والطريقة الدموية غالبا التي كانت تستخدم بها قوة الدولة لحماية مصالح الملكية الخاصة، كانت أكثر تطرفا بكثير من أي شيء نشاهده اليوم. وفي الأثناء، على الرغم من أن عدم المساواة لم يكن أكبر مما هو عليه اليوم، كان عدم المساواة في ظروف المعيشة أكثر بكثير، لأنه لم يكن هناك أي من البرامج الاجتماعية التي تشكل الآن شبكة أمان، مهما كانت جوانب قصورها، بالنسبة للأقل حظا. رغم ذلك، فالتشابه بين العائلات في ذلك الوقت والآن أمر مدهش ومقلق في نفس الوقت.

(1) الأوليجاركية Oligarchy أو حكم الأقلية، هي شكل من أشكال الحكم تكون السلطة السياسية محصورة فيه بيد فئة صغيرة من المجتمع، تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. وغالبا ما تسيطر على الأنظمة والدول الأوليجاركية عائلات نافذة معدودة تورث النفوذ والسلطة من جيل لآخر. (المترجم) نقلا عن: ويكيبيديا، مادة "حكم الأقلية".

قبـل أن أمـضي في الحديـث أكـثر عـن التشـابه أحتـاج، عـلى أيـة حـال، لاسـم جديـد للفـترة التـي سأناقشـها مختلـف عـن "مـا قبـل الصفقـة الجديـدة،" والـذي يُعـرِف هـذا العـصر فقـط بمـا لم يكـن عليـه، أي تعريفـه بمـا قبل الصفقـة الجديـدة. يقـول المؤرخون عمومـا إن العـصر المُذهَّـب أخـلى السـبيل للعـصر التقدمـي حـول العـام 1900، ولهـم وجهـة نظـر في ذلـك. فقـد تحـول المـزاج السـياسي والثقـافي للبلـد بشـكل ملحـوظ حـول العـام 1900. فتيـودور روزفلـت، الـذي أصبـح رئيسـا في عـام 1901، كان أقـل مـن حيـث درجـة الموثوقيـة فيـه كشـخص منـاصر للبلوتوقراطية[1]ممـن سـبقوه؛ فقـد تـم إنشـاء هيئـة الأغذيـة والأدويـة الأمريكيـة في عـام 1906؛ وأعيـد تطبيـق ضريبـة الدخـل في عـام 1913، مترافقـة مـع تعديـل دسـتوري يمنـع المحكمـة الدسـتورية أن تحكـم، كـما فعلـت مـن قبـل، بـأن ضريبـة الدخـل غـير دسـتورية. وهـذه التغيـيرات، عـلى أيـة حـال، كان أثرهـا ضئيـل عـلى كل مـن عـدم المسـاواة والدخـل والـثروة في أمريـكا وعـلى دور الحـد الأدنى الـذي تلعبـه حكومـة الولايـات المتحـدة في التخفيـف مـن آثـار عـدم المسـاوة تلـك. وأفضـل مـا يمكـن قولـه، هـو أن أمريـكا في عشرينـات القـرن العشريـن، وعـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت أغنـى مـما كانـت عليـه في أواخـر القـرن التاسـع عـشر، كانـت تتميـز تقريبـا بنفـس الدرجـة مـن عـدم المسـاواة التـي كانـت عليهـا تحـت رحمـة حكـم النخبـة الثريـة.

ومـع خطـر أن يكـون ذلـك مصـدر إزعـاج للمؤرخـين، سـوف أشـير إلى مجمـل هـذه الفـترة مـن نهايـة إعـادة الإعـمار[2] في سـبعينات القـرن التاسـع عـشر إلى مـا سـيأتي في شـكل الصفقـة الجديـدة في ثلاثينـات القـرن العشريـن، باعتبارهـا العـصر المُذهَّـب الطويـل. وهـي فـترة تتسـم فـوق أي شيء آخـر باسـتمرار مسـتويات مرتفعـة مـن عـدم المسـاواة الاقتصاديـة.

(1) البلوتوقراطية أو حكـم الأثرياء، هـي أحـد أشـكال الحكـم وتكـون فيهـا الطبقـة الحاكمـة مميـزة بالـثراء. وتكـون درجـة التفـاوت الاقتصـادي في البلوتوقراطيـة مرتفعـة، بينـما يكـون مسـتوى الحـراك الاجتماعـي منخفضـا. (المترجـم) نقـلا عـن: ويكيبيديـا، مـادة "البلوتوقراطيـة".

(2) المقصـود هنـا إعـادة الإعـمار بعـد الدمـار الـذي خلفتـه الحـرب الأهليـة الأمريكيـة (1865-1861) (المترجـم).

استمرار عدم مساواة العصر المَذهَّب

ليست لدينا إحصاءات مفصلة عن توزيع الدخل والثروة في أمريكا خلال أغلب فترة العصر المذهب الطويل. ولكن، على أية حال، هناك دلائل كافية تظهر أن أمريكا كانت مجتمعا لعدم المساواة الواسعة عند سنة 1900، وهي ملاحظة لن تفاجئ أي شخص. وربما كان الأكثر مفاجئة، وما تشير إليه الدلائل أيضا، أن مستوى عدم العدالة بقي دون أي تغيير خلال فترة عشرينات القرن العشرين.

ومن المهم معرفة، أن استمرار عدم المساواة المتطرفة حتى عصر الجاز[1] هي الجزء الأول من الدليل لواحدة من النقاط الرئيسية في هذا الكتاب: مجتمعات الطبقة الوسطى لا تبزغ بشكل أوتوماتيكي مع نضوج الاقتصاد، بل يجب خلق هذه المجتمعات من خلال عمل سياسي. وليست لدينا أي بيانات عن فترة بداية عشرينات القرن العشرين تشير إلى أن أمريكا كانت تتطور بشكل تلقائي إلى مجتمع المساواة النسبي الذي ترعرعت أنا شخصيا فيه. استغرق الأمر فرانكلين ديلانو روزفلت والصفقة الجديدة لكي يظهر هذا المجتمع في حيز الوجود.

ما هو الدليل على أن العصر المُذهَّب استمر، في نواحٍ حاسمة، خلال العشرينات؟ رقم واحد مفيد يمكننا حسابه، حتى في حالة الافتقار إلى بيانات إحصائية شاملة، هو عدد الأمريكيين الأغنياء للغاية. وقد حسب الاقتصادي والمؤرخ الاقتصادي الأمريكي بجامعة بيركلي، برادفورد دي لونج، عدد "البليونيرات" الذين حددهم على أنهم هؤلاء الذين يمتلكون ثروة أكبر من الناتج السنوي لخمسة وعشرين ألفا من العمال الأمريكيين المتوسطين. (كان هذا يبلغ نحو بليون دولار فيمنتصف تسعينات القرن العشرين، حينما ابتكر هذا المقياس، ولكنه يقترب من 2 بليون دولار اليوم). في عام 1900 كان هناك، وفقا لحسابات

(1) عصر الجاز، هو فترة خلال عشرينات القرن العشرين انتهت مع الكساد العظيم، إذ أضحت موسيقى الجاز ورقصاتها شعبية، بشكل أساسي، في الولايات المتحدة، وأيضا في بريطانيا، وفرنسا، وفي أماكن أخرى. وقد نشأ الجاز في مدينة نيو أورلينز نتيجة لانصهار الموسيقى الأوروبية والإفريقية، كما لعب الجاز دورا ملموسا في تغيرات ثقافية أوسع خلال هذه الفترة، واستمر تأثيره على الثقافة الشعبية لفترة أطول بعد ذلك. (المترجم)،انظر:

Jazz Age, Wikipedia, the free encyclopedia.

دي لونـج، اثنـان وعـشرون بليونـيرا أمريكيّـا. وبحلـول عـام 1925 كان هنـاك اثنـان وثلاثـون بليونـيرا، ولـذا ظـل عـدد البليونـيرات ينمـو تقريبـا مـع نمـو عـدد السـكان وحتـى دخـول العـصر التقدمـي. واختفـى البليونـيرات تقريبـا مـن المشـهد مـع الصفقـة الجديدةفقـط، وانخفـض عددهـم إلى 16 بليونـيرا في عـام 1957 و13 في عـام 1968.[1] (هنـاك نحـو 160 بليونـيرا أمريكيـا يلبـون معيـار دي لونـج الآن).

كان بليونـيرات العـصر المُذهَّـب هـم بالضبـط مـن قـد تتوقعهـم: بارونـات اللصـوص، الرجـال الذيـن صنعـوا ثـروات مـن السـكك الحديديـة، والصناعـة التحويليـة، والصناعـات الاسـتخراجية مثـل النفـط والفحـم. وقـد تربـع جـون دي روكفلـر عـلى قمـة قائمـة البليونـيرات في عـام 1915. وجـاء بعـده اثنـان مـن أقطـاب صناعـة الحديـد هـما هـنري سي فريـك وأنـدرو كارنيجـي، ثـم بعـد ذلـك مجموعـة مـن بنـاة السـكك الحديديـة والماليـين، إضافـة إلى هـنري فـورد.

ويتفـق عـدد البليونـيرات مـع دليـل آخـر، كمسـاحات الملكيـات الكبـيرة، مـا يشـير إلى أن تركـز الـثروة في القمـة كان تقريبـا هـو نفسـه عنـد نهايـة عشرينـات القـرن العشريـن مثلـما كان في عـام 1900. وهـذا التركـز انخفـض بعـد ذلـك بشـكل كبـير مـع حضـور الصفقـة الجديـدة. وخـلال العقـود القليلـة الأولى بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، أصبـح عـدم مسـاواة العـصر المُذهَّـب شيئا مـن الخرافـة، وهـو نمـط المجتمـع الـذي لم يظـن أي أحـد أنـه سـيعود، إلا أنـه عـاد الآن.

ويعكـس عـدم المسـاواة خـلال العـصر المُذهَّـب الطويـل، جزئيـا، وكـما هـو عـدم المسـاواة المرتفعـة اليـوم، الموقـف التفـاوضي الضعيـف نسـبيا للعمـل. فخـلال أغلـب هـذا العـصر، كان أصحـاب الأعـمال الكبـار أحـرارا في تحديـد الأجـور وظـروف العمـل للحـدود التـي يتحملهـا سـوق التشـغيل، مـع مخـاوف قليلـة مـن المعارضـة المنظمـة. فالإضرابـات كان يتـم فضهـا بالقـوة، وعـادة مـا كان يتضمـن ذلـك اسـتخدام كاسري إضرابـات يؤجرهـم صاحـب العمـل، وأحيانـا عـن طريـق مليشـيات القـوات الفيدراليـة، كـما حـدث في إضراب عـام 1892 في مسـبك صلـب كارنيجـي، وفي إضراب بولمـان عـام 1894. وقـد ارتفعـت معـدلات تشـكيل النقابـات والتأثـير النقـابي بعـد عـام 1900، ووصـل مؤقتـا إلى الـذروة بعـد الحـرب العالميـة الأولى مبـاشرة. ولكـن هجومـا مضـادا

(1) Bradford DeLong, "Robert Barons," econ 161.berkeley.edu/Econ_Articles/Carnegie/DeLong_Moscow_paper2.html.

شنه أصحاب الأعمال دفع العمل للانسحاب مرة أخرى. وكانت عضوية النقابات عند نهاية العشرينات، والتي وصلت إلى 17% من القوة العاملة في عام 1924، قد تراجعت إلى أقل من -11%وهي تقريبا نفس النسبة القائمة الآن.

عدم المساواة المرتفعة لا تعني أن العمال قد فشلوا في الحصول على نصيب من أي من ثمار التقدم. فبينما كان عدم المساواة عظيما، كان مستقرا تقريبا، ولذلك أفاد نمو اقتصاد الولايات المتحدة خلال العصر المذهب الطويل كل الطبقات، فقد كان أغلب الأمريكيين في حال أفضل في العشرينات عما كانوا عليه في سبعينات القرن التاسع عشر. ويمكن القول إن التدهور في الأجر المكتسب الحقيقي للعديد من العمال والذي حدث في أمريكا منذ سبعينات القرن العشرين لم يكن له نظير خلال العصر المذهب الطويل. وقد شهد العمال الحضريون، بشكل خاص، تحسنا كبيرا في نوعية الحياة خلال فترة العصر المذهب الطويل، مع تحسن وجباتهم وصحتهم، وأصبحت أنابيب المياه الداخلية والكهرباء أمرا عاديا حتى في الشقق السكنية، وعمل ظهور نظم النقل الجماهيري الحضرية على توسيع الآفاق الفردية.[1]

وهذه التحسينات، على أية حال، ينبغي ألا تؤدي بنا إلى التستر على استمرار الحرمانالحقيقي. فعند نهاية عشرينات القرن العشرين كان العديد من العمال الأمريكيين لا يزالون يعيشون في فقر مدقع. فبالنسبة لغير المحظوظين الذين تم الاستغناء عنهم من العمل، أو الذين أصيبوا في العمل، أو ببساطة الذين كبروا في العمر ولم يكن لديهم أولاد يعيلونهم، كان هناك بؤس عظيم في خضم بذخ القلة. فخلال السنوات التي سبقت ثلاثينات القرن العشرين لم تكن هناك أية سياسات حكومية يعتد بها لإعادة توزيع الدخل مثل كوبونات الرفاه أو الغذاء، ولم تكن هناك أيضا أية برامج حكومية لتوفير الأمن الاجتماعي مثل الضمان الاجتماعي أو الرعاية الصحية. وكانت الحكومة على كل المستويات صغيرة للغاية، ونتيجة لهذا كانت الضرائب المفروضة على الجميع فيما عدا الأغنياء جدا قليلة للغاية. وعلى سبيل المثال، ففي منتصف عشرينات القرن العشرين كانت عشرة آلاف دولار يمكنها اشتراء ما يمكن اشتراؤه بمئة وعشرين ألف دولار الآن، وكان الأفراد

(1) يمكن رؤية التحسن حتى في نوعية حياة الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة، في التجديدات في الشقق في عهود مختلفة، في الجانب الجنوبي الشرقي من مدينة نيويورك في متحف الشقق.

الذيـن تبلـغ دخولهـم عـشرة آلاف دولار في العـام يقعـون في فئـة أعـلى 1% في توزيـع الدخـل، ولكنهـم كانـوا يدفعـون أقـل مـن 1% مـن دخولهـم كضريبـة دخـل، مقارنـة بنحـو 20% يدفعهـا ذوو الوضـع المماثـل اليـوم كضريبـة دخـل. ولهـذا فقـد كان ذلـك وقتـا جيـدا جـدا لـكي تكـون غنيـا. ومـن جانـب آخـر، فحيـث إن برامـج دعـم الدخـل حاليـا تعـد هـي مصـدر أغلـب دخـل أفقـر 20% مـن الأمريكيـين، فكونـك فقـيرا في عشرينـات القـرن العشريـن كان تجربـة أشـد قسـوة بكثـير مقارنـة باليـوم.

ويقودنـا هـذا إلى سـؤال واضـح: مـع الوضـع في الاعتبـار الـثروة الضخمـة التـي تولـدت خـلال العـصر المُذهَّـب الطويـل، ومـع الوضـع في الاعتبـار التفـاوت الرهيـب في الدخـل، ومـع الوضـع في الاعتبـار أيضـا النظـام الديمقراطيالـذي تفُـوق فيـه أعـداد الفقـراء مـن العـمال الأجـراء بكثـير أعـداد النخبـة الثريـة الضئيلـة التـي تدفـع حـدا أدنى مـن الضرائـب، مـا الـذي يفـسر غيـاب الطلـب الفعـال عـلى قيـام الحكومـة بعمـل أكـبر لـكي تمتـص مـن الأغنيـاء وتسـاعد الأقـل حظـا؟

ولم يكـن الأمـر أن مفاهيـم كالضرائـب التصاعديـة ودولـة الرفـاه لم تكـن قـد اخترعـت بعـد، أو حتـى لمتطبـق بعـد في أماكـن أخـرى. ففـي ألمانيـا، وضـع أوتـو فـون بسـمارك[1] موضـع التطبيـق نظامـا قديمـا للمعاشـات، وتأمـين البطالـة، بـل وحتـى تأمـين صحـي وطنـي في ثمانينـات القـرن التاسـع عـشر. وقـد عمـل بسـمارك بنـاء عـلى حسـابات سياسـية، وليـس بنـاء عـلى الشـفقة، فقـد أراد إسـقاط المعارضـة المحتملـة لحكـم القيـصر. ولكـن خـلال عملـه عـلى تحقيـق هدفـه بـين أن وجـود حكومـة أكـثر شـفقة يعـد، في الواقـع، أمـرا ممكنـا. أمـا هنـا في الولايـات المتحـدة فـكان نظـام الاسـتحقاقات الـذي تـم تطبيقـه بعـد الحـرب الأهليـة مـن أجـل الجنـود المخضرمـين والناجـين مـن أهليهـم، بطـرق مهمـة، هـو البشـارة بالضـمان الاجتماعـي. وكان المنبر

(1) أوتـو إدوارد ليوبولـد فـون بسـمارك (1 أبريـل -1815 30 يوليـو 1898) رجـل دولـة وسـياسي بروسي-ألماني شـغل منصـب رئيـس وزراء مملكـة بروسـيا بين عامـي 1862و1890، وأشرف على توحيـد الولايـات الألمانية وتأسـيس الإمبراطورية الألمانيـة أو مـا يسـمى بــ "الرايـخ الألمـاني الثـاني"، وأصبـح أول مستشـار لهـا بعـد قيامهـا عـام 1871، حتـى عزله عـام 1890. ولـدوره الهـام خـلال مستشـاريته عـرف بسـمارك بلقـب "المستشـار الحديـدي". بعـد وفاتـه، اتخـذه القوميـون الألمـان بطـلا لهـم، كـما أشـاد المؤرخـون بـدوره كرجـل دولـة سـاهم في الوحـدة الألمانيـة، واستخدامه لسياسـة تـوازن القوى للحفـاظ عـلى السـلام في أوروبـا في سـبعينات وثمانينـات القـرن التاسـع عـشر. (المترجـم) نقـلا عـن موسـوعة ويكيبيديـا، مـادة "أوتـو فـون بسـمارك".

الشعبوي قد دعا في عام 1896 إلى فرض ضرائب تصاعدية ووضع برامج أشغال عامة لتوفير وظائف إبان فترات الكساد، وهو ما يعد غير مختلف نوعيا كثيرا عما سيفعله فرانكلين ديلانو روزفلت أخيرا بعد مرور نحو أربعين عاما.

ولم تكن أمريكا أيضا بلدا فقيرا جدا بحيث لا يقدر على تكلفة هذه البرامج. فقد كانت الولايات المتحدة في عشرينات القرن العشرين أكثر غنى من البلدان الأوروبية بصورة ملحوظة. ورغم ذلك، كان لدى فرنسا، وألمانيا، والمملكة المتحدة برامج مهمة للمعونات العامة يبلغ حجمها عدة مرات حجم هذه البرامج في أمريكا.[1] وفي الواقع كانت الولايات المتحدة في عام 1925 في نفس مستوى الغنى الذي كانت عليه بريطانيا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وهي السنوات التي أقامت فيها بريطانيا دولة رفاه كاملة، بما في ذلك نظام رعاية صحية وطني، وكانت دولة رفاه أكثر شمولا مما لدى الولايات المتحدة حاليا.

ولهذا لِمَ لم يكن هناك طلب فعال على ذلك، وكما سيضع هوي لونج السؤال لاحقا، "الامتصاص من الأغنياء، لمساعدة الرجل البسيط؟"

سياسة البلوتوقراطية

كسب الجمهوريون، الذين بدأ حزبهم كحزب العمال الحر ولكنه تحول بحلول سبعينات القرن التاسع عشر إلى حزب دوائر الأعمال الكبيرة والأغنياء، اثني عشر انتخابا رئاسيا من الستة عشر انتخابا التي جرت بين الحرب الأهلية والكساد العظيم. بل وسيطروا على الكونجرس بانتظام أكثر، إذ سيطر الديمقراطيين على خمس من دورات الكونجرس الاثنين والثلاثين التي جرت خلال تلك الفترة. وبينما كان مجلس النواب إلى حد ما أكثر تنافسية، كان الحزب الجمهوري حتى في ذلك المجلس هو الحزب المسيطر عادة.

وعلاوة على ما سبق، فالمقارنات الحزبية تهون من شأن سيطرة المحافظة على السياسية خلال ذلك العهد، لأن واحدا من الأجنحة الرئيسية في الحزب

(1) Vito Tanzi and Ludger Schuhnecht, Public Spending in the 20th Century (Cambridge University Press, 2000).

الديمقراطي-وهو الجناح الذي يدعى البوروبون[1] الديمقراطيينالذي يشمل كل من الرجعين الجنوبيين والمناصرين لدوائر الأعمال الشماليين-كان مؤيدا لمصالح الأثرياء ومعارضا لمساعدة الحكومة، مثله مثل الجمهوريين. ويختلف البوربون الديمقراطيون عن الجمهوريين في بعض القضايا، فهم يؤمنون بحرية التجارة وليس بالحماية الجمركية المرتفعة، كما أنهم يشجبون بقوة الفساد في السياسة. ولكن مع ذلك سوف يكون من الخطأ تصنيف البوروبون على أنهم بأي معنى من المعاني على يسار الحزب الجمهوري. وفي المناسبات القليلة التي سيطر فيها الديمقراطيون على البيت الأبيض، فقد كان ذلك دائما من قبل البوروبون. فجروفر كليفلاند، وهو الديمقراطي الوحيد الذي كسب مقعد الرئاسة بين الحرب الأهلية وانتصار وودرو ويلسون[2] في انتخابات عام 1912،[3] كان من البوروبون، وكذلك

(1) أطلقت تسمية البوربون الديمقراطيون في البداية كتورية، للإشارة إلى نوع من الويسكي في ولاية كنتكي يدعى ويسكي بوربون، بل وحتى للإشارة لسلالة آل بوربون ذات الأصول الفرنسية والتي حكمت فرنسا، و تم خلعها من الحكم عن طريق الثورة الفرنسية عام 1789، ولكنها عادت للسلطة من جديد في عام 1815 لتحكم حكما رجعيا إلى أن تم الإطاحة بها نهائيا في ثورة يوليو 1830. وكان آل بوروبون قد حكموا أجزاء أخرى في أوروبا كالسويد وصقليه ونابولي، إضافة إلى لوكسمبورج وإسبانيا اللتين تنتمي الأسرتان الحاكمتان فيهما حاليا إلى آل بوربون. (المترجم)، انظر:
House of Bourbon, Wikipedia, the free encyclopedia.
Bourbon Democrat,Wikipedia, the free encyclopedia.

(2) توماس وودرو ويلسون (28 ديسمبر 1856-3 فبراير 1924)، الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة خلال الفترة من 4 مارس 1913 إلى 4 مارس 1921. كان في بداية حياته أكاديميا، إذ حصل على دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة جونز هوبكنز، وقام بالتدريس في العديد من الجامعات حتى صار في النهاية الرئيس الثالث عشر لجامعة برنستون (1910-1902)، ثم الحاكم الرابع والثلاثين لولاية نيو جيرسي من عام 1911 إلى 1913. وكان ثاني رئيس ديموقراطي يحكم لفترتين متواليتين بعد أندرو جاكسون، كما أنه أول جنوبي يفوز بمنصب الرئاسة منذ عام 1848. خلال فترته الرئاسية الأولى (1917-1913) أبقى بلاده على الحياد في الحرب العالمية الأولى، وفي أبريل 1917 في بداية فترته الثانية أعلنت إدارته الحرب على الإمبراطورية الألمانية بعد إعلان ألمانيا حرب غواصات مفتوحة. في بداية عام 1918 أعلن مبادئه للسلام، أو ما يعرف ببنود ويلسون الأربعة عشر للسلام، وحصل على جائزة نوبل للسلام بسبب هذه المبادئ. وفي عام 1919 سافر إلى باريس للتوصل لمعاهدة صلح فرساي وللترويج لإقامة عصبة الأمم. وقد أصيب بالشلل بعد ظهور عصبة الأمم للوجود. (المترجم)، نقلا عن: موسوعة ويكيبيديا، مادة "وودرو ويلسون".
انظر كذلك: Woodrow Wilson, Wikipedia, the free encyclopedia

(3) اعتبر ويلسون بوربونا قبل الترشح لانتخابات الرئاسة، ولكنه توصل لاتفاق سلام مع بريان

كانت حال الديمقراطيين الذين كانوا قريبين من الفوز بالبيت الأبيض، مثل صامويل تايدن في عام 1876.

ما الذي يفسر هذه السيطرة المحافظة الممتدة على بلد كان يجب أن تكون فيه للمطالبة بفرض ضريبة على الأغنياء، ومساعدة المحتاجين، جاذبية جماهيريةمن حيث العدد؟ ويتضمن التفسير عدة عوامل وهي كلها مألوفة جدا للمشهد السياسي الحالي، ولكن تم عرضها بشكل مبالغ فيه.

أولا كان هناك الحرمان الفعلي للعديد من العمال الأمريكيين من الحق في التصويت. ففي عام 1910 كان نحو 14% من البالغين الذكور لم يتم تجنيسهم، وبالتالي لم يكن لهم الحق في التصويت. بينما كان السود الجنوبيون محرومين من التصويت بواسطة جيم كرو.[1] وكان المهاجرون والسود يشكلون نحو ربع السكان-وإلى حد كبير الربع الأفقر-هم ممن أُنكر عليهم ببساطة لعب أي دور في العملية السياسية. وكما سوف نرى لاحقا في هذا الكتاب عادت مشكلة الحرمان

قبل الانتخابات. وفي الممارسة حرك الحكومة إلى حد ما جهة اليسار، بتبنيه موقفا متسامحا نسبيا تجاه النقابيين ومَأْسَسَته لضريبة الدخل، ولكنه لم يكن فرانكلين ديلانو روزفلت.

(1) قوانين جيم كرو هي قوانين على مستوى الولاية والمستوى المحلي، تفرض الفصل العنصري في جنوب الولايات المتحدة. وقد تم وضع تلك القوانين بعد فترة إعادة الإعمار ، واستمر العمل بها حتى عام 1965. عاد الديمقراطيون البيض بعد الحرب الأهلية إلى السلطة تدريجيًا في الولايات الجنوبية بداية من عام 1870، وذلك في انتخابات استخدمت فيها جماعات شبه عسكرية لترهيب المعارضين، والهجوم على السود أو منعهم من التصويت. وقد تسبب نجاح الوفاق الوطني عام 1877 في كسب الدعم الجنوبي خلال الانتخابات الرئاسية في سحب القوات الفيدرالية من الجنوب. فاستعاد البيض سلطتهم في كل الولايات الجنوبية، وأقرت حكومة الحزب الديمقراطي قانون جيم كرو لفصل السكان السود عن البيض. ومع ذلك استمر انتخاب السود للمكاتب المحليّة في عام 1880، فقام الديمقراطيون بتمرير حزمة من القوانين لتقييد عملية الانتخاب، فتضاءلت بذلك مشاركة السود والفقراء من البيض. وفي 1890 قامت الولايات الكونفدرالية بتمرير دساتير وقوانين جديدة تتطلب إجراءات معينة للتصويت (كدفع ضريبة معيّنة لذلك) ما تسبب في تقليص مشاركات السود وحتى الفقراء من البيض.وبمنع القدرة على التصويت في الانتخابات، لم يتمكن السود والبيض الفقراء من الخدمة في هيئات المحلّفين أو في المكاتب المحليّة، ولا في التأثير على الهيئات التشريعية في الولايات، فتمّ تجاهل كل مطالبهم. (المترجم): نقلا عن مادة قوانين جيم كرو، موسوعة ويكيبيديا. وانظر كذلك:

Jim Crow Laws, Wikipedia, the free encyclopedia.

مـن التصويـت مـرة أخـرى في أمريـكا المعـاصرة، بفضـل الهجـرة غـير القانونيـة الواسـعة واسـتمرار انخفـاض نسـبة مشـاركة السـود في التصويـت، وهـو مـا سـاعد عليـه قمـع الناخبـين، وهـو أمـر غـير مبـاشر أكـثر مـن أيـام جيـم كـرو، ولكنـه رغـم ذلـك يمكـن أن يكـون حاسـما في الانتخابـات المتقاربـة النتائـج.

ثـم هنـاك أمـر تمويـل الحمـلات الانتخابيـة الـذي تـم تبيـان قوتـه بشـكل جـلي في انتخابـات عـام 1896، وهـي المـرة الوحيـدة مـا بـين الحـرب الأهليـة وعـام 1932 التـي كان لـدى المتحـدي فيهـا لنخبـة البـلاد الاقتصاديـة الحاكمـة فرصـة جديـة في الفـوز بالبيـت الأبيـض. وخوفـا مـما يمكـن أن يقـوم بـه وليـام جيننجـز بريـان[1]، فلـم يصلبـه الأثريـاء عـلى صليـب مـن ذهـب، بـل دفنـوه تحـت جبـل مـن هـذا الذهـب.

(1) ويليـام جيننجـز بريـان (19 مـارس 26-1860 يوليـو 1925) سـياسي وخطيـب أمريـكي مـن نبراسـكا، وقـوة مسـيطرة في الجنـاح الشـعبوي في الحـزب الديمقراطـي. وقـف ثـلاث مـرات كمرشـح الحـزب لرئاسـة الولايـات المتحـدة (1896، و1900، و1908). وخـدم فترتـين كعضـو في مجلـس النـواب عـن نبراسـكا، وكان وزيـر خارجيـة الولايـات المتحـدة في ظـل رئاسـة ويـدرو ويلسـون (1915-1913). واسـتقال بسـبب موقفـه الداعـي إلى السـلام في الحـرب العالميـة الأولى. كان بريـان مسـيحيا بريسـبتانيا ورِعـا، وداعيـة قوياللديمقراطيـة الشـعبية، وعـدوا للبنـوك ولقاعـدة الذهـب. وقـد طالـب بـ"حريـة الفضـة" لأنـه رآهـا تضعـف الشـيطان "قـوة المـال" وتضـع المزيـد مـن المـال في أيـدي النـاس العاديـين. وكان داعيـة سـلام، ومنـاصرا لتحريـم الخمـور، ومعارضـا للداروينيـة عـلى أرضيـة دينيـة وإنسـانية. وبصوتـه العميـق الآمـر وبسـفرياته الواسـعة، ربمـا كان أفضـل خطيـب ومحـاضر في عـصره. وبسـبب إيمانـه بحكمـة النـاس العاديـين، أطلـق عليـه "العـادي العظيـم".
في معاركـه الضاريـة في انتخابـات 1896 و1900، هـزم عـلى يـد ويليـام مكينـلي، ولكنـه احتفـظ بالسـيطرة عـلى الحـزب الديمقراطـي. وبإلقائـه أكـثر مـن 500 خطـاب في انتخابـات 1896، ابتكـر بريـان الجولـة الانتخابيـة حينـما كان مرشـحو الرئاسـة لا يزالـون يبقـون بمَواطنهـم. وفي الثـلاث مـرات التـي ترشـح فيهـا للانتخابـات كان مـن المؤيديـن لحريـة الفضـة في 1896، وضـد الإمبرياليـة في 1900، ومنـاصرا لكـسر الاحتـكارات في عـام 1908، داعيـا الديمقراطيـين إلى محاربـة الاحتـكارات والبنـوك الكـبرى، والتمسـك بمبـادئ الجمهوريـة غـير النخبويـة. وقـد اختـاره الرئيـس ويلسـون وزيـرا للخارجيـة عـام 1913. ولكـن بعـد إغـراق الطوربيـدات الألمانيـة لسـفينة الـركاب البريطانيـة لوزيتانيـا عـام 1915، طالـب ويلسـون بمطالـب قويـة مـن ألمانيـا لم يوافـق عليهـا بريـان، واسـتقال مـن منصبـه احتجاجـا. بعـد عـام 1920 أيـد تحريـم الخمـور وهاجـم الداروينيـة والتطـور وكانـت أكـثر الأحـداث شـهرة في هـذا الشـأن محاكمـة سـكوبس التـي جـرت في ولايـة تنيـسي عـام 1925، وتـوفي بعـد انتهـاء هـذه المحاكمـة بخمسـة أيـام. (المترجـم)، انظـر:
William Jennings Bryan, Wikipedia, the free encyclopedia.

ففي عام 1986 أنفقت حملة ويليام مكينلي[1] 3.35 مليون دولار، وهو ضِعفاما أنفقه الجمهوريون في انتخابات عام 1892، وخمسة أمثال ما كان موضوعا تحت تصرف بريان من تمويل. وينبغي أن نضع في اعتبارنا أن ثلاثة ملايين دولار في عام 1896 كانت مبلغا كبير جدا من المال. فوفقا لنسبته من الناتج المحلي الإجمالي، يعادل هذا المبلغ الآن أكثر من ثلاثة بلايين دولار، وهو نحو خمسة أمثال ما أنفقته حملة بوش في عام 2004. وكان التفاوت المالي بين الحزبين في عام 1896

(1) ويليام مكينلي (29 يناير 14-1843 سبتمبر 1901) كان الرئيس الخامس والعشرين للولايات المتحدة، خدم من 4 مارس 1897 حتى اغتياله في سبتمبر 1901، بعد أن أمضى ستة أشهر فقط من فترته الرئاسية الثانية. قاد مكينلي الأمة للنصر في الحرب الإسبانية-الأمريكية، ورفع التعريفات الجمركية الحمائية لتشجيع الصناعة الأمريكية، وأبقى الأمة على قاعدة الذهب في معارضة للمقترحات التضخمية. كان مكينلي الرئيس الأخير الذي خدم في الحرب الأهلية، في البداية كفرد في الجيش الاتحادي وانتهاء بترقيته إلى رتبة رائد. استقر بعد الحرب في أوهايو، حيث مارس المحاماة، وتم انتخابه للكونجرس في عام 1876 إذ أصبح خبير الحزب الجمهوري في التعريفات الجمركية الحمائية التي وعد بأنها سوف تحمل الرخاء. وكان ما عرف بتعريفة مكينلي في عام 1890 الخلافية إلى حد كبير، جنبا إلى جنب مع إعادة الديمقراطيين تقسيم الدوائر لمصلحتهم بهدف إبعاده عن منصب الرئاسة، قد أدى إلى الانتصار الديمقراطي الساحق في عام 1890. انتخب كحاكم لولاية أوهايو في عام 1891 و1893، متبعا نهجا متوازنا بين مصالح العمال ورأس المال. وبمعاونة من مستشاره المقرب مارك حنا، استطاع الحصول على ترشيح الحزب الجمهوري له لانتخابات الرئاسة عام 1896، وسط ركود اقتصادي عميق. وقد هزم غريمه الديمقراطي ويليام جيننجز بريان،بأن أيد "العملة القوية" (قاعدة الذهب ما لم تتغير عبر اتفاق دولي) ووعد بأن التعريفات الجمركية المرتفعة سوف تستعيد الرخاء. وقد تميزت فترة رئاسة مكينلي بالنمو الاقتصادي السريع، وقد روج لما يعرف بتعريفات دينجلي في عام 1897لحماية الصناعة التحويلية وعمال المصانع من المنافسة الأجنبية، وفي عام 1900، أمن تمرير قانون قاعدة الذهب. أمل مكينلي في أن تمنح إسبانيا الاستقلال لكوبا من دون نزاع، ولكن المفاوضات فشلت، وقاد الأمة في الحرب الإسبانية-الأمريكية عام 1898، وكان النصر الأمريكي سريعا وحاسما. وكجزء من معاهدة السلام أرجعت إسبانيا للولايات المتحدة مستعمراتها الرئيسية وراء البحار وهي بورتوريكو، وجويام، والفلبين، وقد وعدت كوبا بالاستقلال، ولكنها في هذا الوقت بقيت تحت سيطرة الجيش الأمريكي.وقد ألحقت الولايات المتحدة جمهورية هاواي المستقلة بها في عام 1898 وأصبحت أرضا أمريكية. وقد فاز مكينلي على بريان مرة أخرى في انتخابات عام 1900 الرئاسية، في انتخابات ركزت على الإمبريالية، والحمائية، وحرية الفضة. وعلى أية حال انتهى ميراثهبسرعة حينما تم إطلاق النار عليه في 6 سبتمبر 1901 بواسطة ليون كزولجسز، وهو أمريكي بولندي من الجيل الثاني وصاحب ميول فوضوية. وقد مات مكينلي بعد ثمانية أيام، وخلفه في منصب الرئيس تيودور روزفلت. (المترجم)، انظر:
William McKinley, Wikipedia, the free encyclopedia.

استثنائيا، ولكن عادة ما كان لدى الجمهوريين تفوقا ماليا كبيرا. والوقت الوحيد الذي كان فيه الديمقراطيون -إلى حد ما- منافسين ماليا، في الفترة ما بين الحرب الأهلية وانتخاب وودرو ويلسون عام 1912، كان في عام 1876، وهي الانتخابات التي كسب فيها الديمقراطي صامويل تايدن فعليا الأصوات الجماهيرية (وهي الانتخابات التي تم فيها أصلا سرقة التصويت الانتخابي، في صفقة حصل بموجبها راذرفورد ب. هايز على البيت الأبيض في مقابل وعده بسحب القوات الفيدرالية من الجنوب)، وفي النصرين الانتخابيين لجروفر كليفلاند في عامي 1884 و1892. وليسالأمر مصادفة أن تايدن وكليفلاند كانا بوروبون ديمقراطيين. وحينما كان الحزب الديمقراطييختار شخصا ليس بوربونا، كان يتم باستمرار الإنفاق أكثر منه، وبمقدار ثلاثة إلى واحد.[1]

وأخيرا فقد كان هناك تزوير واسع النطاق للانتخابات.[2] وقد أقدم كل من الحزبين على التزوير، بطرق متعددة. وخلال معظم هذه الفترة كان الاقتراع السري نادرا، ومعظم الناخبين كانوا يستخدمون ورق تصويت قامت بطباعته الأحزاب بنفسها، وهذه الأوراق يمكن بسهولة التمييز بينها بالحجم واللون. ونتيجة لهذا، كان شراء الأصوات ممكنا وسهلا -فلم تكن هناك مشكلة للتحقق فعليا من أن جمع الأصوات مطابق لما تم شراؤه منها-وواسع النطاق. وقد حصلت جريدة نيويورك تايمز في عام 1888 على خطاب أرسله ويليام دادلي، وهو أمين صندوق اللجنة الوطنية الجمهورية، للرئيس الجمهوري لمقاطعة في إنديانا. وذكر في هذا الخطاب، جزئيا:

إن لجنتكم سوف تتلقى من الرئيس هيوستون المساعدة الضرورية من أجل الإبقاء على الناخبين الذين يمكن اشتراء أصواتهم والمترددين... تقسيم الذين يمكن اشتراء أصواتهم إلى مجموعات من خمسة أفراد، ووضع رجل موثوق فيه، مع

(1) إحصاءات تمويل الانتخابات من:

Historical Statistics of the United States, Series Y 187-188 (US Bureau of the Census, 1975).

(2) لمراجعة عامة للدليل على التزوير انظر:

Peter H. Argersinger, "New Perspectives on Election Fraud in the Gilded Age, "Political Science Quarterly 100, no. 4 (Winter 1985-86), pp. 669-87.

التمويل الضروري، ليكون مسؤولا عن الخمسة، وجعله مسؤولا عن عدم هروب أي أحد، والجميع سوف يصوتون لتذكرتنا الانتخابية.[1]

وكما كتبت الجريدة في افتتاحيتها، كان هذا الخطاب "تحريضا مباشرا على ارتكاب أفعال إجرامية... والدليل الرسمي لمشتري أصوات الناخبين ولفيالق رشوة الجمهوريين في إنديانا". ولم يكن أمرا غير عادي في الواقع توافر سبب للاعتقاد بأن المعدلات المرتفعة من مشاركة الناخبين في الانتخابات في العصر المذهب تعكس إلى حد كبير دور الحوافز المالية. وكان اشتراء الأصوات، حتميا، وأكثر شيوعا في الولايات المتأرجحة،فواحد من التقديرات الأكثر استشهادا به هو أن نحو ثلث الناخبين خلال العصر المُذهَّب والعصر التقدمي في نيوجيرسيالتي كانت تعد، إلى حد بعيد، ولاية متأرجحة بشدة في التصويت في هذا الوقت، كانوا عادة ما يتلقون أموالا سائلة مقابل أصواتهم.

وكان حشو صناديق الاقتراع بأصوات زائفة أمرا منتشرا أيضا، وليس فقط في المناطق التي تسير عليها الماكينات[2] الحضرية، على الرغم من أن معظم الذين كانوا يحشون الصناديق كانوا يخجلون جدا من أن يقولوا بصراحة، ما قاله ويليام مارسي تويد[3] "الصناديق لا تحدد النتائج، بل الذين يقومون بعد

(1) "Col. Dudlley's Letter: 'Divide the Floaters into Blocks of Five,' New York Times, Nov. 3, 1888, p.1.

(2) ماكينة المدينة أو الماكينة السياسية هي تنظيم سياسي حيث يوجد رئيس آمر أو مجموعة صغيرة تترأس فيلقا من المؤيدين (عادة يكونون عاملين في الحملات الانتخابية) الذين يتلقون عائدات على جهدهم. وتكمن قوة الماكينة في قدرة العاملين على حث الناخبين على التصويت لمرشحهم في يوم التصويت ذاته. (المترجم)، انظر:
political machine, Wikipedia, the free encyclopedia.

(3) ويليام مارسي تويد (3 أبريل 1823-12 أبريل 1878) ويعرف عادة بالزعيم تويد. كان سياسيا أمريكيا برز أكثر بصفته "زعيم" قاعة تاماني، وهي الماكينة السياسية للحزب الديمقراطي التي لعبت دورا رئيسيا في السياسة في القرن التاسع عشر بمدينة وولاية نيويورك. وعندما بلغ ذروة نفوذه، كان تويد ثالث أكبر مالك أراض في مدينة نيويورك، ومديرا لشركة إيري للسكك الحديدية، وعاشر أكبر بنك وطني، وشركة نيويورك للطباعة، إضافة إلى كونه مالك فندق المتروبوليتان.وقد انتخب تويد لمجلس النواب الأمريكي في عام 1852 ولمجلس المشرفين في مقاطعة نيويورك في عام 1858، وهو العام الذي أصبح فيه على رأس الماكينة السياسية قاعة تاماني. وقد انتخب أيضا لمجلس نواب ولاية نيويورك في عام 1867، ولكن نفوذ تويد الأعظم أتى من كونه عضوا معينا في

الأصوات هم الذين يحددونها". كما كان هناك أيضا استخدام مكثف للتخويف والتهديد لإبقاء ناخبي الحزب الآخر بعيدين عن أماكن جمع الأصوات. وكملاذ أخير كانتالجماعات السياسية الراسخة أحيانا تقوم ببساطة بإلغاء إرادة الناخبين. وعلى سبيل المثال، قامت الهيئة التشريعية في إنديانا في عام 1897 بالإطاحة ببساطة بالشعبويين، وذلك على الرغم من إقرارها أنهم فازوا بأغلبية الأصوات في مقاطعاتهم.

ومرة أخرى، تورط كلا الحزبين في هذه التكتيكات، رغم أن التفوق المالي للجمهوريين ربما كان يعني أنهم سوف يأتون في صدارة المنافسة في الفساد السياسي في ذلك الوقت. وبشكل عام فتزوير الانتخابات يعزز ويقوي المزايا التي يحملها المال والتنظيم، فالانتخابات غالبا ما يتم إقرارها ليس بمن لديه شعبية أكثر، ولكن بمن هو أكثر استعدادا لتزوير الانتخابات. وفي الوقت ذاته، يقلص التزوير بصورة كبيرة من فرص النجاح الانتخابي للمنبر الذي يعكس حقيقة مصالح غالبية السكان.

وسوف يكون من الخطأ، على أية حال، التفكير في العصر المُذهَّب الطويل كعصر توافرت فيه الاشتباكات الساخنة، وبعصر تم فيه قمع نبض الجماهير المساواتي بالقوة بواسطة قوات النخبة. والحقيقة هي أنه في أغلب الوقت كان هناك انحياز قوي للغاية متأصل في النظام ضد أي شكل من الشعبوية (أنا لا أشير هنا إلى برنامج محدد طرحه الحزب الشعبوي الذي سأتحدث عنه لاحقا أكثر)

عدد من المجالس واللجان، وسيطرته على عملية المحاباة السياسية في مدينة نيويورك من خلال تاماني، وقدرته على تأمين الولاء من خلال الوظائف التي يمكنه خلقها والإنفاق على المشروعات المتعلقة بالمدينة. وطبقا لكينيث دي أكرمان، كاتب سيرة تويد:من الصعب عدم تقدير المهارة وراء نظام تويد... كانت الحلقة المتحلقة حوله في ذروة نفوذها أعجوبة هندسية، قوية ومتماسكة، ويتم إسقاطها إستراتيجيا لكي تسيطر على نقاط للسلطة: المحاكم، والهيئة التشريعية، والخزانة، وصناديق الاقتراع. وكان احتيال هذه الحلقة عظيم الانتشار وأنيق الهيكل اشتمل على: غسيل الأموال، وتقاسم الأرباح والمنظمات.

وقد أدين تويد بسرقة قدرتها إحدى اللجان في عام 1877 بما يتراوح بين 25 مليون دولار و45 مليونا من أموال الضريبة في مدينة نيويورك من خلال الفساد السياسي، وذلك على الرغم من أنه لاحقا تم تقدير هذه السرقة بمبلغ وصل إلى 200 مليون دولار. ومع عدم القدرة على دفع الكفالة تم سجنه، وقد هرب من السجن مرة، ولكنه أعيد للحبس ومات في السجن. (المترجم) انظر:
William Marcy Tweed, Wikipedia, the free encyclopedia.

وهـو انحيـاز واضـح إلى حـد أن السياسـيين لم يحاولـوا حتـى ولـو مجـرد محاولـة تحـدي عـدم مسـاواة النظـام الاقتصـادي.

والمفارقـة أن الضعـف البالـغ للشـعبوية في أمريـكا العـصر المُذهَّـب جعـل السياسـة شـأنا مريحـا أكـثر في مجـالات محـددة مقارنـة بمـا هـي عليـه اليـوم. ففـي أغلـب الوقـت، لم تكـن القـوى المحافظـة التـي دعمـت العـصر المُذهَّـب الطويـل تتطلـب توافـر مـا يعـادل الحركـة المنضبطـة للمحافظيـة الموجـودة اليـوم لـكي تحقـق الانتصـار. ولم تكـن هنـاك حاجـة لمجموعـة متشـابكة مـن مؤسسـات معينـة، مـا يماثـل المافيـا في مطالبتهـم بالـولاء، ولنـشر الفكـر المحافـظ، ولمكافـأة المخلصـين، ولتخويـف الصحافـة وأي منشـقين. ولم تكـن هنـاك أيـة حاجـة لتشـكيل تحالـف مـع الأصوليـين الدينيـين، ولم تكـن هنـاك حاجـة لاسـتغلال قضايـا تخـص الأخـلاق أو نمـط الحيـاة. كـما لم تكـن هنــاك حاجــة لحــرف السياســة الخارجيــة أو الانخــراط في حــروب خارجيــة ملائمــة لإلهـاء الجمهـور.

وكانـت انتخابـات العـام 1896 هـي مجـرد اسـتثناء للنمـط طويـل الأجـل من حكم الأقليـة المسـتريح. فقـد بـدا لوهلـة أن الشـعبوية (الشـعبوية كتيـار سـياسي أمريـكي- المترجـم) تمثـل بالفعـل تحديـا لحكـم الأثريـاء (البلوتوقراطيـة). وقد فشـلت الشـعبوية، عـلى أيـة حـال، ليـس فقـط لأن النظـام السـياسي يميـل لهـؤلاء الذيـن يملكـون المـال والتنظيـم، إذ افتقـرت الشـعبوية إلى نـوع القيـادة الـذي يمكنـه العمـل عـلى تجسـير الانقسـامات بـين مختلـف الجماعـات التـي كان يمكـن للتغيـير أن يخـدم مصالحهـا. فقـد غرقـت السـفينة في الميـاه الضحلـة للاختـلاف العرقـي والجغـرافي.

مشكلات الشعبوية

كان هنـاك سـبب لـكي تصـاب مصالـح دوائـر الأعـمال والأثريـاء بالذعـر في عـام 1896، إذ كان العديـد مـن الأمريكيـين غاضبـين جـدا لسـوء حالهـم. فقـد كان المزارعون، الذيـن يعانـون مـن انخفـاض الأسـعار وعـبء الديـون في حالـة احتجـاج وهـرج ومـرج. وكذلـك كان العديـد مـن العـمال الصناعيـين، الذيـن إمـا فقـدوا وظائفهـم وإمـا واجهـوا خفضـا في أجورهـم، وذلـك بسـبب الركـود الـذي أعقـب ذعـر عـام 1893.[1] فقـد كانـت

(1) ذعـر عـام 1893 كان عبـارة عـن كسـاد اقتصـادي خطير بـدأ في هـذا العـام. وقـد اتسـم هـذا الذعـر

الوحشـية التـي تـم بهـا إخـماد إضرابي هومسـتيد[1] وبولمـان[2] اسـتثنائية، حتـى خـلال الوقـت الـذي كان يعـد فيـه اسـتخدام القـوة ضـد العـمال أمـرا شـائعا.

بانهيـار صناعـة بنـاء السـكك الحديديـة لإفراطهـا في التوسـع، وكذلـك بالتمويـل ذي الأسـاس المزعـزع للسـكك الحديديـة والـذي أطلـق سلسـلة مـن إفلاسـات البنـوك. وحتـى وقـوع الكسـاد الكبـير، اعتـبر ذعـر عـام 1893 أسـوأ كسـاد شـهدته الولايـات المتحـدة في تاريخهـا. (المترجـم)، انظـر: Panic of 1893 عـلى الرابـط:
http://www.saylor.org/site/wp-content/uploads/2011/08/HIST312-10.1.2-Panic-of-1893.pdf

(1) نـزاع عنيـف وقـع مـا بـين شركـة كارنيجـي للصلـب والعديـد من عمالهـا يـوم 6 يوليـو 1892، في مدينة هومسـتيد بولايـة بنسـلفانيا. حـرض إضراب العـمال إدارة الشركـة (المتمثلـة في مالكهـا الصناعـي الأمريـكي أنـدرو كارنيجـي والصناعـي الأمريـكي هـنري كلاي فريـك)، وكاسري الإضراب (العـمال الذيـن يحلـون محـل العـمال المضربـين) الذيـن اسـتأجرتهم الشركـة، ومكتـب تحقيقـات بينكرتـون الوطنـي (وهـو عبـارة عـن قـوات بوليـس مسـتقلة خاصـة) ضـد أعضـاء الاتحـاد المندمـج لعـمال الحديـد والصلـب الذيـن كانـوا يعملـون فيالشركـة. وقـد نشـأت معركـة بالأسـلحة الناريـة نتـج عنهـا وفـاة عـدد مـن العـمال المضربـين وعـدد مـن عمـلاء بينكرتـون وإصابـة العديديـن. (المترجم)،انظـر:
Joseph Adamczyk, Homestead Strike, Encyclopædia Britannica.
على الرابط: http://www.britannica.com/event/Homestead-Strike

(2) إضراب وقـع مـا بـين 11 مايـو 1894 و20 يوليـو 1894، وهـو إضراب واسـع النطاق للسـكك الحديدية، ومقاطعـة للقطـارات التـي بهـا عربـات بولمـان، تسـببت في تعطـل شـديد في حركـة السـكك الحديديـة في الغـرب الأوسـط للولايـات المتحـدة خـلال الفـترة يونيو-يوليـو 1894. وقـد بـدأ الإضراب بسـبب قيـام شركـة بولمـان لعربـات السـكك الحديديـة، وهـي مُصنِـع لعربـات السـكك الحديديـة، بخفـض أجـور عمالهـا المنخفضـة أصـلا بمقـدار 25%، وذلـك كاسـتجابة للركـود الاقتصـادي الـذي بـدأ في عـام 1893. وفي الوقـت ذاتـه لم تقـم الشركـة بـأي تخفيـض في الإيجـارات والمدفوعـات الأخـرى التـي يقـوم بهـا العـمال (كالكهربـاء والميـاه)، في مدينـة بولمـان وهيمدينـة يعيـش فيهـا معظـم عـمال الشركـة بالقـرب مـن شـيكاجو. ونتيجـة لهـذا عـانى العديـد مـن عـمال الشركـة وأسرهـم مـن مجاعـة، ومـع رفـض مالـك الشركـة جـورج م. بولمـان مقابلـة وفـد العـمال الذيـن كانـوا يحاولـون عـرض شـكاواهم مـن الأجـور المنخفضـة وظـروف معيشـتهم السـيئة ويـوم العمـل الطويـل الـذي يبلـغ 16 سـاعة، ونتيجـة لهـذا دخـل العـمال في إضراب في 11 مايـو 1894، تلتـه مقاطعـة للقطـارات التـي بهـا عربـات بولمـان. ويعـد هـذا هـو أول إضراب تتدخـل فيـه الحكومـة الفيدراليـة برئاسـة الرئيـس جروفـر كليفلانـد باسـتخدام أمـر قضـائي لفضـه، وقـد أرسـل الرئيـس قـوات فيدراليـة لفـض الإضراب. ويقـدر أن نحـو ثلاثـين عامـلا قـد قُتلـوا في أثنـاء فـض هـذا الإضراب. (المترجم)،انظـر: Melvin I. Urofsky, Pullman Strike, Encyclopædia Britannica.
على الرابط: http://www.britannica.com/event/Pullman-Strike
انظر كذلك: Pullman Strike, Wikipedia, the free encyclopedia.

ولكـن في النهايـة، وقعـت هزيمـة ويليـام جيننجـز بريـان، وهـو ديمقراطـي ولكنـه كان قـد حصـل أيضـا عـلى ترشـيح الحـزب الشـعبوي لانتخابـات الرئاسـة. وكان الافتقـار للـمال والتزويـر الانتخـابي واسـع النطـاق عوامـل أساسـية في هزيمتـه. وكان مـن الواضـح أيضـا، عـلى أيـة حـال، فشـل بريـان في تجميـع جماعـات الأمـة السـاخطة في تحالـف واحـد فعـال.

ولم يكـن هـذا أمـرا مفاجئـا. فالخـاسرون مـن النظـام الاقتصـادي للعـصر المُذهَّـب -وهـي الجماعـات ذاتهـا التـي ستسـتفيد في النهايـة بشـكل هائـل مـن الصفقـة الجديدة-كانـوا منقسـمين حـول ثلاثـة خطـوط خاطئـة بمـا خلـق هـوة ربمـا كان لا يمكـن تجسـيرها في عـام 1896. بـل وعـلاوة عـلى هـذا فالأمـر المؤكـد أنـه لم يكـن ممكنا تجسـيرها بواسـطة شـخص مثـل بريـان.

وكان الخـط الأول والأكـثر أهميـة لهـذه الانقسـامات هـو مـا بـين المدينـة والقريـة. فعـلى الرغـم مـن أن الولايـات المتحـدة كانـت مركـزا صناعيـا نشـطا بحلـول عـام 1896، كانـت أغلبيـة السـكان لا تـزال تعيـش بجـوار الأرض. ففـي عـام 1890، كان 64% مـن الأمريكيـين يعيشـون في مناطـق ريفيـة، و14% آخريـن يعيشـون في مـدن يقـل عـدد سـكانها عـن 25 ألـف نسـمة. وقـد نمـا التأثـير السـياسي لسـكان الحـضر بشـكل مهـم مـع مـرور الوقـت، ولكـن أمريـكا الريفيـة والمـدن الصغـيرة كانـت تضـم الغالبيـة العظمـى مـن الناخبـين حتـى وقـت متأخـر عـام 1930.

ومـع ذلـك فقـد كان أي تحالـف تقدمـي فعـال بحاجـة للعـمال الحضريـين، فحركـة ريفيـة محضـة لم تكـن قويـة بمـا فيـه الكفايـة للفـوز بالبيـت الأبيـض. ولكـن الشـعبويين كانـوا قـد أتـوا مـن أمريـكا الريفيـة والمـدن الصغـيرة، وعـرف عـدد قليـل فقـط مـن بينهـم كيـف يمكـن الوصـول للحلفـاء الحضريـين المحتملـين. وقـد آثـر بريـان أن يضـع حملتـه كلهـا عـلى قاعـدة قضيـة تحريـر الفضـة[1]التـي كانـت، في الحقيقـة،

---

(1) تحريـر الفضـة كانـت قضيـة سياسـية رئيسـية عنـد نهايـة القـرن التاسـع عـشر في الولايـات المتحـدة. وكان دعـاة هـذه السياسـة يحبـذون سياسـة نقديـة تضخميـة باسـتخدام "حريـة سـك العملـة مـن الفضـة" في معارضـة لقاعـدة الذهـب التـي تـؤدي إلسياسـة انكماشـية. وكان مؤيـدو هـذه السياسـة يدافعـون عـن قاعـدة المعدنـين،أي اسـتخدام كل مـن الذهـب والفضـة كعملـة بنسـبة 16 إلى 1 (أي 16 أوقيـة مـن الفضـة تعـادل أوقيـة واحـدة مـن الذهـب). ولأن المعدلالحقيقـي كان يبلـغ نحـو 32 إلى 1 في هـذا الوقـت، فقـد حـذر أغلـب الاقتصاديـين مـن أن الفضـة الرخيصـة سـوف تطـرد الذهـب الأعـلى قيمـة مـن التبـادل. وكان الجميـع متفقـين عـلى أن تحريـر الفضـة سـوف يـؤدي إلى ارتفـاع الأسـعار؛ وكان

طلبا لسياسات تضخمية كانت ستقلل من عبء ديون المزارعين. بينما كانت هذه القضية لا تعني شيئا بالنسبة للعمال الحضريين.

وكان أحد الأسباب لعدم قدرة كل من المزارعين والعمال الحضريين على التكاتف واتخاذ موقف مشترك هو الفجوة الثقافية والاجتماعية الواقعة ما بين المهاجرين والمولودين في أمريكا. فقد بلغت نسبة المهاجرين من السكان ذروتها في عام 1910 ببلوغها 14.7%، وكانت الغالبية العظمى منهم تقطن في مناطق حضرية ويتركزون بصفة خاصة في أكبر المدن. ففي العام المذكور كان 41% من سكان نيويورك من مواليد الخارج.[1]وكان هؤلاء المهاجرين أجانب بكل تأكيد بالنسبة للأمريكيين القاطنين قلب البلاد. فقد اعتبر الإيرلنديون غرباء بالنسبة للأمريكيين حتى القرن العشرين، فحملة آل سميث الانتخابية في عام 1928، وهو أمريكي إيرلنديكاثوليكي، تم استقبالها بحرق الصلبان.[2] وعند هذا التاريخ كان الإيرلنديون قسما قديما راسخا من المزيج الإثني الأمريكيمثلهم مثل الإيطاليين، والبولنديين، واليهود، والآخرين الذين يشكلون أغلب حركة الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وهذه الهجرات عوملت بنفس القدر من الرعب، وبنفس الادعاءات بأنهم لن يكونوا أبدا أمريكيين حقيقيين، وهذا ما يميز الآن رد الفعل الأكثر تطرفا تجاه المهاجرين المكسيكيين.

السؤال هو هل هذا الإجراء التضخمي يعد مفيدا أم غير مفيد. وقد بلغت هذه القضية الذروة بين عامي 1893 و1896، حينما كان الاقتصاد يعاني من كساد شديد -أطلق عليه ذعر 1893- اتسم بانكماش الأسعار، ومعدلات البطالة المرتفعة في المناطق الصناعية، ومعاناة شديدة للمزارعين. (المترجم)،انظر:

Free Silver, Wikipedia, the free encyclopedia.

(1) يمكن العثور على مجموعة تفصيلية من الجداول الخاصة بالمهاجرين ومركزهم بالنسبة للسكان في:

“Historical Census Statistics on the Foreign born Population of the United States: 1850-1990” (U.S. Census Population Division working paper no. 29, 1999)

(2) حرق الصلبان ممارسة ارتبطت إلى حد كبير بحركة كو كلوكس كلان البيضاء العنصرية ضد السود في الولايات المتحدة، على الرغم من أن الممارسة التاريخية تعود إلى أبعد من ذلك بكثير، وعموما فحرق الصلبان يهدف إلى إثارة فزع جماعات محددة. والمؤلف هنا يشير إلى حالة عداء ضد المرشح الإيرلندي بوصفه إيرلنديا. (المترجم)،انظر:

Cross burning,Wikipedia, the free encyclopedia.

خلال العشرينات كان عدم التفاهم المتبادل ما بين أمريكا الريفية والمهاجرين قد ازداد سوءا بصدور قانون الحظر،[1] ومن الصعب الآن تقدير عمق الخوف من الكحوليات، إذا كان خوفا متطرفا، حتى اقتضى الأمر تعديلا دستوريا. (ينبغي علينا أن نتذكر دوما أن القضايا الكبرى التي نفكر أنها كان يجب أن تسيطر على السياسة الأمريكية في الماضي، كانت غالبا ما تدفع الجمهور بعيدا بواسطة مشاحنات وخلافات تبدو لنا اليوم، بأثر رجعي،غريبة وشاذة).

ومالت حركة الاعتدال[2] للازدهار في نفس الأماكن التي تولدت فيها الانتفاضات الفلاحية: فقد كانت كانساس هي مكان ولادة كل من الشعبوية وحظر الخمور. ويمكنك القول إن حظر الخمور كان هو القضية "القيمية" الأصلية، وهي قضية مدروسة جيدا لإحداث وقيعة بين الفلاحين البروتستانت الفقراء، وبين العمال الحضريين الفقراءالذين أتى عدد كبير منهم من ثقافات كاثوليكية تعد فيها المشروبات الكحولية جزءا عاديا ومقبولا من الحياة. ولكي أكون منصفا، مع ذلك، كان كل من الحزبين الرئيسيين منقسما حول حظر الخمور.

وكان الانقسام بين الفقراء البيض والسود هو الأكثر فتكا من بين كل الأشياء. وكأمر عملي كان هذا الأمر مشكلة فقط للشعبويين الجنوبيين، حيث إن السود كانوا قبل العشرينات أقلية صغيرة خارج الجنوب. وفي الجنوب، على أية حال، كان السود -الذين تتشكل أغلبيتهم الساحقة من المزارعين الفقراء-يبلغون ثلث

---

(1) المنع القانوني لتصنيع الخمور، وبيعها، ونقلها في الولايات المتحدة بين عامي 1920 و1933 وفقا للتعديل الثامن عشر للدستور الأمريكي. (المترجم)، انظر:

The Editors of Encyclopædia Britannica,Prohibition, Encyclopædia Britannica.

على الرابط:

http://www.britannica.com/event/Prohibition-United-States-history-1920-1933

(2) حركة الاعتدال، حركة مكرسة للتشجيع على الاعتدال فياستعمال المشروبات الروحية المسكرة، بل وعادة الامتناع الكامل عنها. وعلى الرغم من أن التعهد بالامتناع تم تقديمه بواسطة كنائس باكرا عام 1800، يبدو أن أول منظمات للاعتدال هي تلك التي أقيمت في ساراتوجا بنيويورك في عام 1808 وفي ماساشوستس في عام 1813. وقد انتشرت الحركة بسرعة في ظل تأثير الكنائس، حتى إنه بحلول عام 1833 كان هناك 6000 مجتمع محلي في العديد من الولايات الأمريكية. (المترجم)،انظر:

The Editors of Encyclopædia Britannica, Temperance movement,Encyclopædia Britannica.

على الرابط: http://www.britannica.com/topic/temperance-movement

عـدد السـكان. فهـل كان أمـرا محتمـلا للمزارعـين البيـض الذيـن يتشـاركون في العديـد مـن المصالـح، اتخـاذ موقـف مشـترك مـع أصحـاب اللـون المختلـف هـؤلاء؟

عـلى المـدى الطويـل كانـت الإجابـة هـي لا. وسـوف يكـون واحـدا مـن موضوعـات البحـث الرئيسـية لهـذا الكتـاب هـو إلى أي مـدى كان للتنافـر والعـداوة العرقيـة تأثـير واسـع الانتشـار ومـؤذ عـلى السياسـة الأمريكيـة، وإلى حـد كبـير في صالـح المحافظـين. مـع هـذا فمـن المحتمـل أن نلقـي نظـرة خاطفـة عـلى مسـار آخـر كان مـن الممكـن اتباعـه. وفي مقـال بـارز نـشر عـام 1892 بعنـوان "مسـألة الزنـوج في الجنـوب" دعـا تـوم وارتسـون، قائـد الشـعبويين في الجنـوب، إلى تحالـف بـين الأعـراق:

لمـاذا يجـب تلقـين الرجـل الملـون دائمـا أن الشـخص الأبيـض الـذي يسـكن في حيـه يكرهـه، بينـما الرجـل الشـمالي الـذي يفـرض ضريبـة عـلى كل خرقـة عـلى ظهـره، يحبـه؟ لمـاذا لا يعتـبرني مسـتأجر أرضي صديقـا لـه بـدلا مـن الصناعـي الـذي ينهبنـا نحـن الاثنـين؟ لمـاذا علينـا تأييـد سياسـة تلقـي بالرجـل الأسـود بـين ذراعـي السـياسي الشـمالي؟

.... لم يكـن هنـاك يـوم خـلال العشريـن عامـا الماضيـة حينـما لم يكـن الجنـوب يلقـي بقـوة المـال في الـتراب بتعليـم الزنجـي أنـه لا يمكـن أن نكـون بائسـين تحـت أي نظـام لا يزعجـه هـو الآخـر، وأننـا لا يمكـن أن نزدهـر في ظـل أي قانـون لا يجلـب لـه البركـة...

والخلاصـة تبـدو لي إذا كالآتي: إن الأعبـاء السـاحقة التـي تثقـل كلا مـن العرقـين في الجنـوب سـوف تتسـبب في حمـل كل منـا عـلى بـذل الجهـد للتخلـص منهـا، وسـوف يلاحظـون تماثـل القضيـة وتماثـل العـلاج. وسـوف يدركـون أن كلا منهـم عليـه معاونـة الآخـر في العمـل عـلى إبطـال القوانـين السـيئة وعـلى سـن القوانـين الجيـدة. وسـوف يصبحـان حلفـاء سياسـيين، ولـن يكـون بوسـع أحدهـما جـرح الآخـر دون التسـبب في إضعـاف موقـف كل منهـما. وسـوف يكـون مـن مصلحـة كل منهـما أن يحصـل كلاهـما عـلى العـدل. وفي ظـل هـذه الخطـوط العريضـة للمصالـح المشـتركة، والتسـامحالمتبادل، والدعـم المشـترك سـوف يكـون الحـاضر نقطـة الانطـلاق نحـو مسـتقبل يعمـه السـلام والرخـاء.[1]

(1) Thomas E. Watson, "The Negro Question in the South," The Arena 6 (Oct. 1892), pp. 540-50.

ولكـن التحالـف الـذي اقترحـه واتسـون لم يتحقـق أبـدا. فحينـما فـاز بريـان بالترشـيح لخـوض الانتخابـات عـلى منصـب الرئيـس كمرشـح لكل مـن الحزب الشـعبوي والحـزب الديمقراطـي، بمـا يسـمح لـه بخـوض الانتخابـات عـلى تذكـرتي الحزبـين في نفـس الوقـت، كان واتسـون هـو المرشـح نائبـا للرئيـس عـلى تذكـرة بريـان للحـزب الشـعبوي فقـط. أمـا عـلى تذكـرة الحـزب الديمقراطـي فقـد اختـار بريـان أن يكـون شريكـه الـذي سـيخوض معـه الانتخابـات كنائـب للرئيـس جنوبيـا محافظـا. ووضـع التحالـف الشـعبوي أيـة فرصـة تُمكـن مـن عبـور الفجـوة العرقيـة جانبـا لعـدة عقـود. وأصبـح واتسـون نفسـه في أعوامـه الأخـيرة عنصريـا متعصبـا، إضافـة إلى كونـه معاديـا للكاثوليـك ومعاديـا للسـامية.

واسـتمرت الانقسـامات التـي شـلت الشـعبوية في تسـعينات القـرن التاسـع عـشر لتشـل الإصلاحيـين خـلال عشرينـات القـرن العشريـن. وكدليـل عـلى هـذا فليـس عـلى المـرء ألا يذهـب أبعـد مـن انتخاباتعامـي 1924 و1928. ففـي عـام 1924 اقتـضى الأمـر مـن المجمـع الانتخـابي للديمقراطيـين ليـس أقـل مـن 103 اقتراعـات حتـى يمكنهـم الاسـتقرار عـلى مرشـح، بسـبب الانقسـام المريـر بين المدينـة والقريـة. ومثل آل سـميث، الكاثوليـكي الإيرلنـدي حاكـم نيويـورك، مسـتقبل الحـزب. وفي المجمـع الانتخـابي، عـلى أيـة حـال، كان في مواجهتـه ويليـام جيبـس ماكـدوو، زوج ابنـة وودرو ويلسـون، وكان محامـي شركات أعـاد رسـم نفسـه، بطريقـة تبـدو شـائعة للغايـة اليـوم، كمثقـف شـعبوي. وكماوضعهـا آرثـر م. شـيلزنجر، الابـن، فقـد "قـدم نفسـه فـوق صـورة ويليـام جيننجـز بريـان... فقـد وضـع جانبـا العواطـف الدينيـة لحـزام الإنجيـل[1]. بـل وحتـى تبنـى لا أدريـة حـذرة تجـاه الكـو كلوكـس كلان". وفي الحقيقـة فقـد رفـض المجمـع الانتخابي-بصـوت واحـد- التحـرك لـكي يتـم تضمين شـجب الكـو كلوكـس كلان في برنامج

(1) حـزام الإنجيـل منطقـة في الجنـوب الشرقـي وجنـوب الوسـط في الولايـات المتحـدة، حيـث تلعـب البروتسـتانتية الأنجليكانيـة دورا قويـا في المجتمع والسياسـة، وحيـث الحضـور للكنيسـة عـبر كل الطوائـف يعـد أعـلى مـن المتوسـط عـلى مسـتوى الأمـة. ويتشـكل حـزام الإنجيـل مـن الكثـير مـن جنـوب الولايـات المتحـدة إضافـة إلى المناطـق القريبـة منـه. وخـلال الفـترة الاسـتعمارية (1776-1607)، كان الجنـوب معقـل الكنيسـة الأنجليكانيـة. وحـدث التحـول في الجنـوب ليصبـح معقـلا للبروتسـتانتية غـير الأنجليكانية بشـكل تدريجـي خـلال القـرن التـالي مـع اكتسـاب سلسـلة مـن حـركات الإحيـاء الدينـي، والعديـد منهـا يرتبـط بالطائفـة المعمدانيـة، شـعبية كبـيرة في الإقليـم. (المترجـم)، انظـر:
Bible Belt, Wikipedia, the free encyclopedia.

الحـزب السـياسي.[1] وفي النهايـة لم يفـز بالترشـيح سـميث ولا مـاكادوو، وذهـب الترشـيح بـدلا منهـما إلى مرشـح توافقـي، هـو جـون و. دايفـز، مـن ويسـت فريجينـا. وذهـب الترشـح لمنصـب نائـب الرئيـس إلى الأخ الأصغـر لوليـام جيننجـز بريـان. وليسـت هنـاك حاجـة للقـول بـأن التذكـرة الانتخابيـة للحـزب الديمقراطـي منيـت بهزيمـة منكـرة.

وبعـد أربعـة أعـوام فـاز آل سـميث بسـهولة بترشـيح الحـزب الديمقراطـي مـن الاقـتراع الأول، ولكـن سرعـان مـا ظهـرت الخصومـات القديمـة عـلى السـطح. وقـد كتـب أحـد الديمقراطيـين مـن ولايـة تنيـسي لمـاكادو أن سـميث خطـط لأن يكـون جذابـا "لـدى الغربـاء، الذيـن يشـعرون أن أمريـكا الأقـدم، أمريـكا ذات الأصـول الأنجلـو-ساكسـونية، هـي شيء كريـه ينبغـي الإطاحـة بـه وامتهانـه؛ ولـدى الزنـوج الشـماليين، المتعطشـين للمسـاواة الاجتماعيـة والهيمنـة العرقيـة، ولـدى الكاثوليـك الذيـن لديهـم اعتقـاد راسـخ بجدارتهـم للبيـت الأبيـض، ولليهـود الذيـن بدورهـم تشربـوا الإحسـاس بـأن هـذا هـو وقـت شـعب اللـه المختـار ليعاقـب أمريـكا عـلى ماضيهـا".

(1) Arther M. Schlesinger, Jr., The Crisis of the Old Order (Houghton Mifflin, 1957), pp. 94-100.

وفي أثناء الحملة الانتخابية، أثار الكو كلوكس كلان أحاسيس معادية للكاثوليك، فقد كان بوسع سميث أن يرى صلبانًا محروقة حينما كان القطار الذي يستقله يعبر أوكلاهوما. وفي العصر الذي كان فيه الجنوب عادة مؤمناللديمقراطيين، خسر سميث كل الولايات الحدودية وخمس ولايات من الكونفدرالية[1] القديمة.[2]

وباختصار فقد حالت الانقسامات العرقية والثقافية خلال العصر المُذهَّب الطويل-كما في أمريكا اليوم-بين من يتقاسمون مصالح اقتصادية مشتركة دون ظهور تحدٍّ سياسي فعال لعدم المساواة الاقتصادية المفرط. والفارق ما بين ذلك الوقت والآن هو كون انقسامات العصر المُذهَّب الطويل كانت أكثر تطرفا بكثير مما هي عليه اليوم. وفي نفس الوقت كان هناك عدد أقل من الناس، حتى بين القادة السياسيين، الذين لديهم رؤية تتجاوزهم لترى أبعد منهم. وهذا، بدوره، ينقلنا إلى ملمح آخر من ملامح العصر المُذهَّب الطويل: الهيمنة الثقافية للمحافظين، وللأيديولوجيات المعادية للحكومة.

(1) الولايات الكونفدرالية الأمريكية التي يشار إليها عادة بالكونفدرالية، كانت اتحادا كونفدراليا لولايات أمريكية انفصالية وجد ما بين عام 1861 و1865. تشكلت الكونفدرالية أساسا من 7 ولايات تسمح بالعبودية في إقليم الجنوب الأدنى للولايات المتحدة، وهي ولايات يعتمد اقتصادها في الغالب على الزراعة، وخاصة زراعة القطن، ونظام للمزرعة يعتمد على عمل العبيد الأمريكيين الإفريقيين. وقد أعلنت كل ولاية من هذه الولايات انفصالها عن الولايات المتحدة في أعقاب انتخابات نوفمبر 1860 التي تم فيها انتخاب الجمهوري ابراهام لينكولن لمقعد الرئاسة وفقا لبرنامج يعارض توسع العبودية. وأعلنت حكومة الكونفدرالية الجديدة في فبراير 1861 قبل تولي لينكولن سلطاته في مارس، ولكنها اعتبرت غير شرعية بواسطة حكومة الولايات المتحدة. وبعد بدء الحرب الأهلية في أبريل، أعلنت أربع ولايات أخرى بها عبيد في الجنوب الأعلى انفصالها هي الأخرى وانضمت للكونفدرالية. وقد قبلت الكونفدرالية لاحقا كلا من ميسوري وكنتاكي بين الأعضاء، على الرغم من أن أيا منهما لم يعلن لا الانفصال رسميا ولا تمت السيطرة عليهما بشكل كبير بواسطة القوات الكونفدرالية؛ وقد حاولت حكومات ظل كونفدرالية السيطرة على الولايتين ولكنها نفيت بعد ذلك منهما. وقد رفضت حكومة الولايات المتحدة (الاتحاد) ادعاءات الانفصال واعتبرت الكونفدرالية غير شرعية. وقد بدأت الحرب الأهلية في 12 ابريل 1861 مع هجوم قوات الكونفدرالية على فورت سمتر، وهي حصن للاتحاد في ميناء شارلستون في كالورينا الجنوبية. وفي ربيع 1865، وبعد قتال شديد أدى إلى وفاة ما يزيد على نصف مليون شخص، أغلبهم في إقليم الكونفدرالية، استسلمت قوات الكونفدرالية كلها وتم حلها. (المترجم)، انظر:

Confederate States of America, Wikipedia, the free encyclopedia.

(2) Arther M. Schlesinger, Jr., The Crisis of..., pp. 126-29.

الهيمنة الثقافية للمحافظين

في طبعة 7 يناير 1923 من صحيفة نيويورك تايمز نُشر مقال خاص تحت المانشيت بعنوان "تزايد الأعباء الضريبية الوطنية تهديد للرفاه الوطني". واستمرت المقدمة، "وتبين معدلات الزيادة في بلدان في جميع أنحاء العالم-كان معدل الضريبة بالنسبة للفرد في الولايات المتحدة أعلى بمقدار ستة أمثال مستواه قبل الحرب العالمية الأولى-قفزة كبيرة في الإنفاق العام." وأقر المقال بأن معظم الزيادة خلال العقد الماضي كان نتيجة للحرب العالمية الأولى، ولكنه حذر بشكل يغلب عليه الشؤم من أنه "حينما توقف قصف المدافع استمر الإنفاق العام على مستوى مرتفع. وكانت النتيجة هي بقاء الأعباء الضريبية الثقيلة مصدر استنزاف هائل لموارد الأمم". والأمر الجدير بالملاحظة هو أن هذا المقال عُرض ليس كمقال رأي ولكن كأخبار، حيث قدم نتائج دراسة قام بها مجلس المؤتمر الصناعي الوطني حول شرور فرض ضرائب مفرطة، ومن دون أي إشارة إلى أن أي أحد ربما بإمكانه الاختلاف مع خلاصة هذه الدراسة.

وكانت الحقيقة وراء هذا المانشيت، بالمناسبة، هي التزايد في الإنفاق الفيدرالي من 2% من الناتج القومي الإجمالي قبل الحرب إلى 4.7% بعدها. وكانت معظم هذه الزيادة مرتبطة بالحرب، وحتى بعد أن "توقف قصف المدافع"، فقد كان هناك الدَّين الذي تكون في فترة الحرب وينبغي دفع أعبائه، وكانت هناك مدفوعات للمحاربين القدماء ينبغي الوفاء بها. وكان الإنفاق غير المرتبط بالحرب قد ارتفع حقيقة، ولكن فقط من 0.6% من الناتج القومي الإجمالي قبل الحرب إلى 0.9% بعدها. ومع حلول نهاية العشرينات، وبعد نحو عِقد من تجدد الهيمنة السياسية للحزب الجمهوري، عاد الإنفاق العام غير المرتبط بالحرب كنسبة من الناتج القومي الإجمالي إلى مستوياته التي كان عليها قبل الحرب تقريبا.[1]

ويشكو ليبراليو اليوم من نجاح الحركة المحافظية في تحويل الأيديولوجيا المعادية للحكومة إلى حكمة تقليدية. وسوف يحتوي هذا الكتاب على كمية لا بأس بها من مثل هذا النوع من الشكاوى في الفصول التالية. كان طغيان الأيديولوجية المعادية للحكومة، على أية حال، خلال العصر المُذهَّب الطويل

(1) Jacob Metzer, "How New Was the New Era? The Public Sector in the 1920s," Journal of Economic History 45 no. 1 (Mar. 1985), pp. 119-26.

أكثر سوءا بكثير، وأقرب إلى النتائج التي يرغب فيها مروجو الدعاية المحافظون اليوم. لقد كان عصر تفترض فيه الآراء المحترمةببساطة، حسب الأحوال الجارية، أن للضرائب آثارا مدمرة على الاقتصاد، وأنأي جهد لتخفيف حدة الفقر وعدم المساواة هو أمر غير مسؤول إلى حد كبير، وأن أي شخص يُلمّح إلى أن الرأسمالية التامة غير عادلة هو راديكالي خطير، ملوث بالأفكار الأوروبية.

وعلينا ألا نتجاهل حقيقة أنه كان هناك عدد لا بأس به من الراديكاليين الخطيرين في الواقع على مقربة. وبوجه خاص فقد كان هناك بكل تأكيد عدد أكبر بكثير من الشيوعيين والفوضويين في أمريكا خلال العصر المُذهَّب الطويل، خاصة بعد الثورة الروسية، مقارنة بعددهم في الوقت الحالي. ولم يكن هناك عدد كاف للقيام بثورة، ولكن كان هناك عدد كاف على كل حال لمنح المحافظين عصا أخرى يمكنهم ضرب ظهر الإصلاحبها. ففي عام 1919، بعد انفجار قنبلة أمام منزل أ. ميتشيل بالمر، المدعي العام، بدأت حكومة الولايات المتحدة حملة بَالْمر البوليسية سيئة السمعة، ليتم اعتقال آلاف يشبته في أن لهم نشاطا راديكاليا. مثل حالة جنون الاضطهاد والذعر التي أمسكت بالأمة لوهلة بعد أحداث 11 سبتمبر، كان الرعب الأحمر[1] بعد الحرب العالمية الأولى له تأثير طارئ في تشويه سمعة أو ترهيب الليبراليين العاديين، أي الذين آمنوا بأنه من الممكن جعل الرأسمالية أكثر عدالة من دون التخلص منها. وقد كان هناك عددكاف من هؤلاء على أية حال.

وكانت هذه بشكل خاص البقعة العمياء الأمريكية. ففي وقت باكر من العام 1881 قدم بسمارك الأساس المنطقي لما سوف نطلق عليه اليوم دولة الرفاه، التي رآها هو طريقة لتهدئة الطبقات الدنيا وتأمين حكم القيصر. والحكومة كما قال "يجب أن تزرع أيضا بين الطبقات صاحبة الياقات الزرقاء، هؤلاء الأكثر عددا والأقل تعليما، فكرة أن الدولة ليست فقط مؤسسة الضرورة، ولكن أيضا مؤسسة الرفاه. فعن طريق مزايا مباشرة يمكن التعرف عليها يجب أن يؤدي ذلك لكي

(1) الترويج للخوف من احتمال نهوض الشيوعية أو اليسار الراديكالي. كان الرعب الأحمر الأول في الولايات المتحدة يدور حول الثورة العمالية (الاشتراكية) والراديكالية السياسية. بينما تركز الرعب الأحمر الثاني حول تأثير الشيوعيين على المجتمعات الوطنية والأجنبية، والتسلل للحكومة الفيدرالية أو كليهما. وقد بدأ الرعب الأحمر الأول في أعقاب الثورة البلشفية في روسيا عام 1917. (المترجم)، انظر:

Red Scare, Wikipedia, the free encyclopedia.

يعتبروا الدولة ليس كهيئة اخترعت فقط من أجل حماية الطبقات ذات الوضع الأفضل في المجتمع، ولكن أيضا كهيئة تخدم حاجاتهم ومصالحهم.[1] ومع بسمارك قادت ألمانيا الطريق، بدأ الأوروبيون في تطوير ما يماثل سياسات الصفقة الجديدة قبل أن يكون النظام السياسي الأمريكي مستعدا للتفكير في أي شيء من هذا النوع. ونشير بوجه خاص إلى أن بريطانيا قدمت في عام 1908 نظاما محدودا عتيقا من الضمان الاجتماعي، وقدمت التأمين الصحي في عام 1911.[2] كانت كل من بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا-حيث طورت كل منها دولة الرفاه المبكرة الخاصة بها- قبل الحرب العالمية الأولى، تنفق على البرامج الاجتماعيةأكثرمما تنفق الولايات المتحدة، كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي، وذلك حتى أواخر الثلاثينات.

ولكن في الولايات المتحدة ظلت عقيدة المشروع الحر مهيمنة، لدرجة أن هذا كان عاملا إضافيا في شلل الحزب الديمقراطي. فهزيمة آل سميث في عام 1928 تدين بالكثير للتعصب الأعمى. ولكن الشعبوي في حزبه كان لديه سبب آخر كبير لكي يكون مخذولا، فأول قرار بعد حصوله على الترشيح لخوض الانتخابات الرئاسية كان، في الواقع، هو إعلان ولائه للأيديولوجية الاقتصادية الحاكمة. فقد اختار جون جيه راسكو كمدير لحملته الانتخابية، وهو صناعي جمهوري كانت نقطة اتفاقه الوحيدة الظاهرة مع الليبراليين هي معارضته لحظر الخمور، كما اختار أربعة مليونيرات آخرين لكي يعتلوا مناصب الحملة. وقد حاول سميث بالفعل خلال الحملة أن يكسب تأييد دوائر الأعمال بانتحال شخصية هربرت هوفر[3] باعتباره مجهزا لفرض قواعد تنظيمية حكومية على الأعمال. وفي الحقيقة

---

(1) Quoted in David Khoudour-Casteras, "The Impact of Bismarck's Social Legislation on German Emigration Before World War 1" (photocopy, University of California, Berkeley, 2004).

(2) David M. Cutler and Richard Johnson, "The Birth and Growth of the Social-insurance State: Explaining Old-age and Medical Insurance Across Countries," Kyklos 57, no. 4 (2004), 475-504.

(3) هربرت كلارك هوفر (10 أغسطس 1847-20 أكتوبر 1964) الرئيس الحادي والثلاثون للولايات المتحدة (1929-33). كانت سمعة هوفر كشخص صاحب نزعة إنسانية -وقد اكتسبها خلال وبعد الحرب العالمية الأولى حينما أنقذ الملايين من الأوروبيين من المجاعة-قد تشوهت في الإدراك العام حينما فشلت إدارته بعدم قدرتها على التخفيف من الجوع والتشردوالبطالة المنتشرة في بلده،

فقد تصرف سميث في الحملة كبوربون ديمقراطي. ومثله مثل البوربون السابقين كان لديه قدرة مالية تنافسية في الحملة،فقد أنفق الديمقراطيين 5.3 مليون دولار، مقارنة بـ6.3 مليون دولار أنفقها الجمهوريون. ولكن من دون أي شيء مميز يقدمه عانى سميث من هزيمة ساحقة.[1]

وقد تراجع سميث أكثر إلى موقف يتسم بالجمود العقائدي المحافظ مع مرور الأعوام. وفي محاولته المشؤومة لكسب ترشيح الحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية لعام 1932، كان بمثابة صوت دوائر الأعمال، ومعارض للتغيير والإصلاح. وقد لخص إتش. إل. منكن كل هذا، بشكل نموذجي وبصورة بليغة، بقوله: "إن ارتباطه بالأغنياء أدى بشكل واضح إلى ترنحه وعمل على تغيره. لقد أصبح لاعب جولف"[2].

جذور الصفقة الجديدة

بالنسبة للمراقب الحديث يستثير المزاج السياسي في أمريكا بعد انتخابات عام 1928، حينما بدا أن المحافظة منتصرة في كل مكان وأن الليبرالية قضية خاسرة،أكثر الذكريات الحالية: كان هذا المزاج هو السائد بعد انتخابات عام 2004، حينما اندفع المعلقون لإعلان موت الليبرالية وميلاد الأغلبية الدائمة للجمهوريين. وفي الواقع، يبدو أن المعلقين في عام 1928 كانت لديهم مبررات أكثر، فقد انتصر هربرت هوفر على آل سميث في التصويت الشعبي بنسبة 58% إلى 41%. وحتى ولاية نيويورك ذهبت لهوفر، على الرغم من أن فرانكلين ديلانو روزفلت تمكن من إحراز فوز ضئيل في سباق حاكم ولاية نيويورك، حيث فاز بـ25000 ألف صوت من جملة 2.2 مليون صوت. وقد بدا كأن العصر المُذهَّب الطويل سيستمر للأبد.

خلال السنوات الأولى من الكساد العظيم. (المترجم)، انظر:

The Editors of Encyclopædia Britannica,Herbert Hoover, Encyclopædia Britannica.

على الرابط: http://www.britannica.com/biography/Herbert-Hoover

(1) Schlesinger, Crisis of the Old Order, pp. 126-27.

(2) Quoted in Ibid., p. 303.

وما غير كل شيء كان، بالطبع، الكساد العظيم، وهو ما جعل من الصفقة الجديدة أمرا ممكنا. وبأثر رجعي، على أية حال، يمكننا أن نرى أن تحركات متواضعة نحو مجتمع أكثر مساواة كانت بالفعل قيد التنفيذ قبل أن يضرب الكساد ضربته، ليس على المستوى الفدرالي ولكن على مستوى الولاية. فمبكرا في عام 1901 مررت ميريلاند قانونا لتعويض العمال، يعطي للعمال الذين يصابون في أثناء العمل مدفوعات مالية يتم تمويلها عن طريق مساهمات إلزامية من صاحب العمل، إلا أنه أعلن فقط أن ذلك الأمر غير دستوري. وبالمثل تم رفض قانون نيويورك لعام 1910 بواسطة المحاكم، ولكن بين عامي 1911 و1913 تمكنت ثلاث عشرة ولاية من وضع نظم أساسية لتعويض العمال. وعلى امتداد نفس الفترة وضعت عددا من الولايات برامج مساعدة أولية للأمهات الأرامل والأطفال.

وتلت ذلك برامج المساعدة لكبار السن. ففي عام 1923 مررت كل من مونتانا، وبنسلفانيا، ونيفادا قوانين لمعاشات كبار السن. إلا أنه في الولايتين الأخيرتين سقطت القوانين بسرعة عن طريق المحاكم. مع ذلك، فمع حلول عام 1928 كان لدى 11 ولاية نوع من برامج التقاعد، وهي، بشكل أو بآخر، بشير بالضمان الاجتماعي. وعند نهاية العقد، مع بدء الشعور بالكساد، كانت هناك دفعة نحو تأمين البطالة، مع وضع وسيكنسون لأول برنامج بهذا الشأن في عام 1932. وكان يتوافر لهذه البرامج تمويل متواضع ويغطي عددا قليلا من الناس، ورغم هذا فقد أسس لمبدأ الضمان الاجتماعي، وولدت أيضا خبرة كان بوسع الصفقة الجديدة السحب منها.

والأمر اللافت للانتباه، بطريقة ما، كم استغرق الأمر عددا من سنوات الكساد قبل أنتكون الحكومة الفدرالية مستعدة لكي تتخذ إجراء مماثلا. فقد صنع هربرت هوفر اسمه من جهود الإغاثة في أوروبا، ورغم هذا فقد رفض بعنادٍ أية محاولة رئيسية لتقديم المساعدة داخل الوطن في مواجهة أزمة وطنية.

في نهاية المطاف، على أية حال، توافرت كل من الإرادة السياسية والزعامة من أجل برنامج ليبرالي حقيقي. وبينما كان بريان -الذي كان العمل الأخير في مسيرته المهنية هو في شجب نظرية التطور في محاكمة سكوبس[1]- الشخص

(1) محاكمة سكوبس أو محاكمة القرد، وتعرف رسميا بمحاكمة ولاية تنيسي ضد جون توماس سكوبس، كانت قضية أمريكية مشهورة حدثت عام 1925، وفيها اتهم المدرس جون سكوبس

الخطأ لتغيير عصر أمريكا المُذهَّب، كان فرانكلين ديلانو روزفلت هو إلى حد كبير الرجل المناسب في الوقت المناسب. وفي ظل زعامته تغيرت طبيعة المجتمع الأمريكي بشكل كبير نحو الأفضل.

بانتهاك قانون بتلر لولاية تنيسي الذي ينص على أنه من غير القانوني تعليم نظرية التطور في أي مدرسة تمول تمويلا حكوميا من الولاية. وقد اجتذبت المحاكمة اهتماما إعلاميا على المستوى الوطني، مع تدفق المحققين الصحفيين على بلدة ديتون التي تمت فيها المحاكمة لتغطيتها، بسبب المحامين ذوي الأسماء الكبيرة الذين مثلوا الطرفين. فقد كان ويليام جيننجز بريان الذي كان مرشحا للرئاسة ثلاث مرات، يتحدث في صف الادعاء، بينما كان كلارنس دارو، المحامي الشهير، يقوم بدور الدفاع عن سكوبس. وقد عملت المحاكمة على ترويج المناظرة بين الأصوليين وأنصار الحداثة، فبينما يقول أنصار الحداثة إن نظرية التطور لا تتناقض مع الدين، قال الأصوليين إن كلمة الله كما يكشف عنها الإنجيل لها الأولوية على أية معرفة إنسانية. (المترجم)، نقلا عن: موسوعة ويكيبيديا مادة "محاكمة القرد"

انظر أيضا: Scopes Trial, Wikipedia, the free encyclopedia

الفصل الثالث
الانضغاط العظيم

في عام 1953 أعلنت مجلة تايم أن "الأخبار الحقيقية لمستقبل الأمة السياسي ولتوجهها الاقتصادي تكمن في الناس الذين نادرا ما يرون مراسلا صحافيا"، وقد أرسلت المجلة أحد المحررين المشاركين فيها، وهو ألفِين جوزفي، في جولة وطنية. وكانت مهمته هي التعرف على أمريكا.

وكانت الصورة التي رسمها تحمل تشابها قليلا بأمريكا عام 1929. فبينما كانت أمريكا العشرينات هي أرض التطرف، من الثروة الضخمة لدى القليلين والأيام الصعبة للكثيرين، كانت أمريكا في الخمسينات كلها من نفس القطعة. "حتى في أصغر المدن وأكثر المناطق المعزولة"، بدأ مراسل تايم: "ترتدي الولايات المتحدة الثياب الملائمة للطبقة الوسطى الميسورة الحال جدا... الناس لم يتزايد ثراؤهم، ولكن العدد الأكبر منهم، وكما لم يحدث من قبل، أصبحوا يتدبرون عيشهم". وبينما كانت أمريكا العشرينات هي أرض الاستقطاب السياسي، أرض الانقسام الحاد بين اليمين المهيمن واليسار المحاصر، كانت أمريكا في الخمسينات مكانا للتفاوض والاتفاق السياسي: "كان لدى الجمهوريين والديمقراطيين تماثل

مدهـش في الأفـق والتفكـير السـياسي". أصبحـت النقابـات مؤسسـات راسـخة الرزانـة والاتـزان. وأبلـغ المزارعـون مراسـل"تايم"، بابتهـاج، أنـه لـو كان الدعـم الزراعـي اشـتراكية، فهـم اشـتراكيون.[1]

ورغـم انطبـاع محـرر "تايم"عـن أن أمريـكا قـد أصبحـت أمـة طبقـة وسـطى، أمـة الطريـق الوسـط، لم يكـن قائمـا عـلى أدلـة دامغـة، كان هنـاك كثـيرون آخـرون يشـاركونه نفس الانطبـاع. حينـما أطلـق جـون كينيـث جالبريـث[2] عـلى نقـده للقيـم الأمريكيـة مـا بعـد الحـرب "مجتمـع الوفـرة"، كان يتهكـم، ومـع هـذا فقـد كانـت نقطـة البدايـة هـي التأكيـد عـلى أن معظـم الأمريكيـين بوسـعهم تحمـل تكلفـة تغطيـة حاجـات الحيـاة الأساسـية. وبعـد عـدة سـنوات كتـب ميشـيل هارينجتـون كتابـه "أمريـكا الأخـرى" لتذكـير النـاس بـأن ليـس كل الأمريكيـين، في الواقـع، أعضـاء في الطبقة الوسـطى، ولكـن القسـم الأكـبر مـن شـعوره بسـبب الحاجـة لمثـل هـذا الكتـاب هـو أن الفقـر لم يعـد ظـرف حيـاة الأغلبيـة، ولـذا يميـل للاختفـاء عـن الأنظـار.

وكـما سـنرى، تؤكـد الأرقـام مـا فكـر كل هـؤلاء المعلقـين في أنهـم رأوه. فأمريـكا في الخمسـينات كانـت مجتمعـا للطبقـة الوسـطى، إلى حـد أبعـد بكثـير مـما كانـت

(1) Alvin Josephy, "The U.S.: A Strong and Stable Land," Time, Sep. 14, 1953.

(2) جـون كينيـث جالبريـث (15 أكتوبـر 1908-29 أبريـل 2006) اقتصـادي أمريـكي وموظـف حكومـي مـن مواليـد كنـدا عـرف بتأييـده للإنفـاق العـام، وبالجـودة الأدبيـة لكتاباتـه في الشـأن العام.بعـد أن درس في جامعـة تورنتـو بكنـدا حصـل عـلى الدكتـوراه مـن جامعـة كاليفورنيـا، بـيركلي في عـام 1934 وأصبـح مواطنـا أمريكيـا في عـام 1937، وقـام بالتدريـس في جامعـات هارفـارد وبرينسـتون حتـى عـام 1942. وخـلال فـترة الحـرب العالميـة الثانيـة وبعدهـا شـغل عـدد مـن الوظائـف الحكوميـة ثـم شـغل منصـب محـرر مجلـة فورتشـن بـين عامـي 1943 و1948 قبـل أن يعـود للحيـاة الأكاديميـة بجامعـة هارفـارد عـام 1948. وقـد أثبـت نفسـه كناشـط سـياسي أكاديمـي ليـبرالي لديـه موهبـة التواصـل مـع القـراء. كان واحـدا مـن المستشـارين الأساسـيين للرئيـس جـون ف. كينـدي، وخـدم كسـفير للولايـات المتحـدة في الهنـد بـين عامـي 1961 و1963. ثـم عـاد إلى هارفـارد وأصبـح أسـتاذا فخريـا في عـام 1975.
في كتابـه "مجتمـع الوفـرة""The Affluent Society" وجـه نقـده الشـهير لفجـوة الـثروة بـين الأمريكيـين، وبـين خطـأ "الحكمـة التقليديـة" للسياسـات الاقتصاديـة الأمريكيـة ودعـا إلى الإنفـاق أقـل عـلى السـلع الاسـتهلاكية، والإنفـاق أكـثر عـلى البرامـج الحكوميـة. (المترجـم)، انظـر:
The Editors of Encyclopædia Britannica, John Kenneth Galbraith, Encyclopædia Britannica.
على الرابط:http://www.britannica.com/editor/The-Editors-of-Encyclopdia-Britannica/4419

عليه في العشرينات، أو عما هي عليه اليوم. فالتفرقة العنصرية كانت لا تزال مهيمنة في الجنوب، وكانت كل من العنصرية المكشوفة والتمييز المكشوف ضد النساء هما القاعدة في طول البلاد وعرضها. ومع هذا كان لدى العمال العاديين وعائلاتهم سبب جيد للشعور بأنهم يشاركون في رخاء الأمة كما لم يحدث من قبل. وعلى الجانب الآخر، كان الأغنياء أقل غنى بكثير مما كانوا عليه منذ جيل واحد سابق.

وقد أطلق المؤرخان الاقتصاديان، كلوديا جولدين وروبرت مارجو، على تضييق فجوات الدخل الحادثة في أمريكا بين العشرينات والخمسينات-الانخفاض الحاد في الفجوة بين الأغنياء والطبقة العاملة، الانخفاض في تباين الأجور بين العمال-"الانضغاط العظيم". وكان استخدامهم المتعمد لعبارة تحاكي "الكساد العظيم" مناسبا، فمثله مثل الكساد، كان تضييق فجوات الدخل حدث تعريفي في التاريخ الأمريكي، شيء حول طبيعة مجتمعنا والسياسة في بلدنا. ومع ذلك فبينما لا يزال الكساد العظيم يعيش في ذاكرتنا، تم نسيان الانضغاط العظيم إلى حد بعيد. إن إنجاز مجتمع الطبقة الوسطى، الذي بدا يوما ما كحلم مستحيل، أضحى كأمر مسلم به.

نحن نعيش الآن في العصر المُذهَّب الثاني، إذ اختفى بسرعة مجتمع الطبقة الوسطى ما بعد عصر الحرب. والحكمة التقليدية لزمننا هي أنه بينما يعد هذا الاختفاء أمرا سيئا، فقد حدث نتيجة لقوى خارج نطاق سيطرتنا. ولكن قصة الانضغاط العظيم تعد ترياقا قويا للقدرية، وبيانا توضيحيابأن الإصلاح السياسي يمكنه أن يخلق توزيعا أكثر مساواة للدخل، وفي غمار تلك العملية يخلق مناخا أكثر صحة للديمقراطية.

ودعوني أتوسع في هذه النقطة بعض الشيء. في الثلاثينات، كما هو اليوم، كان هناك خط دفاع رئيسي للمحافظة ضد المطالبات المرفوعة بفعل شيء ما بشأن عدم المساواة،وهو ادعاء أنه ليس هناك ما يمكن عمله، أي ادعاء أنه ليس هناك سياسات يمكنها أن ترفع بصورة ملموسة نصيب الدخل القومي الذي تحصل عليه العائلات العاملة، أو على الأقل ليس هناك ما يمكن عمله في هذا الصدد دون تخريب الاقتصاد. مع ذلك فبشكل ما نجح كل من فرانكلين ديلانو روزفلت وهاري ترومان في تحقيق إعادة توزيع مثيرة للدخل والثروة نحو الأسفل، بحيث

جعلت الأمريكيين أكثر مساواة عما سبق، ولم يحدث تخريب للاقتصاد كما تم الادعاء، بل إن إعادة التوزيع تلك (الانضغاط الكبير) مهدت الطريق لفترة ازدهار اقتصادي عظيم لمدة جيل كامل. وإذا كان باستطاعتهم فعل ذلك آنذاك، فيجب أن نكون قادرين على تكرار إنجازهم.

ولكن كيف أمكنهم فِعل ما فعلوه؟ سوف أتحول لإعطاء التفسيرات المحتملة لذلك بعد برهة قليلة. ولكن أولا دعوني أُلقِ نظرة من قرب على المشهد الأمريكي في أعقاب الانضغاط العظيم، نحو العام 1955.

صورة لأمة الطبقة الوسطى

بحلول منتصف الخمسينات، كان حي الأغنياء في لونج أيلاند-حيث أملاك الأثرياء في الساحل الشمالي في أثناء العصر المذهب الطويل، والمركز المالي للحزب الجمهوري-لم يعد له وجود. فبعض القصور تم بيعها لقاء مبلغ زهيد، ثم بعد ذلك إما تم هدمها لتوفير مساحة لمنطقة واسعة من إسكان الطبقة الوسطى،وإما تم تكييفها لتناسب استعمال مؤسسات (أندية، دور لرعاية المسنين، خلوات دينية) ما زالت تحتل العديد من العقارات الضخمة. والبعض الآخر تم منحه لمؤسسات غير ربحية أو للحكومة، وذلك لتجنب الضريبة العقارية.

"ما الذي أجهز على العقارات الأسطورية؟" تسأل جريدة نيوزداي، جريدة لونج أيلاند، في دليلها للهياكل العقارية التي ما زالت قائمة. وكانت إجابتها إلى حد ما صحيحة: "لعنة ثلاثية حلت مع فرض ضريبة الدخل الفيدرالية، والخسائر المالية للكساد العظيم والتغيرات في هيكل الاقتصاد الأمريكي الذي جعل الخدمة المنزلية أقل جاذبية للتوظف، وبالتالي عدم توافر حشد العمال المطلوب للإبقاء على هذه الطريقة في الحياة تضج بالحركة والنشاط.[1]

وإذا ما كانت قصور حي الأغنياء ترمز للونج إيلاند في العصر المُذهَّب الطويل، فليس ثمة أدنى شك حولما حل محلها في الخمسينات: مدينة ليفتاون، الضاحية المثالية ما بعد الحرب، التي وضع حجر أساسها في عام 1947.

---

(1) "The Glittering Domains of LI's Royalty," http://www.newsday.com/entertainment/localguide/north-shore-nassau/ny-digold,0 7095725.story?cool=ny-explore-nsn-utility.

كانت منازل وليام ليفتي صغيرة جدا بمعايير مساكن الضواحي اليوم الواسعة، فالنموذج الأصلي للبيت ذيالحجرتي نوم كانت مساحته تبلغ 750 قدما مربعا (أقل من 70 مترا مربعا- المترجم) ومن دون بدروم. ولكنها كانت مساكن خاصة، بيوتا قائمة بذاتها، سابقة التجهيز بالغسالات والأجهزة الكهربائية الأخرى، وتوفر لقاطنيها مستوى من المعيشة كان يعد سابقا بعيدا عن متناول الطبقة العاملة الأمريكية. وكان موقعها في الضواحي يفترض أن الأسرة العادية لديها سيارتها الخاصة، وهو أمر لم يكن حقيقيا في 1929 ولكنه في الخمسينات كان حقيقيا قطعا.

وكان إنجاز ليفتي مرتكزا جزئيا على تطبيق تقنيات في البناء كان قد تم استخدامها خلال الحرب العالمية الثانية لبناء الثكنات العسكرية في بناء المساكن المدنية. ولكن الأمر الذي فكر فيه ليفتي، وكان صائبا، هو أنه سوف يجد سوقا جماهيرية واسعة لمساكنه، وهو تحول راديكالي لأسفل في مركز جاذبية الاقتصاد. فالأغنياء لم يعد لديهم أي شيء يماثل قوتهم الشرائية التي كانت لهم في العشرينات،بينما العمال العاديون كان لديهم قوة شرائية أكبر بكثير مما كان لديهم في أي وقت سابق.

ويعد إجراء مقارنات إحصائية بين العشرينات والخمسينات أمرا خادعاإلى حد ما، لأنه قبل مجيء دولة الرفاه لم تشعر حكومة الولايات المتحدة بالحاجة لجمع معلومات كثيرة حول من يكسب ماذا، وكيف يغطي الناس تكاليف معيشتهم. وحينما تحدث فرانكلين ديلانو روزفلت في خطاب تنصيبه الثاني (أي عند بداية فترته الثانية في البيت الأبيض-المترجم) عن أن "ثلث الأمة يسكنون بشكل سيئ، ويلبسون بشكل سيئ، ويتغذون بشكل سيئ"، فقد كان يخمن،ولم يكن في معرض تقديم تقرير وفقا لإحصاءات رسمية. وفي الواقع لم يكن لدى الولايات المتحدة تعريف رسمي حكومي للفقر، دعك من التقديرات الرسمية لعدد الأشخاص تحت خط الفقر، إلى أن تم وضع تعريف في عام 1964 ليساعد الرئيس ليندون جونسون[1] على صياغة أهداف المجتمع العظيم. ولكن رغم قصور البيانات، كان

(1) ليندون بينيس جونسون (27 أغسطس 22-1908 يناير 1973) هو الرئيس السادس والثلاثون للولايات المتحدة فيما بين عامي 1963 و1969. كان عضوا بمجلس النواب الأمريكي بين عامي 1937 و1949 وعضوا بمجلس الشيوخ من 1949 وحتى 1961 من بينها ستة أعوام كزعيم للأغلبية الديمقراطية بالمجلس. خاض الانتخابات كنائب للرئيس مع جون كنيدي في عام 1960 ثم خلفه في منصب الرئيس عقب اغتياله في 22 نوفمبر 1963. فاز بانتخابات الرئاسة في عام 1964 باكتساح في

من الواضح أنه بين العشرينات والخمسينات أصبحت أمريكا، إلى حد لم يسبق له مثيل، أمة طبقة وسطى.وجزء من التضييق الكبير في فروقات الدخل الذي حدث بين العشرينات والخمسينات تضمن تسوية الدخول لأسفل: كان الأغنياء أكثر فقرا بشكل ملحوظ في الخمسيناتمما كانوا عليه في العشرينات. وأنا أعني حرفيا "أفقر"، فنحن لا نتحدث عن الإفقار النسبي، أي فشل دخل الأغنياء في مواكبة المزيد من النمو في دخل الفئات الأقل دخلا، ولكن نتحدث عن انخفاض مطلق كبير في القوة الشرائية. فعند منتصف الخمسينات كان الدخل الحقيقي بعد الضرائب لفئة الـ1% الأغنى من السكان ربما يكون أقل بمقدار 20% إلى 30% مما كان عليه منذ جيل مضى. والدخول الحقيقية للأغنياء حقيقة -فلنقل، هؤلاء الذين تبلغ نسبتهم 0.1% والموجودون على قمة توزيع الدخل-كانت أقل من نصف ما كانت عليه في العشرينات. (كان الدخل الحقيقي قبل الضرائب لنسبة الـ1% على القمة في منتصف الخمسينات هو تقريبا نفس ما كان عليه في عام 1929، بينما كان الدخل قبل الضرائب قد انخفض لفئة الـ0.1% في القمة بنحو 40%. وفي الوقت ذاته ارتفعت معدلات الضرائب على دخل الأغنياء بصورة حادة[1]).

في غضون ذلك، تضاعف تقريبا دخل العائلة للفئة الوسيطة التي تقع في وسط جدول توزيع الدخل منذ عام 1929.[2] ولم يكن لدى معظم العائلات

مواجهة باري جولدووتر. دشن ما عرف ب "الـمجتمع العظيم" وذلك بإصدار عدة تشريعات من أهمها قانون الحقوق المدنية لحظر التفرقة العنصرية في المرافق العامة والسكن والعمل، وقانون حقوق التصويت الذي أعطى الحق في التصويت لجميع العرقيات، إضافة إلى برامج الرعاية الصحية للمسنين والرعاية الصحية للفقراء والحرب على الفقر التي ساعدت الملايين على عبور خط الفقر. تدهورت شعبيته بعد عام 1966 نتيجة للاحتجاج على سياسته بتوسيع التورط الأمريكي في حرب فيتنام، حيث زاد عدد القوات من 16 ألف جندي عام 1963 إلى 550 ألفا في أوائل عام 1968. خلال الانتخابات التمهيدية للرئاسة عام 1968 عانى الحزب الديمقراطي من انقسام شديد، وبعد أداء جونسون الضعيف في تلك الانتخابات في نيو هامبشير أعلن انسحابه. (المترجم)، انظر: ويكيبيديا، مادة ليندون جونسون.

انظر أيضا: ليندون جونسون، المعرفة على الرابط:http://www.marefa.org/index.php/%D9%84%D9%8A%D9%86%D8%AF%D9%88%D9%86_%D8%AC%D9%88%D9%86%D8%B3%D9%88%D9%86

(1) Piketty and Saez "Income Inequality."

(2) الدخل للخمس الثاني من العائلات من الإحصاءات التاريخية للولايات المتحدة، السلسلة

دخل أعلى فقط، بل كان لديهم أمان أكثر أيضا. فقد عرض على الموظفين مزايا جديدة، مثل التأمين الصحي وخطط التقاعد: قبل الحرب كانت أقلية صغيرة من الأمريكيين لديها تأمين صحي، ولكن بحلول عام 1955 كان لدى أكثر من 60% على الأقل أبسط نمط للتأمين الصحي، وتغطية مصاريف العلاج بالمستشفيات.(1) ودعمت الحكومة الفيدرالية الأمان الجديد للتوظيف الخاص مع مزايا حيوية مثل مدفوعات لتأمين العمال العاطلين المسرحين من العمل والضمان الاجتماعي للمتقاعدين.

ولذا كان العمال الأمريكيونأفضل بمراحل في الخمسيناتمما كانوا عليه في العشرينات، بينما كانت النخبة الاقتصادية أسوأ حالا. وحتى بين العمال الأمريكيين تم تضييق الفوارق الاقتصادية، إذ تظهر البيانات المتاحة أنه بحلول الخمسينات كان العمال غير المهرة وشبه المهرة، مثل الأشخاص العاملين على خطوط التجميع، قد سدوا معظم فجوة الأجر مع العمال الأكثر مهارة، مثل الميكانيكيين. وكان الموظفوين الحاصلون على تعليم نظامي، مثل المحامين والمهندسين، يتلقون مدفوعات أقل بكثير كعلاوة فوق المدفوعات التي يتلقاها العمال اليدويون مقارنة بما كانوا يتلقونه في الخمسينات، أو بما يتلقونه اليوم.

والإحصاءات الاقتصادية مفيدة، بالطبع، فقط إلى الحد الذي تلقي فيه الضوء على الظروف الإنسانية. بيد أن هذه الإحصاءات تحكي قصة إنسانية، تلك القصة المتعلقة بالدمقرطة الاقتصادية واسعة النطاق للمجتمع الأمريكي.

فمن جهة كان أغلبية الأمريكيين قادرين، للمرة الأولى، على تحمل نفقات العيش في مستوى معيشة لائق.وأنا أعرف أن مصطلح "لائقة" معرف جيدا، ولكن هذا ما أعنيه أنا به: في العشرينات كانت التكنولوجيا التي تقدم وسائل ومرافق الراحة الرئيسية للحياة الحديثة موجودة بالفعل. فلو أن أمريكيا حديثا تم نقله، فلنقللعصر إبراهام لينكولن لفَزِع من خشونة وفظاظة الحياة، بصرف النظر عن كم النقود الذي يحمله. ولكن لو تم نقل أمريكي حديث للعشرينات ومُنح قدرا كافيا من المال فسوف يجد الحياة بصفة عامة مقبولة. وكانت المشكلة أن أغلب الأمريكيين في العشرينات لم يكن بمقدورهم تحمل نفقات هذه الحياة

G328، بعد تعديلها وفقا لمؤشر أسعار المستهلكين الصادر عن مكتب إحصاءات العمل. Bls.gov

(1) Historical Statistics, B 402, ibid.

المقبولـة. ولنأخـذ عـلى سـبيل المثـال أبسـط وسـائل الراحـة، فمعظـم الأمريكيـين القرويـين لم يكـن لديهـم أنابيـب ميـاه وصرف داخـل منازلهـم، وكان عـلى العديـد مـن الأمريكيـين في الحـضر المشـاركة في المرافـق مـع عائـلات أخـرى. وكانـت الغسـالات موجـودة، ولكنهـا لم تكـن أمـرا متعارفـا عليـه في كل منـزل. وكانـت السـيارات الخاصـة والتليفونـات موجـودة، ولكـن معظـم العائـلات لم تكـن تملكهـا. في عـام 1936 تنبـأ اسـتطلاع غـير رسـمي للـرأي العـام أجرتـه جريـدة الخلاصـة الأدبيـة فـوزا سـاحقا لألـف لانـدون، المرشـح الجمهـوري لانتخابـات الرئاسـة. كيـف كانـت الخلاصـة الأدبيـة عـلى خطـأ لهـذا الحـد؟ حسـنا، كان الاسـتطلاع قائمـا عـلى الاسـتبيان عـبر التليفـون، بيـد أن ذلـك حـدث في وقـت كان نحـو ثلـث الأمريكيـين هـم فقـط لديهـم تليفـون في المنـزل، بينـما هـؤلاء الذيـن ليـس لديهـم تليفـون كانـوا يميلـون لتأييـد روزفلـت. ومـن هنـا جـاء خطـأ التنبـؤ.

ومـع حلـول الخمسـينات، وعـلى الرغـم مـن أن الأمريكيـين القرويـين كانـوا لا يزالـون يعتمـدون عـلى دورات ميـاه خـارج الـدور، وكانـت العائـلات الحضريـة تعيـش في عـمارات حيـث توجـد دورات الميـاه في نهايـة الردهـة، إلا أنهـم كانـوا أقليـة بـكل تأكيـد. وبحلـول عـام 1955 كانـت أغلـب العائـلات الأمريكيـة تمتلـك سـيارة. وكانـت التليفونـات موجـودة في70% مـن المسـاكن.

مـن جهـة أخـرى فملاحظـة ف. سـكوت فيتزجيرالـد[1] أن الأغنيـاء "يختلفـون عنـك وعنـي" لم تكـن أبـدا، قبـل أو منـذ ذلـك الوقـت، أقـل صحـة مـما كانـت عليـه في الجيـل الـذي تـلى الحـرب العالميـة الثانيـة. فمـع حلـول الخمسـينات، كان عـدد ضئيـل جـدا مـن الأمريكيـين قـادرا عـلى تحمـل تكلفـة نمـط حيـاة يضعهـم في فضـاء مختلـف عـن الفضـاء الـذي تحتلـه الطبقـة الوسـطى. ربمـا كان لـدى الأغنيـاء منـازل

(1) فرنسـيس سـكوت كي فيتزجيرالـد (24 سـبتمبر 1896-21 ديسـمبر 1940) مؤلـف أمريـكي للروايـات والقصـص القصـيرة، تعـد كتابتـه نموذجـا مثاليـا لكتابـات عـصر الجـاز، وهـو المصطلـح الـذي وضعـه هـو نفسـه. يعـد أحـد أعظـم الكتـاب الأمريكيـين في القـرن العشريـن، كـما يعـد عضـوا في الجيـل الضائـع للعشرينـات. كتـب أربـع روايـات: هـذا الجانـب مـن الجهـة، والجميلـة والملعـون، وجاتسـبي العظيـم، والليلـة الناعمـة، إضافـة إلى روايـة خامسـة لم تكتمـل هـي حـب التاجـر الأخـير، ونـشرت بعـد وفاتـه. كـما كتـب فيتزجيرالـد أيضـا العديـد مـن القصـص القصـيرة. كـما مثلـت رواياتـه في أفـلام سـينمائية أشـهرها جاتسـبي العظيـم عـام 2013. (المترجـم)، نقـلا عـن: ويكيبيديـا، مـادة "فرنسـيس سـكوت فيتزجيرالـد".

أكبر من منازل أغلب الناس، ولكنهم لم يعد بمقدورهم تحمل تكلفة السكن في قصور ضخمة، خاصة لأنهم لم يعودوا يستطيعون تحمل الخدم الضروريين لصيانة هذه القصور. والاختلاف المعتاد في الزي بين الأغنياء وكل شخص آخر اختفى إلى حد بعيد، جزئيا، بسبب أن العمال العاديين كانوا يستطيعون الآن تحمل كلفة لبس (وتنظيف) ثياب جيدة، وجزئيا بسبب أن الأغنياء لم يعد بوسعهم تحمل كلفة لبس أزياء تحتاج لحشد من الخدم للمساعدة على إخراجها وإدخالها في دواليبهم. وحتى تفوق الرجل الغني المعتاد في الانتقال -حتى هذا اليوم يقال إن المتاجر الراقية تهتم بتلبية طلبات العملاء الأثرياء[1]- قد اختفى الآن،إذ إن أغلب البشر لديهم سيارات خاصة.

وأعتقد أنه ليس من قبيل الرومانسية القول إن كل هذا ساهم في تولد حس جديد بالكرامة بين الأمريكيين العاديين. وكل شيء نعرفه عن أمريكا خلال العصر المُذهَّب الطويل يوضح أنها كانت، على الرغم من أيديولوجية الأمة الديمقراطية، مجتمعا طبقيا للغاية، يعتبر فيه الأغنياء أنهم "المتفوقون طبقيا" على العمال، ويعيش فيه العمال في خوف (وبُغض) تجاه "الرؤساء". ولكن في أمريكا ما بعد الحرب العالمية الثانية-وهنا يمكنني أن أتحدث من ذاكرتي الشخصية عن المجتمع الذي ترعرعت فيه، إلى جانب ما يمكننا تعلمه مما يقوله ويكتبه الناس-كان هذا الشعور بالطبقية قد انتهى. كان لدى المجتمع الأمريكي ما بعد الحرب فقراؤه، ولكن الأغنياء حقيقة كانوا نادرين، وكان لهم وقع ونفوذ ضئيل جدا في المجتمع. فالعامل الذي كان محميا بصورة جيدة من النقابة، كما كان العديد منهم في ذلك الوقت، كان لديه وظيفة آمنة وغالبا بأجر يقارب الدخل الذي يحصل عليه المهني عالي التدريب. وكنا جميعا نعيش حيوات مادية ليست مختلفة إحداها عن الأخرى إلا بقدر اختلاف امتلاك الكاديلاك عن امتلاك الشيفرولية، وقد تكون حياة أكثر ترفا من الأخرى، ولكن لم تكن هناك اختلافات كبيرة في أين يمكن أن يذهب الناس وما يمكن أن يفعلوه.

(1) يورد المؤلف هنا نصا أن المتاجر الراقية تهتم بتلبية طلبات carriage trade ويعنى المصطلح العملاء الأثرياء وهنا يلعب المؤلف على التورية الموجودة في النص الإنجليزي. والحقيقة أن معنى العملاء الأثرياء جاء تاريخيا من أن المتاجر كانت تهرع لتلبية طلبات من يحضرون بعرباتهم الخاصة التي تجرها الخيول، لأنها كانت دليلا على الغنى. (المترجم)

ولكن كيف ظهر هذا المجتمع الديمقراطي للوجود؟

ما الذي حدث للأغنياء؟

ابتكر سيمون كوزنتس، وهو مهاجر روسي إلى الولايات المتحدة وحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1971، الإحصاءات الاقتصادية الحديثة. فخلال الثلاثينات ابتدع احصاءات الدخل القومي لأمريكا، وهو نظام الأرقام-بما فيها الناتج المحلي الإجمالي-الذي مكننا من تتبع دخل الأمة. وخلال الخمسينات حول كوزنتس اهتمامه من الحجم الإجمالي للدخل القومي إلى مكوناته. وعلى الرغم من قصور البيانات، كان قادرا على إظهار أن توزيع الدخل في أمريكا ما بعد الحرب كان أكثر مساواة مقارنة بما كان عليه قبل الكساد العظيم. ولكن هل غيّر هذا نتيجة السياسة أو قوى السوق غير الشخصية؟

بشكل عام يميل الاقتصاديون، المنتظمون في مدرسة أهمية اليد الخفية، للتشكك في قدرة الحكومات على تشكيل الاقتصاد. وكنتيجة لهذا يميل الاقتصاديون للنظر، في المقام الأول، إلى قوى السوق باعتبارها سبب التغيرات الكبيرة في توزيع الدخل. وغالبا ما يرتبط اسم كوزنتس (ظلما) بالنظرة التي ترى أن هناك دورة طبيعية من عدم المساواة مدفوعة بقوى السوق. وقد اتفق أن أصبحت هذه الدورة الطبيعية تدعى "منحنى كوزنتس".

وإليك كيف من المفترض أن يعمل منحنى كوزنتس: في المراحل المبكرة من التنمية، كما تذهب القصة، تتضاعف الفرص الاستثمارية لهؤلاء الذين يملكون المال، بينما يتم الإبقاء على الأجور منخفضة بتدفق العمل الريفي الرخيص إلى المدن. والنتيجة هي أنه مع تصنيع البلد، يزيد عدم المساواة، حيث تبزغ أقلية من الصناعيين الأغنياء، بينما العمال العاديون يبقون موحولين في الفقر. وبمعنى آخر كانت فترة من عدم المساواة الواسعة، مثل أمريكا العصر المُذهَّب الطويل، ناتجا طبيعيا للتنمية.

ولكن في النهاية يصبح رأس المال أكثر وفرة، ويجف تيار العمال القادمين من الريف، وتبدأ الأجور في الارتفاع، وتتجه الأرباح للاستقرار أو تنخفض. ويصبح الرخاء واسع الانتشار، كما يصبح الاقتصاد بوجه عام اقتصاد طبقة وسطى.

حتى الثمانينات اعتقد معظم الاقتصاديين الأمريكيين، على الأقل هؤلاء الذين فكروا في الموضوع على الإطلاق، أن هذه كانت قصة أمريكا على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين. وكان العصر المُذهَّب الطويل، حسب اعتقادهم، يعد مرحلة كان على البلد أن يمر بها، والطبقة الوسطى التي أعقبت ذلك، كما يعتقدون، كانت حالة نهائية سعيدة طبيعية وحتمية لعملية التنمية الاقتصادية.

ولكن مع حلول منتصف الثمانينات أصبح واضحا أن القصة لم تنته، إذ إن عدم المساواة كان يرتفع مرة أخرى. بينما يعتقد العديد من الاقتصاديين أن هذا، بدوره، هو نتيجة عنيدة لقوى السوق، مثل التغيرات التكنولوجية التي وضعت وزنا متزايدا للمهارة، وقادت الاهتمامات الجديدة بشأن عدم المساواة إلى النظر للماضي لما جرى من تسوية في الدخول التي حدثت منذ جيل واحد سابق. وخمن ماذا: فكلما نظر المرء بحرص أكبر لعملية تسوية الدخل، بدا أنها أقل قربا من كونها استجابة تدريجية لقوى السوق غير الشخصية، وبدا أنها أكثر قربا من الوقوع عبر تغير مفاجئ، فقد جُلبت إلى حد كبير بواسطة تغير في موازين القوى السياسية.

والطريقة الأسهل لرؤية كل من المفاجئة في التغيير، وترجيح أهمية القوى السياسية، هي النظر إلى دخول الأثرياء،الـ1% أو أقل، على قمة هرم توزيع الدخل.

والواقع أن معرفتنا عن الدخول التاريخية للأثرياء أكبر من معرفتنا عن بقية السكان، لأن الأثرياء يدفعون ضرائب الدخل منذ عام 1913، وفي غمار تلك العملية يمدون الحكومة الفيدرالية بالمعلومات عن أحوالهم المالية. وما تشير إليه البيانات أنه لم يكن هناك اتجاه نحو انخفاض عدم المساواة في منتصف الثلاثينات أو حتى بعد ذلك: حينما قدم فرانكلين ديلانو روزفلت خطاب التنصيب في بداية فترته الثانية في عام 1937، ذلك الخطاب الذي تحدث فيه عن أن ثلث الأمة مازال يعيش في فقر، كان هناك دليل محدود على أن الأغنياء كانوا في وضع اقتصادي أقل هيمنة مما كان لديهم قبل الحرب العالمية الأولى. ولكن بعد مجرد عقد واحد إذا بالأغنياء قد انخفضت مرتباتهم، فالانخفاض الحاد في الدخول عند القمة، التي وثقناها للخمسينات، كان قد حدث بالفعل بحلول عام 1946 أو 1947. والإفقار النسبي للنخبة الاقتصادية لم يحدث بشكل تدريجي، بل حدث بشكل مفاجئ تماما.

هـذا الانخفـاض المفاجـئ في ثـروات الأغنيـاء يمكـن تفسـيره إلى حـد كبـير بكلمـة واحـدة: الضرائـب.

وهاكـم كيـف يمكـن التفكـير فيـما حـدث. ففـي أمريـكا قبـل الحـرب كانـت مصـادر الدخـول المرتفعـة مختلفـة عـما هـي عليـه الآن. فبينـما الأثريـاء اليـوم يتلقـون معظـم دخلهـم مـن العمـل (فكـر في المديريـن التنفيذيـين ومنـح خيـارات الأسـهم)، في العشرينـات كانـت الأمـور أكـثر بسـاطة. فالأغنيـاء كانـوا أغنيـاء بسـبب العائـد الـذي يتلقونــه عــلى رأس المــال. وإذإن معظــم الدخــل مــن رأس المــال يذهــب إلى نســبة صغـيرة مــن الســكان، ففــي عــام 1929، ذهــب 70% مــن توزيعــات الأربــاح عــلى الأسـهم إلى 1% فقـط مـن الأمريكيـين،وكان تقسـيم الدخـل بـين الأغنيـاء وأي أحـد آخـر محـددا بشـكل عـام عـبر تقسـيم الدخـل بـين الأجـور والعوائـد عـلى رأس المـال.

لـذا ربمـا تفكـر في أن الانخفـاض الحـاد في نصيـب الأثريـاء مـن الدخـل القومـي الأمريـكي لا بـد قـد انعكـس في تحـول كبـير في توزيـع الدخـل بعيـدا عـن رأس المـال وفي اتجـاه العمـل المأجـور. ولكـن تبـين أن هـذا لم يحـدث. في عـام 1955 كانـت حصـة العمـل 69% مـن الدخـل المكتسـب قبـل الضرائـب في قطـاع الـشركات، مقابـل 31% لـرأس المـال، وهـذا يعـد مختلفـا بالـكاد عـن نسـبة تبلـغ 67% مقابـل 33% في عـام 1929.

ولكـن بينـما تغـير بالـكاد تقسـيم الدخـل قبـل الضرائـب بـين رأس المـال والعمـل المأجـور بـين العشرينـات والخمسـينات، فتوزيـع الدخـل بعـد الضرائـب بـين هـؤلاء الذيــن يحصلــون عــلى دخولهــم بشــكل أســاسي مــن رأس المــال، وهــؤلاء الذيــن يعتمـدون بشـكل أسـاسي عـلى الأجـور، تغـير بشـكل راديـكالي.

كانـت الضرائـب في العشرينـات مجـرد نسـبة ضئيلـة مـن دخـل الأغنياء.فقـد كان أعـلى معـدل ضريبـة عـلى الدخـل يبلـغ 24% فقـط، ولأن ضريبـة الـتركات حتـى عـلى الملكيـات الكبـيرة جـدا كانـت 20% فقـط، لـذا فلـم يكـن لـدى العائـلات الثريـة صعوبـة تذكـر في الحفـاظ عـلى أنفسـهم. ولكـن مـع مجـيء الصفقـة الجديـدة، بـدأ الأثريـاء في مواجهـة ضرائـب لم تكـن أعـلى بكثـير مـن تلـك التـي كانـت مفروضـة في العشرينـات فقـط، بـل تعـد مرتفعـة أيضـا بمعايـير اليـوم. فقـد تـم رفـع الحـد الأعـلى لضريبـة

الدخـل (يبلـغ هـذا المعـدل حاليـا [1]35%) ليبلـغ 63% خـلال الفـترة الأولى لإدارة روزفلـت، ثـم رُفـع إلى 79% خـلال الفـترة الثانيـة..وبحلـول منتصـف الخمسـينات، ومـع مواجهـة الولايـات المتحـدة لتكاليـف الحـرب البـاردة، تـم رفـع المعـدل إلى 91%.

عـلاوة عـلى ذلـك، جـاءت هـذه الضرائـب الشـخصية أعـلى عـلى دخـل رأس المال الـذي كان قـد تـم تخفيضـه بشـكل ملمـوس، ليـس بسـبب الانخفـاض في أربـاح الـشركات ولكـن في الأربـاح التـي سـمح لهـم بالاحتفـاظ بهـا، فمتوسـط معـدل الضريبة الفيدراليـة عـلى أربـاح الـشركات ارتفـع مـن أقـل مـن 14% في عـام 1929 إلى أكـثر مـن 45% في عـام 1955.

وهنـاك شيء إضـافي آخـر: لم يكـن فقـط هـؤلاء الذيـن يعتمـدون عـلى الدخـل مـن رأس المـال مَـن وجـدوا أن كثـيرا مـن هـذا الدخـل يذهـب بفعـل الضرائـب، بـل إنهـم وجـدوا أنـه أصبـح أمـرا أكـثر صعوبـة تمريـر ثرواتهـم لأطفالهـم. فقـد ارتفـع المعـدل الأعـلى لضريبـة الـتركات مـن 20% إلى 45%، ثـم إلى 60%، ثـم 70%، وأخـيرا 77%. وذلـك -جزئيـا- نتيجـة لكـون ملكيـة الـثروة أصبحـت أقـل تركـزا بشـكل واضـح، فأغنـى 0.1% مـن الأمريكيـين كانـوا يمتلكـون أكـثر مـن 20% مـن ثـروة الأمـة في عـام 1929، ولكنهـم امتلكـوا فقـط نحـو 10% مـن ثـروة الأمـة عنـد منتصـف الخمسـينات.

إذا فـما الـذي حـدث للأغنيـاء؟ بشـكل أسـاسي قامـت الصفقـة الجديـدة بفـرض ضريبـة عـلى الكثـير، ربمـا معظـم دخولهـم. ولـذا فليـس مـن المسـتغرب أن تـم النظـر إلى فرانكلـين ديلانـو روزفلـت كخائـن لطبقتـه.

العمال والنقابات

بينـما كان الأغنيـاء أكـبر ضحايـا الانضغـاط العظيـم، كان العـمال أصحـاب الياقـات الزرقاء-وفـوق الـكل، العـمال الصناعيون-أكـبر المسـتفيدين. فالثلاثـة عقـود التاليـة للانضغـاط العظيـم، مـن منتصـف الأربعينـات وحتـى منتصـف السـبعينات، كانـت العـصر الذهبـي للعمـل اليـدوي.

(1) كان هـذا وقـت كتابـة ونـشر الكتـاب، أي في عـام 2007، وقـد اسـتمر هـذا الحـد الأعـلى خـلال الفـترة الأولى لحكـم الرئيـس أوبامـا، أمـا خـلال الفـترة الثانيـة، أي بـدءا مـن عـام 2013، فقـد وُضـع حـد أعـلى جديـد يبلـغ 39.6%. (المترجـم)

وفي حقيقــة الأمــر، كان الرجــال الأمريكيــون الحاصلــون عــلى شــهادة التعليــم الثانــوي وليــس الجامعــة مــع نهايــة الخمســينات يكســبون، مــع أخــذ معــدل التضخــم في الاعتبــار، بقــدر مــا يكســب العــمال الذيــن لديهــم نفــس المؤهــلات اليــوم. وكانــت مكانتهــم النســبية، بالطبــع، أعــلى بكثــير، فقــد كان العــمال أصحــاب الياقــات الزرقــاء، خاصــة الذيــن يعملــون في وظائــف جيــدة، غالبــا مــا يكســبون أكــثر مــما يكســب المهنيــون خريجــو الكليــات.

لمــاذا كان هــذا الوقــت طيبــا جــدا للعــمال ذوي الياقــات الزرقــاء؟ يمكــن القــول إلى حــد مــا إنــه تمــت مســاعدتهم بســبب حالــة الاقتصــاد العالمــي: كانــت الــشركات الصناعيــة في الولايــات المتحــدة قــادرة عــلى دفــع أجــور مرتفعــة جزئيــا بســبب مواجهتها لمنافســة أجنبيــة محــدودة. كــما تمــت مســاعدتهم أيضــا بســبب قيــود الهجرة المتشــددة التــي فرضهــا قانــون الهجــرة لعــام 1924. ولكــن لــو كان هنــاك ســبب مفــرد يفــسر لمــاذا كانــت حيــاة العــمال ذوي الياقــات الزرقــاء أفضــل بكثــير في الخمســينات، مقارنــة بمــا كانــوا عليــه في العشرينــات، فهــو صعــود النقابــات.

عنــد نهايــة العشرينــات، كانــت الحركــة النقابيــة الأمريكيــة في تراجــع. فقــد فشــلت محــاولات التنظيــم الرئيســية، جزئيــا، بســبب نجــاح أصحــاب الأعمال في كــسر الإضرابات، وجزئيــا بســبب انحيــاز الحكومــة بشــكل منتظــم إلى جانــب أصحــاب الأعــمال، فتقــوم باعتقــال منظمــي النقابــة وترحيلهــم، كــما كانــت الحالــة دائمــا، إذا كانــوا مــن مواليــد الخــارج. وكانــت عضويــة النقابــات قــد اشــتدت فجــأة خــلال فــترة الحــرب العالميــة الأولى، وهبطــت بحــدة بعــد ذلــك. بحلــول عــام 1930 كان عــدد العــمال غــير الزراعيــين النقابيــين لا يزيــد إلا قليــلا عــلى 10% مــن عــدد العــمال الإجــمالي، وهــو رقــم يقــارن نســبيا بالقســم النقــابي مــن العــمال في القطــاع الخــاص اليــوم. وقــد اســتمرت عضويــة النقابــات في الانخفــاض في الســنوات القليلــة الأولى مــن الكســاد العظيــم، حتــى وصلــت إلى نقطــة دنيــا في عــام 1933.

ولكــن في ظــل الصفقــة الجديــدة اشــتد عــود النقابــات فجــأة مــن حيــث العضويــة والنفــوذ. فقــد زادت عضويــة النقابــات ثلاثــة أمثــال بــين عامــي 1933 و1938، ثــم تضاعفــت تقريبــا مــرة أخــرى بحلــول عــام 1947. وعنــد نهايــة الحــرب العالميــة الثانيــة كان أكــثر مــن ثلــث العــمال غــير الزراعيــين أعضــاء في نقابــات، والعديــد مــن العــمال الآخريــن كانــوا يتلقــون أجــورا، ضمنيــا أو صراحــة، وضعــت بحيــث إمــا تكــون مناظِــرة

لأجـور العـمال النقابيـين، أو لتجعـل العـمال سـعداء بمـا يكفـي لإحبـاط منظمـي النقابـات.

لماذا صعـدت عضويـة النقابـات؟ هـذه قضيـة مثـار جـدال جـدي بـين الاقتصاديين والمؤرخين.

إحـدى القصـص حـول صعـود عضويـة النقابـات تعطـي معظـم الفضـل (أو اللـوم والتوبيـخ، حسـب المنظـور الـذي تتبنـاه) للصفقـة الجديـدة. فحتـى حـدوث الصفقـة الجديـدة كانـت الحكومـة الفيدراليـة حليفـا يعتمـد عليـه لأصحـاب الأعـمال السـاعين لقمـع منظمـي النقابـات أو سـحق النقابـات القائمـة. أمـا في ظـل إدارة فرانكلـين ديلانـو روزفلـت فقـد أصبحـت الحكومـة الفيدراليـة، بـدلا مـن ذلـك، حاميـة لحـق العـمال في التنظيـم. وكان تصريـح روزفلـت عنـد توقيـع قانـون علاقـات عمـل عادلـة لسـنة 1935، وهـو القانـون الـذي أسـس مجلـس علاقـات العمـل الوطنيـة، قـد أدى إلى أن يكـون مـن الصعـب جعـل الأمـر أكـثر وضوحـا: "هـذا القانـون يحـدد، كجـزء مـن قانوننـا المكتـوب، حـق العاملـين في الصناعـة في التنظيـم الـذاتي بهـدف التفـاوض الجماعـي، ويقـدم الأسـاليب التـي يمكـن للحكومـة بواسـطتها حمايـة هـذا الحـق القانـوني". ولهـذا فليـس أمـرا مدهشـا مجادلـة العديـد مـن المؤرخـين بـأن هـذا الانقـلاب في السياسـة العامـة تجـاه النقابـات هـو الـذي تسـبب في الصعـود الكبـير للنقابـات.

وتضـع قصـة بديلـة للقصـة السـابقة، عـلى أيـة حـال، تركيـزا أقـل على دور سياسـة الحكومـة بينـما تضـع تركيـزا أكـبر عـلى الديناميكيـات الداخليـة للحركـة النقابيـة ذاتهـا. يشـير ريتشـارد فريمـان، وهــو اقتصـادي متخصـص في اقتصاديـات العمـل في جامعـة هارفـارد، إلى أن الصعـود النقـابي في الثلاثينـات يماثـل صعـودا سـابقا بـين عامـي 1910 و1920، كـما كان هنـاك صعـود مماثـل خـلال الثلاثينـات في الـدول الغربيـة الأخـرى، ويبـين هـذا أن فرانكلـين ديلانـو روزفلـت والصفقـة الجديـدة ربمـا لم يلعبـا دورا حاسـما. ويجـادل فريمـان بـأن مـا حـدث حقيقـة في الثلاثينـات كان عمليـة مـن مرحلتـين، وهـي عمليـة مسـتقلة إلى حـد بعيـد عـن أفعـال الحكومـة. فـأولا، أدى الكسـاد العظيـم إلى قيـام العديـد مـن أصحـاب الأعـمال بتخفيـض الأجـور، مـا أعطـى قـوة جديـدة للحركـة النقابيـة مـع سـعي العـمال الغاضبـين للتنظيـم لمكافحـة خفـض الأجـور. ثـم أصبحـت هـذه القـوة الصاعـدة للحركـة النقابيـة ذاتيـة التعزيـز، مـع قيـام العـمال

الذيـن انضمـوا بالفعـل للنقابـات بتقديـم دعـم حيـوي في شـكل معونـة ماليـة، ورقبـاء مـن المضربـين، وغـير ذلـك، للعـمال الآخريـن السـاعين للتنظيـم.

وليـس مـن الواضـح مـا إذا كان علينـا أن نختـار مـا بـين هاتـين القصتـين. فنفـس العوامـل التـي حشـدت العـمال سـاعدت أيضـا عـلى إمـداد الصفقـة الجديـدة بالقـوة السياسـية التـي تحتاجهـا لتغيـير السياسـة الفيدراليـة. وفي الأثنـاء، فحتـى لـو لم يقـم فرانكلـين ديلانـو روزفلـت وحـده بخلـق الظـروف لحركـة نقابيـة قويـة، فمـن المؤكـد أن التحـول الحكومـي مـن عميـل لـدى الزعـماء إلى حـامٍ للعـمال لا بـد أن يكـون قـد سـاعد عـلى بـث الحيويـة في النقابـات.

وأيـا كان الثقـل النسـبي للسياسـة، والكسـاد، وديناميكيـات التنظيـم في صعـود النقابـات، فـكل شيء نعرفـه عـن النقابـات يخبرنـا بأنـه كانـت هنـاك قـوة جديـدة تعـد عامـلا رئيسـيا في خلـق مجتمـع الطبقـة الوسـطى. ووفقـا لطائفـة عريضـة مـن البحـث العلمـي الرصـين، كان للنقابـات أثـران رئيسـيان لهـما صلـة وثيقـة بالانضغـاط العظيـم. الأثـر الأول، هـو رفـع النقابـات لمتوسـط أجـور أعضائهـا؛ كـما أنهـا أيضـا، بشـكل غـير مبـاشر وفي حـدود أقـل، عملـت عـلى رفـع أجـور العـمال المماثلـين، حتـى لـو لم يكونـوا ممثَّلـين عـن طريـق نقابـة، مـع محاولـة أصحـاب العمـل تقليـص جاذبيـة ديناميكيـة النقابـات لعمالهـم. وكمحصلـة لذلـك فقـد مالـت النقابـات لتقليـل الفجـوة في الأجـر المكتسـب بـين العـمال ذوي الياقـات الزرقـاء والوظائـف الأعـلى دخـلا، مثـل المديريـن. أمـا الأثـر الثـاني، فهـو ميـل النقابـات لتضييـق فجـوة الدخـل بـين العـمال ذوي الياقـات الزرقـاء أنفسـهم، بالمفاوضـة مـن أجـل زيـادات أكـبر في الأجـور لأعضائهـا الذيـن يتلقـون أسـوأ الأجـور، مقارنـة بالزيـادات في أجـور أعضائهـا الذيـن يتلقـون أفضـل الأجـور. كـما أن أصحـاب الأعـمال التـي لا يوجـد بهـا نقابـات، والذيـن يسـعون لإحبـاط منظمـي النقابـات يميلـون لمحـاكاة هـذا الأثـر. وبمعنـى آخـر كان التأثـير المعـروف للنقابـات عـلى الأجـور هـو بالضبـط مـا شـهدناه في الانضغـاط العظيـم: زيـادة في أجـور العـمال ذوي الياقـات الزرقـاء مقارنـة بالمديريـن والمهنيـين، وتضييـق فجـوة التفـاوت في الأجـور بـين العـمال ذوي الياقـات الزرقـاء أنفسـهم.

ومـع ذلـك،لا تـزال النقابيـة بحـد ذاتهـا غـير كافيـة لأن تـؤدي إلى المـدى الكامـل للانضغـاط. فالتحـول التـام تطلـب الظـروف الخاصـة التـي وفرتهـا الحـرب العالميـة الثانيـة.

أجور الحرب

تستطيع الحكومة في ظل الظروف العادية في اقتصاد السوق مثل الولايات المتحدة، على أقصى تقدير، التأثير على الأجور؛ إذ إنها لا تحدد هذه الأجور بصورة مباشرة. ولكن لمدة أربعة أعوام تقريبا في الأربعينات كانت أجزاء مهمة من اقتصاد الولايات المتحدة تتحكم بها الحكومة إلى حد ما بشكل مباشر، كجزء من المجهود الحربي. واعتادت الحكومة استخدام نفوذها لتحقيق تسوية رئيسية في الدخل.

وقد تم إنشاء مجلس عمل الحرب الوطني حقيقة بواسطة وودرو ويلسون في عام 1918. وكان التكليف المنوط به هو الفصل في المنازعات بين العمل ورأس المال، وذلك من أجل تجنب الإضرابات التي ربما تعرقل المجهود الحربي. وعمليا فقد حابى المجلس مصالح العمال، بحماية حق العمال في التنظيم والتفاوض الجماعي، والضغط من أجل مستوى أجر كافٍ لتغطية تكاليف المعيشة العادية. ولذلك زادت عضويات النقابات بمقدار الضعفين تقريبا خلال مدة قصيرة.

وقد تم إلغاء مجلسعمل الحرب بعد الحرب العالمية الأولى، وعادت الحكومة الفيدرالية إلى سياستها المعهودة بمناصرة موقف أصحاب الأعمال. وكما ذكرنا بالفعل، فسرعان ما وجد العمل نفسه في تراجع، وتم التراجع عن مكاسب وقت الحرب.

ولكن فرانكلين ديلانو روزفلت أعاد تأسيس مجلس عمل الحرب الوطني بعد بيرل هاربور بنحو شهر، وهذه المرة بنفوذ أقوى. وقد خلقت الحرب ضغوطا تضخمية كبيرة، وأدت إلى تحكم الحكومة في أسعار العديد من السلع الأساسية. وهذا التحكم ربما كان غير قابل للاستمرار فيما لو كان النقص في عنصر العمل الناجم عن طلبات الحرب قد أدى إلى زيادات ضخمة في الأجور، ولذا كانت الأجور في العديد من الصناعات الوطنية الرئيسية موضوعة أيضا قيد التحكم الحكومي. فأي زيادة في هذه الأجور كان يقتضي موافقة مجلس عمل الحرب الوطني. ووجدت الحكومة نفسها فعليا لا تقوم بالضبط بالفصل في المنازعات، بل تحدد معدلات الأجور للقطاع الخاص.

ومع الوضع في الاعتبار قيم إدارة روزفلت، فمن غير المدهش أن تكون القواعد التي أسسها مجلس عمل الحرب الوطني تميل لرفع أجور أصحاب

الأجور المنخفضة أكثر من هؤلاء العاملين الذين يتلقون أجورا مرتفعة. واتباعا لتوجيه من روزفلت يوجب زيادة الأجور التي هي دون المستوى، فقد تم إعطاء أصحاب الأعمال الحرية لزيادة أي أجر إلى أربعين سنتا للساعة (وهو ما يناظر نحو خمسة دولارات في الساعة اليوم) من دون انتظار أي موافقة، أو لخمسين سنتا في الساعة مع الحصول على موافقة من المكتب المحلي لمجلس عمل الحرب الوطني. وعلى النقيض من ذلك فأي زيادات فوق هذا المستوى لا بد من الحصول على موافقة عليها من واشنطن، ولذا فقد كان لدى النظام ميل كامن لزيادة أجور العمال الأقل أجرا بشكل أسرع من هؤلاء الذين يتلقون أجورا مرتفعة. كما وضع مجلس عمل الحرب الوطني شرائح أجرية لكل وظيفة، وكان أصحاب العمل لديهم الحرية في زيادة أجر أي عامل إلى الحد الأدنى لشريحة الأجر للوظيفة التي يشغلها العامل. ومرة أخرى كان هذا يحابي إجراء زيادات في أجر هؤلاء الذين يتلقون أجورا منخفضة، وليس أصحاب معدلات الأجور الأعلى. وأخيرا فقد سمح مجلس عمل الحرب الوطني بالزيادات التي تزيل التفاوتات في الأجور بين المشروعات، ومرة أخرى بزيادة أجور هؤلاء الذين يتلقون الأجور الأقل.

وكما يقول جولدين ومارجو، إن "معظم معايير زيادات الأجور التي استخدمها مجلس عمل الحرب الوطني عملت على ضغط الأجور بين وداخل الصناعات المختلفة". ولذلك فخلال الفترة الوجيزة التي كانت حكومة الولايات المتحدة فيموقف يسمح لها بتحديد أجور العديد من العاملين بشكل مباشر تقريبا، استخدمت نفوذها لجعل أمريكا مجتمعا أكثر مساواة.

والأمر المذهل أن هذه التغييرات قد علقت.

المساواة وازدهار ما بعد الحرب

افترض أن الديمقراطيين في الكونجرس اليوم يقترحون العودة إلى السياسات التي نتج عنها الانضغاط العظيم: زيادات ضخمة في الضرائب على الأغنياء، دعم توسع كبير في قوة النقابات، فترة من التحكم في الأجور تستخدم من أجل تضييق فجوة الأجور بشكل كبير، ... إلخ من السياسات. ما الذي ستقوله الحكمة التقليدية عن آثار مثل هذه البرامج؟

أولا، سوف يكون هناك شك عام في أن هذه السياسات سوف يكون لها أثر كبير على عدم المساواة، على الأقل في الأجل الطويل. فالنظرية الاقتصادية النموذجية تخبرنا أن محاولات تحدي قانون العرض والطلب تفشل في العادة؛ حتى لو قامت الحكومة باستخدام قوى فترة الحرب لإصدار مرسوم بهيكل أجور أكثر مساواة، فسوف تعيد فجوات الأجور القديمة تأكيد ذاتها بمجرد رفع التحكم.

ثانيا، سوف تكون هناك تأكيدات واسعة الانتشار-وليس فقط من جانب اليمين المتشدد-بأن سياسات التسوية الراديكالية سوف تلحق الدمار بالاقتصاد بتدمير الحوافز. فالضرائب المرتفعة على الأرباح سوف تؤدي إلى انهيار استثمارات قطاع الأعمال؛ والضرائب المرتفعة على الدخول العالية ستؤدي إلى انهيار روح المبادرة لرواد الأعمال والمبادرة الفردية؛ وسوف تطلب النقابات القوية زيادات مفرطة في الأجور، بما يؤدي إلى بطالة جماعية، وتحول دون تحقيق زيادة في الإنتاجية. ومن الطرق لاختصار كل هذا، القولإن التغييرات في سياسات الولايات المتحدة خلال الانضغاط العظيم تبدو كصيغة متطرفة من السياسات، وهي ذاتها السياسات التي يوجه إليها اللوم على نطاق واسع اليوم لتسببها في "التيبس الأوروبي"[1]، معدل التوظف المنخفض نسبيا و(إلى حد أقل) انخفاض النمو الاقتصادي في العديد من الاقتصادات الأوروبية.

والآن، فربما تتحقق هذه التنبؤات المفزعة فيما لو حاولنا نسخ الانضغاط العظيم اليوم. ولكن الحقيقة هي أنه لم تحدث أيا من الآثار السيئة التي يمكن أن يتوقعها المرء من التسوية الجذرية بعد الحرب العالمية الثانية. بل على النقيض من ذلك، نجح الانضغاط العظيم في تسوية الدخول لفترة طويلة من الوقت (أكثر من ثلاثين عاما). وكان عصر المساواة هو أيضا وقت الرخاء غير المسبوق، الذي لم نكن قادرين على استرجاعهأبدا.

---

(1) مصطلح وضعه الاقتصادي الألماني هربرت جيرتش ويشير به إلى الركود الاقتصادي الذي يمكن أن ينجم عن الإفراط الحكومي بالتدخل في تنظيم الاقتصاد، والسخاء المفرط في مكاسب السياسات الاجتماعية. والتيبس الأوروبي، المشتق من المصطلح الطبي التيبس، ويعني تصلب الأنسجة، يصف البلدان التي تعاني من معدلات بطالة مرتفعة، وتتخلف في خلق فرص العمل خلال فترات النمو الاقتصادي. (المترجم)، انظر:

Eurosclerosis, investopedia

على الرابط: http://www.investopedia.com/terms/e/eurosclerosis.asp

للحصول على شعور كيف مضت الأمور بالضبط بعد الانضغاط العظيم، دعني أقترح تقسيم فترة ما بعد الحرب في التاريخ الاقتصادي للولايات المتحدة، زمن الازدهار من 1947 إلى 1973، وزمن الاضطرابات حينما أدت أزمة النفط والركود التضخمي إلى تدمير اقتصاد الولايات المتحدة، من 1973 إلى 1980، والعصر الحديث من النمو المعقول مع ارتفاع عدم المساواة وهو الممتد من عام 1980 إلى الوقت الحاضر. (لماذا البدء من عام 1947؟ لسببين: الانضغاط العظيم كان قد أُنجز إلى حد كبير عند هذا الوقت، والبيانات الجيدة تبدأ في أغلبها من هذا العام).

خلال فترة ازدهار ما بعد الحرب تضاعف تقريبا الدخل الحقيقي للعائلة النمطية، من نحو 22 ألف دولار بأسعار اليوم إلى 44 ألف دولار. وهو ما يعني معدل نمو سنوي يبلغ 2.7%. ونمت كل الدخول في فئات توزيع الدخل بنفس المعدل تقريبا، مع حفظ المساواة النسبية في توزيع الدخل التي خلقها الانضغاط العظيم.

تسبب زمن الاضطرابات بشكل مؤقت في توقف النمو في الدخل الوسيط.[1] وقد استؤنف النمو بمجرد وضع التضخم تحت السيطرة، ولكن بالنسبة للعائلة النمطية فحتى الأوقات الطيبة لم تقترب أبدا من التماثل مع ازدهار ما بعد الحرب. منذ عام 1980 ارتفع دخل العائلة الوسيطة بنحو 0.7% فقط في السنة. وحتى خلال أفضل الأوقات-عصر ريجان "الصباح في أمريكا" فترة التوسع من 1982 وحتى 1989، وازدهار عصر كلينتون من 1993 إلى -2000 نما دخل الأسرة ببطء أكثر مقارنة بما كان قد حدث له على مدى جيل كامل بعد الانضغاط العظيم.

وكما هي الحال دائما، فهذه مجرد أرقام تقدم في أفضل الأحوال انطباعا عما يحدث حقيقة في حياة الناس. ولكن هل هناك أي تساؤل يتعلق بأن جيل ما بعد الحرب كان زمنا شعر فيه كل واحد في أمريكا تقريبا بأن مستويات المعيشة

---

(1) الوسط أو المتوسط الحسابي هو حاصل جمع مجموعة من الأرقام مقسوما على عددها، بينما الوسيط لنفس المجموعة من الأرقام مرتبة حسب قيمتها تصاعديا أو تنازليا هي القيمة التي تتوسط البيانات. فللأرقام 5، 7، 10، 11، 12 مثلا فالمتوسط الحسابي هو 9 حيث 12/5+11+10+7+5= 9، بينما الوسيط هو 10 لأنه القيمة التي تقع في وسط البيانات. (المترجم)

كانت ترتفع بسرعة، وشعر فيه العمال الأمريكيون العاديون بأنهم أنجزوا مستوى من الرخاء يتجاوز أكثر أحلام آبائهم جموحا؟ وهل هناك أي تساؤل بشأن طريقة شعورنا بالاقتصاد اليومالتي هي، في أفضل الأحوال، أكثر حذرا وترددا بكثير، إذ يشعر معظم الأمريكيين اليوم أنهم أيسر حالا في بعض النواحي، ولكن في حال أسوأ في بعضها الآخر، مقارنة بما كانوا عليه منذ نحو عقدين؟

وقد اكتشف بعض الناس حقيقة أن الاقتصاد الأمريكي أدى أداء حسنا في أعقاب الانضغاط العظيم تعد مزعجة جدا لهم، وتتناقض مع معتقداتهم حول الطريقة التي يعمل بها العالم، لدرجة أنهم أعادوا فعليا كتابة التاريخ لكي يحذفوا منه ازدهار ما بعد الحرب. وهكذا كان لاري كودلو، الذي يبشر بعقيدته عن اقتصاديات العرض[1] كل ليلة من ليالي الأسبوع على قناة سي إن بي سي، يخبرنا أنه بفضل خفض الضرائب الذي أجراه ريجان "صار النظام الاقتصاد الأمريكي للمرة الأولى منذ نهاية الحرب الأهلية (وباستثناء فترة كوليدج-ميلون[2] القصيرة في العشرينات)، موضع حسد العالم كله". وأنا أظن أن الرخاء الذي عرضه محرر

(1) نظرية تركز على التأثير على عرض كل من عنصر العمل والسلع، وذلك باستخدام الخفض الضريبي وخفض المزايا الممنوحة كحوافز لعنصر العمل وإنتاج السلع. وقد قدم الاقتصادي الأمريكي آرثر لافر شرحا للنظرية، وتم تطبيقها بواسطة الرئيس رونالد ريجان في الثمانينات. ويشير المناصرون لتلك النظرية إلى النمو الاقتصادي الذي شهده الاقتصاد الأمريكي في الثمانينات كبرهان على فعاليتها وكفاءتها، بينما يشير الرافضون والمستهزئون بهاإلى العجز المالي الفيدرالي الضخم والمضاربة التي تصاعدت مع هذا النمو الاقتصادي. (المترجم)، انظر:
Supply-side economics, Encyclopædia Britannica.
على الرابط: http://www.britannica.com/topic/supply-side-economics

(2) جون كالفين كوليدج (4 يوليو 5-1872 يناير 1933)، بدأ تاريخه السياسي في ولاية ماساشوستس حتى أصبح حاكما لها، وهو الرئيس الثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة 1929-1923، كان نائبا لرئيس الجمهورية وتولى الرئاسة بعد وفاة الرئيس وارن هاردنج عام 1923، ثم ترشح وانتخب لفترة رئاسية عام 1924.
أندرو ويليام ميلون (24 مارس 26-1855 أغسطس 1937) مصرفي أمريكي، ورجل أعمال، وصناعي، ومن مقتني الأعمال الفنية المشهورين. كان سفيرا للولايات المتحدة في المملكة المتحدة، ثم اختير وزيرا للخزانة خلال الفترة 4 مارس 1921 إلى 31 فبراير 1932 وهو واحد ممن خدموا لأطول مدة في هذا المنصب. ينحدر من عائلة ميلون الثرية في ولاية بنسلفانيا. (المترجم)، انظر:
Calvin Coolidge, Wikipedia, the free encyclopedia.
Andrew Mellon, Wikipedia, the free encyclopedia.

التايم، ودون الإتيان على ذكر كل البيانات الاقتصادية المتاحة، كان ببساطة مجرد وهم.

لكنّ ما لم يكن وهما هو الازدهار الذي حدث بعد ذلك، إذ كان حقيقة. فالانضغاط العظيم، بعيدا عن أن يكون قد دمر الرخاء الأمريكي، يبدو أنه شيء قد أنعش الاقتصاد. وفيما لو كانت هذه القصة تتعارض مع ما تقول الكتب المدرسية في علم الاقتصاد إنه كان ينبغي أن يحدث، فهناك إذن شيء ما خاطئ في الكتب المدرسية.

ودعنا الآن نقبل ببساطة أنه خلال فترة الثلاثينات والأربعينات تمكن الليبراليون من تحقيق خفض بارز في عدم المساواة في الدخل، مع تأثير إيجابي كليا تقريبا على الاقتصاد ككل. ويقدم الرجال والنساء الذين كانوا وراء هذا الإنجاز درسا موضوعيا لليبراليين اليوم في الفارق الذي تشكله القيادة.

ولكن من كان هؤلاء الرجال والنساء؟ ولماذا كانوا في موقف يسمح لهم بصنع كل هذه التغييرات الكبيرة في مجتمعنا وجعل هذه التغييرات تعلق وتبقى؟

الفصل الرابع
سياسة دولة الرفاه

يعرف تقريبا كل شخص أمريكي من عمر معين الصورة التالية: الرئيس هاري ترومان بابتسامة عريضة يمسك طبعة مبكرة من جريدة شيكاجو دايلي تريبيون، تحمل المانشيتديوي[1] يهزم ترومان. لا، لم يفعل. فانتصار ترومان الانتخابي عام 1948، في مواجهة الاستطلاعات التي كانت تضمن انتصارا ساحقا لديوي، تعد أكبر مفاجأة سياسية في تاريخ الولايات المتحدة.

وقد أصبح انتصار ترومان بعد أن كان متخلفا في سباق الانتخابات في البداية لحظة فارقة في التاريخ السياسي الأمريكي، إلى جانب قصص حول الهتاف المفتاح

(1) توماس إدموند ديوي (24 مارس 1902-16 مارس 1971) الحاكم السابع والأربعون لولاية نيويورك (1943-1954). كان مرشح الحزب الجمهوري في انتخابات الرئاسة عام 1944 وخسر أمام الرئيس فرانكلين روزفلت، ولكنها كانت أكثر نتائج الانتخابات الرئاسية تقاربا في التصويت بين المرشحين في المرات الأربع التي فاز فيها الرئيس روزفلت. ثم كان مرة أخرى مرشحاللحزب الجمهوري في انتخابات عام 1948 أمام شاغل منصب الرئيس هاري ترومان،وخسر مرة أخرى في واحدة من أكبر المفاجآت في تاريخ الانتخابات الرئاسية. (المترجم)، انظر:
Thomas Edmund Dewey , Wikipedia, the free encyclopedia.

لمؤيدي ترومان في الحملة "أعطهم الجحيم، يا هاري!" ولكني واثق من أن عددا قليلا جدا من الأمريكيين يمكنهم أن يخبروك من هم الذين على هاري أن يعطيهم الجحيم، وما هو هذا الجحيم. وفي الحدود التي ما زال فيها ترومان معروفا لليوم، فإنه يُعرف إلى حد بعيد كقائد للسياسة الخارجية: الرجل الذي أشرف على ابتداع خطة مارشال وإستراتيجية الاحتواء، الرجل الذي واجه ستالين في برلين وفي كوريا، والرجل الذي وضع أمريكا على المسار الذي أدى فينهاية المطاف إلى انتصارها في الحرب الباردة.

في عام 1948، على كل حال، لم تكن السياسة الخارجية موضوعا رئيسيا في الحملة الانتخابية، جزئيا بسبب أن الحرب الباردة لم تكن قد بدأت جديا، وجزئيا أيضا بسبب أن الجمهوريين-الممزقين بين حماسهم لمعاداة الشيوعية وبين عزلتهم التقليدية-لم يستقروا على موقف محدد في السياسة الخارجية. وكان الشغل الشاغل في انتخابات عام 1948 هو الخوف من أن يقوم الجمهوريون بإلغاء الإنجازات الداخلية لفرانكلين ديلانور روزفلت. وحاول توماس ديوي تهدئة الناخبين بتفاهات على شاكلة مقولات يوجي بيرا[1]، مثل تصريحه "إن مستقبلك ما زال ماثلا أمامك". ولكن ترومان حول الانتخابات إلى استفتاء على الصفقة الجديدة بتركيز هجومه على الكونجرس الذي يهيمن عليه الجمهوريون.

ففي عام 1948 كان هذا الكونجرس ضالعا في محاولة دحر الصفقة الجديدة لفرانكلين ديلانو روزفلت. وكان الرئيس الفعلي للجمهوريين في الكونجرس السيناتور روبرت تافت، والذي كان يشار إليه أحيانا بـ"السيد الجمهوري"، معارضا بشدة للصفقة الجديدة، التي اعتبرها "اشتراكية". وكان هذا أكثر من مجرد وقفة أيديولوجية، فبعد أن هيمن الجمهوريون على الكونجرس في عام 1946، دفع

(1) لورانس بيتر "يوجي" بيرا (12 مايو 1925-22 سبتمبر 2015) لاعب بيسبول محترف، ومدير، ومدرب. لعب 19 موسما في دوري المحترفين الرئيسي. تم اختياره 18 مرة كلاعب ضمن فريق كل النجوم، وتوج عشرة مرات مع فريقه كبطل للسلسلة العالمية وهي بطولة تلعب ما بين بطل دوري الاتحاد الأمريكي وبطل دوري الاتحاد الوطني وهو اتحاد أمريكي لمحترفي اللعبة أيضا. اشتهر أيضا بمجموعة مقولات صارت من المأثورات مثل "يمكنك ملاحظة الكثير بمجرد المشاهدة" أو "إن الأمر لا ينتهي حقا، حتى يصبح منتهيا"، أو "لا يوجد فرق بين النظرية والتطبيق، ولكن في التطبيق هناك فرق"، وجدير بالذكر أن بيرا هجر الدراسة بعد الصف الثامن في التعليم. (المترجم)، انظر:
Yogi Berra,Wikipedia, the free encyclopedia.

تافت ما يعرف بقانون تافت-هارتلي، وهو قانون كان يهدف لإلغاء قانون علاقات العمل الوطني لعام 1935 بشكل ملحوظ، وكان قانون علاقات العمل الوطني مكونا رئيسيا في ارتفاع موجة عضوية النقابات ونفوذها في ظل الصفقة الجديدة. وهكذا كان الناخبون في عام 1948 لديهم سبب وجيه للاعتقاد بأن انتصار الجمهوريين الذي سيمنحهم السيطرة على كل من الكونجرس والبيت الأبيض، سوف يؤدي إلى دوران ملحوظ في عكس اتجاه السياسات التي نجم عنها الانضغاط العظيم.

وبحلول عام 1952، حينما استعاد الجمهوريون أخيرا البيت الأبيض، كان هناك القليل جدا على المحك. فعند ذلك الوقت كان القائد الجمهوري، كنوع من الضرورة السياسية، قد قبل بالمؤسسات التي خلقتها الصفقة الجديدة باعتبارها من السمات الدائمة في المشهد الأمريكي. وكما كتب دوايت أيزنهاور عام 1954 في خطاب لأخيه إدجار "لو حاول أي حزب سياسي إلغاء الضمان الاجتماعي، وتأمين البطالة، والتخلص من قوانين العمل والبرامج الزراعية، فلن تسمع عن هذا الحزب مرة أخرى في تاريخنا السياسي. هناك مجموعة صغيرة منشقة، بالطبع، تؤمن بأنه يمكنك فعل مثل هذه الأشياء. ومن بينهم ه. ل. هانت[1] (ربما من المحتمل تعرف خلفيته)، وعدد قليل آخر من مليونيرات النفط في تكساس، وسياسي أو رجل أعمال عرضي من مناطق أخرى. وعددهم جميعا لا يذكر ويتصفون بالغباء"[2].

---

(1) هارلدسون لافاييت "هـ.ل." هنت الصغير (17 فبراير -1889 29 نوفمبر 1974)، عُرف خلال تاريخه باسمه المختصر هـ ل. هانت، كان من ملوك النفط وناشطا سياسيا جمهوريا محافظا. استطاع بالمراهنة على حقوق التنقيب على النفط في لعبة البوكر أن يؤمن لنفسه الحقوق على حقل شرق تكساس النفطي، وكان واحدا من بين أكبر الحقول في العالم، ومن خلال استيلائه على هذا الحقل وغيره، حقق ثروة كانت من بين أكبر الثروات في العالم، وعند وفاته، كان يشاع أن لديه أكبر ثروة صافيه لدى أي شخص في العالم. وكانت حياته الشخصية التي اتسمت بإنجابه عددا كبيرا من الأبناء من ثلاثة زيجات، كانت من بين مصادر الإلهام الرئيسية للمسلسل التليفزيوني الشهير دالاس، حيث كانت شخصية بطل المسلسل جيه. آر. أوينج قد رسمت ملامحها إلى حد بعيد وفقا للتصورات الشعبية لشخصية هانت. وقد أسميت مدينة هانت في تكساس على اسمه. (المترجم)، انظر: H. L. Hunt, Wikipedia, the free encyclopedia.

(2) Dwight D. Eisenhower to Edgar N. Eisenhower, Nov. 8, 1954, http://eisenhowermemorial.org/presidential-papers/first-term/documents/1147.sfn.

كيـف تـأتى لبرامـج اعتُبرت راديكاليـة خطـرة في الثلاثينـات أن تصبـح هـي أسـاس الاحـترام في الخمسـينات، مـع وجـود مجـرد "مجموعـة صغـيرة منشـقة" تدعـو لإلغائها؟ للإجابـة عـن هـذا السـؤال نحتـاج أن ننظـر كيـف بدلـت التغيرات في المجتمـع الأمريكي المنـاخ السـياسي وكيـف اسـتجابت الأحـزاب السياسـية للمنـاخ الجديد.

من الراديكالية للاحترام

اعتُـبرت الصفقــة الجديــدة راديكاليــة للغايــة بالفعــل، وكان صانعــو الصفقــة الجديــدة أنفســهم عــلى اســتعداد لاســتخدام لغــة صراع الطبقــات. وقــراءة أو، مــن الأفضــل، ســماع خطــاب فرانكلــين ديلانــو روزفلــت في حديقــة ميــدان ماديســون (التسـجيل متوافـر عـلى الشـبكة) الـذي قدمـه عشـية انتخابـات عـام 1936، سـيذكرك بكيــف أصبحــت ليبراليــة وقتنــا الحــاضر حــذرة وجبانــة وخجولــة ومهذبــة. فاليــوم هــؤلاء الذيــن يريــدون زيــادة الحــد الأدنى للأجــر أو زيــادة الضرائــب عــلى الأغنيــاء يبذلـون جهـدا كبـيرا للتأكيـد للجمهـور أنهـم ليـس لديهـم شيء ضـد الـثروة، وأنهـم لا يقترحــون صراعــا بــين الطبقــات. ولكــن فرانكلــين ديلانــو روزفلــت قالهــا بــكل قــوة وغضــب لــلأشرار ذوي الــثروات الطائلــة:

ينبغيعلينــا أن نصــارع الأعــداء القدامــى مــن أعــمال الســلام والاحتــكار المــالي، والمضاربــة، والتهــور والمجازفــة المصرفيــة، والكراهيــة الطبقيــة، والإقليميــة، والمتربحــين مــن الحــرب.

لقــد بــدأوا في اعتبــار حكومــة الولايــات المتحــدة مجــرد ذيــل وملحــق بشــؤونهم الخاصــة. ونحــن نعــرف الآن أن الحكومــة مــع المــال المنظــم هــي بالضبــط خطــر مثلهــا في ذلــك مثــل الحكومــة مــع الرعــاع المنظمــين.

ولم يحــدث مــن قبــل في كل تاريخنــا أن كانــت كل هــذه القــوى موحــدة بهــذه القــوة ضــد مرشــح واحــد كــما هــو موقفهــم اليــوم. انهــم متماســكون في كراهيتهــم لي، وأنــا أرحــب بكراهيتهــم.

ولم يكــن فرانكلــين ديلانــو روزفلــت يبالــغ حينــما قــال إن البلوتوقــراط يكرهونــه، وقــد كان لديهــم أســباب وجيهــة جــدا لهــذه الكراهيــة. وكــما قمــت بتوثيــق ذلــك في الفصــل الثالــث، فقــد فرضــت الصفقــة الجديــدة عبئــا ضريبيــا ثقيــلا عــلى الــشركات

والأثرياء، وشجعت على نمو النقابات، ودبرت أمر تضييق عدم المساواة في الدخل الذي تضمن تخفيضا هائلا للدخل بعد الضرائب للفئات التي تشغل قمة توزيع الدخل.

ولكن حدث شيء غريب خلال العشرين عاما التي تلت خطاب حديقة ميدان ماديسون. ويرجع الفضل لانتصار ترومان عام 1948، إلى حد كبير، في بقاء سياسات الصفقة الجديدة في مكانها الصحيح، فقد ظلت النقابات قوية لعدة عقود أخرى، وكانت الضرائب على الشركات والأغنياء أعلى حتى خلال سنوات أيزنهاور عما كانت عليه في ظل فرانكلين ديلانو روزفلت. إضافة إلى ذلك فمع حلول منتصف الخمسينات كان التأييد لاستمرار السياسات التي حفزت هذه الكراهية من "المال المنظم"-ففي خطاب حديقة ميدان ماديسون انتقى فرانكلين ديلانو روزفلت الضمان الاجتماعي وتأمين البطالة بوجه خاص، كبرامج تم تلطيخها وتشويه سمعتها بواسطة البلوتوقراط-قد أصبحت هي بالضبط تعريف الاعتدال السياسي.

ويعكس هذا التحول، جزئيا، تبدلا في الديموجرافيا وعوامل أخرى حبذت استمرار دولة الرفاه. وسوف آتي لهذه التحولات بعد برهة. ولكن دعني أولا أتحدث باختصار عن الجانب الدائم في الاقتصاد السياسي الذي جعل من تنفيذ الصفقة الجديدة أمرا صعبا للغاية، ولكن الدفاع عنهسهل نسبيا: الطابع الفطري، وبشكل عام العقلانية المحافظية للناخبين، ليست المحافظية بمعنى وجهات نظر الجناح اليميني، ولكن بمعنى التردد في تأييد تغييرات كبرى في السياسات الحكومية، ما لم تكن السياسات القائمة قد ثبت بوضوح فشلها. وقد رأينا في العصر الحديث كيف أدى هذا النمط من الحفاظ على الوضع القائم المحافظي إلى فشل مشروعات لكل من الديمقراطيين والجمهوريين: محاولة كلينتون إصلاح الرعاية الطبية، ومحاولة بوش خصخصة الضمان الاجتماعي،فقد فشل كل منهما إلى حد كبير بسبب خوف الناخبين من المجهول.

تسبب الوضع القائم لسيطرة المحافظة في العشرينات في إعاقة الإصلاحات الليبرالية. فأي اقتراح بفرض ضرائب أكثر ارتفاعا على الأغنياء وزيادة المساعدات الاجتماعية للعمال والفقراء، وأية اقتراحات بتغيير قوانين العمل بطريقة تؤدي إلى تسهيل عملية التنظيم النقابي، كان يتم مهاجمتها على أرضية أن من يرغبون في

تلك الإصلاحات هم أناس غير مسؤولين لا يفهمون حقيقة كيف يعمل العالم، وأن مقترحاتهم، لو تم تطبيقها، سوف تدمر الاقتصاد. وحتى فرانلكين ديلانو روزفلت الذي كان إلى حد ما سجينا للحكمة التقليدية، كتب على هامش كتاب "إنه لأمر جيد إلى حد يصعب تصديقه، لا يمكنك الحصول على شيء مقابل لاشيء"،استبق كينز، ودعا إلى التمويل بالعجز لدعم الاقتصاد خلال فترات الركود[1].

وبمجرد صعود فرانكلين ديلانو روزفلت للسلطة-ومع ميل أقل لصرف النظر عن الأفكار الراديكالية-جابه مهمة إقناع الجمهور بنبذ الحكمة التقليدية والقبول بالسياسات الراديكالية الجديدة. وقد كان بمقدوره التغلب على المحافظة الطبيعية لدى المصوتين، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد كبير لحوادث التاريخ. فأولا، كانت الكارثة الاقتصادية خلال الفترة 1929-1933 قد قضت على مصداقية النخبة القديمة وأيديولوجيتها، وكان الانتعاش الذي بدأ عام 1933، ولو أنه كان غير مكتمل، قد أضفى مصداقية على إصلاحات الصفقة الجديدة. "لقد عرفنا دائما أن الحرص على المصلحة الشخصية والأنانية المفرطة من سوء الأخلاق، ونحن نعرف الآن أنها من سوء الاقتصاد أيضا" هكذا أعلن فرانكلين ديلانو روزفلت في خطاب تنصيبه الثاني. وثانيا، خلقت الحرب العالمية الثانية الظروف التي كان بمقتضاها تدخل الحكومة على نطاق واسع في الاقتصاد أمرا ذا ضرورة واضحة، وهو ما نحى جانبا أية شكوك في الإجراءات الراديكالية، ولذا فمع حلول الوقت الذي كتب فيه أيزنهاور الخطاب المشار إليه سابقا لشقيقه، لم تعد مؤسسات الصفقة الجديدة تعتبر بدعا راديكالية؛ فقد كانت هذه المؤسسات جزءا من النسيج الطبيعي للحياة الأمريكية.

وبالطبع لم تكن لتعيش بهذه الطريقة فيما لو كانت الحكمة التقليدية لما قبل الصفقة الجديدة على صواب، أي فيما لو كان فرض ضرائب على الأغنياء، وتقديم الضمان الاجتماعي ومساعدات البطالة، وتعزيز القوة التفاوضية للعمال، كارثيا للاقتصاد. ولكن أعقب الانضغاط العظيم في الواقع أكبر ازدهار اقتصادي مستدام في تاريخ الولايات المتحدة. وعلاوة على ذلك فقد أوضحت إدارة روزفلت أن واحدة من الحجج النموذجية المتعارف عليها ضد التدخل الحكومي واسع النطاق في الاقتصاد-أنه سيؤدي حتما في نفس الوقت إلى فساد واسع النطاق-لم

(1) See Schlesinger, Crisis of the Old Order, p. 136.

تكـن صحيحـة. فعنـد النظـر في أحـداث الماضي يبـدو لنـا كيـف كان سـجل الصفقـة الجديـدة نظيفابدرجـة مذهلـة. لقـد كان فرانكلـين ديلانـو روزفلـت مسـؤولا عـن توسـع ضخـم في الإنفـاق الفيـدرالي، بما في ذلـك إنفـاق تقديـري للغايـة لإدارة الارتقـاء بالأشـغال[1]. ومـع ذلـك فالصـورة الشـائعة قبـل الصفقـة الجديـدة للإغاثـة العامـة التي كانـت تعـد عـلى نطـاق واسـع صـورة للفسـاد، قـد تحسـنت بالفعـل بشـكل ملحـوظ.

ولم تكـن نزاهـة الصفقـة الجديـدة مجـرد مصادفـة. فقـد جعـل مسـؤولو الصفقـة الجديـدة مـن مراقبـة برامجهـم ضـد أي فسـاد محتمـل معبـودا لهـم بصـورة أو بأخرى. فقـد أقـام فرانكلـين ديلانـو روزفلت بشـكل خاص "قسـم التحقيقـات المتقـدم" للتحقيق في أي شـكاوى بمخالفـات في إدارة الارتقـاء بالأشـغال. وقـد ثبـت أن هـذا القسـم فعـال جـدا لدرجـة أن تحقيقـات لاحقـة مـن جانـب الكونجـرس لم تجـد انحرافـا جديـا واحـدا في كل مـا وضعـت عليـه نظرهـا[2].

وهـذا الالتـزام بحكومـة أمينـة لم يكـن علامـة عـلى فضيلـة شـخصية لروزفلـت؛ بـل يعكـس بالأحـرى أولويـة سياسـية. فمهمـة فرانكلـين ديلانـو روزفلـت في الحكـم كانـت إظهـار أن حضـور ونشـاط الحكومـة أمـر صالـح للعمـل. وللإبقـاء عـلى مصداقيـة هـذه المهمـة كان بحاجـة لأن يبقـى سـجل إدارتـه نظيفـا. وقـد فعـل.

---

(1) إدارة الارتقـاء بالأشـغال Works Progress Administration (أعيـد تسـميتها في عـام 1939 بـإدارة مشروعـات العمـل) كانـت أكـبر مؤسسـات الصفقـة الجديـدة وأكثرهـا طموحـا، قامـت بتشـغيل ملايـين مـن العـمال العاطلـين (معظمهـم مـن العـمال غـير المهـرة) لتنفيـذ مشروعـات الأشـغال العامـة، بما في ذلـك المبـاني العامـة والطـرق. كـما قامـت الإدارة أيضـا بتوظيـف موسـيقيين وفنانـين، وكتـاب وممثلـين ومخرجـين، في مشروعـات ضخمـة للفـن والدرامـا والإعـلام والأدب. وغالبـا فـكل مجتمـع محـلي في الولايـات المتحـدة بـه متنـزه جديـد، أو كوبـري أو مدرسـة تـم بناؤهـا بواسـطة الإدارة. كانـت المخصصـات الأوليـة للإدارة قـد بلغـت 4.9 مليـار دولار في عـام 1935 (وهـو مـا يمثـل نسـبة 6.7% مـن الناتـج المحـلي الإجـمالي في هـذا التاريـخ). وقامـت الإدارة بتوظيـف نحـو 8.5 مليـون شـخص بـين عامـي 1935 و1943، وقـد تـم تشـكيل إدارة الارتقـاء بالأشـغال في 6 مايـو 1935 وتـم حلهـا في 30 يونيـو 1943. (المترجـم)، انظـر:

Works Progress Administration, Wikipedia, the free encyclopedia.

(2) J.J. Wallis, P. Fishback, and S. Kantor, "politics, Relief, and Reform: The Transformation of America's Social Welfare System during the New Deal" (National Bureau of Economic Research, Working Paper no. 11080, January 2005).

هناك شيء آخر: على الرغم من أن دخول الحرب العالمية الثانية لم يكن مخططا له كاستعراض هائل لفاعلية الحكومة، فإنه كان له هذا الأثر. فقد أصبح من الصعب للغاية على المحافظين ادعاء أن الحكومة لا يمكنها فعل أي شيء بصورة طيبة، بعد أن بينت حكومة الولايات المتحدة قدرتها ليس فقط على القتال في حرب كونية ولكن أيضا الإشراف على تعبئة واسعة للموارد الوطنية.

بحلول عام 1948 إذن أصبحت فكرة وجود دور حكومي نشط في الاقتصاد-وهو دور، كان له عمليا تأثير كبير في خفض عدم المساواة-فكرة محترمة. في غضون ذلك، كانت النظرة القديمة بأن الحكومة ينبغي أن ترفع يدها، وهي النظرة التي سخر منها فرانكلين ديلانو روزفلت في خطاب حديقة ميدان ماديسون في خطابه عام 1936 بقوله "إن العقيدة القائلة بأن الحكومة الأفضل هي تلك الحكومة غير المبالية"، قد تم تنزيل مرتبتها إلى مرتبة العقيدة الشاذة غريبة الأطوار.

إن الفوز في معركة الأفكار، على أية حال، غير كاف إذا لميتم تدعيم هذا الانتصار بتحالفسياسي فعال. وكما حدث، مع ذلك، فقد تغير المشهد السياسي على نحو أدى لانزياح مركز الجاذبية السياسية نحو الأسفل، بتمكين هؤلاء الذين كسبوا من الانضغاط العظيم، وكان لهم مصلحة في الحفاظ على توزيع للدخل أكثر مساواة.

أمة منحت حق الاقتراع

خلال العصر المُذهَّب الطويل كان من العوائق الأساسية أمام وجود حركة سياسية فعالة ممثلة للعمال الأمريكيين، الحقيقة البسيطة بأن العديد من العمال الأمريكيين، خاصة العمال الأقل أجرا، كان قد أُنكر عليهم الحق في التصويت، إما بالقانون وإما بالممارسة.

وكانت المجموعة الأكبر من العمال المحرومين من التصويت هم السكان الأمريكيون من أصول إفريقية في الجنوب، وهي مجموعة استمر ينكر عليها حقها في التصويت لمدة جيل بعد الانضغاط العظيم، ومازالت محرومة جزئيا من التصويت حتى اليوم لأسباب سنأتي إليها بعد وقت قليل. على أية حال،

كان الجنوب شريكا، رغم كونه شريكا مزعجا، في التحالف الذي أيد المساواة الاقتصادية حتى السبعينات.

وكان هناك قطاع آخر من السكان حُرم من حق التصويت خلال العصر المُذهَّب الطويل وقد اختفى عمليا بحلول الخمسينات، هو قطاع المهاجرين غير المجنسين. في عام 1920، كان 20% من الأمريكيين البالغين من مواليد الخارج، وكان نصفهم ليسوا مواطنين أمريكيين. ولذا كان 90% فقط من المقيمين البالغين في الولايات المتحدة مواطنين، ولديهم الحق القانوني في التصويت. وبمجرد أخذ حرمان الأمريكيين من أصول إفريقية في الجنوب من التصويت في الاعتبار، فقد كان نحو 80% فقط من البالغين المقيمين في الولايات المتحدة في عام 1920 هم من لهم الحق الفعلي في التصويت. وهذا الحرمان من التصويت لم يكن محايدا سياسيا، فهؤلاء الذين يفتقرون للحق في التصويت كانوا بشكل عام من الفقراء مقارنة بالمتوسط. وكما سنرى بعد قليل يميل الناخبون الفقراء نسبيا اليوم لتأييد الديمقراطيين عموما، ويؤيدون بوجه خاص دولة رفاه قوية. ومن المفترض أن وضعا مماثلا كان صحيحا في العشرينات. ولذا كان الحرمان من التصويت يبعد جزءًا من جانب اليسار في الطيف السياسي، ويدفع بالسياسة الأمريكية جهة اليمين إلى مكان لم يكن ليبلغه لو كان بإمكان كل المقيمين البالغين الإدلاء بأصواتهم.

وفي أعقاب فرض شروط متشددة للهجرة في عام 1924، على أية حال، هبطت نسبة البالغين الذين ليس لهم الحق في التصويت بانتظام. وشكل المهاجرون بحلول عام 1940 نحو 13% فقط من السكان البالغين، وكان أكثر من 60% من هؤلاء المهاجرين قد تم تجنيسهم، لذا فمع حلول عام 1940 كان نحو 95% من المقيمين البالغين في الولايات المتحدة مواطنين. وبحلول عام 1950 هبطت حصة المهاجرين إلى 10%، وكان 75% منهم قد تم تجنيسهم، وهبطت نسبة البالغين المقيمين غير المواطنين إلى نسبة تافهة تبلغ 3% من السكان البالغين.

بين عام 1924 والخمسينات، اختفى المهاجرون غير الحاصلين على الجنسية جوهريا من المشهد الأمريكي. وكانت النتيجة هي بلد لدى الأغلبية الشاسعة من عماله البيض ذوي الياقات الزرقاء الحق في التصويت. علاوة على ذلك بحلول الخمسينات كان من المحتمل أكثر بكثير أن البيض الفقراء نسبيا، يمكنهم واقعيا إفادة أنفسهم من حقهم في التصويت عما كانوا عليه في العشرينات، لأنهم كانوا

أعضـاء في النقابـات أو لديهـم أصدقـاء أو أقـارب في النقابـات، وهـي التـي رفعـت وعيهـم ودافعهـم السياسي. وكانـت النتيجـة هيئـة ناخبـة تميـل أكثر نحـو تأييـد دولـة الرفـاه، بالتعريـف الواسـع لهـذه الدولـة، مقارنـة بالهيئـة الناخبـة في عـام 1920 أو الهيئـة الناخبـة اليـوم.

الدور الخاص والغريب للجنوب

لا يـزال الجنـوب مختلفـا في العديـد مـن النواحـي عـن بقيـة الولايـات المتحـدة. ولكـن في الخمسـينات كان حقيقـة بلـدا آخـر: مـكان للفصـل العنـصري المكشـوف وللتمييـز، مـع مكانـة أدنى للسـود مقـررة في القانـون والسياسـة العامـة ويتـم فرضهـا بالعنـف. وقضيـة بـراون ضـد مجلـس التعليم[1] التـي كان قـرار المحكمـة العليـا فيهـا يطلـب إنهـاء الفصـل في النظـم المدرسـية، لم يحـدث إلا في عـام 1954. وفي عـام 1955 رفضـت روزا باركـس تـرك مقعدهـا والتحـرك إلى الخلـف في أتوبيـس مونتجومـري، ولم يصـدر حكـم المحكمـة العليـا لإنهـاء الفصـل العنـصري في المواصـلات العامـة إلا في أواخـر عـام 1956. ولم يحـدث منـح السـود حـق التصويـت إلا بعـد وقـت طويـل مـن ذلـك، إذ لم يُسـن قانـون الحـق في التصويـت إلا في عـام 1964، وهـو العـام الـذي تـم فيـه اغتيـال ثلاثـة مـن العاملـين في حركـة الحقـوق المدنيـة في فيلادلفيـا، والمسيسـبي،

(1) قضيـة بـراون ضـد مجلـس التعليـم في توبيـكا بولايـة كنسـاس (1954)، كانـت نقطـة تحـول تاريخيـة في سـجل المحكمـة العليـا للولايـات المتحـدة، حيـث أعلنـت المحكمـة أن قوانـين الولايـة التـي تؤسـس للفصـل في المـدارس العامـة بـين السـود والبيـض غـير دسـتورية. وقـد عكـس هـذا القـرار مـا سـبق مـن قـرار في قضيـة بلـسي ضـد فرجسـون في عـام 1896، إذ كان القـرار الأخـير يسـمح بالفصـل العنـصري في التعليـم الـذي ترعـاه الولايـة. وقـد صـدر حكـم قضيـة بـراون ضـد مجلـس التعليـم في توبيـكا في 17 مايـو 1954، إذ صوتـت المحكمـة بأغلبيـة (0-9) لصالـح قـرار منطوقـه "إن المنشـآت التعليميـة المنفصلـة هـي بطبيعتهـا غـير متكافئـة". ونتيجـة لهـذا فالفصـل العنـصري القانـوني ينتهـك شرط الحمايـة المتسـاوية المنصـوص عليـه بالتعديـل الرابـع عـشر مـن دسـتور الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. ومهـد هـذا الحكـم الطريـق للاندمـاج وكان نـصرا جوهريـا لحركـة الحقـوق المدنيـة. ورغـم هـذا، لم يوضـح القـرار الـذي وقـع في 14 صفحـة أي نـوع مـن الأسـاليب التـي يمكـن بهـا إنهـاء الفصـل العنـصري في المـدارس، وكان قـرار المحكمـة في قضيـة بـراون 2 هـي إصـدار أمـر للولايـات بإنهـاء الفصـل "بـكل تـرو". (المترجـم)، انظـر:
Brown v. Board of Education of Topeka, Wikipedia, the free encyclopedia.

وهـو المـكان الـذي سـيختار رونالـد ريجـان لاحقـا أن يبـدأ منـه حملتـه للانتخابـات الرئاسـية عـام 1980، بحديـث عـن حقـوق الولايـات.

كانـت السياسـات العنصريـة الوحشـية في الجنـوب، جنبـا إلى جنـب مـع تخلـف الجنـوب بشـكل عـام، قـد جعلـت منـه إقليـما محافظـا بشـدة، محافظـا أكـثر حتـى مقارنـة باليـوم. ومـع هـذا فقـد كان الجنـوب أيضـا، لزمـن طويـل، جـزءا رئيسـيا مـن تحالـف الصفقـة الجديـدة.

وتخبرنـا الخرائـط الانتخابيـة بالقصـة. في خرائـط اليـوم يعـد الجنـوب أحمـر (أي يصـوت للجمهوريين-المترجـم). وباسـتثناء مريلانـد وديلاويـر، لم يحصـل جـون كـيري عـلى ولايـة واحـدة جنـوب خـط ماسون-ديكسـون. ولكـن في عـام 1948 لم تذهـب ولايـة جنوبيـة واحـدة لديـوي، عـلى الرغـم مـن أن العديديـن كانـوا يؤيـدون المرشـح المتبنـي للفصـل العنـصري لسـتروم ثرمونـد[1].

لمـاذا أيـد الجنـوب الديمقراطيـين؟ هنـاك سـبب واضـح قبيـح لتأييـد الجنوبيـين البيـض للديمقراطيـين في الخمسـينات: عـلى الرغـم مـن أن الحـزب الديمقراطـي أصبـح حـزب المسـاواة الاقتصاديـة، فقـد قبـل ضمنيـا قوانـين جيـم كـرو. وفقـط حينـما أصبـح الحـزب الديمقراطـي هـو حـزب المسـاواة العرقيـة أيضـا تحـرك الجمهوريـون الذيـن بـدأوا كمعارضـين للعبوديـة، ولكنهـم أصبحـوا المدافعـين عـن الـثراء لمـلء الفجـوة. لـدي مـا سـأقوله أكـثر حـول تبـادل المواقـع لاحقـا في الكتـاب، خاصـة حينـما ألقـي نظـرة عـلى كيـف انتـصر رونالـد ريجـان عـام 1980.

ولكــن لمــاذا كان الجنــوب ديمقراطيــا في المقــام الأول؟ كانــت المــرارة المتخلفــة عــن الحــرب الأهليــة جــزءا مــن القصــة، يمكنــك قــول ذلــك عــن أجيــال الجنوبيــين الديمقراطيــين الذيــن كســبوا بخــوض الانتخابــات ضــد إبراهــام لينكولــن.

---

(1) جيمـس سـتروم ثرمونـد (5 ديسـمبر 26-1902 يونيـو 2003) سـياسي أمريـكي انتُخـب عضـوا في مجلـس الشـيوخ عـن ولايـة جنـوب كارولينـا. وقـد ترشـح للانتخابـات الرئاسـية عـام 1948 كمرشـح عـن "الحـزب الديمقراطـي لحقـوق الولايـات"، وحصـل عـلى 2.4% مـن الأصـوات الشـعبية و39 مـن أصـوات المجمـع الانتخـابي. انتخـب ثرموندلمجلـس الشـيوخ مـن عـام 1954 وحتـى وفاتـه عـام 2003 وقـد انتخـب بدايـة عـن الحـزب الديمقراطـي حتـى عـام 1964، ثـم بعـد ذلـك عـن الحـزب الجمهـوري. (المترجم)،انظـر:
James Strom Thurmond,Wikipedia, the free encyclopedia.

ولكن حقيقة أن الجنوب كان أكثر فقرا من بقية البلد كانت تعني أنه تلقى أيضا نصيبا أكبر من المساعدات التي ولدتها الصفقة الجديدة. وما زالت ولايات الجنوب إلى حد ما أفقر من المتوسط على المستوى الوطني، ولكن في الخمسينات كان الجنوب فقيرا بشكل بائس. ففي وقت متأخر كعام 1959 كان متوسط نصيب الفرد من الدخل في مسيسبي أقل من ألف دولار سنويا (نحو خمسة آلاف دولار بأسعار اليوم)، ليمنحها مستوى متوسطا من المعيشة يبلغ بالكاد نحو 40% من مستوى المعيشة المتوسط في الولايات الغنية مثل كونيكتيكت، ونيويورك، ونيوجيرسي. وكان الجنوب لا يزال أيضا ريفيا إقليما قرويا، لفترة طويلة، بعد أن أضحت أمريكا أمة حضرية. بحلول عام 1950 كان لدى الولايات المتحدة خارج الجنوب ثلاثة مقيمين حضريين مقابل كل مقيم ريفي، ولكن ظل الجنوب ريفيا أكثر منه حضريا.

ونتيجة لهذا كانت الصفقة الجديدة مكسبا صافيا للجنوب. فمن ناحية، ألقت الضرائب المرتفعة التي فرضها فرانكلين ديلانو روزفلت على الأغنياء وعلى الشركات بعبء خفيف على الجنوب، حيث لم يكن هناك سوى حفنة قليلة من الأغنياء، وكانت الشركات في أغلبها مملوكة للجنوبيين. ومن ناحية أخرى كانت برامج الصفقة الجديدة، من الضمان الاجتماعي إلى تأمين البطالة وكهربة الريف، مهمة بشكل خاص للعمال ذوي الأجر المنخفض الذين يشكلون أغلبية سكان الجنوب. وحتى الآن، فحقيقة كون الجنوب يعتمد كثيرا على دولة الرفاه يمثل ضغطا دوريا على سياستنا، فحينما حاول جورج دبليو بوش خصخصة الضمان الاجتماعي في عام 2005، اكتشف سياسيوه أنالمعارضة، على كل حال، كانت أكثر كثافة في "الولايات الحمراء" التي أيدته في عام 2004، وخاصة في الجنوب، مقارنة ببقية البلد.

وهذا هو أحد السبل لطرح الأمر: على الرغم من أن الانقسام العرقي في الجنوب يمضي مع سياسة محلية رجعية، فقد كان لدى الإقليم الكثير الذي يمكن أن يكسبه من دولة الرفاه بسبب فقره على المستوى الوطني ولذا كان على استعداد لتأييد الليبراليين الشماليينإلى مدى معين. وكان هناك، على أية حال، حدود صارمة لنوع السياسات التي يمكن أن يؤيدها الجنوبيون البيض. وقد أصبح كل هذا واضحا حينما حاول هاري ترومان استكمال الصفقة الجديدة، بإضافة

عنصر كان بوسعه خلق دولة رفاه كاملة الأهلية يمكن مضاهاتها بدولة الرفاه في كندا أو الأمم الأوربية: التأمين الصحي الوطني.

فقد اقترح ترومان عام 1946 نظاما للتأمين الصحي الوطني كان بوسعه أن يخلق نظاما للدافع المفرد(1) يضاهي النظام الكندي اليوم. وبدت فرصه في دفع الخطة جيدة في البداية. وفي الحقيقة، فقد كان من الأيسر بكثير تأسيس تأمين صحي وطني في الأربعينات مقارنة باليوم. فقد كان الإنفاق على الرعاية الصحية في الأربعينات يمثل 4.1% فقط من الناتج المحلي الإجمالي، مقارنة بأكثر من 16% من الناتج المحلي الإجمالي الآن. وأيضا، كانت شركات التأمين الصحي الخاصة لا تزال صناعة غير متطورة نسبيا في الأربعينات، وبالتالي لم تكن شركات التأمين تشكل جماعة مصالح قوية كما هي عليه الآن. ولم تصبح جماعة ضغط صناعة الأدوية قوة رئيسية حتى الثمانينات. في حين كان الرأي العام في عام 1946 مناصرا بشدة لكفالة التأمين الصحي.

ولكن جهود ترومان فشلت. ويقع العبء الأكبر في الفشل على الجمعية الطبية الأمريكية التي أنفقت خمسة ملايين دولار لمعارضة خطة ترومان؛ ومع تعديل هذا القدر من الإنفاق تبعا لتغير حجم الاقتصاد، فكان ما أنفق يعادل نحو 200 مليون دولار اليوم. وفي استغلال سافر لعلاقة الطبيب بالمريض، قامت الجمعية الطبية الأمريكية بتجنيد عائلات الأطباء لكي يتحدثوا مع المرضى، في إطار جهدها لإعاقة التأمين الوطني. وقد نبذت الجمعية الأطباء الذين أيدوا خطة ترومان، حتى إلى حد الدفع بإنكار امتيازات المستشفيات عليهم. وإنه لأمر صادم حتى الآن قراءة أن الأطباء تم إبلاغهم بأن يحاضروا مرضاهم عن شرور "تشريك الطب" (أي جعله اشتراكيا-المترجم)، أي دفع الحكومة لتكاليف تقديم الخدمات الطبية وخدمات المستشفيات وتمويل ذلك من الضرائب.

---

(1) نظام الدافع المفرد هو نظام تقوم فيه الدولة، وليس شركات التأمين الصحي الخاصة، بدفع تكلفة الرعاية الصحية. ونظام الدافع المفرد يمكن أن يتم إما بتعاقد الدولة على خدمات الرعاية الصحية مع المنظمات الخاصة (كما هو الوضع في كندا)، وإما أن تقوم الدولة نفسها بتوظيف موارد الرعاية الصحية والأفراد العاملين في المجال (كما هو الوضع في المملكة المتحدة). (المترجم)، انظر:

Single-payer healthcare, Wikipedia, the free encyclopedia.

ولكن الجمعية الطبية الأمريكية لم تلحق الهزيمة بخطة ترومان وحدها. فقد كانت هناك أيضا معارضة حاسمة للتأمين الصحي من الديمقراطيين الجنوبيين، على الرغم من حقيقة أن الجنوب المفقر الذي به عدد كبير لا يمكنهم دفع كلفة رعاية طبية مناسبة، كان يمكنهم تحقيق كسب مالي غير متوقع. ولكن السياسيين الجنوبيين آمنوا بأن نظاما وطنيا للتأمين الصحي سوف يجبر الإقليم على الدمج العرقي لمستشفياته. (وربما كانوا على حق. فبرنامج الرعاية الصحية "ميديكير"، وهو برنامج لكبار السن يناظر من عدة أوجه النظام الذي أراده ترومان للجميع، تم تقديمه في عام 1966، وكانت واحدة من نتائجه هي نزع الفصل العنصري في المستشفيات على طول الولايات المتحدة وعرضها). وكان إبعاد الأشخاص السود عن مستشفيات البيض أكثر أهمية للسياسيين الجنوبيين من إمداد البيض الفقراء بالوسائل التي تمكنهم من الحصول على العلاج الطبي.

وكان فشل ترومان في موضوع الرعاية الصحية نذيرا بانهيار تحالف الصفقة الجديدة في نهاية المطاف. فتأييد البيض الجنوبيين للمساواة الاقتصادية كان دائما موضع تردد، وأصبح أكثر ترددا مع مرور الوقت.

وتقول القصة المألوفة إن الجنوب قد ارتحل من التحالف حينما أصبح الحزب الديمقراطي جديا بشأن الحقوق المدنية، وكان ذلك بكل تأكيد جزءا كبيرا مما حدث. كما أنه من الصحيح أيضا، على كل حال، أنه كلما صار الجنوب أغنى على مر الزمن كانت مكاسب الإقليم من سياسات إعادة التوزيع أقل، ويصبح حرا طليقا في الانغماس في ملذات غرائزه الرجعية التي أتت من حرمان السود من التصويت. ولكن في الخمسينات كان كل هذا لم يتحقق بعد وكان عليه الانتظار لفترة بعيدة في المستقبل.

النقابات

بين عامي 1935 و1945 ارتفعت نسبة العمال الأعضاء في النقابات من 12% إلى 35%؛ وحتى وقت متأخر كعام 1970، كان 27% من العمال أعضاء نقابات. وكانت النقابات بشكل عام، إن لم تكن دائما، مؤيدة للديمقراطيين. في انتخابات عام 1948، صوت نحو ثلاثة أرباع الأعضاء في أكبر تنظيمين نقابيين، الاتحاد الأمريكي للعمل ومؤتمر المنظمات الصناعية، لترومان.

ويذهب دور النقابات في جعل الحزب الديمقراطي هو الحزب المهيمن لأبعد من ميل أعضاء النقابات للتصويت للمرشحين الديمقراطيين. وتأمل مزحة ويل روجرز[1] الشهيرة، "أنا لست عضوا في أي حزب سياسي، أنا ديمقراطي". كان هذا وصفا عادلا للحزب الديمقراطي قبل الصفقة الجديدة، وكما هو اليوم. ولكنه كان أقل صحة بكثير حينما كان العمل المنظم قوة نافذة: فقد أمدت النقابات الحزب بهيكل تنظيمي جاهز. ولم تقدم النقابات مصدرا يعتد به لتمويل الحملات الانتخابية فقط، وهو مصدر كان يعد حتى أكثر أهمية في عصر ما قبل نقل الحملات عموما على التليفزيون، بل أمدت الديمقراطيين أيضا بجيش من العاملين في الحملات الذين يوزعون اللافتات، والملصقات، ومطبوعات الحملة، والطواف من باب لباب طلبا للتصويت للحزب، وحشدهم في جهد من أجل حث المواطنين على التصويت يوم الانتخابات.

وربما كانت العاقبة الحيوية الأخرى للحركة النقابية المساوية في الأهمية، وإن كانت غير مباشرة، هي التأثير على الوعي السياسي ومعدلات مشاركة الناخبين من الأمريكيين ذوي الدخل المنخفض والمتوسط. وهؤلاء الذين يتابعون من بيننا السياسة عن قرب غالبا ما يجدون صعوبة في تفهم كيف أن معظم الأمريكيين يعيرون الأمر برمته اهتماما ضئيلا. ولكن هذه اللامبالاة يمكن تفهمها، فعلى الرغم من أن نتائج الانتخابات يمكن أن تكون ذات آثار كبيرة على حياة الناس، فمن غير المحتمل بشدة أن يرى الناخب الفرد قراره ذا تأثير على هذه النتائج. لذلك يكون الأشخاص الذين لديهم أعمال يقومون بها أو أطفال يتولون رعايتهم ذوي حافز محدود في إيلاء اهتمام وثيق للسباقات الانتخابية السياسية. وعمليا يضفي افتقاد المنطق في الاهتمام تحيزا طبقيا لأعلى للعملية السياسية،فمن المحتمل أكثر أن يولي الأشخاص ذوو الدخل المرتفع اهتماما بالسياسة، ومن المحتمل أكثر أن

(1) ويليام بن آدير "ويل" روجرز (4 نوفمبر 15-1879 أغسطس 1935) كان راعي بقر أمريكيا ومؤديا لاستعراضات مسرحية (فودفيل)، وفكاهيا، وكاتب أعمدة صحفية، ومعلقا اجتماعيا، وممثلا على المسرح وفي السينما. وقد مثل نحو 71 فيلما (50 فيلما صامتا، و21 فيلما ناطقا) كتب أكثر من 4000 عمود صحفي نشرت على النطاق الوطني في صحف واسعة الانتشار. كان الرائد في زمنه في خفة الدم السياسية، من أقواله المأثورة أيضا إلى جانب ما هو مذكور في المتن "أنا لا أطلق النكات، أنا فقط أشاهد الحكومة وأقدم تقريرا بالوقائع". توفي عام 1935 في حادثطائرة. (المترجم)، انظر:
Will Rogers,Wikipedia, the free encyclopedia.

يقوموا بالتصويت، مقارنة بالأمريكيين من الطبقة الوسطى والدنيا. ونتيجة لهذا، يكون لدى الناخب النمطي دخل أعلى بشكل ملحوظ من الشخص النمطي، وهذا واحد من الأسباب التي تجعل السياسيين يميلون لتصميم سياساتهم وفي أدمغتهم الميسورون نسبيا.

ولكن كان للنقابات أثرها في تقليص هذا الانحياز الطبقي. إذ كانت النقابات تحث أعضاءها على التصويت، وربما الأكثر أهمية، النقاشات السياسية التي تجري في الاجتماعات النقابية، والرسائل السياسية الموجهة لأعضاء النقابة، وغيرها من الأمور، ما يرفع درجة الوعي السياسي ليس فقط بين العمال النقابيين ولكن أيضا بين هؤلاء الذين يتحدثون معهم، ويشمل ذلك أزواجهم، وأصدقاءهم، والعائلة. ولأن الناس يميلون لمصادقة الآخرين ذوي الدخل المماثل لهم، فقد كان هذا يعني مشاركة سياسية أكبر بين الأمريكيين ذوي الدخل الأقل. ويقدر تحليل إحصائي حديث[1] أنه لو كانت حصة العمال النقابيين في القوة العاملة في عام 2000 بنفس المستوى الذي كانت عليه في عام 1964، لكانت نسبة 10% إضافية من البالغين في الثلثين الأقل من حيث توزيع الدخل قد قامت بالتصويت، مقارنة مع نسبة 3% إضافية في الثلث الموجود على قمة توزيع الدخل. ولذا تخفض قوة الحركة النقابية من مركز الجاذبية الاقتصادي في السياسة بالولايات المتحدة، وهو ما أفاد الديمقراطيين إلى حد بعيد.

وبالإجمال، كان الاقتصاد السياسي للولايات المتحدة في الخمسينات وحتى الستينات محبذا أكثر للسياسات الاقتصادية التي تعمل على تسوية الدخل عما كان عليه خلال العصر المُذهَّب الطويل. فدولة الرفاه لم تَعد تُعدّ بَعدُ راديكالية؛ وعِوضا عن ذلك، فقد اعتُبر هؤلاء الذين أرادوا تدميرها مختلين. ولم يعد هناك طبقة واسعة من العمال المهاجرين المحرومين من التصويت. وكان الجنوب، ظرفيا ومؤقتا، إلى جانب المساواة الاقتصادية، ما دام ذلك لم يُترجم في شكل مساواة عرقية. وكانت الحركة النقابية القوية لها تأثيرها في تعبئة الناخبين الأقل دخلا.

(1) Jan Leighley and Jonathan Nagler, "Unions, Voter Turnout, and Class Bias in the U.S. Electorate, 1964-2000," Journal ofPolitics 69, no. 2 (May 2007), pp. 430-41.

الأحزاب السياسية في عصر المساواة

كتب إيليس ج. أرنال، وهو محافظ سابق لولاية جورجيا، مقالا مناوئا فيه رأيالجمهور، ولكن تحول لأن يكون مقالا على درجة عالية من الدقة في عدد أكتوبر من مجلة الأطلنطي الشهرية بعنوان "الديمقراطيون يمكنهم الفوز". وقد ركز في هذا المقال على أن القوة المتأصلة للتحالف الديمقراطي "تم وصفها بواسطة نقادها على أنها توليفة من الجنوب، ونقابات العمال، وماكينات المدينة، واليسار الفكري. وهو وصف ليس بالدقيق إجمالا". ولقد تحدثت بالفعل عن الجنوب والنقابات. فلنتحدث بشكل مختصر عن العنصرين الآخرين.

الماكينات السياسية الحضرية، وهي تقوم إلى حد كبير على قاعدة من المؤيدين من المهاجرين، وترجع إلى تاريخ سابق على سنوات روزفلت. وفي الواقع، كانت هذه الماكينات مصدرا رئيسيا للتأييد الديمقراطي منذ القرن التاسع عشر. وكان لسياسات الصفقة الجديدة أثرها في إضعاف قوتها. وكان المفتاح للماكينة هو جاذبيتها للمصوتين الحضريين بقدرتها على تقديم المساعدات للعائلات التي تقع في محنة والمحاباة في التوظيف؛ وقد جعل توسيع الصفقة الجديدة لشبكة الأمان الاجتماعي الحكومية وارتفاع الأجور نتيجة للانضغاط العظيم هذه الخدمات أقل أهمية. ومع ذلك فقد كانت هذه الماكينات الحضرية لا تزال قوية بشكل معقول حتى الستينات، وساعدت استمراريتها على كسب الديمقراطيين للانتخابات.

ماذا عن "اليسار الفكري"؟ من الواضح أنه لم يكن هناك أبدا عدد كاف من المفكرين بشكل يجعلهم كتلة تصويتية مهمة لأي من الحزبين. ولكن التركيز على الجانب الميكانيكي من الأشياء يعطي تقديرا ضئيلا لأهمية الرسائل والأفكار. في الثلاثينات كان لدى اليسار أفكار حول ما الذي يجب عمله؛ بينما لم يكن لدى اليمين أية أفكار، اللهم إلا الوعظ بأن الاقتصاد في نهاية المطاف سيداوي نفسه بنفسه. ومنح نجاح فرانكلين ديلانو روزفلت المفكرين الليبراليين مصداقية ومكانة مرموقة دامتا لفترة طويلة بعد أن وهنت قوة دفع الصفقة الجديدة إلى حد كبير، وبالضبط، كما في وقتنا الراهن، يبقى سائدا التأكيد على أن الأفكار الجديدة على حق لفترة طويلة بعد أن يكون قد ذهب أي شعور حقيقي بالابتكار الحق. وقد علق جون كينيث جالبريث في عام 1958 متهكما أنه بين الليبراليين "خدم

الجهر بالحاجة إلى الأفكار الجديدة، وفقا لبعض التقديرات، كبديل عنها". ولكن الشعور بأن الأفكار الجديدة تأتي من اليسار ظل ميزة للديمقراطيين.

وفي غضون ذلك، كان الحزب الجمهوري بحلول الخمسينات في نواح عديدة مجرد خيال لذاته القديمة. فقد كان للجمهوريين قبل الكساد العظيم والانضغاط العظيم ميزتان سياسيتان كبيرتان: المال، والصورة الذهنية عن براعتهم وكفاءتهم. فمساهمات النخبة الثرية منحت الجمهوريين عادة تفوقا ماليا كبيرا، واعتاد الناس افتراض أن الحزب الجمهوري، هو حزب مجال الأعمال، حزب الرجال القادرين على تحمل المسؤولية مثل هربرت هوفر، الرجال الذين يعرفون كيف يديرون البلد.

ولكن الانضغاط العظيم قلص إلى حد بعيد موارد النخبة، بينما قضى الكساد العظيم على اعتقاد الأمة بأن رجال الأعمال هم الأفضل معرفة. وقد أصبح هربرت هوفر النموذج الصارخ لعدم الكفاءة. وبعد الانتصار في الحرب العالمية الثانية والازدهار الكبير ما بعد الحرب، من كان يمكنه الادعاء بمصداقية أن الديمقراطيين لا يعرفون كيف يديرون الأشياء؟

ومع ذلك، فقد استطاع الحزب الجمهوري البقاء على قيد الحياة، ولكنه فعل ذلك بالتحرك تجاه مركز سياسي جديد. فقد فاز أيزنهاور بالبيت الأبيض جزئيا بسبب سمعته في الحرب العالمية الثانية، وجزئيا بسبب أن الجمهور كان قد ضجر وطفح كيله من الحرب الكورية. ولكنه كان مقبولا أيضا بسبب تبشيره بـ"الاعتدال"، واعتباره هؤلاء الذين يودون التراجع عن الصفقة الجديدة "أغبياء". وقد أصبح الحزب الجمهوري، ولعدة عقود تالية، خيمة كبيرة حقيقية، مع مكان لكل من المحافظين أنصار الحكومة الصغيرة ولأنصار الإنفاق الضخم، وأنماط الحكومة الكبيرة مثل نيلسون روكفلر[1] في نيويورك. ولإعطاء مسحة عن كيف

(1) نيلسون ألدريتش روكفلر (8 يوليو 1908-26 يناير 1979) أحد أفراد عائلة روكفلر الثرية. كان رجل أعمال، وموظفا عاما، وسياسيا. خدم كنائب للرئيس الأمريكي جيرالد فورد خلال الفترة 1974-1977، كما خدم كحاكم لولاية نيويورك خلال الفترة 1973-1959. خدم أيضا في إدارات الرئيس فرانكلين روزفلت فيما يتعلق بشؤون أمريكا اللاتينية، والرئيس دوايت أيزنهاور فيما يتصل بشؤون برامج الرفاه. تم تصنيفه سياسيا في العادةكليبرالي وتقدمي، أو في حالات أخرى كمعتدل. كان الليبراليون ضمن الحزب الجمهوري، في عصره، يطلق عليهم "جمهوريو روكفلر". عند ممارسته لمهام منصبه كحاكم لولاية نيويورك كان من بين إنجازاته توسيع جامعة الولاية، وبذل جهود

أصبح الجمهوريون غير أيديولوجيين، من المفيد الرجوع للدراسات الكمية عن السلوك التصويتي في الكونجرس.

والعمل الأصلي المبدع هنا، سبق ذكره بالفعل في الفصل الأول، هو عمل كيث بوول من جامعة كاليفورنيا، سان دييجو، وهوارد روزنثال من مؤسسة راسل سيج، حيث طورا طريقة نظامية لتحديد موقع أعضاء الكونجرس على مقياس للطيف السياسي من اليسار لليمين. (كما حددا أيضا بُعدا ثانيا للسياسة- العرق- كان حاسما في نهوض الحركة المحافظية. ولكن دعنا نترك هذا البعد جانبا الآن). ويجري الأسلوب، متحدثين بشكل تقريبي، كالآتي: فلنبدأ بالتصويت بنداء الأسماء في عدد من القوانين المؤثرة على القضايا الاقتصادية. أولا، تم إعداد تصنيف تمهيدي لهذه القوانين على مقياس للطيف السياسي من اليسار لليمين. ثانيا، تم تصنيف أعضاء الكونجرس من اليسار لليمين بناء على كيفية تصويتهم على تلك القوانين. ثالثا، استخدم تصنيف المشرعين لتنقية التصنيف يسار-يمين بناء على القوانين، وتكرار هذه العملية من جديد مرة أخرى. وبعد عدة جولات تكون قد وصلت إلى تصنيف متسق لكل من القوانين والسياسيين بناء على مقياسللطيف السياسي[1]. وقد طبق بوول، وروزنثال، ونولان مكارثي،من جامعة برنستون، هذا الأسلوب على كل كونجرس منذ القرن التاسع عشر. وما يلفت الانتباه من نتائجهم هو كم كانت الاختلافات بين الجمهوريون والديمقراطيين في الخمسينات والستينات متواضعة، مقارنة بفجوة هائلة قبل الصفقة الجديدة، بل وحتى فجوة أكبر الآن.

وقام بوول وروزنثال بقياس الفجوة بين الأحزاب بمقياس للاستقطاب السياسي، وهو وإن كان مقياسا غنيا بالمعلومات، من الصعب تلخيصه بطريقة سهلة بديهية. ولأغراضي في هذا الكتاب يكفي النظر في مقياسين وصفيين يتصرفان بطريقة مشابهة بشدة مع مرور الزمن. وأحد المقياسين هو ما سأطلق عليه

لحماية البيئة، وزيادة المنشآت والأشخاص في مجال الرعاية الصحية، وتأسيس مجلس ولاية نيويورك للفنون. (المترجم)، انظر:
Nelson Rockefeller, Wikipedia, the free encyclopedia.

(1) العملية الفعلية للتقدير تعد أكثر تعقيدا بكثير مما قمت بشرحه، ولكنها تماثلها في الروح. أنظر
McCarty, Poole, and Rosenthal, Polarized America.

"حـزب الأقليةعـن طريـق التداخـل": عـدد الديمقراطيـين الذيـن يقعـون عـلى يمـين أقـصى يسـار الجمهوريـين، حينـما يسـيطر الجمهوريـون عـلى الكونجـرس، أو عـدد الجمهوريـين الـذي يقعـون عـلى يسـار أقـصى يمـين الحـزب الديمقراطـي، حينـما يسـيطر الديمقراطيـون عـلى الكونجـرس. والمقيـاس الآخـر وهـو الذيأطلـق عليـه "حـزب الأقليـة عـن طريـق المعـبر": عـدد الأعضـاء مـن حـزب الأقليـة الذيـن هـم حقيقـة عـلى الجانب الآخـر مـن حزبهـم تبعـا للتقسـيم السـياسي: الديمقراطيـون الذيـن يقعـون عـلى يمـين العضـو الوسـيط[1] في الكونجـرس، أو الجمهوريـون الذيـن يقعـون عـلى يسـاره. وفي كل مقيـاس مـن المقياسـين كلـما زاد التداخـل كان لدينـا نظـام سـياسي أقـل مـن حيـث الاسـتقطاب، بينـما غيـاب التداخـل يشـير إلى أنـه ليـس هنـاك وسـط سـياسي قـوي.

ويبـين "جـدول 2" هـذه الأعـداد بالنسـبة لثلاثـة مـن مجالـس الكونجـرس: وهـي الكونجـرس رقـم سـبعين الـذي كانـت دورة انعقـاده بـين 1928-1927 و-1928 1929؛ والكونجـرس رقـم خمسـة وثمانـين وكانـت دورة انعقـاده بـين 1957 و1958؛ والكونجـرس رقـم ثمانيـة بعـد المئـة وكانـت دورة انعقـاده بـين 2003 و2004. ويبـين الجـدول أن التحـزب في الكونجـرس كان أقـل حـدة في الخمسـينات عـما كان عليـه قبـل الصفقـة الجديـدة، أو مقارنـة بمـا هـو عليـه الآن. ففـي الكونجـرس السـبعين، حيـث كان الجمهوريـون يسـيطرون عـلى مجلـس النـواب، كان مـن الصعـب وجـود أي حـزب أقليـة عـبر التداخـل: كان هنـاك ديمقراطيـان اثنـان فقـط عـلى يمـين أقـصى يسـار الحزب الجمهـوري. ولم يكـن هنـاك حـزب أقليـة عـن طريـق المعـبر: كان كل الديمقراطيـين عـلى يسـار الوسـط. وكان الوضـع أكـثر تطرفـا في الكونجـرس رقـم ثمانيةبعـد المئـة، وكان يسـيطر عليـه الجمهوريـون أيضـا، فقـد كان كل ديمقراطـي عـلى يسـار أقـصى يسـار الحـزب الجمهـوري، وليسـت هنـاك حاجـة للقـول إنـه لم يكـن هنـاك أي معـبر. أمـا في الكونجـرس الخامـس والثمانـين، عـلى كل حـال، وكان يسـيطر عليـه الديمقراطيـون، كان هنـاك العديـد مـن الجمهوريـين عـلى يسـار أقـصى يمـين الديمقراطيـين (وذلـك غالبـا بسـبب وجـود عـدد مـن المحافظين جدا مـن الجنوبيـين الديمقراطيـين). والمثير للدهشـة أكـثر، هـو أنـه كان هنـاك تسـعة أعضـاء جمهوريـين في مجلـس النـواب يقعـون حرفيـا عـلى يسـار الوسـط، أي يقومـون بالتصويـت عـلى يسـار عضـو الكونجـرس الوسـيط. وهـذا الموقـف يسـتحيل تصـوره اليـوم. وذلـك لسـبب واحـد، هـو أن جمهـوري القـرن

(1) أنظر تعريفا بالوسيط في الفصل الثالث. (المترجم)

الحادي والعشرون الذي يأخذ بإخلاص موقفا على يسار الوسط لن يمر أبدا من خلال عمليات الاقتراع التمهيدية، لأن الحركة المحافظية سوف تعمل على التأكد من أنهسيواجه منافسا ممولًا بسخاء، ولأن المصوتين الجمهوريين في الاقتراعات التمهيدية ينحرفون بشدة نحو اليمين، لذا فسوف يؤيدون هذا المنافس بكل تأكيد. أما في الخمسينات فلم يكن الجمهوريون حِمل فرض النقاء الأيديولوجي لو أرادوا كسب الانتخابات. ونتيجة لهذا كان الليبراليون الحقيقيون مثل نلسون روكفلر وجاكوب جافيتس[1]، الذين كان من الممكن أن يتم طردهم بسرعة اليوم، أعضاء في وضع جيد.

جدول 2: مقاييس التشابه بين الأحزاب

	حزب الأقلية بالتداخل	حزب الأقلية عن طريق المعبر
الكونجرس السبعون 1927-1929	2	0
الكونجرس الثامن والخمسون 1957-1958	112	9
الكونجرس الثامن بعد المئة 2003-2004	0	0

Source: www.library.unt.edu/govinfo/usfed/years.html.

والغياب النسبي للاختلاف بين مواقف الأحزاب حول السياسة الاقتصادية يعني أن السلوك التصويتي من جانب الجمهور كان مختلفا بشدة عما هو عليه اليوم. ففي الانتخابات الأخيرة كان التصويت الحزبي في علاقة ارتباط

(1) جاكوب كوبل "جاك" جافيتس (18 مارس 1904-7 مارس 1986)، سياسي أمريكي كان عضوا بمجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك من عام 1957 وحتى 1981. كان ليبراليا جمهوريا. كان متحالفا مع حاكم نيويورك نلسون روكفلر وزملائه الشيوخ إرفنج أفيس وكينيث كيتنج. جاء انتخابه لمجلس الشيوخ بعد أن خدم لفترة عضوا في مجلس نواب ولاية نيويورك، وكذلك مدعيا عاما للولاية. (المترجم)، انظر:

Jacob Javits, Wikipedia, the free encyclopedia.

قوية مع الدخل، إذ كلما زاد دخل الناخب، كان الاحتمال الأكبر أن يقوم هو أو هي بالتصويت جمهوريا. ومن المحتمل أن التصويت للجمهوريين هو تصويت للسياسات التي تتحيز للأغنياء وعلى النقيض من التحيز للفقراء والطبقة العاملة. ولكن الطبيعة غير الأيديولوجية نسبيا للحزب الجمهوري فيالخمسينات، انعكست في طريقة تصويت أعضاؤه في الكونجرس، كما انعكست أيضا في الإدراك العام. وخلال ازدهار ما بعد الحرب، رأى الناخبون بكل وضوح أن هناك القليل جدا من الاختلافات بين الأحزاب حول السياسة الاقتصادية، وكان ذلك واضحا على الأقل عند التصويت في الانتخابات الرئاسية. ويقارن الجدول 3 أنماط التصويت الوسطية للمقترع الأبيض تبعا لمستويات الدخل، وذلك في الانتخابات الرئاسية بين عامي 1952 و1972 من جهة، وبين عامي 1976 و2004 من جهة أخرى. وفي الفترة الأحدث كانت هناك علاقة بين مستويات الدخل العليا والتصويت للحزب الجمهوري. وخلال الفترة 1952 إلى 1972، عصر قبول الثنائية الحزبية بدولة الرفاه، على أية حال، كانت هناك بالكاد علاقة بين مستوى الدخل وتفضيلات التصويت. فالانتخابات الرئاسية الوحيدة التي كان فيها اختلاف تصويتي واسع نتيجة لمستوى الدخل كانت انتخابات عام 1964، وهو العام الذي استطاع فيه باري جولدووتر-شخص حقيقي من الحركة المحافظية، ونذير بالأمور التي ستأتي لاحقا-انتزاع ترشيح الحزب الجمهوري. وتُظهر بقية الاستطلاعات أنه في الخمسينات والستينات كانت هناك علاقة لافتة للانتباه بين دخل الناخب وبين تسجيله أو تسجيلها الحزبي: فالثلث الأعلى من حيث توزيع الدخل كان بدرجة ضئيلة جدا جمهوريا أكثر من الثلث الأوسط والثلث الأدنى في توزيع الدخل.

جدول 3. نسبة البيض الذين صوتوا للحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية وفقا لفئة الدخل

	نسبة التصويت للحزب الديمقراطي 1952-1972	نسبة التصويت للحزب الديمقراطي 1976-2004
الثلث الأفقر	46	51
الثلث الأوسط	47	44
الثلث الأغنى	42	37

Source:Larry Bartels, "What's the Matter with What's with Kansas?" p.13 (photocopy, Princeton University, 2005).

وإذا لم يكن الحزب الجمهوري في الخمسينات والستينات يرمز للمحافظة الاقتصادية، فما الذي كان يرمز له؟ أو ربما يكون من الأفضل لو أعدت صياغة السؤال على النحو التالي: ما الذي كان يفكر الناخبون الذين صوتوا للحزب الجمهوري في أنهم صوتوا له؟

كانوا يصوتون إلى حد ما للنظام الإثني التقليدي. فالحزب الجمهوري في الخمسينات كان، قبل أي شيء آخر، هو حزب الواسب، أي حزب البيض غير الجنوبيين الأنجلو-ساكسون البروتستانت، مع كون مقطع الأنجلو-ساكسون اختياريا. (فقد أتى أيزنهاور من أصل ألماني، ولكن هذا لا يهم). خلال الخمسينات، كان 51% من هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم جمهوريين من الواسب، وذلك على الرغم من أن هذه المجموعة تشكل نسبة 30% فقط من الناخبين.(1) وكان البيض البروتستانت يشكلون المجموعة الإثنية المهيمنة في الولايات المتحدة في معظم تاريخها، ولكن ظهور الصفقة الجديدة، مع وجود العديد من الكاثوليك أعضاء النقابات في قاعدتها، ومع دور كبير للمفكرين اليهود، عمل على إضعاف هذه الهيمنة. بينما معظم بقية البلد كان يشك في التغيير. ومن الصعب الآن استرجاع

(1) See Jhon R. Petrocik, "Reformulation the Party Coalitions: The 'Christian Democratic' Republican" (paper prepared for Center for Research in Society and Politics, Aug. 1, 1998), table 2.

هـذه الحالـة النفسـية، ولكـن حتـى وقـت متأخـر كانتخابـات عـام 1960 كانـت نسـبة معتـبرة قـد صوتـت ضـد كينـدي ببسـاطة بسـبب كونـه كاثوليكيـا.

والأكـثر مصداقيـة، أن العديـد مـن الأمريكيـين كانـوا يصوتـون للحـزب الجمهـوري كوسـيلة للرقابـة عـلى سـلطة التحالـف الديمقراطـي المسـيطر. ومـن الثلاثينـات وحتـى السـبعينات، حـاز الديمقراطيـون عـلى نصيـب أكـبر بكثـير مـن الجمهوريـين مـن عـدد الناخبـين المسـجلين. وعـلى الرغـم مـن أن هـذا لم ينعكـس في شـكل أفضليـة ديمقراطيـة في الاسـتيلاء عـلى البيـت الأبيض-بـين انتخابـات عـام 1948 وانتخـاب رونالـد ريجـان احتفـظ الجمهوريـون بالرئاسـة لمـدة أربـع مـرات، والديمقراطيـون ثلاثا-ولكنـه ترجـم في شـكل سـيطرة ديمقراطيـة ثابتـة ومتسـقة عـلى الكونجـرس مـن عـام 1952 فصاعـدا. وهـذه السـيطرة المتسـقة أدت إلى سـوء اسـتخدام ومفاسـد، ليـس فسـادا ضخـما أو فاضحـا، في الغالـب، ولكـن فسـاد صغـير، وربمـا الأكـثر أهميـة، التراخـي وانخفـاض الانتبـاه للاهتمامـات الشـعبية. وأصبـح الجمهوريـون هـم البديـل لهؤلاء الناخبـين الذين يقـدرون وجـود بعـض الرقابـة والمحاسـبية. وبشـكل خـاص، فقـد قـدم الجمهوريـون في الشـمال الشرقـي أنفسـهم كإصلاحيـين سـوف يقومـون بتطهـير النظـام وليـس تغيـيره بطريقـة أساسـية.

وفي الإجـمال، بـين عامـي 1948 وأحيانـا السـبعينات، قبـل كل مـن الحزبـين التغيـيرات التـي حدثـت في أثنـاء الانضغـاط العظيـم. وإلى حـد كبـير خلقـت الصفقـة الجديـدة الظـروف السياسـية التـي سـاندت هـذا الإجـماع. نظـام ضرائـب تصاعـدي يحـد مـن الـثروة عنـد القمـة، وكان الأغنيـاء ضعفـاء سياسـيا لـكي يقومـوا بالاحتجـاج عـلى هـذا. وكانـت برامـج الضـمان الاجتماعـي وتأمـين البطالـة برامـج لا يمكـن المسـاس بهـا، واسـتطاعت الرعايـة الصحيـة للمسـنين في نهايـة المطـاف الوصـول لنفـس المكانـة. وتـم القبـول بالنقابـات القويـة كجـزء مـن المشـهد الوطنـي.

وسـوف ينهـار هـذا التـوازن في السـبعينات. ولكـن القـوى التـي سـتدمر سياسـة المسـاواة بـدأت البنـاء في السـتينات، وهـو عقـد بـدا فيـه أن كل شيء في الاقتصـاد مـضى في الاتجـاه الصحيـح، ولكـن يبـدو أن كل شيء أيضـا كان يمـضي في الاتجـاه الخطـأ بالنسـبة للديمقراطيـة الأمريكيـة.

الفصل الخامس

الستينات: الازدهار المضطرب

لقد كانت أفضل الأوقات، لقد كانت أسوأ الأوقات.

من الناحية الاقتصادية شهدت الستينات أفضل ما يمكن أن يحدث. في كتابه عصابة مضخة المنزل، الذي نشر عام 1968، كتب توم وولف عن "الاقتصاد السحري" وهو الاقتصاد الذي بدا فيه كل شيء سهلا. ووفقا لكل المعايير فقد كان هذا هو تقريبا نوع الاقتصاد الذي امتلكته أمريكا في الستينات. والفوضى والانقلاب الفجائي خلال هذا العقد حدثا على خلفية أفضل اقتصاد سبق أن حصلت عليه أمريكا على الإطلاق.

كان كما يبدو اقتصادا يقدم وظيفة لكل شخص. وعلاوة على هذا فقد حدثت هذه الوفرة في الوظائف مع أجور أعلى مما سبق، بل كانت ترتفع كل عام. وفي الحد الأدنى، كان العمال أفضل حالا بكثير مما قد يكونون عليه مرة أخرى فيما بعد،ففي عام 1966 بلغ الحد الأدنى للأجر 1.25 دولار للساعة، وهو ما يساوي أكثر من 8 دولارات بأسعار اليوم، وهو ما يزيد بكثير على الحد الأدنى للأجر اليوم البالغ 5.15 دولار للساعة. ومع حلول عام 1966 كان الرجل

النمطي في الثلاثينات من عمره يكسب بقدر ما يكسب مثيله اليوم؛ ومع مرور الوقت انتهى الازدهار الكبير، وفي بداية السبعينات، كان الرجال يكسبون أكثر مما يكسبون اليوم بـ14%.[1] وكان دخل العائلة أقل قليلا مما هو عليه اليوم، لأن أعدادا قليلة من النساء هي التي كانت تعمل آنذاك، كما كانت فجوة الأجور بين النساء والرجال أكبر. وبسبب أن الدخول كانت أقل قليلا مما هي عليه الآن، كانت عائلات الطبقة الوسطى تعيش في منازل أصغر، وكان احتمالات أن تمتلك سيارتين أقل مما هي عليه الآن، وبشكل عام كان لديها إلى حد ما مستوى معيشة مادي أقل مقارنة بالعائلات المماثلة لها اليوم. ورغم ذلك، كان معظم الأمريكيين يشعرون أن مستوى المعيشة مرتفع، وذلك بسبب ارتفاع هذا المستوى عما كان عليه لدى الجيل السابق، وبسبب أن الشعور بالإهمال والترك في المجتمع الأكثر مساواة يكون أقل. وكما أوضح فرانك ليفي وبيتر تمين، الاقتصاديانبمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا، فإن الارتفاع الواسع النطاق في الدخل يعني أن العامل ذا الياقة الزرقاء الذي يقوم بتشغيل الماكينة يكسب أكثر، بالقيم الحقيقية، مما كان يكسبه معظم المديرين خلال الجيل السابق. ونتيجة لهذا كان الكثير من الأمريكيين، ومقارنة بأي وضع سابق، يعتبرون أنفسهم طبقة وسطى.[2]

وكان الأمان الاقتصادي أيضا غير مسبوق. فمع حلول عام 1966، كان لدى 80% من السكان تأمين صحي، مقارنة بنحو 30% فقط عند نهاية الحرب العالمية الثانية، وبحلول عام 1970 فاقت نسبة السكان التي لديها تأمين صحي المستوى المحقق اليوم البالغ 85%. وكان العمال الذين يفقدون وظائفهم برغم معدلالبطالة المنخفض من المحتمل أكثر أن يحصلوا على تأمين للبطالة أكبر مما يتلقاه الذين يتم الاستغناء عنهم اليوم، وكان هذا التأمين يغطي نسبة أكبر من دخولهم المفقودة مقارنة بالنسبة القائمة اليوم. وكما أشار ليفي وتمين، كان ارتفاع الأجور الذي انطبق على الجميع يعني أنه حتى العمال الذين يتم الاستغناء عنهم والذين كان العمل التالي الذي يصادفونه ويعملون به يدفع أجورا أقل مما

(1) "Economic Mobility: Is the American Dream Alive and Well?" (Pew Economic Mobility Project, May 2007).

(2) Levy and Temin, "Inequality and Institutions."

كانوا يتلقون من عملهم الأول الذي فقدوه، يجدون أنفسهم خلال بضعة أعوام قليلة قد استعادوا مستوى معيشتهم السابق.

ولو كان شعار "إنه الاقتصاد، يا غبي"[1] صالحا، لتم احتساب أمريكا بلدا للرضا السياسي واسع النطاق. ومع ذلك ففي أغسطس 1966، حينما سأل استطلاع أسوشيتدبرس/إيبسوس الناس، السؤال التالي: "بشكل عام، هل يمكنك القول إن الأمور في هذا البلد تمضي في الاتجاه الصحيح، أو إنها بالعكس على المسار الخطأ؟" أجاب 26% فقط على هذا السؤال بالقول "إن البلد على الطريق السليم"، بينما أجاب 71% قائلين "إنها على المسار الخطأ".

وأمر هذه الإجابة ليس خافيا. فبالنسبة للعديد من الأمريكيين، ربما معظمهم، كان أي شعور بالرضا بشأن أي تقدم مادي يفوقه شعور جارف بأن المجتمع الأمريكي يتداعى. فقد كانت الجريمة مرتفعة، وكانت المدن تجتاحها أعمال الشغب والفوضى، وكان الشباب المرموقون يطيلون شعرهم، ويتعاطون المخدرات، ويمارسون الجنس قبل الزواج؛ وكان المتظاهرون فيالشوارع يشجبون الحرب فيفيتنام. وربما يلقي المؤرخون اليوم نظرة على الماضي على اضطرابات الستينات ويرون أنها تمثل اتجاهات منفصلة؛ فدوافع اللصوص ودوافع الطلبة الراديكاليين والهيبيين ومتوسطي العمر المعارضين للحرب لم تكن هي نفسهاإطلاقا. ومع ذلك فقد كان شعور الجمهور بإطلاق العنان للفوضى له أساس من الحقيقة.

وعبر الناخبون في انتخابات عام 1966 عن إحباطهم وخيبة أملهم، بإعطاء الجمهوريين مكاسب كبرى في الكونجرس. وفي كاليفورنيا تحول ممثل اسمه رونالد ريجان إلى سياسي وأصبح حاكما بإقامة حملته الانتخابية ضد الذين يغشون للحصول على مكاسب دولة الرعاية الاجتماعية، ومثيري الشغب في الحضر، وطلاب الجامعات ذوي الشعر الطويل، وقانون الإسكانالعادل.[2]

---

(1) شعار الحملة الانتخابية للمرشح الديمقراطي بيل كلينتون في انتخابات عام 1992 التي انتخب فيها رئيسا، وأطاح بالرئيس جورج بوش الأب من البيت الأبيض (المترجم).

(2) قانون الإسكان العادل، ويعرف أيضا بالمادة الثامنة من قانون الحقوق المدنية لعام 1968، هو تشريع فيدرالي أمريكي يحمي الأفراد والعائلات من التمييز في بيع، وتأجير، وتمويل، أو الإعلان عن الإسكان. وقانون الإسكان العادل، كما تم تعديله في عام 1988، يحظر التمييز على أساس العرق أو اللون أو الدين أو الجنس أو الإعاقة أو مكانة العائلة أو الأصل القومي. وقد عرض قانون

وكان الحـزب الجمهـوري عـام 1966 مؤسسـة أكثر اعتـدالا بكثير مـن الحـزب الجمهـوري الـذي نعرفـه اليـوم. والحركـة المحافظية-وهـي موضـوع الفصـل التـالي-حـضرت، ودبـرت أمرهـا بحيـث ترشـح بـاري جولدووتـر في عـام 1964، ولكنهـا لم تكـن قـد أحكمـت قبضتهـا بعـد عـلى الحـزب. ولم يكـن رونالـد ريجان بعـد متحمسـا لخفض الضرائـب، وكان ريتشـارد نيكسـون قـد حكـم حقيقـة كليـبرالي مـن عـدة أوجـه: فقـد قـام بربـط الضـمان الاجتماعـي بمعـدلات التضخـم، وخلـق دخـل تأمينـي إضـافي (وهـو برنامـج رئيـسي للمعاقـين الكبـار في السـن)، ووسـع مـن التنظيـم الحكومـي للأمـان في أماكـن العمـل والبيئـة، بـل حـاول حتـى تقديـم تأمـين صحـي شـامل.

ومـع ذلـك كانـت بـذور الحركـة المحافظيـة للهيمنـة التـي حدثـت في نهايـة المطـاف قـد تـم بذرهـا فيالسـتينات، أو لـكي نكـون أكـثر دقـة بـين عـام 1964، وهـو العـام الـذي حقـق فيـه ليـندون جونسـون انتصـارا كاسـحا عـلى بـاري جولدووتـر، وعـام 1972، وهـو العـام الـذي حقـق فيـه ريتشـارد نيكسـون انتصـار أكـثر اكتسـاحا عـلى جـورج ماكجفـرن.

وهـذه السـنوات كانـت، بالطبـع، سـنوات التصعيـد والعـدد الضخـم مـن ضحايـا الحـرب في فيتنـام، وهـو العـصر الـذي تمزقـت فيـه أوصـال أمريـكا بأسـئلة الحـرب والسـلام. وكانـت فيتنـام بـكل تأكيـد هـي قضيـة هـذا الزمـن. فمـن دون فيتنـام، كان ليـندون جونسـون بشـكل شـبه أكيـد سـيتم ترشيحه لمـدة رئاسـية مكتملـة ثانيـة، ولم يكـن المتظاهـرون والبوليـس ليتواجهـا في معـارك ضاريـة خـارج مقـر مؤتمـر الحـزب الديمقراطـي في شـيكاجو، ولم يكـن نيكسـون ليشـق طريقـه أبـدا إلى البيـت الأبيـض.

الإسـكان العـادل أول مـرة أمـام الكونجـرس في عـام 1966، وذلـك للتطـرق بشـكل أسـاسي إلى قضايـا التمييـز العنـصري في تأجـير وبيـع المسـاكن. وخـلال العامـين التاليـين، قـام أعضـاء مـن مجلـسي النـواب والشـيوخ بدراسـة مـشروع القانـون عـدة مـرات، ولكـن المـشروع فشـل في الحصـول عـلى التأييـد المناسـب لـكي يتـم إصـداره. وكان واحـدا مـن المؤيديـن الأقويـاء للقانـون مارتـن لوثـر كنـج، الـذي كان في صـدارة مسـيرات الإسـكان المفتـوح في شـيكاجو في السـتينات. وبعـد اغتيـال مارتـن لوثـر كنـج في 4 أبريـل 1968، حـث الرئيـس ليـندون جونسـون الكونجـرس عـلى تمريـر مـشروع القانـون كتأبـين لزعيـم حركـة الحقـوق المدنيـة المغتـال قبـل تشـييع جنازتـه. (المترجـم)، انظـر:

The Editors of Encyclopædia Britannica, Fair Housing Act, *Encyclopædia Britannica.*

على الرابط: http://www.britannica.com/topic/Fair-Housing-Act

ومـع ذلـك كانـت الآثـار طويلـة الأمـد لحربفيتنـام عـلى السياسـة الأمريكيـة، أقـل مـما قـد تعتقـد. فطبقـا للحكمـة التقليديـة كان الـصراع حـول فيتنـام قـد كبـل الحـزب الديمقراطـي، وأدان موقفـه باعتبـاره يـؤدي إلى الإضعـاف الدائـم لموقـف الأمـن القومـي. وكـما سـنرى في هــذا الفصـل والفصـول التاليـة، بالغـت الحكمـة التقليديـة في هــذه الحالـة. فلـم تفعـل الحـرب سـوى القليـل لزعزعـة احتفـاظ الديمقراطيـين بالكونجـرس. أمـا بالنسـبة لصـورة الديمقراطيـين باعتبارهـم ضعفـاء فيـما يتعلـق بالأمـن القومـي، فقـد كان نيكسـون ناجحـا للغايـة في تصويـر جـورج ماكجفـرن كشـخص ضعيـف في مجـال الأمـن القومـي، ولكـن كان الأمـر الأقـل وضوحـا بكثـير أن يكـون الحـزب الديمقراطـي ككل أصبـح يُنظـر لـه بنفـس النظـرة، فلـم يحـدث ذلـك إلا بعـد وقـت طويـل للغايـة. فصـورة الديمقراطيـين كضعفـاء لم تعلـق حقيقـة بالذهـن حتـى الثمانينـات، وتـم إسـقاطها عـلى المـاضي عنـد إعـادة كتابـة التاريـخ.

ومـا حـدث حقيقـة في السـتينات هـو أن الجمهوريـين تعلمـوا كيـف يمكنهـم اسـتغلال المـرارات الثقافيـة الناشـئة والمخـاوف لـكي يفـوزوا بالانتخابـات. وقـد تعلـم الجمهوريـون بالـذات كيـف يمكـن اسـتغلال ردة فعـل البيـض ضـد حركـة الحقـوق المدنيـة ومـا تولـد عنهـا مـن آثـار. وهـذا الاكتشـاف سيمكّن في نهايـة الأمـر الحركـة المحافظيـة مـن الفـوز بالبيـت الأبيـض والأخـذ بزمـام الكونجـرس.

ولـذا دعنـا نبـدأ مـع الحـدث الـذي كان مثـار الاهتـمام الأكـبر في الأمـد الطويـل: قـرار لينـدون جونسـون بمنـاصرة الحقـوق المدنيـة.

الحقوق المدنية والتخلي عن الجنوب

كرجـل تمتـد جـذوره بعمـق في تربـة الجنـوب، أعلـم كيـف هـي مبرحـة المشـاعر العنصريـة. وأعلـم كيـف مـن الصعـب إعـادة تشـكيل المواقـف وهيـكل مجتمعنـا. ولكـن لقـد مـر قرن-أكـثر مـن 100 عـام- منـذ تـم تحريـر الزنـوج. ومـع هـذا فهـم ليسـوا أحـرارا تمامـا الليلـة. فقـد مـر أكـثر مـن 100 عـام عـلى توقيـع الرئيـس أبراهـام لينكولن-رئيـس عظيـم مـن حـزب آخر-عـلى إعـلان تحريـر العبيـد. ولكـن التحريـر كان إعلانـا ولم يكـن واقعـا.

وقد مر قرن-أكثر من 100 عام- منذ الوعد بالمساواة، ومع ذلك لم يكن الزنوج متساوين. وقد مر قرن على اليوم الذي تم فيه إطلاق هذا الوعد، وتم النكث بهذا الوعد. وقد حل وقت العدل الآن.

هكذا تحدث ليندون جونسون في مارس 1965، وأعلن عزمه تمرير ما صار يعرف في نهاية المطاف بقانون حقوق التصويت، وذلك عقب أسبوع قام فيه البوليس بشكل عنيف بمهاجمة مسيرة تدعو إلى الحق في التصويت في مدينة سلما، بولاية آلاباما.

وكان قرار جونسون بإنهاء الحرمان الفعلي من التصويت للأمريكيين الإفريقيين قد بلغ ذروته بعد نحو عشرين عاما من التطور داخل الحزب الديمقراطي. فقد بدأ في عام 1947، حينما أسس هاري ترومان لجنة لاقتراح تشريع يحمي الزنوج من التمييز. ومثلها مثل معظم الأعمال الصالحة في السياسة، كانت حركة ترومان تنطوي على عنصر من الحسابات، فقد اعتقد أن كسب أصوات السود في المدن الشمالية يمكنه من انتزاع النصر في انتخابات عام 1948. وقد ثبت صحة ذلك، على الرغم من أن تضمين الحقوق المدنية في البرنامج الانتخابي الديمقراطي أدى إلى الانسحاب الاحتجاجي للمندوبين الجنوبيين، وإلى ترشيح الحزب الثالث شخصا مثل ستروم ثرموند، داعية التفرقة العنصرية وحاكم جنوب كارولينا، للانتخابات الرئاسية.

ومع وضع الحسابات السياسية جانبا، فقد كان من المحتم أن يصبح الحزب الذي خلق الصفقة الجديدة في نهاية المطاف هو حزب الحقوق المدنية. كانت الصفقة الجديدة حركة شعبوية، ومثلها مثل الحركة الشعبوية في القرن التاسع عشر، وجدت نفسها تمد ذراعها لدعم السود الذين كانوا الأكثر استفادة من توزيع أكثر عدالة للدخل. ولاحقا، أدت الحرب العالمية الثانية إلى تسارع الخطوات، فلم يقاتل السود فقط من أجل أمريكا، بل إن ميراث النازية ساعد على جعل العنصرية المكشوفة غير مقبولة. وبعد مؤتمر الحزب الديمقراطي عام 1948، أمر ترومان الجيش بالدمج العرقي. وقد أعقبت الحربَ العالمية الثانية الحربُ الباردة التي حاول فيها الاتحاد السوفييتي تصوير نفسه على أنه المناضل الحقيقي من أجل تحقيق عبارة أن "كل الناس خُلِقوا متساوين". وقد آمن ترومان وآخرون

عديـدون بـأن أمريـكا بحاجـة لإنهـاء تاريخهـا الطويـل مـن التفرقـة العنصريـة والتمييـز مـن أجـل اسـتعادة مكانتهـا الأخلاقيـة.

واليـوم مـن الصعوبـة بمـكان عـلى أي سـياسي، مـن الشـمال أو الجنـوب، أن يجـرؤ عـلى التنـازع علنـا مـع العواطـف التـي عـبر عنهـا جونسـون حينـما قـدم قانـون حقـوق التصويـت. (عـلى الرغـم مـن أن البعـض في قلوبهـم يعتقـدون بذلـك بالتأكيـد، كـما بـيّن ذلـك مـا انفلـت مـن بـين شـفتي ترنـت لـوت[1] في حديثـه عـام 2002 عنـد ثنائـه عـلى سـتروم ثرمونـد، حينـما قـال إنـه لـو كان تـم انتخـاب هـذا المولـع بالتفرقـة العنصريـة في عـام 1948 لماكانـت "كل هـذه المشـكلات"لتوجَد لدينـا). وبعـد مـرور أربعـين سـنة اعتُـبر الداعـين لحريـة الـركاب[2] أبطـالا وأصبـح مارتـن لوثـر كنـج أيقونـة، رمـزا للزوايـا الأفضـل في الطبيعـة الأمريكيـة. وفي السـتينات، عـلى أيـة حـال، وجـد الكثـير مـن الأمريكيـين البيـض أن الدفـع مـن أجـل الحقـوق المدنيـة مربـكا بشـدة ومهـددا.

وكان ذلـك جزئيـا بسـبب أن نسـبة كبـيرة إلى حـد مـا مـن الأمريكيـين كانـت لا تزال مـن دعـاة التفرقـة العنصريـة. بـين عامـي 1964 و1978 كانـت الدراسـات المسـحية للانتخابـات الوطنيـة الأمريكيـة تسـأل النـاس عـما إذا كانـوا يفضلـون "التخلـص مـن التفرقـة العنصريـة أو التفرقـة العنصريـة الصارمـة، أو موقفـا مـا بينهـما". في عـام 1964 كان 23% لا يزالـون يجيبـون "التفرقـة العنصريـة الصارمـة"، مقارنـة بنحـو 32% كانـوا يريـدون التخلـص مـن التفرقـة العنصريـة.

---

(1) شيسـتر ترنـت لـوت (ولـد 9 أكتوبـر 1941) سـيناتور سـابق عـن ولايـة مسيسـبي. خـدم لـوت في مناصـب قياديـة متنوعـة في كل مـن مجلـس النـواب ومجلـس الشـيوخ. وقـد دخـل الكونجـرس كواحـد مـن ضمـن الموجـة الأولى لفـوز الجمهوريـون بمقاعـد في الولايـات الجنوبيـة التـي كان يسـيطر عليهـا الديمقراطيـون. أصبـح زعيـم الأغلبيـة في مجلـس الشـيوخ، ثـم سـقط عـن السـلطة بعـد أن مـدح سـتروم ثرمونـد المرشـح الديكسـكراتي الداعـي إلى التفرقـة العنصريـة في الانتخابـات الرئاسـية عـام 1948. ففـي 20 ديسـمبر عـام 2002 بعـد سـجال كبـير دار في أعقـاب تعليـق حـول حملـة الانتخابـات الرئاسـية لسـتروم ثرمونـد، اسـتقال لـوت كزعيـم للأقليـة الجمهوريـة في مجلـس الشـيوخ. ثـم اسـتقال مـن مجلـس الشـيوخ عـام 2007 وفـاز زميلـه الجمهـوري روجـر ويكـر بالانتخابـات التكميليـة الخاصـة في دائرتـه عـام 2008 ليحـل محلـه. (المترجـم)، انظـر:

Trent Lott, Wikipedia, the free encyclopedia.

(2) الأشـخاص الذيـن تحـدوا القوانـين العنصريـة في الجنـوب الأمريـكي في السـتينات، بدايـة برفـض الانصيـاع للقوانـين التـي تنـص عـلى التفرقـة العنصريـة عنـد الجلـوس في مقاعـد الأتوبيـس. (المترجـم)

وكان أغلب من أجابوا بالتفرقة العنصرية التامة من الجنوبيين. ولكن حتى في الشمال، حيثالتعاطف أقل مع التفرقة العنصرية الصارمة، كان هناك خوف ملموس من التغييرات التي كانت تجلبها حركة الحقوق المدنية. وخلال فترة الستينات، كان أكثر من 60% من الناخبين يوافقون على أن "العاملين في حركة الحقوق المدنية يدفعون الأمور بسرعة بالغة". وانعكس رد الفعل هذا جزئيا في الطريقة التي توسعت بها أهداف حركة الحقوق المدنية بمرور الوقت. ففي البداية كان الأمر ببساطة هو إلغاء قوانين جيم كرو العنصرية- الحرمان السافر من التصويت وأحيانا فرض وضعية الطبقة الثانية بالقوة على السود فيالجنوب. وكانت فظاظة وبربرية قوانين جيم كرو قد جعلت منها، في النهاية، هدفا سهلا نسبيا في سبيل الإصلاح، وكان قد تم جذب تعاطف الأمة عن طريق مسيرات الحقوق المدنية؛ وكان إحساسها بذاتها قد تم ترويعه عن طريق شراسة مقاومة الجنوبيين العنصريين. وإلغاء جيم كرو لم يتطلب أكثر من إعلان مؤسسات الحكومة الرسمية لفرض القانون أن التفرقة العنصرية الجنوبية غير قانونية.

وبمجرد أن توقفت مؤسسات الجنوب الرسمية للفصل العنصري عن العمل، على أية حال، كانتلا تزال تتبقى هناك الحقيقة الأقل رسمية من التمييز والتفرقة العنصرية الواقعية التي، على خلاف التفرقة العنصرية الرسمية، حضرت في كل أرجاء البلاد. ومع محاولة نشطاء الحقوق المدنية أن يأخذوا على عاتقهم هذا الواقع، تغيرت طبيعة المواجهة. ففي نظر الكثير من البيض غير الجنوبيين، كان شيء واحد هو إبلاغ مدارس المديريات بأنهم لا يمكنهم الحفاظ علنا على مدارس منفصلة للأطفال البيض والأطفال السود، ولكنه كان شيئا مختلفا جدا أن تعيد رسم حدود مدارس المديريات وأن تضع الأطفال في أتوبيسات في محاولة لأن تنهي التفرقة العنصرية الواقعية. بالمثل، اعتبر الكثير من البيض غير الجنوبيين أن القوانين التي تبلغ حكومات الولايات بأنهم لا يمكنهم رفض خدمة السود أمر شرعي، ولكنهم رأوا القوانين التي تحرم التمييز العنصري بواسطة المؤجرين وأصحاب البيوت في القطاع الخاص لبيع بيوتهم غير شرعية. وكان دعاة الحقوق المدنية على حق في اعتقادهم أن التفرقة العنصرية والتمييز الواقعيين -اللذين برغم ادعاءات أنهما يمثلان اختيارا طوعيا كانا عادة في الممارسة مدعومين بتهديدات بالعنف-يمثلان عوائق أمام التقدم في كل أمر مهم بقدر أهمية جيم

كـرو. وفي محاولتها لعـلاج هـذه المظـالم، رغـم هـذا، جلبـت حركـة الحقـوق المدنيـة لنفسـها مـدى أوسـع كثـيرا مـن الأعـداء.

وقـد أخـذ السياسـيون المبـادرون ملاحظـات عـلى ذلـك. فرونالـد ريجان، الـذي كان قـد عـارض قانـون الحقـوق المدنيـة وقانـون التصويـت-إذ وصـف القانـون الأخـير عـلى أنـه أمـر "مهـين للجنوب"-خـاض انتخابـات حاكـم كاليفورنيـا مـع الوعـد جزئيـا بإلغـاء قانـون الولايـة للإسـكان العـادل. وقـال ريجـان: "أي فـرد يريـد أن يميـز ضـد الزنـوج أو غيرهـم في بيـع أو تأجـير منزلـه، لـه الحـق في فعـل ذلـك".

وكان إدراك الجمهـور لحركـة الحقـوق المدنيـة قـد أصبـح مشـتبكا، بـادئ ذي بـدء، بتصاعـد تيـار الاضطـراب والفـوضى الحضريـة، وهـو ربـط سـاعد عـلى إضفـاء الشرعيـة عـلى وتقويـة المقاومـة للمزيـد مـن التقـدم في الحقـوق المدنيـة.

الاضطراب والفوضى الحضرية

في أكتوبـر عـام 1967 نـشر نيكسـون مقـالا -أصبـح شـهيرا الآن- في مجلـة رايـدرز دايجسـت بعنـوان "مـا الـذي حـدث لأمريـكا؟" وكان المقـال، الـذي كتبـه حقيقـة بـات بوكانـان، قـد لـف كل اضطرابـات الأمـة في ربطـة واحـدة، فقـد ادعـى نيكسـون/بوكانان أن التسـامح الليـبرالي كان هـو جـذر كل شر.[1]

"فقبـل ثلاثـة أعـوام فقـط،" هكـذا بـدأ المقـال "بـدت هـذه الأمـة قـد اسـتكملت أعظـم عقـد في التقـدم العنـصري" ولكـن الأمـة الآن كانـت "مـن بـين أكـثر الأمـم فوضويـة وخروجـا عـلى القانـون، وأكثرهـا عنفـا في تاريـخ البـشر الأحـرار". وكانـت أعـمال الشـغب الحضريـة "أكـثر الأعـراض الخبيثـة حتـى اليـوم، وبشـكل مـا أكـثر خطـورة، لاضطـراب وطنـي آخـر: تدهـور احـترام السـلطة العامـة وسـيادة القانـون في أمريـكا".

وكان كل هذا خطأ الليبراليين.

(1) هناك نسخة متوافرة على الإنترنت على الرابط:
http://www.wadsworth.com/history_dtemplates/student_resources/0534607411/sources/old/ch29/29.4nixon.html.

إن الجريمة والاضطراب والفوضى الصادمة في الحياة الأمريكية اليوم، تتدفق إلى حد كبير من تغيرين رئيسيين حدثا في مواقف الكثير من الأمريكيين. الأول، التساهل تجاه انتهاك القانون والنظام العام عن طريق هؤلاء الذين يوافقون على القضية المعنية. والثاني، التساهل مع الجريمة بسبب التعاطف نظرا للمظالم التي سبق أن أصابت هؤلاء الذين أصبحوا مجرمين. وقد مضى قضاتنا بعيدا في إضعاف قوى السلام كقوى مضادة لقوى الإجرام. وقد مضى صناع الرأي بعيدا في تشجيع الاعتقاد بأنه حينما يتم خرق القانون، فاللوم يقع على المجتمع وليس على المجرم.

وكان نيكسون وبوكانان يعرفان ماالذي كانا يفعلانه. فالمحافظ، كما تذهب مقولة أصبحت شعبية في الستينات، هو الليبرالي الذي قد يتعرض للسرقة. وقد اضمحلت هذه الأيام الجريمة كقضية سياسية، فقد هوت معدلات الجريمة في التسعينات، وهوت أكثر ما هوت في مدينة نيويورك، التي نظر إليها يوما ما كرمز لكل ما هو خطأ في المجتمع الأمريكي. ولكن في الستينات، يمكن القول إن "القانون والنظام" ربما كاناأنجع صيحة استنفار للمحافظين.

وكان هناك سبب لشعور الأمريكيين بانهيار القانون والنظام، إذ كانا ينهاران بالفعل. فقد ارتفع معدل الجريمة بأكثر من ثلاثة أمثال بين عامي 1957 و1970. ومعدل جريمة السرقة بالإكراه، التي تعرفها الإحصاءات التاريخية على أنها "سرقة أو الاستيلاء على أي شيء له قيمه من شخص باستخدام القوة أو العنف أو بوضعه في حالة خوف"-وبمعنى آخر، النهب- ارتفعت بأكثر من أربعة أمثالها.

لماذا ارتفعت الجريمة بشكل حاد؟ الإجابة القصيرة هي أننا لا نعرف الكثير عما يتسبب فيارتفاع الجريمة أو انخفاضها، كما يوضح ذلك عدم قدرة الخبراء على التنبؤ بالتغيرات الكبرى في معدلات الجرائم. وقد أتى ارتفاع الجريمة في الستينات،الذي أربك توقعات الليبراليين الذين قدروا أن العدالة الاجتماعية المتزايدة ستتم مكافأتها بالسلوك الأفضل، كمفاجأة تامة. وكذلك كان انخفاض معدلات الجريمة في التسعينات الذي أربك المحافظين الذين آمنوا بأنه من غير الممكن حدوث تحسن في الجريمة دون الرجوع للقيم الاجتماعية التقليدية. وكما أوضح ستيفن ليفت من جامعة شيكاجو، في التسعينات: "انخفاض الجريمة لم يكن

أمـرا متوقعـا لدرجـة أنـه صرف النظـر بشـكل ملحـوظ عـن ذلـك باعتبـاره أمـرا طارئـا أو وهميـا لفـترة طويلـة منـذ بدايـة هـذا الانخفـاض".[1]

وربمـا كان التفسـير الأكـثر منطقيـة لموجـة الجريمـة العظيمـة يسـتقر عـلى أسـاس ديموجـرافي. فبعـد الحـرب العالميـة الثانيـة تـرك 11 مليونـا مـن السـود الجنـوب الزراعي وتوجهـوا للمـدن الشـمالية، وإلى جانـب نظرائهـم مـن المواطنـين البيـض، كان لديهـم أيضـا عـددا كبـيرا مـن الأطفـال. ومـع وصـول طفـرة المواليـد[2] لسـن الرشـد، كانـت هنـاك زيـادة كبـيرة في عـدد الشـباب الذكـور، والشـباب الحـضري مـن الذكـور السـود بشـكل خـاص. ومـن الصحيـح أن الزيـادة الحقيقيـة في الجريمـة كانـت أكـبر بكثـير مـن الزيـادة في عـدد الأشـخاص المعرضـين للجريمـة في المجموعـات الديموجرافيـة، ولكـن ربمـا كان هنـاك "أثـر المضاعـف" بسـبب التغـيرات الديموجرافيـة التـي اجتاحـت قـوى الضبـط الاجتماعـي. وأحـدث تكاثـر الشـباب الذكـور المعـرض للجريمـة، قواعـد خطـرة للسـلوك. ولم يكـن تزايـد أعـداد الأشـخاص الذيـن مـن المحتمـل ارتكابهـم جرائـم يقابله أي زيـادة مماثلـة في عـدد رجـال البوليـس للقبـض عليهـم أو إيداعهـم السـجون. وخلال السـتينات ظـل عـدد الأشـخاص المسـجونين بالأسـاس مسـتقرا عـلى الرغـم مـن الارتفـاع

(1) Steven Levit, "Understanding Why Crime Fell in the 1990s," Journal of Economic Perspectives 18 no.1 (2004), pp. 163-90.

(2) طفـرة المواليـد في الولايـات المتحـدة هـي الزيـادة في معـدل المواليـد بـين عامـي 1946 و1964؛ وتطلـق التسـمية أيضـا عـلى الجيـل الـذي ولـد في الولايـات المتحـدة خـلال تلـك الفـترة. وكانـت المصاعـب وعـدم اليقـين بسـبب الكسـاد العظيـم والحـرب العالميـة الثانيةقـد أدت بالعديـد مـن غـير المتزوجـين إلى تأجيـل قـرار الـزواج، كـما أدت بالعديـد مـن المتزوجـين إلى تأجيـل قـرار الإنجـاب. ومـع نهايـة الحـرب ومـا أعقبهـا مـن فـترة مسـتدامة مـن الازدهـار الاقتصـادي (الخمسـينات وأوائـل السـتينات)، فقـد رافـق ذلـك تصاعـد في عـدد السـكان. وضخـم العـدد المطلـق لجيـل طفـرة المواليـد (75 مليونـا) مـن أثـره عـلى المجتمـع، فقـد أدى النمـو في عـدد العائـلات إلى الهجـرة مـن المـدن إلى الضواحـي في فـترة مـا بعـد الحـرب، وهـو مـا حفـز عـلى طفـرة في بنـاء المسـاكن، والمـدارس، ومراكـز التسـوق. ومـع بلـوغ هـذا الجيـل مرحلـة الشـباب في السـتينات والسـبعينات، أثـرت أذواقهـم في الموسـيقى وشـعرهم وأنمـاط أزيائهـم بشـدة عـلى الثقافـة الوطنيـة، وسـاهم النشـاط السـياسي لبعضهـم في جعـل حـرب فيتنـام غـير شـعبية. (المترجـم)، انظـر:

Baby boom: population trend, Encyclopædia Britannica.

على الرابط: http://www.britannica.com/science/baby-boom

الشديد في الجريمة، وهو ما يتناقض بحدة مع ما حدث في التسعينات، حينما استمر عدد المسجونين في التزايد على الرغم من هبوط الجريمة.

وكانت هناك عوامل أخرى مؤثرة أيضا. وكان واحدا من هذه العوامل الافتقار لفرص التوظف في مركز المدن. فقد انتقل الملايين من السود الجنوبيين للمدن الشمالية بحثا عن فرصة عمل في قطاع الصناعة التحويلية، وهي فرص كانت وفيرة في أثناء الأربعينات والخمسينات، بفضل الازدهار الاقتصادي في زمن الحرب ثم الازدهار الاستهلاكي في زمن السلم عقب ذلك. وخلال الستينات، على أية حال، بدأت هذه المدن نفسها في التحول إلى مصيدة اقتصادية. فبفضل تغير تكنولوجيات الإنتاج ووسائل النقل، بدأت الصناعة التحويلية في الخروج من المناطق الصناعية الحضرية المزدحمة إلى بناء منشآت صناعية في الضواحي المترامية الأطراف، ونتيجة لذلك أصبحت الوظائف نادرة في مناطق مراكز المدن حيث يعيش السود. ومع ذلك ظل السكان السود محصورين في مراكز المدن هذه بسبب كل من التفرقة العنصرية وعدم قدرتهم على اشتراء سيارات. وكانت النتيجة ارتفاع معدلات البطالة بين الأشخاص السود الحضريين حتى مع الاقتصاد المزدهر.[1]

وكان الافتقار للوظائف في مراكز المدن، كما بدا في المجادلة الشهيرة التي قام بها عالم الاجتماع ويليام جوليوس ويلسون، ربما يكون قد ساعد على زرع ثقافة هدامة. وقد جادل ويلسون أيضا بأن بدايات إلغاء التفرقة العنصرية عملت -على العكس- على تفاقم المشكلة، بسبب استغلال السود من الطبقة الوسطى لتخفيض التمييز في مجال السكن للهروب من الجيتو، تاركين وراءهم سكانا يعانون من تفرقة بسبب الطبقة إلى جانب العرق.

وبصرف النظر عن أسباب ارتفاع الجريمة في الستينات، فقد كان ما رآه الناس هو انهيار القانون والنظام. والعديد من هؤلاء الناس كانوا أكثر من مستعدين لاتباع إشارة نيكسون وإلقاء اللوم على تساهل الليبراليين المزعوم. وليس هناك أي

---

(1) هذه الظاهرة لوحظت أولا عن طريق جون ف. كين، على الرغم من أن الدليل الإحصائي القوي بالفعل على هذا الأثر أصبح واضحا فقط بعد عام 1970.

John F. Kain, "Housing Segregation, Negro Employment, and Metropolitan Decentralization." Quarterly Journal of Economics 82 (1968) 175-97.

دليـل عـلى أنالتسـاهل-في مواجهـة، فلنقـل، الافتقـار إلى سـعة مناسـبة في السـجون أو فـرص عمـل كافيـة للسـود-كان عامـلا لـه أهميـة في موجـة الجريمـة. ولكـن الجمهـور، معمواجهتـه لارتفـاع الجريمـة في نفـس الوقـت الـذي كانـت تحـاول فيـه الأمـة تصحيـح عـدم العدالـة الماضيـة، كان عـلى اسـتعداد كبـير لإجـراء مثـل هـذا الربـط.

وكان القلـق بشـأن الجريمـة مختلطـا في أذهـان الجمهـور، بشـكل لا ينفصـم، بالخـوف مـن العنـف الحـضري واسـع النطـاق.

وقـد اسـتمر عـصر أعـمال الشـغب الحضريـة الـذي بـدأ مـع شـغب حـي هـارلم في عـام 1964 لمـدة أربـع سـنوات فقـط، وعـلى الرغـم مـن حـدوث أعـمال شـغب بعـد عـام 1968، مثـل شـغب لـوس أنجلـوس عـام 1992 الـذي أعقـب ضرب البوليـس لـرودني كنـج، فلـم يكـن الشـعور بهـا أبـدا كموجـة مـن أعـمال الشـغب عـلى المسـتوى الوطنـي. وفي أعوامأعـمال الشـغب، عـلى أيـة حـال، بـدا كأن كل أمريـكا الحضريـة قـد اشـتعلت فيهـا النـيران.

وأسـباب صعـود وهبـوط أعـمال الشـغب الحضرية سـتبقى مبهمـة وغامضـة مثلها مثـل أسـباب صعـود وهبـوط الجريمـة. والعديـد مـن، بـل وربمـا أغلـب، أعمال الشـغب بـدأت مـع تصرفـات وحشـية للشرطـة. فقـد بـدأت أعـمال الشـغب عـام 1964 في حـي هـارلم، عـلى سـبيل المثـال، حينـما قـام ضابـط بوليـس بإطـلاق النـار عـلى شـاب أسـود يبلـغ مـن العمـر 15 عامـا. وخـلال أعـمال الشـغب غالبـا مـا كان البوليـس يجـن ويتـصرف بوحشـية. ومازالـت وحشـية البوليـس ضـد السـود ليسـت بالـشيء الجديـد. لمـاذا إذناسـتثارت مثـل هـذه التصرفـات، خـلال أربعـة أعـوام في السـتينات، أعـمال شـغب واسـعة النطـاق؟

اكتشـف العلـماء الاجتماعيـون أن أعـمال الشـغب تكـون أكـثر احتـمالا في الحـدوث بالمـدن خـارج الجنـوب التـي بهـا أعـداد كبـيرة مـن السـكان السـود. ويفـترض أن غيـاب أعـمال الشـغب في الجنـوب يرجـع إلى إحـكام مسـتوى الضبـط الاجتماعـي. أو لوضـع الأمـر بشـكل أقـل مجازيـة، كان السـود في الجنـوب مروعـين للغايـة إلى حـد يمنعهـم مـن إثـارة الشـغب. وكان القمـع في المـدن الشـمالية أقـل إطلاقيـة، وكانـت الهجـرة الكبـيرة بعـد الحـرب قـد كفلـت بحلـول السـتينات وجـود عـدد ضخـم مـن السـكان السـود بالعديـد مـن هـذه المـدن، بمـا في ذلـك أعـداد متزايـدة مـن الشـباب الأسـود الصغـير الـذي لم يسـبق لـه أن عـاش في الجنـوب. وهـذه الاتجاهـات الديموجرافيةكانـت

هـي نفسـها، بشـكل أسـاسي، الاتجاهـات الديموجرافيـة التـي سـاعدت عـلى التسـبب في ارتفـاع الجريمـة، بالاشـتراك مـع ظـروف المعيشـة الفظيعـة في الجيتـوات الحضريـة، وربمـا هـذا مـا هيـأ المـسرح لـردود فعـل عنيفـة ضـد التصرفـات الوحشـية التـي مـا إن تقـع حتـى تسـتمر ببسـاطة.

هـل لحركـة الحقـوق المدنيـة أي علاقـة بأعـمال الشـغب الحضريـة؟ أشـار تقريـر 1968 للجنـة الاستشـارية الوطنيـة حـول الفـوضى والاضطـراب المـدني، والتـي يشـار إليهـا عامـة باسـم لجنـة كيرنـر، إلى توافـر هـذه العلاقـة. فقـد أعلـن التقريـر أن "العنصريـة البيضـاء، تعـد مسـؤولة بشـكل أسـاسي عـن المزيـج الناسـف الـذي كان يتراكـم في مدننـا منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة". وبينـما وضعـت اللجنـة اللـوم النهـائي عـلى العنصريـة البيضـاء، مـع ذلـك، أشـار التقريـر إلى أن الأسـباب المبـاشرة لأعـمال الشـغب تقـع جريرتهـا عـلى التوقعـات التـي خلقتهـا حركـة الحقـوق المدنيـة:

الآمـال المحبطـة هـي رواسـب للتوقعـات غـير المحققـة التـي أثارتهـا الانتصـارات الكـبرى القضائيـة والتشريعيـة لحركـة الحقـوق المدنيـة، والنضـال الدرامـي مـن أجـل حقـوق متسـاوية في الجنـوب.

فالمنـاخ الـذي يميـل تجـاه الموافقـة عـلى وتشـجيع العنـف كنـوع مـن الاحتجـاج تم خلقـه عـن طريـق الإرهـاب الأبيـض الموجـة ضـد الاحتجاجـات غـير العنيفـة، بالتحـدي الصريـح للقانـون والسـلطات الاتحاديـة عـبر مقاومـة مسـؤولي الولايـة والمسـؤولين المحليـين لإلغـاء التفرقـة العنصريـة، وعـن طريـق بعـض جماعـات الاحتجاج المسـتغرقة في العصيـان المـدني التـي أدارت ظهرهـا لعـدم العنـف، والمُـضي إلى أبعـد مـن الحقـوق المصانـة دسـتوريا للتقـاضي وحريـة التجمـع، واللجـوء للعنـف في محاولـة لفـرض تغيـير القوانـين والسياسـات التـي لا يتفقـون معهـا.

وأدى إحبـاط العاجزيـن ببعـض الزنـوج إلى الاقتنـاع بأنـه لا يوجـد بديـل فعـال للعنـف كوسـيلة لتحقيـق الانتصـاف مـن المظـالم، ولـ"تحريـك النظـام". وقـد انعكسـت هـذه الإحباطـات في شـكل اغـتراب وعـداء تجـاه مؤسسـات القانـون والحكومـة والمجتمـع الأبيـض المسـيطر عليهـما، ومـا كان في المتنـاول هـو الوعـي العرقـي والتضامن الـذي انعكـس في شـعار "قـوة السـود".

وبـرز مـزاج جديـد بـين الزنـوج، وبخاصـة الشـباب منهـم، حيـث كان الاعتـداد بالنفـس والزهـو العرقـي الزائـد قـد حـل محـل اللامبـالاة والخضـوع لـ"النظـام".

وقد خاب أمل ليندون جونسون بعمق من تقرير لجنة كيرنر، فقد شعر أن المحافظين سيستغلونه. وتحميل مسؤولية الاضطرابات الحضرية لعنصرية البيض، وبصرف النظر عن مدى صحة هذا الاتهام، لم يكن طريقة لكسب أصوات البيض. والإشارة إلى أن محاولات تقليص اليد الثقيلة للعنصرية ربما تؤدي إلى حفز العنف، لم يكن محتملا أن تشجع على المزيد من الإصلاحات بقدر ما كانت تُمكن هؤلاء الذين لا يريدون حركة الحقوق المدنية في المقام الأول. وبالتأكيد فقد ساعد نيكسونذلك.

وكانت الجريمة وإثارة الشغب قد دمجتا في أذهان الناخبين البيض مع مؤشر آخر على انهيار أمريكا تم ترويجه على نطاق واسع: تزايد الاعتماد على الرعاية الاجتماعية.

انفجار الرعاية الاجتماعية

بعد موته في عام 2004 تم نعي رونالد ريجان على أنه شخص محبوب، والعم الطيب اللطيف الذي كرس نفسه لقضية الحرية، وهو ما يجسده انتصاره على إمبراطورية الشر السوفييتية، وربما، إخلاصه لخفض الضرائب. ولكن بالنسبة لرونالد ريجان حاكم ولاية كاليفورنيا عام 1966 كان الأمر مختلفا للغاية: ممثل/ ووسيلة نقل لغضب الناخبين البيض على المتشردين المعتمدين على برامج الرعاية الاجتماعية. وفي سيرته الذاتية وصف ريجان المجموعات التي ناشدته الترشح لمنصب حاكم كاليفورنيا في عام 1966 بالوصف التالي:

الناس الذين تعبوا من المخصصات المالية الضخمة للبرامج الحكومية ونصّابي الرعاية الاجتماعية، والناس الذين كانوا غاضبين من التصاعد المتواصل في الضرائب والقواعد التنظيمية الحكومية، والبيروقراطيون المتعجرفون، والموظفون العموميون الذين يظنون أن كلمشكلات البشرية يمكن حلها عن طريق إلقاء دولارات دافعي الضرائب عليها.[1]

وكانت الصورة واضحة: مشردو برامج الرعاية الاجتماعية كانوا وراء دفع ضرائب الناس المحترمين نحو الأعلى. ولا يهم إن لم يكن ذلك صحيحا، على الأقل

(1) Ronald Reagan, An American Life (Simon & Schuster, 1990), p. 147

بشكل ملموس. إن إعانة العائلات التي تعول أطفالا، وهو البرنامج الذي كان الناس يعنونه عندما يقولون "الرعاية الاجتماعية"، لم يكن أبدا ذا تكلفة كبيرة للحكومة.[1] ولم يكن الغش أبدا مشكلة ملحوظة. (في السنوات اللاحقة سيشير ريجان مرارا وتكرارا إلى قصة ملكة رفاه شيكاجو التي تقود سيارة الرعاية الاجتماعية الكاديلاك).[2] والحقيقة هي أن قوائم الرعاية الاجتماعية كانت تتزايد. ففي عام 1966 كان عدد الأمريكيين على قوائم الرعاية الاجتماعية يبلغ مرتين عدد الذين كانوا على تلك القوائم منذ عقد مضى. ولم تكن هذه سوى مجرد بداية: فقد زادت القوائم بأكثر من الضعف عند "انفجار الرعاية الاجتماعية" في أواخر الستينات وأوائل السبعينات.[3] ولم يكن ريجان بحاجة للإشارة إلى أن نسبة كبيرة من هؤلاء الذين دخلوا على قوائم الرعاية الاجتماعية كانوا من السود.

ما الذي تسبب في انفجار الرعاية الاجتماعية؟ التبدل في المواقف، تبعا لوسائل الإعلام الرئيسية،فقد كتبت التايم في عام 1970:

"في واشنطن، يسمونها >متلازمة الرعاية الاجتماعية< وذلك أساسا بسبب عمل مجموعات مثل منظمات الحق في الرعاية الاجتماعيةالوطنية، والتي لديها الآن فروع في كل الولايات الخمسين، ولم يعد الفقير يشعر بأي وصمة عار مترافقة مع التقديم للحصول على الرعاية الاجتماعية. فعشرات الألوف من الأشخاص الذين كانوا يشعرون في يوم ما من الأيام بالجبن الشديد أو الخجل الشديد للمضي في طلب الإعانة الحكومية يقومون الآن بالطرق على أبواب مكاتبهم المحلية للرعاية الاجتماعية وطلب المدفوعات التي يعتبرون أنها من حقهم".[4]

---

(1) في عام 1970 بعد عقد من النمو السريع، بلغت مدفوعات AFDC (إعانة العائلات التي تعول أطفالا) 4.9 مليار دولار، مقارنة بـ 39 مليار دولار كمدفوعات للمستفيدين من الضمان الاجتماعي. والبيانات من إدارة الضمان الاجتماعي

http://www.ssa.gov/policy/docs/statcomps/supplement/2005/9g.html.

(2) تشير هذه القصة إلى حصول البعض على مخصصات الرعاية الاجتماعية بينما هم من غير المحتاجين، فالبعض عن طريق الغش يحصل على مخصصات الرعاية الاجتماعية في الوقت الذي يمتلك فيه سيارة كاديلاك فاخرة. (المترجم)

(3) Ibid.

(4) Time, Nov. 23, 1970.

وقـد كان المؤلـف والخبـير ميـكي كاوس، عندمـا قـام بالكتابـة بعـد ثلاثـين عامـا، متبلـد الذهـن بشـأن مـا تغـير فعـلا: "قبـل انفجـار الرفـاه في أواخـر السـتينات كان العديـد مـن الفقـراء السـود يمنعـون أو يتـم تثبيـط عزيمتهـم مـن تلقـي مخصصـات الرعايـة الاجتماعيـة".[1]

انفجـار الرعايـة الاجتماعيـة، إذن، ربمـا كان مـن المحتمـل جزئيـا أن يكـون ناتجـا جانبيـا لحركـة الحقـوق المدنيـة. ومثلـه مثـل الارتفـاع في الجريمـة ربمـا كان مـن المحتمـل جزئيـا أيضـا أن يكـون نتيجـة لتحـول الصناعـة التحويليـة بعيـدا عـن مراكـز المـدن، وتـرك السـكان السـود الحضريـين بوسـائل محـدودة لكسـب عيشـهم. ومـن الواضـح أنـه أيـا كانـت الأسـباب وراء نمـو قوائـم الرعايـة الاجتماعيـة، فقـد لعبـت ببسـاطة شـديدة دورا في نمـو الإحسـاس لـدى العديـد مـن الأمريكيـين بأن"البيروقراطيين المتعجرفين"،كـما قـد يقولهـا ريجـان، يأخـذون دولاراتهـم التـي اكتسـبوها بشـق الأنفس ويقومـون بالتنـازل عنهـا لأنـاس لا يسـتحقونها. وبينـما ربمـا يكـون ريجـان قـد عـرف هـؤلاء النـاس غـير المسـتحقين بمـا يفترضـه في مكنـون شـخصيتهم-لقد كانـوا "محتـالي الرعايـة الاجتماعية"-فقـد عـرف العديـد مـن مؤيديـه غـير المسـتحقين عـن طريـق لـون جلدهـم.

ورغم أن العرق كان محفزا أوليا، هل اقتصر رد الفعل على العرق فقط؟

جنس ومخدرات وروك آند رول

آه، صيـف الحـب! بالنسـبة للأمريكيـين مـن عمـر معين-جيـل طفـرة المواليـد حينـما يلقـون نظـرة عـلى المـاضي عـلى فـترة شـبابهم أو ربمـا عـلى الشـباب الـذي أرادوا يومـا أن يكونوه-تؤخـذ السـتينات عـلى أنهـا فـترة تتوهـج بالحنـين. ولكـن في نفـس الوقـت كان رد فعـل معظـم الأمريكيـين عـلى نشـوء الثقافـة المضـادة[2] هـو الرعـب والغضـب، وليـس الإعجـاب.

(1) Mickey Kaus, “The Ending of the Black Underclass,” Slate.com, Nov. 3, 1999. http://slate.com/id/1003938/.

(2) الثقافـة المضـادة هـي ثقافـة فرعيـة تختلـف قيمهـا ومعايـير سـلوكها بشـكل كبـير عـن تلـك الخاصـة بالتيـار الرئيـسي في المجتمـع، وغالبـا في معارضـة لأعـراف ثقافـة التيـار الرئيـسي. وحركـة الثقافـة المضـادة تعـبر عـن أخلاقيـات وطموحـات سـكان معينـين خـلال حقبـة زمنيـة محـددة بدقـة. وحينـما تصـل قـوى

لماذا برزت الثقافة المضادة؟ مرة ثانية، لا أحد يعرف حقيقة، ولكن كان هناك بعض العوامل الواضحة. كان هذا الاقتصاد السحري جزءا من القصة: فبسبب أن كسب العيش بدا يسيرا، بدت كلفة تجربة نمط حياة بديل منخفضة، إذ بإمكانك دائما العودة والحصول على وظيفة عادية. وفي الحقيقة، عليك أن تتساءل ما إذا كان ركود نيكسون خلال الفترة من 1969 إلى -1971الذي شهد ارتفاع معدل البطالة من 3.5% إلى -6% فاعلا في إنهاء حركة الهيبيز أكثر من القتل في ألتامونت.[1]

أيضا، ربما كان مألوفا مع الرخاء الاستنكاف عن الإنجاب. فبينما كان الجيل الأقدم قد سَعِدَ ودُهِشَ بقدرته على أن يحيا نمطحياة الطبقة الوسطى، فقد رأى الشباب فقط حدود ما يمكن للمال اشتراؤه. في فيلم الخريج عام 1967، كانت شخصية داستين هوفمان، بنجامين، قد ذهلت حينما طلب منه صديق والده أن يعيره انتباهه، ليبلغه، "كلمة واحدة-بلاستيكي". كان بنجامين يحاول أن يفسر ضيقه بوالده، ويوضح أنه يريد لمستقبله أن يكون "مختلفا".

وكما هو مع كثير مما حدث خلال الستينات، لعبت الديموجرافيا دورا بكل تأكيد. فقد بزغ عصر الثقافة المضادة نحو عام 1964، وهو العام الذي بلغت فيه طليعة طفرة المواليد سن دخول الجامعة. وجعلت الأعداد المطلقة من اليسير على الشباب أن يحدث قطعا مع التقاليد الثقافية للأكبر سنا. كما كانت

المعارضة إلى حجم حرج، يمكن للثقافة المضادة أن تستحث تغييرات ثقافية درامية. والأمثلة البارزة على الثقافات المضادة فيأوروبا وأمريكا الشمالية تشمل الرومانسية (1840-1790)، والبوهيمية (1850-1910)، وربما الأكثر بروزا هو الثقافة المضادة في الستينات (1974-1964)التي غالبا ما ترتبط بثقافة الهيبيز، وهو ما يعنينا في السياق الحالي للكتاب. (المترجم)، انظر:

Counterculture, Wikipedia, the free encyclopedia.

(1) حفل موسيقى مجاني أقيم في 6 ديسمبر 1969 ضمن ما عرف بعصر الثقافة المضادة، وقد أخذ الحفل اسمه منإقامته على طريق ألتامونت في شمال كاليفورنيا. وقد اشتهر الحفل أكثر ما اشتهر بسبب العنف الكبير الذي شهده. حيث وقعت 4 وفيات، وأصيب عدد كبير من الحضور، كما سرقت أعداد كبيرة من السيارات وجدت بعد ذلك مهجورة، كما حدثت أضرار بالغة في الممتلكات. كانت الفرق التي ستغني في الحفل هي، حسب الظهور، سانتانا، جيفرسون أيربلين، الإخوة ذا فلاينج بوريتو، كروسبي، ستيلز، ناش آند يونج، مع عرض فرقة رولنج ستونز الشهيرة كفقرة ختامية في الحفل. وقد حضر هذا الحفل 300 ألف شخص. (المترجم)، انظر:

Altamont Free Concert, Wikipedia, the free encyclopedia.

هنـاك أيضـا تغـيرات تكنولوجيـة، فقـد جعلـت حبـوب منـع الحمـل مـن التجربـة الجنسـية أسـهل مـما كان بالإمـكان في أي عـصر تاريخـي سـابق. وربمـا كان لـدى شـباب السـتينات قيـما مختلفـة جزئيـا بسـب أنهـم كانـوا الجيـل الأول الـذي كـبر عـلى مشـاهدة التليفزيـون، وتعـرض لوابـل مـن الصـور (والإعلانـات) التـي، وإن كانـت مصممـة لبيـع منتجـات، كان لهـا أيضـا أثرهـا في إضعـاف القيـم التقليديـة.

وقـد أخـاف تمـرد الشـباب وأغضـب العديـد مـن الأمريكيـين، وخاصـة رونالـد ريجـان. فخـلال حملتـه الانتخابيـة لمنصـب حاكـم كاليفورنيـا وعـد بـ"التحقيـق في الاتهامـات بالشـيوعية وسـوء السـلوك الجنسـي السـافر في حـرم جامعـة بـيركلي". وقـد تحـدث عـن "عربـدة جنسـية بشـعة للغايـة لا يمكننـي وصفهـا لكـم". وعنـد إحـدى النقـاط في حديثـه ادعـى أن لديـه دليـلا عـلى أن مدعـي دائـرة مقاطعـة المايـدا قـد حقـق في واقعـة حفـل رقـص طـلابي تحـول إلى "عربـدة،" حيـث عرضـوا عـلى شاشـة ضخمـة "صـورا لرجـل وامـرأة، عاريـين، في أوضـاع شـهوانية، ولتحـرش، ومداعبـات جنسـية". وفي الواقـع لم يكـن هنـاك مثـل هـذا التحقيـق، تمامـا مثـل ملكـة الرعايـة الاجتماعيـة بعربتهـا الكاديـلاك، وكان حفـل الرقـص الـذي تحـول لعربـدة مـن نسـج خيـال ريجـان.

ويبـدو كل هـذا كوميديّـا الآن. الشيوعيةوسـوء السـلوك الجنسـيملخص كل المخـاوف! مـن المسـتحيل تجنـب الانخـراط في تحليـل نفـسي: لمـاذا كان الرئيـس المسـتقبلي مهووسـا بشـدة بمـا يفعلـه طلبـه بـيركلي هـؤلاء؟ وبالنسـبة للأمريكيـين مـن الطبقـة الوسـطى، عـلى أيـة حـال، خلقـت التغـيرات الاجتماعيـة في السـتينات حالـة حقيقيـة مـن القلـق والتوتـر النفـسي. فمـن جانـب كان الأمريكيـون يخشـون مـن أن تتـم مهاجمتهـم وسرقتهـم، وهـو مـا حـدث حقيقـة لعـدد كبـير مـن النـاس في المـدن الخطـرة الجديـدة. ومـن الجانـب الآخـر كانـوا يخافـون أن يرحـل أولادهم،وينقلبـوا عليهـم، وينقطعـوا عـن الدراسـة. وقـد حـدث هـذا حقيقـة، أيضـا.

ولأن اهتمامـي في هـذا الكتـاب منصبّ عـلى الاقتصـاد السـياسي، عـلى أيـة حـال، فالسـؤال هـو عـما إذا كان للتمـرد الثقـافي للشـباب أثـر سـياسي كبـير دائـم. وليـس هنـاك الكثـير مـن الأدلـة عـلى أنـه أثـر عـلى عـدد كبـير مـن الناخبـين. فمعظـم النـاس اسـتهجنوا مـا انشـغل بـه الأطفـال، ولكـن أقليـة فقـط هـم مـن رأوا أعمالهـم بمثابـة تهديـد خطـير. وهكـذا فعندمـا طُـرح سـؤال في اسـتطلاع هاريـس عـام 1971: "هـل

تشعر أن الهيبيز خطر حقيقي على المجتمع، أو أكثر خطرا على أنفسهم من خطرهم على المجتمع، أو هل تشعر بأنهم لا يشكلون خطرا محددا على أي أحد؟" أجاب 22% فقط بأن الهيبيز كانوا خطرا حقيقيا، ونفس النسبة قالت إنهم لا يشكلون خطرا محددا، وأجاب 53% بأنهم بصفة أساسية خطر على أنفسهم.[1] وربما كان الأكثر تعبيرا من نتائج الاستطلاع هو سلوك السياسيين الذين كانوا حريصين على استغلال فزع الجمهور مما يحدث في أمريكا. وقراءة خطابات ريتشارد نيكسون وسبيرو أجنو، نائب الرئيس وكلبه المهاجم، سيصدمك، حينما تأخذ في الاعتبار كل ما تم قوله وعمله، مدى ضحالة حديثهما عن القلق والتوتر الثقافي. حتى خطاب "الأغلبية الصامتة" لنيكسون في عام 1969، والذي غالبا ما وصف باعتباره تحريضا للأمريكي العادي ضد الهيبيز والثقافة المضادة، لم يركز حقيقة على الخلافات الثقافية الأوسع بل تحديدا على التظاهرات ضد حرب فيتنام.[2]

ومع ذلك فكما يشير مثال ريجان، كان بعض الناس مرعوبين بكثافة من تمرد الشباب. لأسباب ربما حتى لم يصرحوا بها لأنفسهم. وكان الهوس بالحياة الجنسية للأشخاص الآخرين عاملا دائما في الحركة المحافظية، ومصدرا مفتاحيا لشغف الحركة.

فيتنام

لم يكن ليندون جونسون يريد حربا. فخطابه عن حالة الاتحاد عام 1967 كان لافتا في نبرته الحزينة، وفي افتقاره إلى الكلام المنمق. فكما أعلن في خطابه: "ليست هناك كلمات أخرى بوسعها وصف وضعنا الحالي من تلك الكلمات التي قالها مرة من قبل توماس جيفرسون العظيم: (إنه القانون الكئيب للمجتمعات الإنسانية الذي يقضي بأن تكون مرغمة أحيانا على اختيار شر كبير لدرء شر أكبر)... كنت آمل أن أبلغكم أن النزاع على وشك الانتهاء. وهذا ما لا أستطيعه.

(1) Harris Poll, January 1971, http://www.ropercenter.uconn.edu/data_access/ipoll.html.

(2) Speech at http://www.watergate.info/nixon/silent-majority-speech-1969.shtml.

فنحـن نواجـه المزيـد مـن التكلفـة، والمزيـد مـن الخسـائر، والمزيـد مـن المعانـاة. لأن النهايـة ليسـت قريبـة بعـد".

ومـع ذلـك انغمـس جونسـون وانغمسـت الأمـة في الحرب. وقـد أدت هـذه الحرب إلى انقسـام الأمـة بشـدة، وذلـك بطـرق أصبحـت مألوفـة مـرة أخـرى في السـنوات الأخـيرة. كانـت هنـاك تظاهـرات ضخمـة، تمـت مواجهتهـا في بعـض الأحيـان بـردود فعـل عنيفـة. وأصبـح عـدد قليـل مـن الأمريكيـين الشـباب راديكاليـين بشـدة، لدرجـة أنهـم تحولـوا إلى توهـم الثـورة العنيفـة. وفي أثنـاء ذلـك اسـتغل ريتشاردنيكسـون الحـرب لكسـب البيـت الأبيـض، وهـو انتصارأصبـح محتمـلا بسـبب أن جونسـون، الذي حاصرتـه الحـرب، اختـار ألا يترشـح لإعـادة انتخابـه. وبعـد أربعـة أعـوام كان بإمـكان نيكسـون انتـزاع مفخـرة، محـوِّلا حربـا غـير شـعبية في صالحـه، وهـو مـا كان رجـع صـداه ممثـلا في انتصـار جـورج دبليـو بـوش في عـام 2004. وعـلى الرغـم مـن أن الجمهـور قدتحـول بشـكل كاسـح ضـد الحـرب، فقدنجـح نيكسـون في جعـل دعـوة جـورج ماكجفـرن (منافسـه الديمقراطي-المترجـم) إلى الانسـحاب مـن فيتنـام تبـدو غـير مسـؤولة وضعيفـة.

وبالتأكيـد، إذن، لا بـد مـن أن فيتنـام حولـت السياسـة الأمريكيـة، أو هكـذا ربمـا تفكـر. حينـما ينظـر المـرء بتمعـن في الدلائـل، عـلى أيـة حـال، يجـد أن جعـل قضيـة فيتنـام نقطـة تحـول سـياسي أمـر عسـير بشـكل يبعـث عـلى الدهشـة. فلـكي تصبـح فيتنـام قضيـة مصيريـة، كان ينبغـي عـلى الحركـة المناهضـة للحـرب أو ردة الفعـل عـلى تلـك الحركـة-أو كليهـما-أن تنمـو إلى قـوى مسـتدامة في السياسـة الأمريكيـة، وتسـتمر في تشـكيل السياسـة والانتخابـات حتـى بعـد انتهـاء الحـرب. وفي الحقيقـة لم يحـدث أي مـن هـذا.

فالحركـة المناهضـة للحـرب، التـي لاح أنهـا كبـيرة جـدا في السـتينات وأوائـل السـبعينات، تلاشـت بسرعـة لافتـة متـى انتهـت الحـرب في عـام 1973 وانسـحبت معظـم قـوات الولايـات المتحـدة مـن فيتنـام. وتابـع النشـطاء المناهضـون للحـرب في أشـياء أخـرى، ولم يتمكـن اليسـار الراديـكالي أبـدا مـن أن يترسـخ كقـوة سياسـية ذات شـأن.

عـلى الجانـب الآخـر لم يكـن نيكسـون قـادرا أبـدا عـلى تحويـل ردة الفعـل عـلى الحركـة المناهضـة للحـرب إلى انتصـارات كبـيرة في الكونجـرس.

وهنـاك أسـطورة لَجُـوج عـلى أن فيتنـام قـد "دمـرت الديمقراطيـين". ولكـن هـذه الأسـطورة يعارضهـا تاريـخ السـيطرة عـلى الكونجـرس خـلال سـنوات الحـرب، كـما يوضحهـا جـدول 4، فحتـى في عـام 1972 الـذي حقـق فيـه نيكسـون انتصـاره السـاحق عـلى ماكجفـرن، اسـتطاع الديمقراطيـون بـكل سـهولة الاحتفـاظ بأغلبيتهـم في مجلـس النـواب، ووسـعوا حقيقـة تقدمهـم في مجلـس الشـيوخ. وكانـت الحيـل القـذرة التـي اسـتخدمها نيكسـون ليؤمـن لنفسـه الانتصـار في عـام 1972 قـد أنتجـت، في فضيحـة ووترجيـت، أم[1] النتائـج السـلبية غـير المقصـودة للعمليـات السياسـية، وقفـزة حـادة في حظـوظ الديمقراطيـين الانتخابيـة.

والأكـثر مـن هـذا أن الدلائـل المتاحـة لا تظهـر تصـورا عريضـا جماهيريـا، في السـنوات الأولى لمـا بعـد حـرب فيتنام،للديمقراطيـين باعتبارهـم ضعافـا في موضـوع الأمـن القومـي. والاسـتطلاعات التـي أجريـت بعـد سـقوط سـايجون، ولكـن قبـل أزمـة الرهائـن الأمريكيـين في إيـران، تشـير إلى التعـادل تقريبـا بـين الأحـزاب فيـما يتعلـق بالأمـن القومـي، وليسـت أسـطورة التقـدم الجمهـوري الجـارف في هـذا الشـأن. فعـلى سـبيل المثـال، كشـف بحثـا لمركـز روبـر حـول "الجمهوريـين والقـوات المسـلحة" بـين عامـي 1975 و1979 عـن اسـتطلاعين لهاريـس في عـام 1978 واسـتطلاع آخـر للجنـة الجمهوريـة الوطنيـة في عـام 1979. ولم يظهـر أي مـن هـذه الاسـتطلاعات الثلاثـة أي تقـدم كبـير للجمهوريـين عنـد السـؤال عـن أي حـزب يمكـن الوثـوق بـه في الأمـن العسـكري.

جدول 4. استمرار الأغلبية الديمقراطية

		المقاعد الديمقراطية في	
دورةالكونجرس	السنوات	مجلس الشيوخ	مجلس النواب
90	1967-1968	64	248
91	1969-1970	58	243
92	1971-1972	54	255
93	1973-1974	56	242
94	1975-1976	61	291

Source: www.library.unt.edu/govinfo/usfed/years.html.

(1) كقولنا أم المعارك. (المترجم)

وفي نهاية المطاف، وجد الديمقراطيون أنفسهم في ورطة، وسوف يأتي وقت يستخدم فيه الجمهوريون -بفعالية-ادعاء أن القوات الأمريكية في فيتنام قد طعنت من الخلف لتصوير الديمقراطيين باعتبارهم ضعفاء في موضوع الأمن القومي. ولكن حقائق فيتنام لديها القليل جدا مما له صله بكل ذلك.

ما الذي شكلته الستينات

كانت الستينات هي زمن الهيبيز والطلاب الراديكاليين، وزمن المحافظين المتطرفين الذين يضربون ذوي الشعور الطويلة،وزمن الحرب والاحتجاج. وسوف يكون من الحمق القول بأن أيا من هذا لم يكن ذا شأن، إذ يبقى أن كل هذه الأشياء لعبت في أفضل الأحوال دورا مباشرا بسيطا في وضع الأسس للتغييرات التي ستحدث في الاقتصاد السياسي الأمريكي خلال الثلاثين عاما التالية. ولكن بشكل غير مباشر ربما كان لها شأن أكبر، فالدرس الذي تعلمه الجمهوريون حول "كيف يمكن استغلال ردة الفعل الثقافية" سوف يخدم الحركة المحافظية جيدا في العقود المقبلة، حتى بعد أن تحولت مصادر ردة الفعل من الهيبيز إلى الجريمة والإجهاض وزواج المثليين.

وما يهم حقيقة أكثر للأمد الطويل، على أية حال، كان شق تحالف الصفقة الجديدة بسبب موضوع العرق. فبعد تمرير قانون الحقوق المدنية، قال جونسون لبيل مويرز الذي سيصبح مساعدا رئاسيا فيما بعد: "أنا أعتقد أننا سلمنا للتو الجنوب للحزب الجمهوري لبقية حياتي وحياتك". وقد كان على حق، ففي انتصارهم الحاسم في انتخابات الكونجرس عام 2006، فاز الديمقراطيون بالشمال الشرقي بـ28 نقطة مئوية، والغرب بـ11 نقطة مئوية، ووسط الغرب بـ5 نقاط مئوية، ولكنهم تأخروا عن الجمهوريين بـ6 نقاط مئوية في الجنوب.[1]

وقد فتح هذا الشق الباب أمام نوع جديد من السياسة. فالسياسة المتغيرة للعرق جعلت من الممكن للحركة المحافظة التي تم إحياؤها، والتي كان هدفها النهائي هو إلغاء إنجازات الصفقة الجديدة، الفوز بالانتخابات الوطنية، وذلك على

(1) Philip Klinkner and Thomas Schaller, "A Regional Analysis of the 2006 Election," Forum 4, no. 3 (2006), http://www.bepress.com/forum/vol4/iss3/art9.

الرغـم مـن أن سياسـتها تؤيـد مصالـح نخبـة ضيقـة عـلى مصالـح الأمريكيـين أصحـاب الدخـول المتوسـطة والمنخفضـة.

وقبـل أن تسـتطيع هـذه الحركـة (الحركـة المحافظيـة) الفـوز بالانتخابـات، على أية حـال، كان عليهـا أن تؤسـس لهـا قاعـدة مؤسسـية، والسـيطرة عـلى الحـزب الجمهـوري. كيـف فعلـت ذلـك؟ هـو موضـوع الفصـل التالي.

الفصل السادس
الحركة المحافظية

حتى عندما كان دوايت أيزنهاور يبشر بمناقب الجمهورياتية (نسبة إلى الحزب الجمهوري-المترجم) "الحديثة" المخففة حدتها، كان نوع جديد من المحافظة قد بدأ في البزوغ. وبخلاف نمط مكنيلي من المحافظين الذين حاربوا أولا فرانكلين ديلانو روزفلت ثم بعد ذلك أيزنهاور-الرجال الذين كانوا تقليديين، وخاملين، وفوق كل ذلك كبارا في السن-كان هؤلاء "المحافظون الجدد"، كما أصبحوا يعرفون، شبابا متهورين، ويفهمون وسائل الإعلام. وقد رأوا أنفسهم كمتحَدِّين من الخارج للمؤسسة. وكانوا، على أية حال، ممولين جيدا منذ البداية.

وكان لويليام ف. بكلي دورا رياديا. ففي كتابه الصادر عام 1951، والمعنون، الله والإنسان في ييل، الذي أدان فيه جامعة ييل لإيوائها أعضاء هيئة تدريس معادين أو على الأقل متشككين فيالمسيحية، ناهينا بذكر تدريسهم للاقتصاد الكينزي، وقد جعل هذا الكتاب من بكلي شخصية معروفة على المستوى الوطني. ثم قام في عام 1955 بتأسيس مجلة الوطنية "ناشيونال ريفيو".

ومن المفيد إلقاء نظرة على الأعداد الأولى من مجلة الوطنية، للحصول على إحساس بما بدت عليه حركة المحافظين قبل أن يتعلموا الحديث بالشفرة.

فاليـوم الشـخصيات القياديـة في اليمـين الأمريـكي يعـدون أسـاتذة فيـما يطلـق عليـه البريطانيـون "سياسـة صفـارة الـكلاب":[1]

يقولـون شـيئا جذابـا لمجموعـات معينـة بطريقـة يمكـن أن تسـمعها فقـط المجموعـات المسـتهدفة، وبالتـالي تجنـب التعـرض لأن يكـون التطـرف في مواقفهـم واضحـا بشـكل عـام. وكـما سـنرى لاحقـا في هـذا الفصـل، كان رونالـد ريجـان قـادرا على أن يسـجل تعاطفـه مـع العنصريـة دون حتـى أن يقـول أي شيء عنـصري علانيـة. وكـما سـوف نـرى لاحقـا في هـذا الكتـاب، كان جـورج دبليـو بـوش يسـتخدم بشـكل متسـق لغـة تبـدو في أسـوأ الأحـوال متكلفـة قليـلا بالنسـبة لمعظـم الأمريكيـين، ولكنهـا كانـت مفعمـة بالمعنـى للأشـخاص الأكـثر تطرفـا، المتطرفـين الدينيـين أصحـاب نظريـة نهايـة الزمـان. ولكـن في الأيـام الباكـرة لمجلـة الوطنيـة كان يتـم ذكـر المواقـف بشـكل أكـثر انفتاحـا.

وهكـذا ففـي عـام 1957 نـشرت المجلـة رأيـا للمحـرر يحيـي فيـه تصويـت مجلـس الشـيوخ الـذي يعتقـد أنـه سـوف يسـاعد عـلى اسـتمرار الجنـوب في حرمـان السـود مـن التصويـت.

إن السـؤال المركـزي الـذي يطـرح نفسـه-وهو سـؤال غـير برلمـاني أو سـؤال يمكـن الإجابـة عنـه بمجـرد استشـارة دليـل حقـوق المواطنـين الأمريكيين،ولـدوا متسـاوين-هو عـما إذا كان المجتمـع الأبيـض في الجنـوب مرخـص لـه بأخـذ كلالإجـراءات الضروريـة لـكي يسـيطر، سياسـيا وثقافيـا، في مناطـق لا يهيمـن فيهـا عدديـا.. الإجابـة الرزينـة هـي نعـم لأنـه، في الوقـت الراهـن، هـو العنـصر المتقـدم...

تؤمنمجلـة الوطنيـة بـأن المقدمـات المنطقيـة للجنـوب تعـد صحيحـة. فلـو كانـت إرادة الأغلبيـة رجعيـة اجتماعيـا، إذا فإحبـاط رأي الأغلبيـة ربمـا يكـون، عـلى الرغـم مـن

---

(1) سياسـة صفـارة الـكلاب هـي عبـارة عـن رسـالة سياسـية توظـف لغـة مشـفرة تبـدو كأنهـا شيء واحـد لعمـوم السـكان، ولكنهـا لهـا معنـى إضـافي مختلـف أو يلقـى اسـتجابة خاصـة لـدى المجموعـة الفرعيـة المسـتهدفة بالرسـالة. والعبـارة غالبـا مـا تسـتخدم بشـكل سـلبي وتحقـيري بسـبب طبيعتهـا المخادعـة المتأصلـة في ممارسـتها، وبسـبب أن رسـائل صفـارة الـكلاب هـي في كثـير مـن الأحيـان مبتذلـة بالنسـبة لعمـوم السـكان. والتعبـير مأخـوذ مـن صفـارة الـكلاب، لأن صـوت الصفـارة عـالي الـتردد تسـتطيع الـكلاب سـماعة ولكنـه غـير مسـموع للبـشر. (المترجـم)، انظـر:

Dog-whistle politics,Wikipedia, the free encyclopedia.

أنـه غـير ديمقراطـي، مسـتنير. والأكـثر أهميـة لأي مجتمـع، في أي مـكان في العـالم، هـو التأكيـد عـلى والحيـاة وفقـا لـمعايير متحـضرة، بـدلا مـن الانحنـاء والرضـوخ لمطالـب الأغلبيـة العدديـة. وفي بعـض الأحيـان يصبـح مـن المسـتحيل فـرض إرادة الأقليـة، وفي هـذه الحالـة عليهـا أن تفسـح المجـال، وفي هـذه الحالـة سـيتدهور المجتمـع؛ وفي بعـض الأحيـان لا يمكـن للأقليـة العدديـة أن تسـود إلا بالعنـف، ولـذا عليهـا أن تقـرر مـا إذا كان تغليـب إرادتهـا يسـتحق الثمـن الرهيـب مـن العنـف.[1]

إن "دليـل حقـوق المواطنـين الأمريكيـين، ولـدوا متسـاوين" الـذي تـم شـطبه بواسـطة رأي المحـرر، مـن المفـترض أن يكـون الوثيقـة المعروفـة باسـم دسـتور الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. وهـذا هـو مـا يشـير إليـه المحـرر حينـما تحـدث عـن "الثمـن الرهيـب مـن العنـف" الـذي ربمـا في بعـض الأحيـان يسـتحق دفعـه لـو كان عـلى المجتمـع ألا يتدهـور! وقـد أوضـح هـذا ويليـام ف. بـكلي لاحقـا في عـام 1957، في مقالتـه "رسـالة مـن إسـبانيا":

الجـنرال فرانكـو بطـل وطنـي أصيـل. ومـن المسـلّمبه بشـكل عـام أنـه فـوق جميع الآخريـن لديـه مركـب مـن المواهـب، والمثابـرة، والإحسـاس بعدالـة قضيتـه، وهـي الصفـات المطلوبـة لانتـزاع إسـبانيا مـن أيـدي الواهمـين، والأيديولوجيـين، والماركسـيين، والعدميـين الذيـن فرضـوا عليهـا، في الثلاثينـات، نظامـا بشـعا للغايـة أصـاب الـروح الإسـبانية بالعنـف، وإنـكار، حتـى، الهويـة التاريخيـة الإسـبانية.[2]

و"النظـام البشـع للغايـة" الـذي تمـت الإطاحـة بـه بواسـطة الجـنرال فرانشيسـكو فرانكو-مـع مسـاعدة حاسـمة مـن موسـوليني وهتلـر-كان في الحقيقـة حكومـة منتخبة ديمقراطيـا. والأسـاليب التـي اسـتخدمها فرانكـو لحمايـة "الـروح" الإسـبانية تضمنـت القتـل الجماعـي وإيـداع المعارضـين السياسـيين وأي شـخص مشـتبه بكونـه معارضـا سياسـيا في معسـكرات الاعتقـال. ولم يكـن هـذا كلـه أمـرا مـن المـاضي حينـما مـدح بـكلي الدكتاتـور، فكـما لاحـظ المـؤرخ بـول بريسـتون، كان معارضـو فرانكـو "لا يزالـون عرضـة للإرهـاب البوليـسي والقتـل العمـد حتـى وقـت متأخـر كالسـبعينات.[3]

(1) Editorial, National Review, Aug. 24, 1957.

(2) William F. Buckley, "Yes, and Many Thanks, But Now the War Is Over," National Review, Oct 26, 1957.

(3) Paul Preston, "The Conqueror of His Country," New York Times, Dec. 27, 1987.

وخـلال نصـف القـرن الـذي مـضى منـذ نـشرت تلـك المقـالات، تعلمـت الحركـة المحافظيـة أن تكـون أكـثر حـذرا. فهـذه الأيـام يدعـون أنهـم أبطـال الحريـة والاختيـار الشـخصي. ولكـن منـذ البدايـة، عـلى أيـة حـال، كانـت الحركـة غـير ديمقراطيـة بشـكل تـام، تنشـغل، قبـل أي شيء آخـر، بالدفـاع عـن الديـن والملكيـة الخاصـة. فالفصـل الأول مـن كتـاب اللـه والإنسـان في ييـل شـجب الجامعـة لأنهـا ليسـت "مواليـة للمسـيحية"، والفصـل الثـاني، عـلى الرغـم مـن أن عنوانـه "الفرديـة في ييل"، كان بشـكل أسـاسي عبارة عـن هجـوم عـلى الأسـاتذة الذيـن يعلمـون الاقتصـاد الكينـزي ولديهـم كلـمات طيبـة بشـأن الضرائـب التصاعديـة ودولـة الرفـاه. وإذا لم تسـتطع الديمقراطيـة إنتـاج بيئـة قادرةعـلى حمايـة الديـن والملكيـة الخاصـة، فهـذا يقلـل جـدا مـن شـأن الديمقراطيـة.

وكانـت الحقيقـة، عـلى أيـة حـال، أنـه لم يكـن هنـاك فرانكـو في أمريـكا، ولم يكـن هنـاك أي احتـمال حقيقـي لأن يظهـر واحـد مثلـه. ولأجـل كسـب السـلطة في هـذا البلـد، كان عـلى المحافظـين أن يسـيطروا عـلى حـزب سـياسي وأن يكسـبوا الانتخابـات.

العثور على قاعدة جماهيرية

تـولى تحالـف مـن الناشـطين المحافظـين في عـام 1964 السـلطة في المؤتمـر الوطنـي للحـزب الجمهـوري ورشـحوا بـاري جولدووتـر للرئاسـة. وكان ذلـك، عـلى أيـة حـال، فجـرا كاذبـا لليمـين. كانـت أفـراخ الحركـة المحافظـة قـادرة عـلى ترشـيح جولدووتـر فقـط بسـبب أن المؤسسـة الجمهوريـة أُخـذت عـلى حـين غـرة، ولم يكـن لـدى الحركـة وسـيلة لكسـب الانتخابـات الوطنيـة، فسـقط جولدووتـر بهزيمـة مذلـة. ولتحقيـق أهدافهـا كانـت الحركـة المحافظـة بحاجـة لقاعـدة أعـرض. وبـيّن رونالـد ريجـان، أكـثر مـن أي أحـد آخـر، الطريـق لذلـك.

فقـد أدلى ريجـان في 27 أكتوبـر 1964، بحديـث تليفزيـوني بالنيابـة عـن حملـة جولدووتـر المنكوبـة، وسـوف يطلـق الصحفيـان دايفيـد بـرودر وسـتيفان هـس عـلى هـذا الحديـث لاحقـا أنـه "أنجـح ظهـور أول لسـياسي منـذ كهـرب جينجيـز بريـان[1] مؤتمـر الحـزب الديمقراطـي في عـام 1896 بخطـاب صليـب مـن ذهـب". وفي سـنوات

(1) مرشـح الحـزب الديمقراطـي للرئاسـة ثـلاث مـرات (1896، و1900، و1908) (المترجـم) راجـع تعريفـا موسـعا بـه في الفصـل الثـاني.

لاحقة سوف يعرف خطاب ريجان-المعنون رسميا "وقت للاختيار"-ببساطة باسم "الخطاب".

بينما خطاب لنكولن في كوبر يونيون لم يكن.[1] وربما من الممكن أن يكون أفضل وصف لخطاب ريجان هو التشدق.. التشدق ضد شرور الحكومة الكبيرة، ليس على قاعدة من الجدال المنطقي ولكن على أساس مزيج من الإحصاءات المدهشة والنوادر والطرائف.

وكانت الإحصاءات تعد في أفضل الأحوال مضللة، والنوادر مريبة. "عدد موظفي الحكومة الفيدرالية 2.5 مليون، وواحد من بين كل ستة أشخاص في قوة العمل هو موظف لدى الحكومة على المستوى الفيدرالي، أو الولايات، أو المحليات" هكذا أعلن ريجان، ناقلا الانطباع عن البيروقراطية الضخمة عديمة الجدوى. وربما كانت ستفسد نقطته إذا ما كان الناس يعرفون ما الذي تفعله حقيقة هذه البيروقراطية عديمة الجدوى: في عام 1964 كانثلثا الموظفين الفيدراليين

---

(1) خطاب كوبر يونيون، عرف في وقته بعنوان خطاب معهد كوبر، وأدلى إبراهام لينكولن بهذا الخطاب يوم 27 فبراير 1860 في كلية كوبر يونيون بمدينة نيويورك. ولم يكن لينكولن وقتها قد أصبح بعد مرشح الحزب الجمهوري للرئاسة، إذإن موعد مؤتمر الحزب كان قد حدد له شهر مايو. وقد اعتبر هذا الخطاب واحدا من أهم خطبه. ويميل بعض المؤرخين إلى القول بأن هذا الخطاب كان وراء فوزه بانتخابات الرئاسة في نهاية ذلك العام.وفي هذا الخطاب، فصل لينكولن آراءه حول العبودية بالتأكيد على أنه لا يريد لها أن تتمدد للأقاليم الغربية، وادعى أن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة يتفقون مع هذا الموقف. وقد كتب الصحفي روبرت ج. مكنمارا: "خطاب لينكولن في كوبر يونيون كان واحدا من أطول خطاباته، حيث يقع الخطاب في أكثر من 7000 كلمة. وهو ليس واحدا من الخطابات الغنية بالفقرات التي يمكن اقتباسها كما هي العادة. ومع ذلك ونتيجة لبحثه الدقيق وحجة لينكولن القوية، كان الخطاب فعالا بشكل مذهل". وقد أشاد هوراس جريلي محرر جريدة نيويورك تريبيون بالخطاب باعتباره "به واحدة من أكثر الحجج إسعادا وأكثرها إقناعا التي يتم وضعها في هذه المدينة... ولم يترك أي إنسان مثل هذه الانطباع في أول تجمع له لدى جمهور نيويورك. (المترجم)، انظر:

Cooper Union Speech, Wikipedia, the free encyclopedia.

ويشير المؤلف بذلك إلى أن هذا الاهتمام الشديد بحديث رونالد ريجان واعتباره علامة في عالم الخطاب السياسي، ربما لم يلقه حتى خطاب لينكولن الذي يمكن اعتباره واحدا من أهم الخطابات في التاريخ الأمريكي قاطبة، لأن موقف لينكولن من العبودية المعلن في خطابه هذا أدى فيما بعد إلى نشوب الحرب الأهلية الأمريكية وكل ما ترتب على ذلك من تغييرات كبرى في الولايات المتحدة فيما بعد. (المترجم)

تقريبا يعملون إما في وزارة الدفاع وإما في خدمات البريد، بينما معظم موظفي الولايات والمحليات كانوا معلمين بالمدارس، ورجال شرطة، أو إطفاء. وقد ألحق المساعدة المقدمة للأسر التي تعول أطفالا بقصة عن امرأة لديها سبعة أطفال وطلبت الطلاق بسبب أن مدفوعات الرعاية الاجتماعية سوف تكون أكبر من مرتب زوجها، وهي قصة ادعى أنه سمعها من قاضٍ في لوس أنجلوس لم يذكر اسمه.

واستعرض ريجان أيضا بغلظة قلب وقساوة لافتة للانتباه:. "لقد تم إخبارنا منذ أربعة أعوام مضت أن 17 مليون شخص يذهبون لأسرتهم جائعين كل ليلة"، كما قال، مشيرا إلى واحد من خطوط الحملة الانتخابية لجون ف. كينيدي. ثم يواصل ريجان قائلا: "حسنا ربما كان هذا صحيحا. فجميعهم كانوا يتبعون حمية غذائية".

وفي النهاية، وفيما يبدو من حيث لا ندري، أتى تحول مفاجئ لما بدا كطلب بالمواجهة العسكرية مع الشيوعية.

هؤلاء الذين قد يستبدلون بحريتنا طبق شوربة من مطبخ دولة الرفاه أخبرونا بأن لديهم حلولا طوباوية لسلام من دون انتصار ويطلقون على سياستهم "الوفاق"، ويقولون إنه إذا ما تجنبنا أي مواجهة مباشرة مع العدو، فسينسى أساليبه الشريرة وسيتعلم أن يحبنا. وكل من يعارضهم يتهمونه بأنه داعية حرب.

ولم يكن خطابا عظيما وفقا لأية معايير عادية. مع ذلك كان برودر وهس على حق، فقد ترك هذا الخطاب أثرا كبيرا. فالمجلة الوطنية، باستخدامها بلاغية المحافظين البريطانية الاستعلائية، تتحدث فقط لفئة ضئيلة من الأثرياء، تعي ذاتها كأقلية نخبوية. وقد وجد ريجان طريقا لكي يؤيد بصورة أو بأخرى نفس السياسات ولكن بلغة تلعب على المدركات-والأحكام المسبقة-للرجل العادي. فخطاباته يتردد صداها لدى الأشخاص الذين لم يكن لديهم القدرة على متابعة جمل بكلي الملتفة، والذين لم يكونوا يعرفون ولا يكترثون بأن يعرفوا كيف أنقذ الجنرال فرانكو روح إسبانيا. وما اكتشفه ريجان هو وسيلة تمنح الحركة المحافظية قاعدة شعبية حقيقية.

وقد فعل ريجان ذلك جزئيا باستخدام خطاب الحكومة الصغيرة للاستفادة من ردة الفعل البيض من دون أيقون عنصريا بشكل صريح. وحتى حينما لم

يكـن يتذمـر مـن الغـش والتحايـل في الرعايـة الاجتماعيـة -وكان الجميـع يعرفـون مـن كان يشـير إليـه-كان هجـاؤه لجيـوش البيروقراطيـين التـي تهـدر أمـوال دافعـي الضرائب موجهـا بـكل وضـوح للناخبـين الذيـن يعتقـدون أن أموالهـم قـد سُـلبت منهـم لصالـح مـن تعـرف أنـت مـن هـم.

وقـد اسـتفاد ريجـان أيضـا، عـلى كل حـال، مـن ذعـر القاعـدة الأصيـل مـن التهديد الشيوعي.

لم يكـن اختيـار جـورج كلـوني في عـام 2005 صنـع فيلـم "مسـاء الخـير، وحظـا طيبـا" حادثـا عرضيـا، فالفيلـم عبـارة عـن معالجـة دراميـة لمواجهـة إدواردر. مـورو مـع جـو مـكارثي،[1] فقـد كانـت الشـيوعية هـي إرهـاب الخمسـينات. وكانـت الحقائـق عنالعـدو مختلفـة جـدا. فالاتحـاد السـوفييتي المسـلح نوويـا شـكّل تهديـدا وجوديـا حقيقيـا للولايـات المتحـدة لا يشـكله تهديـد الإرهابيـين الإسـلاميين، كـما أن حلـف وارسـو، عـلى خـلاف "محـور الـشر"، كان قائمـا فعـلا. ونفسـيا، عـلى أيـة حـال، يبـدو رد الفعـل عـلى التهديـد الشـيوعي في الخمسـينات مألوفـا ومفهومـا اليـوم.

---

(1) إدوارد ر. مـورو (25 أبريـل 27-1908 أبريـل 1965) صحفـي إذاعـي أمريـكي. عـرف طريقـه للشـهرة أولا بسلسـلة مـن الأحاديـث الإذاعيـة لقسـم الأخبـار في نظـام كولومبيـا للإذاعـة في أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، وهـي أحاديـث تابعهـا الملايـين مـن المسـتمعين في الولايـات المتحـدة. وقـد جمـع خـلال الحـرب فريقـا مـن المراسـلين الأجانـب أضحـوا يعرفـون باسـم أولاد مـورو. كان رائدا في إذاعـة الأخبـار التليفزيونية، وقـد أنتـج سلسـلة مـن التقاريـر التـي أدت إلى توبيـخ السـيناتور جوزيـف مـكارثي. (المترجـم)، انظـر:
Edward R. Murrow,Wikipedia, the free encyclopedia.

جوزيـف ريمونـد "جـو" مـكارثي (14 نوفمـبر 2-1908 مايـو 1957) سـياسي أمريـكي خـدم كسـيناتور عـن ولايـة ويسكنسـون مـن عـام 1947 وحتـى وفاتـه عـام 1957. بدايـة مـن عـام 1950، أصبـح مـكارثي الشـخصية العامـة الأكـثر وضوحـا للفـترة التـي أدت فيهـا توتـرات الحـرب البـاردة إلى إشـعال مخـاوف واسـعة النطـاق مـن التخريـب الشـيوعي. وقـد اشـتهر بتقديمـه ادعـاءات بوجـود عـدد كبـير مـن الشـيوعيين والجواسـيس السـوفييت والمتعاطفـين مـع الشـيوعية داخـل الحكومـة الفيدراليـة للولايـات المتحـدة، وفي أماكـن أخـرى. وفي النهايـة، أدت تكتيكاتـه وعـدم قدرتـه عـلى إثبـات ادعاءاتـه إلى توبيـخ مجلـس الشـيوخ لـه. وقـد صـك مصطلـح "المكارثيـة" عـام 1950 في إشـارة إلى ممارسـات مـكارثي، وسرعـان مـا انطبـق المصطلـح عـلى نشـاطات مماثلـة مضـادة للشـيوعية. واليـوم، يسـتخدم هـذا المصطلـح بشـكل أكـثر عموميـة للإشـارة إلى الاتهامـات الغوغائيـة، والطائشـة، التـي لا أسـاس لهـا. (المترجـم)، انظـر:
Joseph McCarthy, Wikipedia, the free encyclopedia.

والمفارقـة، أن واحـدة مـن مشـكلات أن تكـون الدولـة قـوة عظمـى هـو صعوبـة أن تـشرح لمواطنيهـا حـدود تلـك القـوة. فالكنديـون مثـلا لا يُدهَشـون لمـاذا لا تسـتطيع حكومتهـم فـرض إرادتهـا عـلى العـالم. بينـما الأمريكيـون، عـلى أيـة حـال، مـن السـهل للغايـة اقتناعهـم بـأن هـؤلاء الذيـن يهـددون الأمـة يمكـن بـكل بسـاطة التخلـص منهـم بالقـوة، وأن أي شـخص يحـث عـلى ضبـط النفـس هـو في أفضـل الأحـوال شـخص ضعيـف، وفي أسـوئها خائـن.

وفي الواقـع ليـس هنـاك بديـل عقـلاني للمقـترب الهـادئ رابـط الجـأش. كانـت الشـيوعية في الخمسـينات والسـتينات، مثلهـا مثـل الإرهـاب الحديـث، تهديـدا يمكـن احتـواؤه ولكـن لا يمكـن التخلـص منـه. عـلاوة عـلى ذلـك، في النهايـة، فإنإسـتراتيجية الاحتواء-مـن الامتنـاع عـن أي محاولـة مباشرة للإطاحـة بالنظـم الشـيوعية باسـتخدام القـوة، والقتـال فقـط في حـروب دفاعيـة، ومحاربـة النفـوذ السـوفييتي بالمعونـات والدبلوماسـية-كانت ناجحـة كليـا: لم تحـدث أبـدا حـرب عالميـة ثالثـة، وكسـبت الولايـات المتحـدة الحـرب البـاردة بصـورة حاسـمة. ولكنهـا كانـت إسـتراتيجية، مثـل رد الفعـل العقـلاني عـلى الإرهـاب، تبـدو جبانـة في نظـر النـاس الذيـن يـرون في ضبـط النفـس فقـط الضعـف والانحطـاط. وتصويـر ريجـان الكاريكاتـوري للاحتـواء عـلى أنـه الاعتقـاد بأننـا "لـو تجنبنـا أي مواجهـة مباشرة مـع العـدو، فسـوف ينـسى أسـاليبه الشريـرة وسـيتعلم أن يحبنـا" قـد تـردد صـداه بعـد أربعـين سـنة لاحقـة في اسـتهزاء ديـك تشـيني مـن جـون كـيري لقولـه إنـه مـن الأفضـل النظـر إلى "الحـرب عـلى الإرهـاب" باعتبارهـا مشـكلة بوليسـية.

وقـد اعتقـد ريجـان أن الداعـين إلى الاحتـواء هـم حمقـى ضعفـاء، يدعـون إلى "حـل طوبـاوي لسـلام مـن دون انتصـار". بينـما آخـرون عـلى اليمـين، وبخاصـة جوزيـف مـكارثي، اعتقـدوا أنهـم خونـة، وظـل عـدد كبـير يتمسـك بمثـل هـذا الاعتقـاد حتـى بعـد سـقوط مـكارثي. بالنسـبة للمكارثيـين يمكـن تفسـير إحباطـات القـوة العظمـى، وبخاصـة عـدم قـدرة أمريـكا عـلى الحيلولـة دون انتصـار الشـيوعية في الصـين، فقـط بالخيانـة عـلى أعـلى مسـتوى:

كيـف يمكننـا تعليـل موقفنـا الحـالي إذا لم نعتقـد أن رجـالا عـلى مسـتوى عـال في هـذه الحكومـة اتفقـوا معاعـلى تسـليمنا للكارثـة؟ وهـذا لا بـد أن يكـون ناتـج مؤامـرة كـبرى عـلى نطـاق ضخـم بحيـث تقـزم مـن أي مغامـرة مماثلـة سـابقة في تاريـخ

الإنسـان. مؤامـرة مـن العـار وشـدة الخـزي، إلى حـد أنـه عندمـا يكشـف عنهـا النقـاب في النهايـة، سـوف يسـتحق مدبروهـا لعنـة كل الرجـال المخلصـين الشرفـاء للأبـد.(1)

وكانـت مفارقـة كـبرى أخـرى للموقـف هـي أن معارضـة الشـيوعية كانـت أكـثر فتـكا وتطرفـا في أمريـكا، حيـث يمكـن بالـكاد العثـور عـلى أي شـيوعيين، مقارنـة بأوروبا الغربيـة حيـث بقيـت الأحـزاب الشـيوعية قـوة سياسـية فعالـة حتـى سـقوط الاتحـاد السـوفييتي. وليـس الأمـر أن معارضـة الشـيوعية في أوروبـا الغربيـة كانـت ضعيفـة، فالأحـزاب اليمينيـة الأوروبيـة، في العديـد مـن الحـالات، عرفـت بمعارضتهـا للشـيوعية. والمعارضـة الأوروبيـة للشـيوعية، حتـى-أو ربمـا خاصـة-إذا أتـت عـلى حسـاب الديمقراطيـة، كان لهـا مسـاندوها الأمريكيـون، فكـما رأينـا كانـت هيئـة تحريـر مجلـة الوطنيـة، المطبوعـة الدوريـة الأصليـة للحركـة المحافظيـة، مـن المعجبـين المتحمسـين للجـنرال فرانشيسـكو فرانكـو.

وخـارج إسـبانيا، عـلى أيـة حـال، كان معارضـو الشـيوعية مـن المحافظـين التقليديـين، المدافعـين عـن النظـام الديمقراطـي القائـم. بينـما في الولايـات المتحـدة، أصبحـت معارضـة الشـيوعية-التي وجهـت ضـد أعـداء مبهمـين يزعـم أنهـم يتحكمـون في سياسـة الأمة-راديكاليـة، بـل وحتـى حركـة ثوريـة. وكـما عـبر عـن ذلـك المـؤرخ ريتشـارد هوفسـتادتر في بحثـه الشـهير عـام 1964 "أسـلوب جنـون العظمـة في السياسـة الأمريكيـة"، الجنـاح اليمينـي الحديـث في أمريـكا.

يشـعر بأنـه مـشرد: لقـد سـلبت أمريـكا منهـم ومـن جنسـهم إلى حـد كبـير، ولـذا فهـم مصممـون عـلى محاولـة اسـترجاعها والحيلولـة دون وقـوع العمـل الهـدام النهـائي للتخريب.المناقـب الأمريكيـة القديمـة تـم التهامهـا بواسـطة الكوزموبوليتانيـين والمثقفـين، فالرأسـمالية التنافسـية القديمـة قـد تـم إضعافهـا تدريجيا بواسـطة المتآمرين الاشـتراكيين والشـيوعيين؛ والأمـن القومـي القديـم والاسـتقلال قـد تـم تدميرهـما بمكائـد خيانيـة، أقـوى عناصرهـا ليسـوا مجـرد أجانـب وأغـراب كـما في السـابق، ولكـن رجـال دولـة رئيسـيون موجـودون في صميـم مراكـز السـلطة الأمريكيـة.(2)

(1) حديث أدلى به السيناتور جوزيف مكارثي أمام مجلس الشيوخ يوم 14 يونيو 1951.
From Congressional Record: Proceedings and Debates of the 82nd Congress, First Session, vol. 97, part 5 (May 28, 1951-June 27, 1951), pp. 6556-603.

(2) Richard Hofstadter, "The Paranoid Style in American Politics," Harper's Magazine, Nov. 1964, pp. 77-86.

وبشكل غريب، وجدت هذه المشاعر بالسلب والاحتيال صدى لها في الضواحي الأمريكية سريعة التوسع، وبالذات في مقاطعة أورانج، في كاليفورنيا، موطن ديزني لاند وتجسيد الحلم الأمريكي في هذا الوقت. فقد بدا أن هناك شيئا ما يتعلق بكونك مالكا لمنزل جديد، فشخص ما انتقل غربا وخارج المدن ليهرب من كل هذا-أي من الغرب الأوسط للساحل، ومن المدن للضواحي-هو ما جعل الناس في حالة هلع من تعرضهم للتهديدات بأن كل هذا سوف يتم انتزاعه منهم، وبخاصة التصديق في المؤامرات الكئيبة المعارضة لأسلوبهم في الحياة.(ولا يضر أيضا معرفة أن مقاطعة أورانج كانت في قلب المجمع الصناعيالعسكري، كموطن للعديد من المتعاقدين مع وزارة الدفاع، وكانت مكانا حيث لكثير من الناس حصص مالية شخصية في التوتر الشديد بين الغرب والاتحاد السوفييتي). وفي السنوات الأخيرة، أذكت إدارة بوش بعناية توتر وقلق "أمهات الأمن"،[1] ولكن في الخمسينات والستينات كان تمرد "محاربي الضواحي" الأصل الحقيقي لحركة متأهبة للتعبئة، وراء السياسيين الذين يبدوا أنهم يشاركونها نفس الاهتمامات.[2]

وكان مؤسسو الحركة المحافظية، مهما يكن منأمر بلاغة مبادئهم السامية، قد أبدوا ترددا ضئيلا بشأن ركوب موجة جنون العظمة. وكان الفيلسوف السياسي بيتر فيريك هو واحد من قلائل "المحافظين الجدد" الذين انفصلوا عن الحركة مع تطورها إلى حركة محافظية أصولية. وفي مقال نشر عام 1962 في الجمهورية الجديدة "New Republic" بعنوان "المحافظية الجديدة: واحد من مؤسسيها يسأل أين الخطأ"، وقد أشار إلى أن العديد من المحافظين الجدد البارزين "قد فشلوا في الاختبار المصيري لإغواء مكارثي في الخمسينات بنفس الطريقة التي فشل بها الشخص الذي يشارك في نفس الأفكار والمعتقدات الشيوعية في الاختبار المصيري للشيوعية في الثلاثينات." وفي الواقع، وكما أشار فيريك، كان جولدووتر مثله مثل

(1) يعرف قاموس ماكميلان أمهات الأمن بقوله: المرأة التي لديها أطفال وتشعر بالقلق وتهتم بشكل خاص بموضوعات الإرهاب والأمن،في الولايات المتحدة. (المترجم)، انظر:
Macmillan Dictionary, http://www.macmillandictionary.com/buzzword/entries/security-mom.html.

(2) يأتي مصطلح "محاربي الضواحي" من كتابليزا مكجير:
Lisa McGirr, Suburban Warriors: The Rise of the New American Right (Princeton University Press, 2001).

ريجان، قد تمت إعادة ابتكاره بالتاريخ الشعبي كشخص أقل تطرفا وأقل بغضا مما كان حقيقة، "فقد دافع بحماس عن الطغيان المكارثي حتى النهاية."[1] وبينما فصل محافظو الحركة في النهاية أنفسهم عن روبرت ويليش،[2] مؤسس جمعية جون بيرش،[3] فقد كانوا حريصين على ألا يدينوا الجمعية ذاتها، أو معتقداتها في نظرية المؤامرة.

وهكذا إذا وجدت الحركة المحافظية قاعدة شعبية باكتشاف طرق لكي تبدو جذابة بالنسبة لمشاعر ووجدان القاعدة الشعبية: ردة فعل البيض والهلع من الشيوعية. وبزوغ هذه القاعدة الشعبية ذهبت بعيدا تجاه تحويل الهامش السياسي "المحافظين الجدد" في الخمسينات إلى قوة لا يستهان بها. واستُكمل نشوء القاعدة الشعبية بإنشاء نوع مختلف من القاعدة، التي وإن كانت لا يمكنها تقديم الأصوات الانتخابية فإنها تستطيع تقديم المال: التأييد المتحمس من مجتمع الأعمال.

---

(1) Peter Viereck, "The New Conservatism: one of Its Founders Asks What Went Wrong,: New Republic, Sept. 24, 1962.

(2) روبرت وينبورن ويلش، الصغير (1 ديسمبر 6-1889 يناير 1985) رجل أعمال، وناشط سياسي، ومؤلف أمريكي. كان ثريا،وفي أعقاب تقاعده استخدم ثروته في رعاية قضايا مضادة للشيوعية. كان أحد اثنين شاركا في تأسيس مجموعة محافظة تحت اسم جون بيرش في عام 1958 وظل مسيطرا عليها بإحكام حتى وفاته. وقد أصبح شخصية موضع جدل وانتقاد عن طريق الليبراليين إلى جانب بعض رواد المحافظين مثل ويليام ف. بكلي. (المترجم)، انظر:
Robert Henry Welch, Jr., Wikipedia, the free encyclopedia.

(3) جمعية جون بيرش، طبقا لتعريفها لنفسها، مجموعة تدعو إلى المحافظة وتؤيد معارضة الشيوعية والحكومة المحدودة. وقد وصفت باعتبارها يمينا راديكاليا ويمينا متطرفا. بعد ارتفاع عضويتها ونفوذها في البداية، أدت جهود أشخاص مثل المحافظ ويليام بكلي ومجلة الوطنية إلى تصنيف جمعية جون بيرش كعنصر هامشي في الحركة المحافظة، وذلك خوفا من تطرف اليمين الأمريكي. وقد أسست الجمعية أولا في بلمونت بولاية ماساشوستس، ولكن مقرها الرئيسي يوجد الآن في أبلتون بولاية وسيكنسن، مع فروع لها في أرجاء الولايات المتحدة. وتمتلك الجمعية دار الرأي الأمريكي للنشر، والتي تنشر مجلة الأمريكي الجديد، وهي مجلة تصدر مرتين في الشهر. (المترجم)، انظر:
The John Birch Society, Wikipedia, the free encyclopedia.and
The New American,Wikipedia, the free encyclopedia.

بناء قاعدة في مجتمع الأعمال

نحـن نأخـذ اليـوم وقـوف معظـم مجتمـع الأعـمال بصلابـة وراء اليمـين المتشـددكأمر مسـلم بـه. فصناعـة الأدويـة تريـد أن تبقـى قوتهـا الاحتكاريـة عـلى حالهـا، وصناعـة التأمـين تريـد أن تتفـادى التأمـين الصحـي الوطنـي، وتريـد شركات الطاقـة التحـرر مـن قيـود القواعـد التنظيميـة الخاصـة بالبيئـة، ويريـد كل شـخص إعفـاءات ضريبيـة. بينـما في الخمسـينات والسـتينات حيـث كانـت ذكـرى انتصـارات الصفقـة الجديـدة لا تـزال طازجـة، كانـت الـشركات الكبـيرة حـذرة سياسـيا. وكانـت قاعـدة مجتمـع الأعـمال للحركـة المحافظيـة هـي بشـكل أسـاسي بـين الأعـمال الصغـيرة، وغالبـا الأعـمال المملوكـة بشـكل شـخصي (أي ليسـت شركات مسـاهمة عامة-المترجـم). وكان سـخطهم مركـزا، قبـل كل شيء، عـلى النقابـات.

مـن الصعـب الآن استيعاب مـدى الأهميـة التـي كان عليهـا هـذا الموضـوع. وربما مـن المحتمـل أن يكـون قـراء مجلـة التايـم قـد وقعـوا في الحـيرة قليـلا في عـام 1998، مـن اختيـار المجلـة لوالـتر رويـثر، وكان رئيسـا للنقابـة المتحـدة لعـمال صناعة السـيارات مـن عـام 1946 وحتـى وفاتـه عـام 1970، واحـدا مـن بـين المئـة شـخص الأكـثر نفـوذا في القـرن العشريـن. كان العمـل النقـابي الأمريـكي بحلـول نهايـة القـرن العشريـن مجـرد ظـل باهـت لذاتهـا السـابقة، وكان رويـثر في طـي النسـيان.ولكن في يـوم مـن الأيـام كان رويـثر قامـة شـاهقة، وبالنسـبة للبعـض شـخصا مخيفـا، إلى حـد إعـلان بـاري جولدووتـر عـام 1958 أن رويـثر يشـكل "تهديـدا أكـثر خطـورة مـن سـبوتنيك[1] أو أي شيء يمكـن للسـوفييت فعلـه للولايـات المتحـدة".

وكانـت أمريـكا في الخمسـينات أمـة يلعـب فيهـا العمـل المنظـم دورا قويـا وظاهرا. كان نحـو 30% مـن العـمال غـير الزراعيـين أعضـاء في النقابـات، بالمقارنـة بأقـل مـن 12% اليـوم. كان معـدل عمليـة الانضـمام للنقابـات في أمريـكا أعـلى مـما هـو في كنـدا، وإيطاليـا، وفرنسـا، ولا يقـل كثـيرا عـن المعـدل في ألمانيـا الغربيـة. وعـلاوة عـلى آثارهـا

---

(1) سـبوتنيك كلمـة روسـية تعنـي التابـع أو رفيـق السـفر، وهـو اسـم سلسـلة مـن الأقـمار الصناعيـة صنعهـا الاتحـاد السـوفييتي ووضعهـا عـلى المـدار حـول الأرض بـين عامـي 1957 و1961. وكان هنـاك ثلاثـة أقـمار في سلسـلة سـبوتينك، وهـي سـبوتنيك 1 وهـو أول قمـر صناعـي أطلقـه الاتحـاد السـوفييتي في يـوم 4 أكتوبـر 1957، وسـبوتنيك 2 وأطلـق في 3 نوفمـبر 1957، وسـبوتنيك 3 وأطلـق في 15 مايـو 1958. (المترجـم)، نقـلا عـن ويكيبيديـا الموسـوعة الحـرة، مـادة سـبوتنيك (توضيـح).

الاقتصادية، تلعب النقابات دورا سياسيا محوريا، ومثلت العمود الفقري لقوة الحزب الديمقراطي خارج الجنوب. ومع ذلك، فلم يتم القبول بالنقابات من جانب جميع الأفراد باعتبارها واحدة من حقائق الحياة. ويبدو أن قضية شرعية النقابات الاقتصادية والسياسية قد استقرت بالانتصارات العمالية غير العادية التي حدثت في الثلاثيناتوالأربعينات. ولكن هذه الانتصارات، على كل حال، لم تكن مكتملة، في اتجاهين مهمين. الأول، بينما خلقت الصفقة الجديدة دولة رفاه، فإنها كانت دولة تقصر عن تلك التي أنجزتها بقية البلدان الغنية، وخاصة حينما يتعلق الأمر بالرعاية الصحية. وكان على النقابات أن تضغط للحصول على مزايا من القطاع الخاص لسد الفجوات. ولما فعلت ذلك، فقد تقابلت صدفة مع المعارضة المستحدثة. وثانيا، على الرغم من معدل الانضمام للنقابات المرتفع نسبيا، كانت هناك اختلافات إقليمية واسعة: فأجزاء كبيرة من البلاد ظلت مناطق معادية للنقابات، وأرضا خصبة للسياسيين المعارضين للنقابات.

دعنا نبدأ بدولة الرفاه غير المكتملة. فقد انبثقت كلالديمقراطيات الغربية من الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية مع نوع ما مندولة الرفاه. وقد اختلف مدى دول الرفاه هذه، على أية حال. فقد ابتكرت الولايات المتحدة في مجال الضمان الاجتماعي نظاما سخيا نسبيا في كفالة معاش التقاعد، في نفس المستوى أو أفضل من البلدان الغنية الأخرى. أما في الأمور الأخرى، فقد كانت دولة رفاه الولايات المتحدة أقل شمولا بكثير من البلدان الأخرى. خاصة أننا لم نكفل أبدا التأمين الصحي.

مع ذلك فبحلول الستينات كان لدى معظم الأمريكيين تأمين صحي، والعديد من العمال كان لديهم تأمين ضد الإعاقة، وعدد معتبر كان لديه مزايا سخية في حالة البطالة والتقاعد، ولم تكن الحكومة تقدم أيا من هذهالمزايا، إذ بدلا من ذلك كان يقدمها أصحاب العمل في القطاع الخاص. وكما أشار عالم السياسة جاكوب هاكر، طورت أمريكا ما بعد الحرب دولة رفاه كانت، إذا ما قيست بنسبة إنفاق الرفاه الاجتماعي كنصيب من الاقتصاد، في نفس مستوى دول الرفاه هذه في أوروبا الغربية تقريبا. ولكن في الولايات المتحدة كان الكثير من هذا الإنفاق يأتي من أصحاب الأعمال في القطاع الخاص عوضا عن الدولة.[1]

(1) Jacob Hacker, The Divided Welfare State, Cambridge University Press, 2002.

لماذا قدم أصحاب الأعمال في القطاع الخاص كل هذه المزايا؟ كان ذلك يعود جزئيا إلى كون التأمين أسلوبا جيدا لجذب العاملين، وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية، حينما حالت السيطرة على الأجور دون تنافس الشركات على عنصر العمل النادر بزيادة الأجور. أيضا، كانت تعويضات العمل التي أخذت شكل مكتسبات تمتاز بأنها لا تخضع لضريبة الدخل، وهكذا كان الدولار الذي يمنحللشخص الموظف في شكل مزايا صحية يساوي أكثر من الدولار المدفوع بشكلمباشر كمرتب. ولكن بعد الحرب أصبحت المكتسبات هدفا أوليا لمفاوضات النقابات. وفي تفسيرها لماذا وضعت رويثر في قائمة المئة شخص على القمة، كتبت التايم:

ظل رويثر يضغط من أجل مكتسبات جديدة ومكتسبات أفضل، وقد استطاعت النقابة أن تفوز بالمكتسبات التي يعتبرها العاملون الآن أمرا مسلما به. وعاما بعد آخر، كسب العمال، بين آخرين، برامج رعاية صحية شاملة، واسترداد نفقات البرامج الدراسية، والتأمين على الحياة، والمشاركة في الأرباح، وتعويضات عند إنهاء الخدمة، وخططا لدفع تكاليف الخدمات القانونية مقدما، وتعويضات عند الوفاة، ومدفوعات إضافية محسنة عند الخدمة في هيئة المحلفين في العطلات، والإجازات الرسمية وأوقات الراحة.[1]

ولم تضع هذه المطالبات أي أعباء غير مقبولة على شركات السيارات والمستخدمين الآخرين الكبار، ففي عصر ما قبل انتشار المنافسة الأجنبية واسعة النطاق كان بإمكانهمتمرير التكاليف الأعلى للمستهلكين. أخيرا، فكل مُصنع للسيارات، وكل صاحب شركة صلب، يعلم أن المنافسين المحليين يفاوضون على اتفاقات مماثلة.

مع ذلك، فمن وجهة نظر المالك لشركة فلنقل متوسطة الحجم، أو متاجر متعددة الأقسام، كانت مطالبات النقابة لا تبدو مقبولة جدا. فربما لا تواجه هذه الشركة منافسة دولية، ولكنها تواجه منافسة من شركات أخرى ربما لا توجد بها نقابات، بما في ذلك الشركات الصغيرة جدا، عمليات ماما وبابا (الإشارة هنا إلى الشركات العائلية-المترجم) التي هي صغيرة جدا بحيث يصعب أن تصبح هدفا

(1) http://www.time.com/time/time100/builder/profile/reuther2.html.

للنقابـات. وبالنسـبة لمـلاك الـشركات متوسـطة الحجـم كانـت المطالبـات المتناميـة للنقابـات مثـيرة للغضـب، بـل وحتـى كريهـة.

وكانـت عائلـة بـاري جولدووتـر تمتلك متجـرا متعدد الأقسـام في فيونكس. وحسـب تعبـير ريـك بيرلشـتين في كتابـه الرائع قبـل العاصفـة: بـاري جولدووتـر وتدمـير الإجـماع الأمريـكي، كان جولدووتـر "أمـير تجار"عضـوا في طبقـة كان الأكـثر احتـمالا أن تقـوم بصـد المطالبات المتناميـة للحركـة النقابيـة. وقـد لفـت بيرلشـتين الأنظـار إلى أن مـلاك المشروعـات المتوسـطة، والـشركات التـي تديرهـا العائـلات، كانـوا النـواة الانتخابيـة لحركـة "المانيونيـت"، وهـي واحـدة مـن المصـادر المؤسسـة للحركـة المحافظيـة. (كان كلارنـس مانيـون، عميـد مدرسـة نوتـردام للقانـون، أحـد رواد الإرسـال المبـاشر وقـاد حملـة صليبيـة ضـد "المؤمنـين بالدوليـة، والمؤمنـين بعـالم واحـد، والاشـتراكيين، والشـيوعيين" الذيـن اعتقـد مانيـون أنهـم اجتاحـوا الحكومـة).[1]

وينحـدر جولدووتـر أيضـا مـن أريزونـا، وهـي ولايـة حيـث "الحـق في العمـل"، فـرض حظـر قانـوني عـلى العقـود يقتـضي أن يكـون عـمال الشركـة أعضـاء في نقابـة، أمـر متضمـن في دسـتور الولايـة. ويوضـح هـذا السـبب الثـاني لأن انتصـارات العمـل في عـصر الصفقـة الجديـدة لم تعمـل عـلى تسـوية دور النقابـات في السياسـة الأمريكيـة: عـلى الرغـم مـن أن الانضـمام للنقابـات قـد تـم تأسيسـه عـلى نحـو آمـن في قلـب الأمـة الصناعـي، وكانـت النقابـات أقـل قـوة وعموميـة فيـما سـوف يُعـرف لاحقـا بحـزام الشـمس.[2] وفي الخمسـينات كان عـمال الصناعـة التحويليـة في الجنـوب المحتمـل انضمامهـم للنقابـات يبلـغ نحـو نصـف الاحتـمال المتوفـر عنـد نظرائهـم في الغـرب الأوسـط. ومـع انتقـال القاعـدة الصناعيـة للأمـة والسـكان نحـو الجنـوب والغـرب، كان

(1) Rick Perlstein, Before the Storm: Barry Goldwater and the Unmaking of the American Consensus, (Hill & Wang, 2001), chap. 1.

(2) حـزام الشـمس هـو المنطقـة التـي تمتـد عـبر جنـوب وجنـوب غـرب الولايـات المتحـدة، مـن فلوريـدا وحتـى كاليفورنيـا. ويتضمـن حـزام الشـمس تقليديـا ولايـات فلوريـدا، وجورجيـا، وسـاوث كارولينـا، وألاباما، ومسيسـبي، ولويزيانـا، وتكسـاس، ونيـو مكيسـكو، وأريزونـا، ونيفـادا، وكاليفورنيـا. شـهد حـزام الشـمس، خاصـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، غـزارة في النمـو السـكاني، وأصبـح منطقـة مهمـة اجتماعيـا، وسياسـيا، واقتصاديـا. (المترجـم)، انظـر:
Amanda Briney,Sunbelt, about education.
على الرابط: http://geography.about.com/od/specificplacesofinterest/a/sunbelt.htm

العديـد مـن أصحـاب النفوذ-وبصفـة خاصـة معظـم هيـكل القـوة القائـم في حـزام الشـمس-يريدون التأكـد تمـام التأكـد مـن أن الحركـة العماليـة لـن تتبعهـم.

وكان الموقـف الحـاد المناهـض للنقابيـة هـو مـا أعطـى بدايـة لجولدووتـر أهميـة عـلى المستوى الوطنـي. فقـد أطلـق تعليقـه حـول خطـورة والـتر رويـثر في أثنـاء تحقيق مجلـس الشـيوخ حـول الزعـم بوجـود فسـاد نقـابي. وعـلى الرغـم مـن أفضـل الجهـود التـي بذلهـا المحققـون، لم يسـتطيعوا اكتشـاف أي مخالفـات مـن جانـب رويـثر، فقـد كان موسوسـا ومدققـا إلى حـد أنـه كان يدفـع فواتـير تنظيـف ملابسـه في أثنـاء رحـلات العمـل الخاصـة بالنقابـة. ومـن أجـل الفسـاد الحقيقـي، كان عليـك أن تنظر إلى سـائقي شـاحنات جيمـي هوفـا،[1] وهـي واحـدة مـن النقابـات القليلـة التـي كانـت تؤيـد المرشـحين الجمهوريـين.

---

(1) جيمـس ريـدل هوفـا يعـرف اختصـارا بـ جيمـي هوفـا (14 فبرايـر -1913 واختفـى في 30 يوليـو 1975) قائـد عـمالي أمريـكي خـدم كرئيـس لنقابـة الأخويـة الدوليـة لسـائقي الشـاحنات بـين عامـي 1957 و1971، وكان واحـدا مـن أكـثر المنظمـين النقابيـين إثـارة للجـدل حولـه في ذلـك الوقـت. تـرك الدراسـة في سـن الرابعـة عـشرة، وبحلـول عـام 1940 حينـما كان في السـابعة والعشريـن مـن عمـره أصبـح رئيـس مجلـس سـائقي ولايـات الوسـط، وفي عـام 1942 أصبـح رئيسـا لمؤتمـر ميتشـجان لسـائقي الشـاحنات. انتخـب عـام 1952 نائبـا لرئيـس نقابـة الأخويـة الدوليـة، وبعـد خمـس سـنوات أخـرى خلـف دايـف بـك كرئيـس للنقابـة. وقـد عـرف في صناعـة النقـل بالشـاحنات كمفـاوض عنيـد ومطلـع، ونجـح هوفـا في تركيـز الإدارة والتفـاوض في مكتـب نقابـة الأخويـة.

وقـد عـرف عـن هوفـا أيضـا ارتباطـه بشـخصيات معروفـة في مجـال الجريمـة المنظمـة، ومـع ذلـك فقـد نجـا مـن سلسـلة مـن الملاحقـات القضائيـة حتـى عـام 1967، حينـما حُكـم عليـه بالسـجن لمـدة ثلاثـة عـشر عامـا بعـد أن وجـدت هيئـة المحلفـين أنـه مـدان بالعبـث، والاحتيـال، والتآمـر. وقـد رفـض الاسـتقالة مـن منصبـه كرئيـس للنقابـة وهـو مسـجون وظـل محتفظـا بمنصبـه حتـى عـام 1971، حينـما قـام الرئيـس الجمهـوري نيكسـون بتحفيـف عقوبتـه وخـرج مـن السـجن في ديسـمبر، مـع النـص عـلى حرمانـه مـن الانضـمام إلى أي نشـاط نقـابي حتـى عـام 1980 وهـو العـام الـذي كانـت سـتنتهي فيـه عقوبتـه الأصليـة بالسـجن. ومـع ذلـك قـام هوفـا بمحاربـة هـذا التقييـد باللجـوء إلى المحكمـة، واسـتمر بشـكل معلـن في جهـوده مـن أجـل اسـتعادة منصـب نقـابي. وفي 30 يوليـو 1975 اختفـى مـن مطعـم في ضواحـي ديترويـت، وقـد قيـل إنـه كان عـلى موعـد مـع أنتـوني بروفنزانـو وهـو مسـؤول في نقابـة سـائقي الشـاحنات في نيوجـيرسي وأحـد رجـال المافيـا السـابقين المعروفـين، وكذلـك مـع أنتـوني جيكلانـو، أحـد أشـقياء ديترويـت، وقـد أنكـر كل منهـما أنـه قابلـه. وقـد أعلـن هوفـا في عـداد الأمـوات قانونيـا في عـام 1982. (المترجـم)، انظـر:

The Editors of Encyclopædia Britannica,James R. Hoffa,Encyclopædia Britannica.

وأعطت مناهضة النقابية الحركة المحافظية قاعدتها المتماسكة الأولى في مجتمع الأعمال. ومن الستينات فصاعدا، كان أصحاب الأعمال الذين يكرهون النقابات مصدرا قويا للدعم المالي. وهذا الدعم كان له مردوده. وكما سأشرح في الفصل الثامن، فخلال السبعينات والثمانينات كان تحول السياسة الأمريكية نحو اليمين قد مكن مجال الأعمال من مواجهة و -إلى حد كبير- سحق الحركة النقابية، مع آثار ضخمة على كل من عدم المساواة في الأجر وميزان القوى السياسي.

بناء نخبة مثقفة

مع اكتساب الحركة المحافظية لقاعدة شعبية وقاعدة قوية في مجتمع الأعمال، فقد اكتسبت أيضا ما يمكن أن يصل إلى نخبة الحزب المثقفة. وبكل تأكيد، كان "المحافظون الجدد" الأصليون- كما يمثلهم بكلي والمجلة الوطنية "ناشيونال ريفيو"- مثقفين، ولكنهم لم يقدموا نوعا من الإيقاع المنتظم من الدراسات والمقالاتالتي تجمع بين ما يبدو كمعرفة علمية جادة، والدعم العنيد المثابر لموقف اليمين الذي يلازم في الوقت الحاضر أي جدال عن السياسة العامة. ولم تتبلور النخبة المثقفة للحركة المحافظية إلا عندما انضم إلى "المحافظين الجدد" المحافظون المحدثون، وهي مجموعة مختلفة تماما، وكلتاهما منحت وظيفة منتظمة دائمة عن طريق البنية التحتية المؤسسية القوية.

ويمكن اقتفاء أثر المحافظين المحدثين إلى حد كبير في مجموعتين: اقتصاديو شيكاغو بقيادة ميلتون فريدمان، والذي قاد عملية ضد علم الاقتصاد الكينزي، وعلماء الاجتماع بقيادة إريفنج كريستول[1] والمتحلقون حول مجلة المصلحة العامة الذين تمردوا على المجتمع العظيم.

---

(1) إرفنج ويليام كريستول (20 يناير 18-1920 سبتمبر 2009)، كاتب أمريكي، ومحرر، وناشر، يعرف باعتباره المؤسس الفكري وقائد حركة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة. تعبيره ودفاعه عن النموذج المثالي المحافظ في مواجهة الليبرالية المسيطرة في الستينات أثرت في أجيال من المفكرين وصناع القرار، وساهمت في صحوة الحزب الجمهوري في نهاية الستينات، ونجاحه الانتخابي في الثمانينات. كان كريستول ابنا لمهاجرين يهود من أوروبا الشرقية. وقد نشأ في بروكلين وتخرج في كلية مدينة نيويورك في عام 1940 بدرجة في التاريخ. كان في أثناء دراسته في الكلية يساريا معارضا للستالينية كعضو في عصبة الشباب الاشتراكي التروتسكي. كتب لعدة مطبوعات منها تعليق

وقـد ظهـرت النخبـة المثقفـة الاقتصاديـة للمحافظـين أولا، وذلـك لأن الحقائـق الواقعيـة لعلـم الاقتصـاد خلقـت ميـلا طبيعيـا في الاقتصاديـين نحـو قطـع المسـافة بأكملهـا تجـاه أصوليـة السـوق الحـرة. وكـما بـيّن آدم سـميث، وكـما فصّلـت بتوسـع أجيـال عديـدة مـن الاقتصاديـين، كان للأسـواق طريقتهـا في جعـل المصلحـة الذاتيـة تخـدم الصالـح العـام. فالأفـراد السـاعون للكسـب فقـط لأنفسـهم يقـادون، "كـما لـو بيـد خفيـة"، لإنتـاج سـلع يطلبهـا أنـاس آخـرون، حينـما يحتاجونهـا. إنـه نفـاذ بصيـرة قـوي وحقيقـي. وحتـى الاقتصاديـون الليبراليـون لديهـم احـترام تـام لفاعليـة الأسـواق كوسـيلة لتنظيـم النشـاط الاقتصـادي.

Commentary، وأسـس في لنـدن في عـام 1953 مـع الشـاعر الإنجليـزي سـتيفان سـبندر مجلـة المواجهـة Encounter وهـي مطبوعـة سياسـية أدبيـة، وظـل محـررا مشـاركا بهـا حتـى عودتـه للولايـات المتحـدة عـام 1958 وقـد كشـف النقـاب في عـام 1967 عـن أن المجلـة كان يتـم تمويلهـا بشـكل سري مـن وكالـة المخابـرات المركزيـة الأمريكيـة (CIA) وقـد ادعـى كريسـتول أنـه لم يكـن يعـرف بهـذا الأمـر. وقـد خـدم كريسـتول كمحـرر لمطبوعـة أخـرى مناهضـة للشـيوعية هـي المراسـل الصحفـي The Reporter بـين عامـي 1958 و1960 ليصبـح بعدهـا محـررا خبـيرا في العلـوم الاجتماعيـة ثـم نائـب المديـر التنفيـذي لـدار نـشر كتـب أساسـية Basic Books, Inc ولكـن المطبوعـة التـي ارتبـط بهـا اسـم كريسـتول أكـثر مـن غيرهـا هـي المصلحـة العامـة The Public Interest التـي أسسـها مـع عـالم الاجتـماع دانييـل بـل (زميـل دراسـته في كليـة مدينـة نيويـورك) في عـام 1965 وقـد خـدم كريسـتول كمحـرر مشـارك لهـا حتـى توقفـت عـن الصـدور في عـام 2005. في عـام 1969 تـرك كريسـتول دار النـشر ليصبـح أسـتاذا للقيـم الحضريـة في جامعـة نيويـورك. وعـلى الرغـم مـن تصويتـه لمرشـح الرئاسـة الديمقراطـي هيوبـرت همفـري في انتخابـات عـام 1968، فإنـه أثـار انتبـاه إدارة نيكسـون وزكّى إعـادة انتخـاب نيكسـون عـام 1972. وفي منتصـف السـبعينات سـجل نفسـه كعضـو في الحـزب الجمهـوري، وبـدأ تأسـيس مطبوعـة جديـدة هـي المصلحـة الوطنيـة The National Interest في عـام 1985 وكانـت مكرسـة للشـؤون الخارجيـة. اسـتقال من وظيفتـه مـن جامعـة نيويـورك في عـام 1987 ليلتحـق بمعهـد المبـادرة الأمريكيـة مـن عـام 1988 حتـى عـام 1999، وهـي مؤسسـة بحثيـة محافظـة. ثـم أصبـح بعـد 1999 أسـتاذا أقـدم ثـم أسـتاذا فخريـا بالمعهـد. وفي ظـل نفـوذ كريسـتول أصبـح معهـد المبـادرة الأمريكيـة مركـزا للثقافـة والمعرفـة المحافظـة في الولايـات المتحـدة. (المترجـم)، انظـر:

Irving Kristol, Brian Duignan, ENCYCLOPÆDIA BRITANNICA

على الرابط: http://www.britannica.com/biography/Irving-Kristol

وحول ماضيه اليساري في أثناء فترة دراسته، انظر:

From Memoirs of a Trotskyist by Irving Kristol, New York Intellectuals, Arguing The World.

على الرابط: http://www.pbs.org/arguing/nyintellectuals_krystol_2.html

ومـن جانـب آخـر، فالأسـواق لا تعمـل أحيانـا. وكان الدافـع وراء هـذه النقطـة لـدى الاقتصاديـين، إلى جانـب كل شـخص آخـر، التجربـة الأليمـة للكسـاد العظيـم. وفي السـنوات الأولى بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وحيـث كانـت ذاكـرة الكسـاد لا تـزال ماثلـة، اعتقـد معظـم الاقتصاديـين أن الاحتفـاظ بالاقتصـاد عـلى المسـار الصحيـح يتطلـب دورا واسـعا للحكومـة. وعـارض اقتصاديـو التيـار الرئيـسي الدعـوات مـن أجـل التخطيـط الاقتصـادي، ولكنهـم قبلـوا بالحاجـة لتدخـل الحكومـة لمحاربـة الكسـاد، إلى جانـب زيـادة دور الحكومـة بشـكل عـام في الاقتصـاد ككل.

وبمجـرد أن تـم تجـاوز الأزمـة، عـلى أيـة حـال، فقـد كان مـن المحتـم عـودة بعـض الاقتصاديـين للإيمـان القديـم. فمـع حلـول نهايـة الأربعينـات كان فريدمـان وزميلـه جـورج سـتيجلتز قـد نـددوا بالفعـل (مـع مـبررات كبـيرة) بـشرور ضبـط الإيجـارات. وعـلى مـدار فـترة الخمسـينات توسـع ذلـك إلى هجـوم عريـض عـلى التدخـل الحكومـي والقواعـد التنظيميـة بشـكل عـام. وبحلـول أوائـل السـتينات كان فريدمـان قـد التـف التفافـا تامـا ليصـل إلى أصوليـة السـوق الحـرة، وذلـك بمجادلتـه بـأن الكسـاد العظيـم لم يتسـبب فيـه فشـل السـوق ولكـن فشـل الحكومـة. وكانـت حججـه مراوغـة و-يمكننـي القـول- قريبـة جـدا مـن عـدم الأمانـة الفكريـة.[1] ولكـن حقيقـة أن يشـعر اقتصـادي عظيـم أنـه مجـبر عـلى اسـتخدام خفـة يـد فكريـة، في حـد ذاتهـا، مـؤشر عـلى السـحر القـوي لأصوليـة السـوق الحـرة. وقـد بـدأ اقتصاديـو السـوق الحـرة ليـس فقـط بمعارضـة الصفقـة الجديـدة، ولكـن إصلاحـات العـصر التقدمـي، مشـيرين إلى أنـه حتـى الأنشـطة الحكوميـة مثـل مراقبـة والإشراف عـلى سـلامة الغـذاء والـدواء كانـت غـير مـبررة. وربـط فريدمـان نفسـه بحملـة جولدووتـر.

وأتى تمـرد علـماء الاجتـماع متأخـرا مقارنـة بالعودة لأصولية السـوق الحـرة، وكان له مسـحة أكـثر سـوادا. فبينـما كان فريدمـان ورفاقـه يشـعون بتفـاؤل بنجالـوزي،[2] كانـت المجموعـة الملتئمـة حـول كريسـتول ومجلـة المصلحـة العامـة، والتـي تـم تأسيسـها عـام 1965، مـن المتشـككين، بـل وحتـى المتشـائمين. وقـد ناهضـوا المجتمـع العظيـم لليندون

(1) Paul Krugman, "Who Was Milton Friedman?" New York Review of Books, Feb. 15, 2007.

(2) نسـبة إلى شـخصية الفيلسـوف والمعلـم بنجالـوز الـذي يتسـم بالتفـاؤل السـاذج في روايـة الكاتـب الفرنـسي الشـهير فولتـير "كانديـد" التـي نـشرت عـام 1758 (المترجـم)

جونسون، الذي نظروا إليه-مع بعض الإنصاف-كتمرين أحمق ومشؤوم في الهندسة الاجتماعية. وسوف يكتب كريستول فيما بعد: "لقد كنا بشكل خاص مستفزين بالقبول واسع الانتشار بالأفكار الاجتماعية للجناح اليساري التي كانت متضمنة في الحرب على الفقر".[1]

ولهذا لديك شخص مثل دانييل باتريك موينهان[2] يعارض الورعين الليبراليين بالمجادلة بأن جذور الفقر بين السود لا يقع عبئها كثيرا على التمييز، بل على ارتفاع عدد العائلات التي تعيلها نساء، ومعارضة إدوارد بانفيلد[3] لادعاء أن

---

(1) Irving Kristol, "American Conservatism, 1965-1995," The Public Interest (Fall 19995), pp. 80-96.

(2) دانييل باتريك موينهان (16 مارس 1927-26 مارس 2003) عالم أمريكي وسياسي من الحزب الديمقراطي، وعضو مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك من عام 1977 وحتى عام 2001. نشأ موينهان في عائلة فقيرة في مدينة نيويورك، وبعد خدمته في القوات البحرية خلال الحرب العالمية الثانية، التحق بجامعة تافتس بولاية ماساتشوستس وحصل على الماجستير في الدبلوماسية عام 1949، ثم حصل على الدكتوراه في عام 1961. خدم خلال الستينات في وزارة العمل، وكان مؤلفا مشاركا لتقرير العائلة السوداء: حالة للعمل الوطني، وهو التقرير الذي شاع تحت اسم تقرير موينهان، وخلص فيه إلى أن المشكلات التعليمية للأمريكيين السود ناجمة عن عدم استقرار العائلات السوداء الحضرية. وقد تسبب التقرير في عاصفة من السجال وجعل من موينهان شخصا مشهورا. وقد أصبح أستاذا بجامعة هارفارد عام 1966، وشغل مواقع استشارية في إدارة ريتشارد نيكسون، وخدم كسفير للولايات المتحدة في الهند بين عامي 1973 و1975، وممثل دائم في الأمم المتحدة بين 1975و1976. وقد كسب الانتخابات لعضوية مجلس الشيوخ على الرغم من معارضة الليبراليين الديمقراطيين. وبعد أن خدم لأربعة مدد في مجلس الشيوخ قرر في عام 2000 عدم خوض الانتخابات مجددا، لتخلفه على المقعد هيلاري كلينتون. وظلموينهان مع ذلك نشطا سياسيا وأصبح في عام 2001 الرئيس المناوب للجنة الرئاسية لدراسة الإصلاحات الممكنة في نظام التقاعد للضمان الاجتماعي. (المترجم)، انظر:

The Editors of Encyclopædia Britannica, Daniel Patrick Moynihan, Encyclopædia Britannica.

على الرابط: http://www.britannica.com/biography/Daniel-Patrick-Moynihan

(3) إدوارد كريستي بانفيلد (19 نوفمبر 1916-30 سبتمبر 1999)، عالم سياسة أمريكي، اشتهر بتأليفه لكتاب الأسس الأخلاقية للمجتمع المتخلف (1958). وكان واحدا من كبار العلماء في جيله. وقد خدم كمستشار مع الرؤساء الجمهوريين ريتشارد نيكسون، وجيرالد فورد، وورنالد ريجان. وقد بدأ بانفيلد مسيرته المهنية فيجامعة شيكاغو حيث كان زميلا وصديقا لكل من ليو شتراوس وميلتون فريدمان. وفي عام 1959 انتقل إلى جامعة هارفارد، حيث ظل لبقية حياته المهنية فيما

الشـغب الحـضري كان حـول العنصريـة، بالمجادلـة بـأن معظـم حـالات الشـغب لم تكـن تحتـج كثـيرا عـلى عـدم العدالـة، بـل ببسـاطة كانـت تنهمـك في النهـب.

وقـد رأي الفريدمانيـون والمحافظـون المحدثـون أنفسـهم دخـلاء، مبعديـن عـن المؤسسـة الليبراليـة. وكان ورثـة هذهالحـركات لا يزالـون قادريـن إلى حـد ملحـوظ عـلى الشـعور بنفـس هـذا الشـعور. ولكـن مـع حلـول السـبعينات كان لـدى النخبـة الفكيـة للحركـة المحافظيـة مؤسسـتها الخاصـة، مـع دعـم مـالي عـلى مسـتوى يتجـاوز أشـد الأحـلام جموحـا لـدى معارضيهـا الليبراليـين. ولنقلهـا بصراحـة، أن تصبـح مفكـرا محافظافهذايعنـي خطـوة في مسـيرة مهنيـة جيـدة.

في عـام 1996 صـدر تقريـر، "شراء حركـة"، عـن منظمـة أنـاس مـن أجـل الطريـق الأمريـكي[1] وصفـت فيـه المنظمـة المسـيرة المهنيـة لدينـش داسـوزا، الـذي بـرز عـلى السـاحة مـع كتابـه الـذي كان الأكـثر مبيعـا عـام 1991 التعليـم ضيـق الأفـق، وهـو هجـوم عـلى العمـل الإيجـابي affirmative action والصـواب السـياسي في الحـرم الجامعـي. وإذا مـا تركنـا جانبـا قضيـة مـدى جـدارة عملـه، فالنقطـة المثـيرة للاهتـمام

عدا فترة قصيرة قضاها كأستاذ في جامعة بنسلفانيا. (المترجم)، انظر:
Edward C. Banfield, Wikipedia, the free encyclopedia.

(1) حسـب نـص كلماتهـا "أنـاس مـن أجـل الطريـق الأمريـكي، منظمـة أسسـت في عـام 1981 بواسـطة نورمـان ليـر، وعضـوة الكونجـرس الراحلـة باربـارا جـوردان، ومجموعـة مـن قـادة الأعـمال، والأديـان، والمجتمـع المـدني، والحقـوق المدنيـة الذيـن أقلقهـم الخطـاب المسـيس لدعـاة الانقسـام الجـدد. وهـي منظمـة مكرسـة لجعـل وعـد أمريـكا حقيقـة بالنسـبة لـكل أمريـكي: المسـاواة، حريـة التعبـير، حريـة الديـن، الحـق في الحصـول عـلى محاكمـة قضائيـة عادلـة، الحـق في التصويـت الفاعـل. أي الطريـق الأمريـكي". ورؤيـة المنظمـة هـي "مجتمـع ديموقراطـي تعـددي نابـض بالحيـاة حيـث يعامـل كل شـخص فيـه بمسـاواة في ظـل القانـون، ويُمنـح الحريـة والفرصـة لتحقيـق أحلامـه، ويتـم تشـجيعه عـلى المسـاهمة في الحياة المدنيـة والسياسـية لأمتنـا". وحسـب قـول المنظمـة "أمريكتنـا تحـترم التعدديـة، وترعـى الإبداع وتكافـح الكراهيـة والتعصـب الأعمى.ونحـن نعتقـد أن المجتمـع الـذي يعكـس هـذه المبـادئ الدسـتورية والقيـم التقدميـة يسـتحق القتـال مـن أجلـه، ونحـن نأخـذ مسـؤوليتنا بجديـة بتدريـب جيـل جديـد مـن القـادة والنشـطاء الذيـن سـيحافظون عـلى هـذه القيـم عـلى امتـداد حيـاة هـذه الأمـة. ومهمتنـا العمليـة هـي تشـجيع الطريـق الأمريـكي والدفـاع عنـه مـن الهجـوم عليـه، وبنـاء ورعايـة مجتمعـات تدعـم قيمنـا، وتجهيـز هـذه المجتمعـات لتشـجيع القيـم التقدميـة، واختيـار مرشـحين تقدميـين، ومسـاءلة المسـؤولين الحكوميـين". (المترجم)،انظـر:People for the American Way عـلى الرابـط: http://www.pfaw.org/about-us/our-mission-and-vision

هي الطريقة التي اختلفت بها المسيرة المهنية لداسوزا عن الجيل السابق من المحافظين.

فالمفكرون المحافظون المعاصرون الأصليون كانوا، على الأغلب، أهل علم تصادف أن أصبحوا محافظين. فميلتون فريدمان، إذا ما أخذنا المثال الأكثر إبهارا، كان في المقام الأول اقتصاديا محترفا، فقد كانت أعماله حول سلوك المستهلك والقوى النقدية والتضخم، مقبولة ومحل تقدير من الغالبية العظمى من الاقتصاديين، أيا كانت قناعاتهم السياسية. وقد كان ليحصل على جائزة نوبل في الاقتصاد بصرف النظر عن وجهة نظره السياسية. وبالمثل فمعظم "الدستة أو ما يقرب من ذلك من أهل العلم والمفكرين" الذين قال كريستول إنهم شكلوا "نواة" مجلة المصلحة العامة كانوا علماء اجتماع أكاديميين بنوا مسيرتهم المهنية على العمل غير السياسي إلى حد ما، ثم جاءوا إلى المحافظة في وقت لاحق.

وكانتلداسوزا، على أية حال، مسيرة مهنية من نوع مختلف تماما. فقد تحرك من عملية تحرير مطبوعات جامعية محافظة، مجلة دارتموث، إلى تحرير مطبوعة محافظةللخريجين، أفق Prospect. وبعد أن كتب سيرة حياة مجاملة للمُبَشر جبيري فالويل، أصبح محللا خبيرا في الشؤون الداخلية في إدارة ريجان. ثم انتقل بعد ذلك إلى منصب في المؤسسة البحثية المحافظة، معهد المبادرة الأمريكيةthe American Enterprise Institute، حيث ألف هناك كتابه التعليم الضيق الأفق وكتابا لاحقا نهاية العنصرية (الذي أعلن فيه أنه "بالنسبة للعديد من البيض يمثل الإجرام وعدم مسؤولية الطبقة الدنيا من السود عملية إحياء للبربرية وسط الحضارة الغربية")، مع تقديم دعم لهذا الكتاب من مؤسسة أولين المحافظة. وقد تم الترويج لكتابه بواسطة المجلات المحافظة، وخاصة المجلة الوطنية.

وكان داسوزا، بعبارة أخرى، شيئا لم يكن موجودا منذ أربعين سنة مضت: مفكر محافظ محترف، صنع كل مسيرته المهنية داخل زمرة متشابكة من المؤسسات الحزبية في الأساس.

من أين أتت هذه المؤسسات؟ القصة، باختصار، هي أنه في نهاية الستينات وبداية السبعينات استطاع أعضاء في النخبة المثقفة المحافظة الجديدة إقناع عدد من الأفراد الأثرياء وبعض قادة الشركات بصب أموال في البنية التحتية الفكرية

المحافظـة. وقـد تكونـت هـذه البنيـة التحتيـة إلى حـد كبـير مـن مؤسسـات بحثيـة تمتإقامتها لـكي تماثـل المؤسسـات الأكاديميـة، ولكنهـا تنـشر فقـط الدراسـات التـي تتبنـى وجهـة نظرهـا. ورغـم أن معهـد المبـادرة الأمريكيـة أسـس سـنة 1943، فـإن توسـعه بشـكل هائـل بـدأ في عـام 1971، حينـما بـدأ تلقـي كميـات معتـبرة مـن مـال الـشركات ومنـح مـن مؤسسـاتعائلية محافظـة. وقـد تـم إنشـاء مؤسسـة الـتراث The Heritage Foundation في عـام 1973 مـع أمـوال قدمهـا جوزيـف كـورس وريتشـارد ميلـون سـكافي. واعتمـد معهـد كاتـو التحـرري Cato Institute بكثافـة عـلى أمـوال مـن مؤسسـات عائلـة كـوش.

كـما كانـت منظـمات وسـائل الإعـلام جـزءًا أيضـا مـن البنيـة التحتيـة. ومنحـت نفـس الزمـرة مـن المؤسسـات التـي مولـت المؤسسـات البحثيـة المحافظـة دعـما كبـيرا لمجلـة المصلحـة العامـة، إلى جانـب مطبوعـات أخـرى مثـل المشـاهد الأمريـكي The America Spectator التـي سـعت بشـكل مهـووس وراء فضائـح مزعومـة خـلال سـنوات حكـم الرئيـس بيـل كلينتـون.

ومـن أجـل الحصـول عـلى دعـم مؤسسـات ومجموعـات الأعـمال، قبـل المحافظـون الجـدد بـكل سرور أن يجعلـوا أفكارهـم خشـنة وفظـة. كتـب كريسـتول في عـام 1995 "لقـد قلنـا، بشـكل متكـرر، إن الأفـكار لهـا مـا يترتـب عليهـا، وهـذا صحيـح ولكـن مـا لدينـا في أدمغتنـا أفـكار معقـدة، وعميقـة التفكـير، وواضحـة المعـالم. ومـا نتغـاضى عنهبـكل سـهولة هـو حقيقـة أن الأفـكار البسـيطة، الحليفـة للعواطـف والتنظيـمات، لهـا أيضـا مـا يترتـب عليهـا". وربمـا تفكـر أن هـذا كان رثـاءً، ولكـن كريسـتول كان في الواقـع يهنـئ نفسـه ورفـاق السـلاح للمـضي قدمـا في الصياغـة الخـام للمحافظيـة مـن أجـل إنجـاز نجـاح سـياسي.

وكان هــذا صحيحـا بشــكل خـاص في علـم الاقتصـاد، حينـما أصبحـت مجلـة المصلحـة العامـة، إلى جانـب صفحـة الـرأي في جريـدة وول سـتريت، مـن الدعـاة الرئيسـيين لاقتصاديـات جانـب العـرض التـي ادعـت دون تقديـم أي برهـان أن التخفيضـات الضريبيـة سـوف يكـون لهـا مردودهـا الإيجـابي، والتـي لم تسـتطع جـذب أي اهتـمام داخـل عـالم البحـث الاقتصـادي الاحـترافي، حتـى بـين المحافظـين منهـم. فجريجـوري مانكيـو، الاقتصـادي بجامعـة هارفـارد الذي كان رئيسـاللمجلس الاستشـاري الاقتصـادي للرئيـس بـوش بـين عامـي 2003 و2005، وصـف ببراعـة اقتصاديـي جانـب

العرض بأنهم "مهووسون ودجالون" في الطبعة الأولى من كتابه التعليمي مبادئ علم الاقتصاد (وقد اختفت هذه العبارة في الطبعات اللاحقة). لماذا، إذن، كان كريستول مقتنعا بأن اقتصاديات جانب العرض كانت على حق؟ الإجابة هي أنه لم يكنبيالي بما إذا كانت على خطأ أم صواب. فقد كان الشاغل الوحيد لكريستول هو أن اقتصاديات العرض مفيدة سياسيا. وهذا هو تعبيره عنها في بحثه عام 1995:

بين علماء الاجتماع الأساسيين المتحلقين حول مجلة المصلحة العامة لم يكن هناك اقتصاديون. (لقد أتوا لاحقا، مع "نضجنا"). ويفسر هذا نوعا ما موقفي المتعجرف تجاه عجز الموازنة والمشكلات النقدية والمالية الأخرى. والهدف، كما رأيته، كان خلق أغلبية جديدة، والتي بوضوح ستكون أغلبية محافظة، والتي أضحى معناها، بدورها، أغلبية جمهورية، ولذا كانت الفاعلية السياسية لها الأولوية، وليس الأخطاء المحاسبية للحكومة.[1]

وما يلفت النظر هو أن هذا الإعلان أتى بعد فقرات قليلة جاء فيها إعلان كريستول أن المصلحة العامة كانت فعالة في أيامها الأولى بسبب أن "معظمنا كانوا علماء اجتماع، وكما وصفها بات مونيهان، فالاستخدم الأمثل للعلوم الاجتماعية هو دحض العلوم الاجتماعية الزائفة". والمرء يخمن أن كل هذا يعتمد عند الاستخدام على ما هي العلوم الاجتماعية الزائفة التي يتحدث عنها.

نيكسون والتحول العظيم

سجل رونالد ريجان في حملته الانتخابية في كاليفورنيا عام 1966 أول نجاح انتخابي عظيم للحركة المحافظية. وكان إنجاز ريجان قد تغلب عليه، على أية حال، صعود نيكسون لكرسي الرئاسة بانتصاره الساحق في عام 1972. ولكن نجاح نيكسون، مع ذلك، لا يمكن اعتباره انتصارا للحركة المحافظية، لأن نيكسون كان شخصية انتقالية. فقد استخدم الاستراتيجية السياسية للحركة، وفي الواقع، فقد قام بابتكارها إلى حد كبير. ولكنه لم يشارك الحركة أهدافها. فبالنسبة لنيكسون كان الأمر كله شخصيا.

(1) Ibid.

ومن المستحيل تقريبا المبالغة في تأثير نيكسون على الطريقة التي تجري بها السياسة الأمريكية. فنيكسون، رغم كل شيء، أظهر كيف يمكنك استغلال الانقسامات العرقية، والتوتر الناجم عن التغير الاجتماعي، وجنون الاضطهاد حول التهديدات الأجنبية لسلخ الطبقة العاملة البيضاء بعيدا عن تحالف الصفقة الجديدة. وقد قدم فن التلاعب بوسائل الإعلام: كان روجر أليس، رئيس فوكس للأخبار، هو مستشار نيكسون لوسائل الإعلام، وشخص محوري في كتاب جو مكجينز الصادر عام 1969 بيع الرئيس. ولاحقا، كان نيكسون رائدا في ترويع وسائل الإعلام التي كانت ناجحة للغاية في قمع ورثة هذه الوسائل خلال معظم فترة إدارة بوش، إلى جانب تكتيكات تفريغ وسائل الإعلام الإخبارية في نقل الأنباء السيئة.

وخلال سنوات نيكسون أصبح النجاح في تنفيذ الحيل القذرة جوازا للتقدم في الحزب الجمهوري. ففي عام 1970 طبع كارل روف الشاب منشورات كاذبة تعلن تقديم البيرة مجانا على ورق سُرق من حملة مرشح ديمقراطي، معطلا مسيرة انتخابية، وفي العام التالي تسرب من الكلية لكي يصبح المدير التنفيذي مدفوع الأجر للجنة الوطنية للحزب الجمهوري بالكلية.[1] وبعد سنتين، حينما ترشح روف لرئاسة جمهوريي الكلية، قام بالتزوير لكي يشق طريقه نحو النجاح، مع تبريكات مَن سيصبح بعدئذ رئيسا للجنة الجمهورية الوطنية، جورج ه. دبليو بوش.[2]

وقد شجعت الحركة المحافظية هذه التكتيكات. وكان ما لا يحبونه هو سياسات نيكسون. فحينما قام ريك بيرلشتين، مؤلف كتاب قبل العاصفة، بإعطاء محاضرة (لمجموعة من المحافظين) حول دور المحافظة في الحيل القذرة في إدارة نيكسون، احتج أحد منظمي المحاضرة بأن نيكسون لم يكن محافظا، وأضاف "أنا لم أحب نيكسون حتى حدوث ووترجيت."[3]

(1) Dan Balz, "Team Bush: The Iron Triangle, "Washington Post, July 23, 1999, p. C1

(2) Franklin Foer, "Swimming with Sharks," New Republic, Oct. 3, 2005, p. 20.

(3) كما جاء ذكرها في جريدة هافنجتون بوست، على الرابط:
http://www.huffingtonpost.com/rick-perlstein/i-didn't-like-nixon-_b_11735.html, Dec. 5, 2005,

وفي الواقـع لم تكـن سياسـات نيكسـون الحقيقيـة، وفي تعـارض مـع تكتيكاتـه السياسـية، هـو مـا ترغـب فيـه الحركـة المحافظيةعـلى الإطـلاق. ففـي الشـؤون الداخليـة حكـم نيكسـون كشـخص معتـدل، بـل وحتـى كليـبرالي، حيـث وسـع مـن القواعـد التنظيميـة الخاصـة بالبيئـة، بـل وسـعى حتـى لتقديـم التأمـين الصحـي الوطنـي. وأظهـر في الشـؤون الخارجيـة براجماتيـة متسـاوية، فقـد فتـح حـوارا مـع الصـين الشـيوعية، بينـما اسـتمر في الوقـت نفسـه في قتـال حليـف الصـين الشـيوعية فيتنـام الشـمالية. وقـد أصبـح واضحـا أن نيكسـون يكـره عـدة أشـياء، ولكنـه لم يتشـارك مـع الحركـة المحافظيـة في كراهيـة التدخـل الحكومـي ودولـة الرفـاه. وعـلى أيـة حـال لم يكـن الزمـن مناسـبا لذلـك بعـد.

مـع حلـول منتصـف السـبعينات كانـت الحركـة المحافظيـة، بمعنـى مـا، في موقـف مماثـل لموقـف الحركـة التـي سـتصبح في نهايـة المطـاف الصفقـة الجديـدة في أواخـر العشرينـات. فالأفـكار كانـت هنـاك؛ وكانـت الـكادرات السياسـية في مكانهـا الصحيـح. وللوصـول للسـلطة، عـلى أيـة حـال، كانـت الحركـة بحاجـة لأزمـة.

وما حصلت عليه الحركة كان أزمة مزدوجة، خارجية وداخلية.

ففـي الشـؤون الخارجيـة كان سـقوط فيتنـام ومـا أعقبـه مـما تمـت رؤيتـه خـلال ذلـك الوقـت عـلى أنـه موجة مـن الانتصارات الشـيوعية في جنـوب شرق آسـيا وإفريقيا، ثـم الغـزو السـوفييتي لأفغانسـتان والثـورة الإسـلامية في إيـران وإهانـة أزمـة الرهائـن، التـي وإن كانـت غـير مرتبطـة بمـا سـبق فإنهـا غـذت الإحسـاس بالقلـق والتوتـر. أمـا عـلى الجبهـة الداخليـة فقـد خلـق خليطـا مـن السياسـة السـيئة وأزمـة الطاقـة كابـوس الركـود التضخمـي، أي معـدل بطالـة مرتفـع مجتمعـا مـع معـدل تضخـم مكـون مـن رقمـين (أي يزيـد عـلى 10%-المترجـم).

وبأثـر رجعـي يمكـن القـول إن الكتابـات عـن التقـدم الشـيوعي تبـدو مضحكـة وسـخيفة؛ فالغـزو السـوفييتي لأفغانسـتان، بوجـه خـاص، تحـول لـكي يصبـح بدايـة انهيـار الشـيوعية. وكانـت الثـورة الإسـلامية في إيـران تأخـرا حقيقيـا، ولكـن كان مـن الصعـب رؤيـة كيـف يمكـن لسياسـة خارجيـة شرسـة وهجوميـة أن تفعل أي شيء سـوى زيـادة الوضـع سـوءا. أمـا بالنسـبة للأزمـة الاقتصاديـة، فقـد تسـبب بهـا خليـط مـن سـوء الحـظ مـع سياسـة نقديـة سـيئة، وليـس لأي منهـما أيـة علاقـة بالليبراليـة.

مـع ذلـك فقـد مكـن المـزاج المتشـائم في السـبعينات الحركـة المحافظيـة مـن الزعـم بـأن السياسـات الليبراليـة قـد فقـدت مصداقيتهـا وشـاهت سـمعتها. وسرعـان مـا قامـت الحركـة التـي تـم تمكينهـا حديثـا بانقـلاب لافـت للنظـر عـلى إنجـازات الصفقـة الجديـدة.

الفصل السابع
التباعد العظيم

تجادل علماء الدين في القرون الوسطى حول كم ملاكًا يمكن أن يسعهم رأس دبوس. أما الاقتصاديون المحدثون فيتجادلون حول ما إذا كان الدخل الوسيط الأمريكي قد ارتفع أو انخفض منذ بداية السبعينات. وما يستحق القول هو حقيقة أننا حتى لم يكن لدينا مثل هذا الجدال. فأمريكا بفارق كبير أكثر إنتاجية، وبالتالي أكثر غنى بكثير مما كانت عليه منذ جيل مضى. فقيمة الإنتاج للعامل المتوسط في الساعة، حتى بعد تعديلها وفقا لمعدلات التضخم، ارتفعت تقريبا 50% منذ عام 1973. مع ذلك فتنامي تركز الدخل في أيدي أقلية ضئيلة مضت قدما بسرعة بالغة لدرجة أننا غير متأكدين مما إذا كان الشخص الأمريكي النمطي قد كسب أي شيء من زيادة الإنتاجية.

فقد بلغ الرواج الاقتصادي فيما بعد الحرب، وهو رواج عمت فائدته كل شخص تقريبا في أمريكا، نهايته مع الأزمة الاقتصادية في السبعينات، وهي أزمة نجمت عن ارتفاع أسعار النفط، وتضخم منفلت العقال، وإنتاجية منخفضة. وقد خمدت الأزمة في الثمانينات، ولكن لم تتم أبدا استعادة الإحساس بالمشاركة

الواسعة في المكاسب الاقتصادية. وصحيح أنه كانت هناك فترات من التفاؤل: ريجان "صباح في أمريكا"،[1] مع انتعاش الاقتصاد من الركود الشديد الذي ألمّ به في بداية الثمانينات، والعصر الذي سادته حمى "فلتصبح غنيا بسرعة" في أواخر التسعينات. منذ نهاية رواج ما بعد الحرب العالمية الثانية، على أية حال، كان الشعور بالتقدم الاقتصادي متردد ومؤقت.

مع ذلك ارتفع متوسط الدخل-الدخل الإجمالي للأمة، مقسوما على عدد السكان-بشكل ملحوظ منذ عام 1973، العام الأخير في الرواج العظيم. فنحن، في النهاية، أمة أكثر إنتاجية بكثير مما كنا عليه عند نهاية الرواج، وبالتالي أمة أغنى أيضا. فكر في كل التقدم التكنولوجي الذي شهدناه في حياتنا منذ عام 1973: الكومبيوترات الشخصية وآلات الفاكس، التليفونات الخلوية وماسحات الباركود. وكذلك التكنولوجيات الأساسية الأخرى التي حسنت من الإنتاجية، مثل حاويات الشحن التي يمكن رفعها مباشرة من على سطح السفينة إلى الشاحنات والقطارات، والتي كانت موجودة عام 1973 ولكن استخدامها لم يكن واسع الانتشار. وكل هذه التغييرات رفعت بشدة من الكمية التي ينتجها العامل المتوسط في يوم العمل العادي، وبالتالي زادت من متوسط الدخل في الولايات المتحدة بشدة.

ولكن الدخل المتوسط، على كل حال، لا يخبرك بالضرورة عن حال معظم الناس. فلو دخل بيل جيتس حانة، سيرتفع متوسط الثروة لزبائن الحانة بشدة، ولكن الرجال الذين كانوا موجودين بالفعل عندما دخل بيل جيتس الحانة لن يكونوا أكثر ثراءً من ذي قبل. ولهذا يحاول الاقتصاديون وصف ثروة العضو

(1) "صباح في أمريكا" هو الاسم الشائع لحملة الإعلانات التليفزيونية الانتخابية في عام 1984، والتي كان عنوانها "منتج، قوي، أفضل" والسطر الافتتاحي لها هو "إنه الصباح مجددا في أمريكا". وكان الإعلان جزءا من حملة الانتخابات الرئاسية لمرشح الحزب الجمهوري رونالد ريجان. وتظهر في الإعلان عدة لقطات لأمريكيين يتجهون للعمل مع سرد متفائل هادئ يشير إلى التحسن في الاقتصاد الأمريكي منذ انتخابات عام 1980 بسبب سياسات ريجان، ويتم سؤال المصوتين لماذا يريدون العودة إلى السياسات الديمقراطية ما قبل ريجان، مثلما يدعو لذلك منافسه والتر مونديلالذي خدم كنائب للرئيس الديمقراطي السابق جيمي كارتر. وقد استخدم شعار "إنه الصباح مجددا في أمريكا" بشكل مزدوج فهو كان يشير للصباح الفعلي حيث يتجه الأمريكيون لأعمالهم، وكذلك كمجاز عن تجدد النشاط في ظل ريجان. (المترجم)، انظر:
Morning in America, Wikipedia, the free encyclopedia.

النمطـي الشـائع في الجماعـة، وليـس أقليـة النـاس الذيـن حالتهـم إمـا طيبـة للغايـة وإمـا سـيئة للغايـة، ويتحدثـون ليـس عـن الدخـل المتوسـط ولكـن عـن الدخـل الوسـيط،[1]أي دخـل الشـخص الـذي يعـد دخلـه أعـلى مـن نصـف السـكان ولكـن أفقـر مـن النصـف الآخـر. فالدخـل الوسـيط في الحانـة، عـلى خـلاف الدخـل المتوسـط، لا يرتفـع حينـما يدخـل بيـل جيتـس الحانـة.

ولكـن كـما تبـين، يعـد دخـول بيـل جيتـس للحانـة كنايـة عـما حـدث حقيقـة في الولايـات المتحـدة خـلال الجيـل المـاضي، فالدخـل المتوسـط ارتفـع بشـدة، ولكـن هـذا فقـط بسـبب أن عـددا قليـلا مـن النـاس حصلـوا عـلى الكثـير، وأصبحـوا أكـثر غنـى. بينـما الدخـل الوسـيط، اعتـمادا عـلى أي تعريـف تسـتخدمه، إمـا ارتفـع بشـكل متواضـع وإمـا انخفضفـي حقيقـة الأمـر.

وبشـأن التعقيـدات، فربمـا تفكـر أن الدخل الوسـيط هـو شيء مباشر يمكن حسـابه: ابحـث عـن الشـخص الأمريـكي الـذي يعـد أغنـى مـن نصـف السـكان ولكـن أفقـر مـن النصـف الآخـر، واحسـب دخلـه أو دخلهـا. وفي الحقيقـة، عـلى أيـة حـال، هنـاك منطقتـان لنـزاع لا يمكـن حلـه بسـهولة: كيـف يمكـن تحديـد المجتمـع السـكاني الملائـم؟ وكيـف يمكـن حسـاب التغـيرات في تكلفـة المعيشـة؟ وقبـل أن ندلـف للتعقيـدات، عـلى كل حـال، دعنـي أكـرر بيـت القصيـد: حقيقـة كوننـا نتجـادل حتـى حـول مـا إذا كان الأمريـكي النمطـي قـد تحسـن وضعـه يخـبرك عـن معظـم مـا أنـت بحاجـة لمعرفتـه. ففـي عـام 1973 لم يكـن هنـاك جـدال حـول مـا إذا كان الأمريكيـون النمطيـون أفضـل أو أسـوأ حـالا مـما كانـوا عليـه في الأربعينـات. فـكل مقيـاس كان يبـين أن مسـتويات المعيشـة قـد تضاعفـت تقريبـا منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة. ولم يكـن أحـد لديـه حنـين لنوعيـة الوظائـف والأجـور التـي كانـت موجـودة لـدى الجيـل السـابق. أمـا اليـوم فمـن الواضـح أن الاقتصـاد الأمريـكي ككل أكـثر غنـى مـما كان عليـه في عـام 1973، وهـو العـام الـذي يتـم أخـذه عمومـا كعلامـة لنهايـة رواج مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، ولكـن الاقتصاديـين يتجادلـون عـما إذا كان الأمريكيـون النمطيـون قـد اسـتفادوا عـلى الإطـلاق مـن المكاسـب التـي حققتهـا الأمـة ككل.

والآن إلى التعقيـدات: يبـدو واضحـا أننـا لا يمكـن أن نصُـف الـ300 مليـون فـرد الذيـن يشـكلون التعـداد السـكاني الأمريـكي حسـب مسـتوى الدخـل في طابـور ثـم

(1) انظر تعريفا بالفارق بين المتوسط والوسيط في الفصل الثالث. (المترجم)

نقوم بحساب دخل الأمريكي رقم 150 مليون. ففي النهاية، الأطفال لا ينتمون لهذا الطابور، لأنهم لديهم دخل فقط بقدر تملك العائلات التي ينتمون لها لهذا الدخل. ولهذا ربما ينبغي أن ننظر لدخل العائلات وليس الأفراد. وإذا فعلنا ذلك سنجد أن دخل العائلة الوسيطة، بعد تعديله بحسب التضخم، نما بشكل متواضع بين عامي 1973 و2005، وهو العام الأحدث الذي نمتلك بيانات عنه، فالكسب الإجمالي كان في حدود 16%.

وحتى هذا الكسب المتواضع، على أية حال، يبالغ بشأن حالة العائلات الأمريكية، لأنه قد تحقق جزئيا من خلال ساعات عمل أطول. ففي عام 1973 كانت العديد من الزوجات لا يزلن لا يعملن خارج المنزل، كما أن العديد من الزوجات العاملات كن يعملن بدوام جزئي فقط. وأنا لا أعني أن ألمّح إلى أن هناك شيئا ما خطأ بشأن عمل المزيد من النساء خارج المنزل، ولكن الكسب في دخل الأسرة الذي حدث بسبب توجه شريك الحياة للعمل ليس هو نفسه الكسب الذي يتحقق نتيجة لارتفاع الأجر. فبشكل خاص ربما يحمل هذا الكسب معه تكلفة إضافية تعكس بعضا من المكاسب في الدخل النقدي، مثل تخفيض الوقت المتاح للعمل المنزلي، والاعتماد أكثر على الطعام سابق التجهيز، وتكاليف الرعاية اليومية للأطفال، وهكذا.

ونحن نحصل على جرعة تشاؤم إلى حد كبير عندما نسأل كم هو سهل على العائلات الأمريكية اليوم أن تعيش بنفس الطريقة التي كان يعيش بها الكثير منهم منذ جيل مضى، مع وجود ذكر واحد فقط عائل للعائلة. وطبقا للبيانات المتوافرة، يصبح الأمر أصعب فأصعب، فدخل الرجال العاملين بدوام كامل بعد تعديله وفقا لمعدلات التضخم في عام 2005 كان أقل بقليل مما كان عليه في عام 1973. بل إن حتى هذه البيانات مضللة. فبفضل نضج جيل طفرة المواليد تعد قوة العمل اليوم أكبر وأكثر خبرة من قوة العمل التي كانت متوافرة عام 1973، والعمال الأكثر خبرة ينبغي، مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها، أن يحصلوا على أجور أعلى. ولكننا لو نظرنا لدخول الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين 35 و45 سنة-الرجال الذين كانوا قادرين، منذ جيل مضى، عادة على دعم بقاء زوجاتهم في المنزل-نجد أن أجورهم بعد تعديلها وفقا للتضخم كانت في عام 1973 أعلى بمقدار 12% مما هي عليه الآن.

وتعد السجالات حول تعريف السكان الملائمين جزءا فقط من السبب الذي يمكن الاقتصاديين من المجادلة بما إذا كان الأمريكي النمطي قد تحسنت حالته منذ عام 1973 أم لا. وهناك أيضا مجموعة مختلفة من الأسئلة، تتعلق بقياس الأسعار. فأنا أظل أشير إلى الدخل "بعد تعديله وفقا للتضخم"، وهو ما يعني أن الدخل في الجيل السابق يتم تحويله إلى دولارات اليوم مع أخذ التغيرات في مؤشر أسعار المستهلك في الاعتبار. ويجادل بعض الاقتصاديين الآن بأن مؤشر أسعار المستهلك يبالغ في التضخم الحقيقي، لأنه لا يأخذ في الاعتبار كامل المنتجات والخدمات التي حسنت من نمط حياتنا. وكنتيجة لذلك يقولونإن مستويات المعيشة قد ارتفعت بأعلى مما تشير إليه الأرقام الرسمية. فلنطلق عليها حجة "ولكنهم لم يكن لديهم نتفليكس".[1] وبجدية، هناك بالفعل العديد من السلع والخدمات المتاحة اليوم والتي إما لم يكن قد تم ابتكارها وإما لم تكن متاحة في السوق في عام 1973، من التليفون الخلوي إلى الإنترنت. والأكثر أهمية، بالتأكيد، هو الأدوية والأساليب التقنية الطبية التي لم تنقذ فقط الأرواح بل حسنت نوعية الحياة لعشرات الملايين من البشر. ومن جانب آخر، فمن بعض النواحي أصبحت الحياة أكثر صعوبة للعائلات العاملة بطرق لا تستطيع التقاطها الأرقام الرسمية، فهناك منافسة أكثر حدة لإمكانية السكن في حي به مدرسة جيدة، والازدحام المروري الأسوأ، وهكذا.

وربما ينبغي إعطاء الكلمة الأخيرة للجمهور. طبقا لاستطلاع رأي قام به عام 2007 مركز الأبحاث بيو، كان معظم الأمريكيين العاملين يعتقدون أن العامل المتوسط "كان عليه أن يعمل بجد أكثر لكي يوفر مستوى معيشة لائقا" اليوم أفضل مما كان عليه منذ عشرين أو ثلاثين عاما مضت.[2] فهل هذا مجرد حنين للماضي لما يمكن تذكره باعتباره العصر الذهبي؟ ربما، ولكن لم يكن هناك في الجيل السابق لأمريكا مثل هذا الحنين الذي كان في الجيل الأسبق منه. والنقطة

(1) شركة لتأجير الأفلام السينمائية والعروض والمسلسلات التليفزيونية. (المترجم)

(2) "الجمهور يقول إن حياة العمل تسوء، ولكن معظم العاملين يبقون راضين عن وظائفهم"، مركز بيو للناس وللصحافة، يوم العمل، 2006، http://pewresearch.org/assets/social/pdf/Jobs.pdf

المهمـة هـي أن العائلـة الأمريكيـة النمطيـة لم تحقـق تقدمـا واضحـا خـلال الثلاثـين عامـا وأكـثر الماضيـة. وهـذا ليـس أمـرا عاديـا.

الرابحون والخاسرون

كـما سـبق وأشرت في القيـاس عـلى دخـول بيـل جيتـس للحانـة، فشـل العـمال الأمريكيـون العاديـون في جنـي مكاسـب مـن ارتفـاع الإنتاجيـة بسـبب ارتفـاع عـدم المسـاواة. ولكـن مـن كان الرابحـون ومنـكان الخـاسرون مـن إعـادة توزيـع الدخـل هـذه نحـو الأعـلى؟ لم يكـن فقـط بيـل جيتـس، ولكـن بصـورة تصيـب بالدهشـة كانـوا مجموعـة ضيقـة.

لـو كان الكسـب الـذي تحقـق مـن الإنتاجيـة قـد تـم توزيعـه بالتسـاوي عـلى كل القـوة العاملـة، فسـيكون دخـل العامـل النمطـي أعـلى بنحـو 35% الآن مقارنـة بمـا كان عليـه في أوائـل السـبعينات.[1] ولكـن إعـادة توزيـع الدخـل نحـو الأعـلى تعنـي أن العامـل النمطـي شـهد مكسـبا أقـل بكثـير. وفي الواقـع، فقـد شـهد دخـل كل شـخص يقـع ضمـن التسـعين في المئـة الأدنى في جـدول توزيـع الدخل-بعـد العـشرة في المئـة عـلى القمة-نمـوا بمعـدل أبطـأ مـن المتوسـط، بينـما فقـط هـؤلاء الذيـن يقعـون فـوق التسـعين في المئـة شـهدوا مكاسـب أعـلى مـن المتوسـط. لذلـك كانـت المكاسـب المحـدودة للعامـل الأمريـكي النمطـي، هـي الوجـه الآخـر مـن المكاسـب فـوق المتوسـط لفئـة العـشرة في المئـة المتربعـة عـلى قمـة جـدول توزيـع الدخـل.

وذهبـت المكاسـب الكبـيرة حقـا للأغنيـاء، الأغنيـاء حقـا. في فيلـم أوليفـر سـتون لعـام 1987 وول سـتريت، جـوردون جيلكو-الـذي يقـوم بالإغـارة عـلى الـشركات والمبني

(1) قـدر ديـن بيكـر، مـن مركـز بحـوث السياسـة الاقتصاديـة، أن النمـو في الإنتاجيـة "القابل للاسـتخدام"- الزيـادة في القيمـة الصافيـة المنتجـة لـكل سـاعة للعامـل في الولايـات المتحـدة بعـد تعديلهـا وفقـا للزيـادة في أسـعار سـلع المسـتهلك-كانت 47.9%بـين عامـي 1973 و2006. ومـع ذلـك، فتكلفـة العامـل غـير الأجريـة ارتفعـت بسـبب ارتفـاع الضرائـب عـلى جـداول الرواتـب، وارتفـاع تكاليـف الرعايـة الصحيـة، وعوامـل أخـرى، ولـذا كان المقـدار المتـاح لارتفـاع الأجـور يبلـغ 36% فقـط.

Dean Baker, "The Productivity to Paycheck Gap: What the Data Show," at www.cepr.net, Apr. 2007

جزئيا على مثال نموذج إيفان بوسكي،[1] والذي لعب دوره مايكل دوجلاس-الذي سخر من الطموح المحدود لدى تابعه، والذي لعب دوره شارلي شين. "هل تريد أن تكون مجرد شخص آخر يكسب 400 ألف دولار في السنة مثل العاملين المتخشبين في وول ستريت، وأن تسافر في الدرجة الأولى وأن تكون شخص مرتاح؟"

وفي هذا الوقت كان الدخل الذي يبلغ 400 ألف دولار في السنة يضع صاحبه في الفئة التي تقع فوق 99.9% في جدول توزيع الأجور:جميل جدا، ربما يكون هذا تفكيرك. ولكن كما أدرك ستون، ففي نهاية الثمانينات كان هناك شيء مذهل يحدث في الفئات العليا من توزيع الدخل: كان الأغنياء يبتعدون عمن يوصفون بكونهم مجرد موسرين، وكان فاحشو الثراء يبتعدون عمن يوصفون بأنهم مجرد أغنياء. وكان الأشخاص الذي يقعون في النصف الأدنى من فئة العشرة في المئة الأعلى في توزيع الدخل، وهو ما يناظر تقريبا دخولا في مدى يتراوح بين 100 ألف إلى 150 الف دولار، والذين كانت حالهم أفضل ممن يقعون أسفل منهم على مقياس توزيع الدخل، لم تكن حالهم في الحقيقة على ما يرام تماما، ففي الواقع لم يحققوا، بالنسبة المئوية، في الفترة بعد عام 1973 كسبا مناظرا لما حققوه خلال فترة رواج ما بعد الحرب. فقط فئة الـ1% في القمة هي التي حققت تحسنا أفضل منذ السبعينات، مقارنة بما حققته في الجيل التالي للحرب العالمية الثانية. وبمجرد صعودك لأعلى على مقياس توزيع الدخل، تصبح المكاسب مذهلة حقا، ففئة الـ0.1% على القمة شهدت ارتفاع دخلها بمقدار خمسة أمثال، والأمريكيون في فئة 0.01% على القمة كانوا أغنى بمقدار سبعة أمثال ما كانوا عليه في عام 1973.

من هم هؤلاء الناس؟ ولماذا كانت حالهم أفضل بكثير مقارنة بأي أحد آخر؟ في العصر المُذهَّب الأصلي كان الأشخاص أصحاب الدخول المرتفعة للغاية يتلقون، بشكل عام، هذه الدخول بسبب الأصول التي يمتلكونها، فالنخبة الاقتصادية كانت تمتلك أرضا مرتفعة الثمن وموارد معدنية أو شركات عالية الربحية. وكان

(1) إيفان فريدريك بوسكي (6 مارس -1937) مضارب سابق في البورصة اشتهر بدوره البارز في فضيحة المعلومات الداخلية عن الشركات في وول ستريت التي حدثت في منتصف الثمانينات. (المترجم)، انظر:

Ivan Boesky, Wikipedia, the free encyclopedia.

دخل رأس المال-الدخل الناجم عن أصول مثل الأسهموالسنداتوالعقارات والأراضي- يتركز بشكل أكبر في أيدي القلة مقارنة بالدخل المكتسب. وكذا "دخل ريادة الأعمال"، أي الدخل الناجم عن ملكية الشركات. ولكن الملكية لم تعد بعد هي المصدر الرئيسي لمكانة النخبة. فهذه الأيام حتى أصحاب الدخول التي تصل إلى عدة ملايين يحصلون على معظم دخلهم في شكل إيرادات من عملهم.

وليس هناك حاجة للقول إننا لا نتكلم عن عبيد يكدحون لتلقي أجرهم حسب معدل أجر ساعة العمل. فلو كان الأمريكي المرتفع الدخل النموذجي نحو عام 1905 هو بارون صناعي يمتلك مصنعا، كان نظيره بعد 100 عام لاحقة هو مسؤول تنفيذي على القمة، يكافأ ببذخ على عمله بمكافآت مالية وخيارات أسهم. وحتى عند أعلى نقطة في القمة، أصحاب الدخول الأعلى في فئة الـ0.01% من السكان-الواحد الأغنى في كل عشرة آلاف- يأتي نحو نصف دخلهم في شكل تعويضات عن العمل. فالتقدير التقريبي هو أن نصف الدخل الأجري لهذه النخبة تأتي من مكتسبات المسؤولين التنفيذيين-ليس فقط مديري العموم والأعضاء المنتدبين ولكن المراتب العليا القليلة تحتهم-في الشركات الكبرى. ومعظم الباقي من الدخول الأجرية لفئة الـ0.01% في القمة تمثل دخول مشاهير الرياضة والترفيه.

ولذا يعد جزء كبير من الزيادة الإجمالية في عدم المساواة، بشكل مباشر، نتيجة للتغير في الطرق التي يدفع بها المجتمع لما يقال عنهم إنهم الأفضل والأكثر نبوغا ولمعانا. وكانوا دائما ما يدفع لهم بشكل جيد، ولكن الآن يتم الدفع لهم بشكل جيد مثير للدهشة.

والسؤال، بالطبع، هو ما الذي أدى إلى حدوث ذلك. بشكل عام هناك تفسيران متضاربان للتباعد العظيم في الدخول الذي حدث منذ السبعينات. التفسير الأول، ويحبذه الأشخاص الذين يودون أن يظهروا بمظهر المنطقيين وسديدي الرأي، هو أن ارتفاع الطلب على المهارة، أساسا بسبب التغيرات التكنولوجية وبمساعدة من العولمة، هو المسؤول. أما التفسير البديل فيركز على التغييرات في المؤسسات، والمعايير، والنفوذ السياسي.

الطلب على المهارة

يقول التفسير الشائع لتزايد عدم المساواة-وأنا أميل للقول بتسميته التفسير الآمن، لأنه محبذ بواسطة الأشخاص الذين لا يريدون التسبب في مشكلات وصعوبات- إن تزايد عدم المساواة قد تسبب فيه بالأساس زيادة الطلب على العمل الماهر، وهو ما كان مدفوعا بدوره إلى حد كبير بالتغير التكنولوجي. على سبيل المثال، قال إدوارد لازير، رئيس المجلس الاستشاري الاقتصادي في عام 2006، ما يلي:

يعكس معظم عدم المساواة زيادة في العائدات على "الاستثمار في المهارة"، فالعمال يتمون تعليما أكثر، ويحصلون على المزيد من التدريب، ويكتسبون قدرات جديدة... ما الذي يفسر هذا التباعد فيما يكسبه العامل الماهر وما يكسبه العامل غير الماهر؟ يعتقد معظم الاقتصاديين أنه يمكن جوهريا تعقب ذلك إلى التغير التكنولوجي الذي حدث على مدار العقدين أو الثلاثة عقود الماضية. ففي مجتمعنا المتقدم تكنولوجيا، للمهارة قيمة أعلى مما كان لها في مجتمع أقل تقدما تكنولوجيا... مع تزايد أهمية الكومبيوترات، أصبحت أنماط المهارة المطلوبة في المدارس، ومن خلال الاستثمار في التعليم في أثناء العمل، أمرا أساسيا في جعل العامل منتجا. فالوظيفة النمطية التي يقوم بها الأفراد اليوم تتطلب مستوى أعلى كثيرا من المهارات التقنية عن نوعية الوظائف التي كان يقوم بها العمال في عام 1900 أو 1970.[1]

ولتوسيع ملاحظات ليزير: تُزيد تكنولوجيا المعلومات، في هيئة كومبيوترات شخصيةوتليفونات خلويةوشبكات مناطق محليةوالإنترنتوغيرها، من الطلب على الأشخاص ذوي التدريب النظامي الكافي لبناء البرامجوتشغيلهاوإصلاح هذه البدعة الجديدة. وفي الوقت ذاته فإنها تقلل من الحاجة للعمال الذين يقومون بالمهام الروتينية. على سبيل المثال، هناك أعداد أقل بكثير من السكرتارية في المكاتب الحديثة مما كان موجودا في السبعينات، لأن برامج الكتابة على الكومبيوتر قد قلصت إلى حد كبير الحاجة للناسخين على الآلة الكاتبة، كما أن الشبكات قللت إلى حد كبير الحاجة لحفظ الملفات في صورة مادية واسترجاعها؛ ولكن هناك

(1) Edward Lazear, Speech given at the Hudson Institute, "The State of the U.S. Economy and Labor Market," Washington, D.C., May 2, 2006.

عددا من المديرين أكبر من أي وقت مضى. وقارئات الباركود المربوطة بالشبكات المحلية قللت من عدد الأشخاص المطلوبين للعمل على ماكينات تسجيل المدفوعات النقدية وعدد الأشخاص المطلوبين لجرد المخزون، ولكن هناك عددا من مستشاري التسويق أكبر مما كان في أي وقت مضى. وعلى هذا المنوال يمضي الأمر في كل أرجاء الاقتصاد.

فرضية أن التغير التكنولوجي، بزيادته للطلب على المهارة، أدى إلى نمو عدم المساواة على نطاق واسع، حتى إنه في المؤتمرات عادة ما يستخدم الاقتصاديون الاختصار SBTC للتعبير عن (Skill-biased technical change) -التغير التكنولوجي المنحاز للمهارة-بمن دون تقديم أي شرح، مفترضين أن المستمعين لهم يعرفون ما الذي يتحدثون عنه. وهذه الفرضية تعد فرضية جذابة لثلاثة أسباب أساسية. أولا، التوقيت يعمل: فالاتجاه نحو الأعلى في عدم المساواة بدأ في نفس الوقت الذي بدأت فيه قوة الحاسبات والانفجار العظيم في تطبيقاتها. ومن الصحيح، أن أجهزة الكومبيوتر المركزية-الآلات الضخمة التي تشغل حجرة بمفردها، والتي كانت تصدر طنينا عند العمل على كشوف المرتبات وبيانات الأعمال الأخرى- كان استخدامها واسع الانتشار في الستينات. ولكن كانت لهذه الأجهزة آثار محدودة على كيفية أداء معظم العاملين لأعمالهم. وتكنولوجيا المعلومات الحديثة لم تصبح متاحة في حد ذاتها إلا مع قيام شركة إنتل بتقديم أول دائرة إلكترونية متكاملة -أول شريحة كومبيوتر- في عام 1971. فعندئذ فقط أمكن للتكنولوجيا أن تصبح متغلغلة وواسعة الانتشار. وثانيا، كان SBTC-التغير التكنولوجي المنحاز للمهارة-هو نوع الفرضية التي يشعر الاقتصاديون بالراحة معها؛ فهي مجرد عرض وطلب، ومن دون أدنى حاجة لإدخال مثل هذه النوعية من الأشياء التي يتحدث عنها علماء الاجتماع والتي يجد الاقتصاديون أنه من الصعب دمجها في نماذجهم، أشياء مثل المؤسسات، والمعايير، والنفوذ السياسي. وأخيرا،يقول SBTC -التغير التكنولوجي المنحاز للمهارة- إن التزايد في عدم المساواة ليس نتيجة لخطأ أي شخص: إنها فقط التكنولوجيا، التي تعمل من خلال اليد الخفية.

ورغم كل ما ذكرناه، فهناك في الحقيقة دليل مباشر ضئيل على صحة افتراض أن التغير التكنولوجي قد تسبب في زيادة عدم المساواة. فالحقيقة هي أنه ليست هناك طريقة سهلة لقياس أثر التكنولوجيا على الأسواق؛ في هذا الموضوع

وغـيره يُضَمِـن الاقتصاديـون التكنولوجيـا أساسـا لتفسـير أشـياء لا يمكنهـم تفسـيرها بقـوى أخـرى يمكـن قياسـها. والمنهـج يمـضي عـلى نحـو مماثـل إلى حـد مـا كـما يـلي: أولا، افـترض أن زيـادة عـدم المسـاواة قـد نجمـت عـن التكنولوجيـا، ونمـو التجـارة الدوليـة، والهجـرة. ثـم، ضـع تقديـرا لآثـار التجـارة والهجـرة، وهـو منهـج متحيـز في حدذاتـه، ولكننـا عـلى الأقـل لدينـا بيانـات عـن حجـم الـواردات وعـدد المهاجريـن. وأخـيرا، قـم بعـزو أي شيء لا يمكـن تفسـيره بواسـطة هـذه العوامـل التـي يمكن قياسـها للتكنولوجيـا. أي أن الاقتصاديـين الذيـن يشـددون عـلى أن التغـير التكنولوجـي هـو السـبب الرئيـسي لزيـادة عـدم المسـاواة يصلـون إلى ذلـك عـن طريـق عمليـة اسـتبعاد: فقـد خلصـوا إلى أن التجـارة والهجـرة ليسـا كبيريـن بمـا يكفـي لتفسـير مـا قـد حـدث، ولـذا لا بـد أن تكـون التكنولوجيـا هـي الجانيـة.

كـما أشرت للتـو، فالعوامـل الرئيسـية التـي يعتبرهـا الاقتصاديـون كتفسـيرات بديلة لتزايـد عـدم المسـاواة هـي الهجـرة والتجـارة الدوليـة، وكل منهـما ينبغـي، مـن حيـث المبـدأ، أن يكـون أيضـا قـد عمـل عـلى زيـادة أجـور الأمريكيـين المهـرة بينـما قلـل أجـور الأمريكيـين الأقـل مهـارة.

الهجـرة، بالطبـع، تعـد قضيـة سياسـية سـاخنة للغايـة في حـد ذاتهـا. في عـام 1970، أي بعـد نحـو نصـف قـرن مـن إغـلاق قانـون الهجـرة لعـام 1928 البـاب أمـام الهجـرات المكثفـة مـن البلـدان صاحبـة الأجـور الأدنى، كان أقـل مـن 5% مـن البالغـين في الولايـات المتحـدة مولوديـن في بلـد أجنبـي. ولكـن لأسـباب بقيـت إلى حـد مـا غـير واضحة،[1] بدأتالهجـرة في اسـتعادة عافيتهـا في أواخـر السـتينات، وارتفعـت بشـدة بعـد عـام 1980. ويمثـل المهاجـرون اليـوم نحـو 15% مـن القـوة العاملـة. وهـذا في حـد ذاتـه لا بـد أنـه مـارس بعـض الآثـار المخفضـة عـلى الأجـور عامـة، فهنـاك عـمال أكـثر إلى حـد كبـير يتنافسـون عـلى فـرص العمـل في الولايـات المتحـدة مقارنـة بمـا كان سـتؤول إليـه الحـال مـن دون الهجـرة.

---

(1) جعلـت التغيـيرات في قانـون الهجـرة في عـام 1965 مـن عمليـة توحيـد أسر المهاجريـن الهـدف المركـزي لسياسـة الهجـرة، وبـذا تـم تحويـل التركيـز بعيـدا عـن محـاولات تقييـد الهجـرة بشـكل أسـاسي لأوروبـا الغربيـة. ولكـن الاقتصاديـين الذيـن درسـوا الهجـرة المكسـيكية وجـدوا أنـه كانـت هنـاك قيـود قليلـة نسـبيا أمـام الهجـرة حتـى قبـل عـام 1965.

علاوة على ذلك، أتت غالبية المهاجرين خلال الجيل الماضي من أمريكا اللاتينية، والعديد من البقية الآخرين من بلدان العالم الثالث؛ وهذا يعني أن المهاجرين، الشرعيين وغير الشرعيين، هم في المتوسط إلى حد كبير أقل تعليما من العمال المولودين في الولايات المتحدة. فنحو ثلث المهاجرين لديهم ما يعادل أقل من دبلوم المدارس الثانوية. ونتيجة لوصول أعداد كبيرة من المهاجرين أصبح عمل الأقل تعليما وفيرا في الولايات المتحدة، بينما أصبح العمال ذوو التعليم المرتفع نادرين نسبيا. وينبئنا العرض والطلب إذن بأن الهجرة لا بد أن تكون قد عملت على خفض أجور العمال الأقل مهارة، بينما عملت على رفع أجور العمال الأعلى مهارة.

والآثار، على أية حال، هي على الأغلب متوسطة الحجم. فحتى معظم التقديرات المتفائلة للاتجاه السائد، والتي قدمها كل من جورج بورجاس ولاري كاتز من جامعة هارفارد، تشير إلى أنالهجرة خفضت أجور من تسربوا من التعليم الثانوي بنحو 5%، ومع تأثير أقل بكثير على العمال الذين يحملون شهادة التعليم الثانوي، وبتأثير إيجابي صغير على العمال الذين تلقوا تعليما عاليا. فضلا عن ذلك، يعتقد اقتصاديون آخرون أن أرقام بورجاس وكاتز مرتفعة للغاية.

وسوف أجادل في الفصل الثامن من هذا الكتاب بأن الهجرة ربما تكون قد عملت على حفز عدم المساواة بطريقة غير مباشرة أكثر، بتحويلها ميزان القوة السياسي لأعلى من الميزان الاقتصادي. ولكن الأثر الاقتصادي المباشر كان متواضعا.

ماذا عن التجارة العالمية؟ ربما كان لمعظم التجارة العالمية أثر قليل أو لم يكن لها أي أثر على الإطلاق على توزيع الدخل. فعلى سبيل المثال، كانت التجارة في السيارات وأجزائها بين الولايات المتحدة وكندا (دولتان من الدول ذات الأجور المرتفعة تحتلان مكانتين مختلفتين في نفس الصناعة، تشحن كل منهما للأخرى سلعا منتجة تقريبا بنفس المزيج من العمل الماهر وغير الماهر) من غير المحتمل أن يكون لأي منهما أثر كبير على عدم المساواة في الأجور في البلد الآخر. ولكن تجارة الولايات المتحدة، فلنقل، مع بنجلاديش هي قصة أخرى. فبنجلاديش تصدر بشكل أساسي الملابس، وهي سلعة تعد كلاسيكية كسلعة كثيفة العمل، التي ينتجها عمال يحتاجون إلى تعليم نظامي قليل ولا يحتاجون من المعدات

الرأسمالية أكثر من ماكينة الخياطة. وفي المقابل تشتري بنجلاديش السلع المعقدة كالطائرات، والكيماويات، والكومبيوترات.

ليس الأمر موضع تساؤل أن تجارة الولايات المتحدة مع بنجلاديش ودول العالم الثالث الأخرى، بما فيها الصين، توسع من عدم المساواة. افترض أنك تشتري بنطلونا صنع في بنجلاديش كان من الممكن أن يتم صناعته محليا. إنك باشترائك للبنطلونات الأجنبية ترغم في الحقيقة العمال الذين كان من الممكن أن يتم توظيفهم لإنتاج بنطلون صنع في أمريكا على البحث عن وظائف أخرى. وبالطبع فالعكس أيضا بالعكس، فعندما تصدر الولايات المتحدة شيئا: حينما تشتريبنجلاديش طائرات البوينج، فالعمال الأمريكيين الذين تم توظيفهم في إنتاج هذه الطائرة ليس عليهم البحث عن وظائف أخرى. ولكن العمل المتضمن في صادرات الولايات المتحدة مختلف تماما عن العمل الذي يتم توظيفه في صناعات الولايات المتحدة التي تتنافس مع الواردات. فنحن نميل إلى تصدير منتجات "كثيفة المهارة" مثل الطائرات، والكومبيوترات المركزية، وأفلام هوليوود؛ ونحن نميل لاستيراد السلع "كثيفة العمالة" مثل البنطلونات وألعاب الأطفال. ولذا تقلل تجارة الولايات المتحدة مع دول العالم الثالث من فرص العمللعمال الأقل مهارة فيالولايات المتحدة، بينما تُزيد الطلب على العمال الأكثر مهارة. وليس هناك شك في أن هذا يعمل على توسيع فجوة الأجر بين العمال الأقل مهارة والعمال الأكثر مهارة، وهو ما يساهم في زيادة عدم المساواة. وتسارع النمو في التجارة مع البلدان ذات الأجر المنخفض، وخاصة المكسيك والصين، يشير إلى أن هذا الأثر قد تزايد على مدار الأعوام الخمسة عشر الماضية.[1]

والأمر المهم حقا الذي ينبغي فهمه، على أية حال، هو أن التغير التكنولوجي المنحاز للمهارة، والهجرة، ونمو التجارة الدولية، في أفضل الأحوال، تفسيرات لتزايد الفجوة بين العمال الأقل تعليما والأكثر تعليما. وعلى الرغم من ادعاءات لازير واقتصاديين آخرين عديدين، فهذا يشكل جزءًا فقط من قصة ارتفاع عدم المساواة. فمن الصحيح أن مكافأة التعليم قد ارتفعت، ولكن حتى خريجو الكليات شهدوا على الأغلب تخلف المكاسب في أجورهم خلف ارتفاع الإنتاجية. على سبيل المثال،

(1) ينبغي التنبيه إلى أن الكتاب نشر عام 2007، وبالتالي فالمؤلف يشير هنا إلى التجارة الأمريكية منذ أوائل التسعينات وحتى عام 2006، أو نحو ذلك. (المترجم)

فقد شهد خريج الكلية الوسيط ارتفاعا في دخله الحقيقي يصل إلى 17% فقط منذ عام 1973.وهذا لأن المكاسب الكبيرة في الدخل قد ذهبت ليس لمجموعة عريضة من العمال الذين يتلقون أجورا جيدة ولكن إلى مجموعة ضيقة من الأشخاص الذين يتلقون رواتب جيدة. وبشكل عام فهؤلاء الذين يتلقون دخولا هائلة هم أيضا من المتعلمين جيدا، ولكن ما يدفع لهم لا يتماثل مع المكاسب التي تلقاها العمال المتعلمين ككل. فكل من مديري العموم أو الأعضاءالمنتدبين من جهة، ومعلمي المدارس من الجهة الأخرى، يكونون نمطيا من الحائزين على درجة الماجستير، ولكن معلمي المدارس شهدوا مكاسب متواضعة منذ عام 1973، فبينما شهد المديرون أو الأعضاء المنتدبون ارتفاعا في دخلهم بحيث ارتفع دخلهم لما يبلغ نحو 30 مثل أجر العامل الوسطي في عام 1970، فقد تحركوا الآن لكي يصبح هذا الدخل يعادل نحو 300 مثل أجر هذا العامل اليوم.

والملاحظة التي تذهب إلى أنه حتى الأمريكيون المتعلمون تعليما مرتفعا، في أغلبهم، شهدت دخولهم تتقهقرا دون المتوسط، بينما تحسن وضع حفنة من الأشخاص بشكل مدهش، تضعف من حجة التغيرالتكنولوجي المنحاز للمهارة كتفسير لعدم المساواة، وتدعم الحجة القائلة بأنه يمكن عزو عدم المساواة إلى حد كبير إلى التغيرات في المؤسسات، مثل قوة نقابات العمال، والمعايير، مثل المعيار الذي كان في وقت من الأوقات يمثل اعتقادا قويا وأصبح الآن ضعيفا، وهو أن تلقي المدير لدخل أكبر بكثير من العمال هو أمر سيئ أخلاقيا ومعنويا.

المؤسسات: نهاية معاهدة ديترويت

كسبت فكرة أن التغيرات في المؤسسات والتغيرات فيالمعايير، عوضا عن الفكرة المجهلة: التغير التكنولوجي المنحاز للمهارة، كتفسير لتزايد عدم المساواة تأييدا متزايدا بين الاقتصاديين، لسببين رئيسيين. الأول، يربط تفسير المؤسسات والمعايير لتزايد عدم المساواة اليوم بين الأحداث الراهنة وبين الانهيار الدراماتيكي في عدم المساواة-الانضغاط العظيم-الذي حدث في الثلاثينات والأربعينات. والثاني، أن قصة المؤسسات والمعايير تساعد على تفسير الاستثنائية الأمريكية: فليس هناك بلد متقدم آخر شهد نفس هذا النوع من الارتفاع الحاد في عدم المساواة الذي حدث هنا.

الانضغـاط العظيـم في حـد ذاتـه-أو بشـكل أكـثر دقـة، اسـتمراره-يقدم حجـة جيـدة للـدور المحـوري الـذي تلعبـه القـوى الاجتماعيـة في تعارضهـا مـع فكـرة اليـد الخفيـة في تحديـد توزيـع الدخـل. وكـما سـبق وناقشـت في الفصـل الثالـث، نشـأت الطبقـة الوسـطى الأمريكيـة الناجمـة عـن طفـرة المواليـد فجـأة ولم تَنْـمُ تدريجيـا. فقـد تـم بنـاء هـذه الطبقـة في فـترة زمنيـة قصـيرة للغايـة عـن طريـق تشريعـات الصفقـة الجديـدة، ونشـاط النقابـات، والتحكـم في الأجـور خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة. ومـع ذلـك اسـتمر توزيـع الدخـل بالشـكل المتقـارب المفـروض خـلال الحـرب لعـدة عقـود بعـد نهايـة التحكـم في الاقتصـاد في زمـن الحـرب. وقـدم هـذا الاسـتمرار الحجـة القويـة بـأن قـوى السـوق المجهلـة هـي أقـل حسـما مـما يتـم تعليمـه في الكتـب الأوليـة لتعليـم الاقتصـاد. وكـما ذكـر بيكتـي وسـايز:

إن ضغـط الأجـور خـلال الحـرب يمكـن تفسـيره بتحكـم اقتصـاد الحـرب في الأجـور، ولكـن كيـف يمكننـا تفسـير حقيقـة أن كاسـبي الأجـور المرتفعـة لم يسـتعيدوا وضعهـم بعـد التخلـص مـن التحكـم في الأجـور؟ هـذا البرهـان لا يمكننـا مـن التـواؤم فـورا مـع التفسـيرات التـي تـرى خفـض عـدم المسـاواة عـلى قاعـدة التغـير التكنولوجـي وحـده... نحـن نعتقـد أن هـذا النمـط مـن التطـور لعـدم المسـاواة هـو برهـان إضـافي غـير مبـاشر، عـلى أن الآليـات غـير السـوقية مثـل مؤسسـات سـوق العمـل والمعايـير الاجتماعيـة بشـأن عـدم المسـاواة ربمـا تلعـب دورا في تقريـر تعويضـات العمـل.[(1)9]

وقـد قـاد الاقتصاديـان في معهـد ماساتشوسـتس للتكنولوجيـا فرانـك ليفـي وبيـتر تمـين الطريـق في تفسـير كيـف مارسـت "مؤسسـات سـوق العمـل والمعايـير الاجتماعيـة" هـذه عملها.[(2)]وقـد أشـارا إلى مجموعـة مـن الترتيبـات المؤسسـية التـي أطلقـوا عليهـا معاهـدة ديترويـت، وهـو الاسـم الـذي أطلقتـه مجلـة فورتشـن عـلى القـرار التاريخـي في عـام 1949 بالتوصـل لصفقـة ناجحـة بـين نقابـة عـمال السـيارات المتحـدة وشركـة جـنرال موتـورز. وفي ظـل هـذه الاتفاقيـة، تـم ضـمان ارتفـاع أجـور عـمال النقابـة مـع ارتفـاع الإنتاجيـة، إلى جانـب مزايـا صحيـة ومعـاش التقاعـد، ومـا حصلـت عليـه شركـة جـنرال موتـورز كان في مقابلـه هـدوء العـمال.

(1) Pkketty and Saez, “Income Inequality.”

(2) Levy and Temin, “Inequality and Institutions.”

وقد استولى ليفي وتمين على المصطلح للإشارة ليس فقط إلى الاتفاقية الرسمية بين شركات السيارات وعمالها، ولكن أيضا إلى الطريقة التي تمت بها محاكاته في كل أرجاء اقتصاد الولايات المتحدة، وقد أقامت النقابات الأخرى مطالبها التفاوضية على القاعدة التي وضعتها نقابة عمال السيارات المتحدة، وهو ما أدى إلى انتشار اتفاقيات الأجور والمزايا التي، وإن لم تكن بترف وفخامة ما خطط والتر رويثر[1] للحصول عليه، ضمنت مشاركة العمال في ثمار التقدم. بل إن حتى العمال غير النقابيين تأثروا بقوة، لأن التهديد بالنشاط النقابي أدت إلى أن يعرض على العمال غير النقابيين ما حصل عليه تقريبا أقرانهم النقابيون: لقد اتسم اقتصاد الخمسينات والستينات بالـ"الأجور النموذجية"، حيث كانت تسويات الأجور بين النقابات الرئيسية والشركات قد رسخت معايير للاقتصاد ككل.

وفي الوقت ذاته فإن وجود نقابات قوية عمل ككابح أمام الدخول التي يحققها كل من الإدارة وحاملي الأسهم. فقد عرف العاملون في الإدارة العليا أنهم لو دفعوا لأنفسهم رواتب ضخمة، فسوف يقدمون دعوة للمشكلات والاضطرابات مع عمالهم؛ وبالمثل كانت الشركات التي تحقق أرباحا مرتفعة بينما تفشل في الوقت ذاته في رفع الأجور تضع علاقتها بالعمال موضع الخطر.

وكانت الحكومة الفيدرالية أيضا طرفا غير رسمي في معاهدة ديترويت، فقد تدخلت، بوسائل مختلفة، من أجل دعم المواقف التفاوضية للعمال ولكبح ما تستشعر أنه تجاوز للحدود في القمة. وكانت إنتاجية العمال في الستينات أقل بكثير من الإنتاجية اليوم، ولكن الحد الأدنى للأجر، مع تعديله وفقا للتضخم، كان مرتفعا جدا. وكانت قوانين العمل يتم تأويلها وتطبيقها بطريقة محابية للعمال. وكان هناك أحيانا ضغط سياسي مباشر على الشركات الكبيرة والإدارة العليا التي كان تُرى أنها تجاوزت الخط. كمطالبة جون ف. كينيدي[2] الذائعة الصيت من

(1) انظر تعريف به في الفصل السادس. (المترجم)

(2) جون فيتزجيرالد "جاك" كنيدي (29 مايو 1917-22 نوفمبر 1963) تتم الإشارة إليه عادة بالأحرف الأولى من اسمه ج ف ك JFK، سياسي أمريكي خدم باعتباره الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة من يناير 1961 وحتى اغتياله في نوفمبر 1963. شهد عهده العديد من الأحداث المهمة مثل أزمة الصواريخ الكوبية، وغزو خليج الخنازير، ومعاهدة حظر التجارب النووية، وتأسيس "فيلق السلام" وهي منظمة كانت ترسل الشباب الأمريكي ليعمل متطوعا في البلدان النامية، والتطورات التي شهدها سباق الفضاء، وبناء حائط برلين، وقانون توسيع التجارة الذي

شركات الصلب، التي كانت قد تفاوضت لتوها حول تسوية معتدلة للأجور، بإلغاء الزيادة في أسعار منتجاتها.

ولرؤية كيف اختلفت العلاقات العمالية في ظل معاهدة ديترويت عن حالتها اليوم، يمكن مقارنة شركتين أيقونتين، واحدة من الماضي، وواحدة من الحاضر.

عند السنوات النهائية في رواج ما بعد الحرب كانت شركة جنرال موتورز أكبر شركة خاصة من حيث عدد العاملين، باستثناء احتكار التليفون الذي تم ضبطه وتنظيمه. وكان المدير التنفيذي للشركة، بالتالي، من بين المديرين التنفيذيين الذين يتلقون أعلى المرتبات في أمريكا، فراتب تشارلز جونسون في عام 1969 كان يبلغ 795 ألف دولار، أو نحو 4.3 مليون دولار بدولارات اليوم، وكان هذا الراتب قد استثار تعليقات كثيرة. ولكن كان العمال العاديون في جنرال موتورز يتم الدفع

فوض بمقتضاه الكونجرس البيت الأبيض سلطة تخفيض الرسوم الجمركية حتى 50% في المفاوضات التجارية، وهو ما مهد الطريق لجولة تحرير التجارة المعروفة باسم جولة "كينيدي" في إطار منظمة التعريفات والتجارة، وحركة الحقوق المدنية، والبرنامج المحلي "الحدود الجديدة" الذي جاء في خطابه لقبول الترشيح في مؤتمر الحزب الديمقراطي، ومن بين أشياء كثيرة كان حديثه في الخطاب عن الأسئلة التي لم تتم الإجابة عنها حول الفقر والفائض، والقرار بإلغاء عقوبة الإعدام في مقاطعة كولومبيا. وقد تحاشى كينيدي أي زيادة كبيرة في الوجود الأمريكي في فيتنام، ورفض تكليف قوات قتالية وأبقى على مستوى الآخرين، غالبا من المستشارين العسكريين، عند 16 ألف فرد، مقارنة مع عدد القوات التي أرسلها خلفه ليندون جونسون والتي بلغت 536 ألف فرد بحلول عام 1968. بعد أن خدم في البحرية الأمريكية في الحرب العالمية الثانية، مثّل كينيدي ولاية ماساتشوستس في مجلس النواب من عام 1947 وحتى عام 1953. وبعد ذلك مثّل الولاية في مجلس الشيوخ بين عامي 1953 و1960 عن الحزب الديمقراطي. وقد هزم كينيدي مرشح الحزب الجمهوري نائب الرئيس ريتشارد نيكسون في الانتخابات الرئاسية عام 1960. وقد انتُخب رئيسا وعمره 43 عاما ليكون أصغر رجل يُنتخب للمنصب، وثاني أصغر رئيس (بعد الرئيس تيودور روزفلت الذي كان عمره 42 عاما حينما أصبح رئيسا بعد اغتيال الرئيس وليام ماكنيلي). وكان كينيدي أول رئيس أمريكي ولد في القرن العشرين. كما أنه حتى الآن الرئيس الكاثوليكي الوحيد، كما كان أول رئيس يحصل على جائزة بوليتزر عن سيرته الذاتية "لمحات من الشجاعة". اغتيل في مدينة دالاس بولاية تكساس يوم 22 نوفمبر 1963. (المترجم)، انظر:

John F. Kennedy, Wikipedia, the free encyclopedia.

Peace Corps, Wikipedia, the free encyclopedia.

Trade Expansion Act, Wikipedia, the free encyclopedia.

New Frontier, Wikipedia, the free encyclopedia.

لهـم أيضـا بشـكل جيـد. ففـي عـام 1969 كان عـمال الإنتـاج في صناعـة السـيارات يكسـبون في المتوسـط نحـو 9 آلاف دولار وهـو يعـادل مـا يزيـد عـلى 40 ألـف دولار اليـوم. كـما كان عـمال جـنرال موتـورز يتلقـون أيضـا مزايـا صحيـة ومعاشـات تقاعـد، وكانـوا يعتـبرون بصلابـة ضمـن الطبقـة الوسـطى.

واليـوم تحتـل شركـة وول مـارت مكانـة أكـبر شركـة، حيـث يعمـل بهـا 800 ألـف مسـتخدم. وقـد تـم الدفـع لرئيسـها لي سـكوت في عـام 2005 نحـو 23 مليـون دولار. ويعـد هـذا أكـبر بمقـدار خمسـة أمثـال مرتـب تشـارلز جونسـون بعـد تعديلـه وفقـا لمعـدل التضخـم، ولكـن تعويضـات السـيد سـكوت اسـتثارت تعليقـات قليلـة نسـبيا، فـما تلقـاه لم يعـد اسـتثنائيا وفقـا لمـا يتلقـاه المديـرون التنفيذيـون للـشركات الكـبرى هـذه الأيـام. وكانـت الأجـور التـي تـم دفعهـا لعـمال وول مـارت، مـن جانـب آخـر، قـد جذبـت الانتبـاه، لأنهـا كانـت قليلـة حتـى بالمعايـير الراهنـة. فقـد دُفـع للعـمال في الوظائـف غـير الإشرافيـة لـدى وول مـارت نحـو 18 الـف دولار في المتوسـط في العام، أي أقـل مـن نصـف مـا تـم دفعـه لعـمال جـنرال موتـورز منـذ نحـو خمسـة وثلاثـين عامـا مضـت، بعـد تعديلـه وفقـا لمعـدلات التضخـم. ووول مـارت رديئـة السـمعة بسـبب النسـبة الضئيلـة مـن عمالهـا الذيـن لديهـم مزايـا صحيـة، وبسـبب تقتيرهـا الشـديد في هـذه المزايـا النـادرة.[1]

ومـا جـادل فيـه بيكتـى وسـايز، وليفـي وتمـين، وعددمتزايـد مـن الاقتصاديـين الآخريـن، هـو أن التناقـض مـا بـين جـنرال موتـورز حينهـا وول مـارت حاليـا ممثـل لمـا حـدث في الاقتصـاد ككل، ففـي السـبعينات ومـا بعدهـا، تـم إبطـال معاهـدة ديترويـت، وذهبـت المؤسسـات والمعايـير التـي حـدت مـن عـدم المسـاواة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة أدراج الريـاح، وارتفـع بشـدة عـدم المسـاواة مـرة أخـرى لمسـتويات العـصر المذهـب. بعبـارة أخـرى، فالتباعـد العظيـم في الدخـول منـذ السـبعينات هـو مـن حيـث الجوهـر الانضغـاط العظيـم معكوسـا. ففـي الثلاثينـات والأربعينـات تـم إنشـاء المؤسسـات وتـم ترسـيخ المعايـير التـي حـدت مـن عـدم المسـاواة؛ وبـدءا مـن السـبعينات تـم هـدم هـذه المؤسسـات والمعايـير، وهـو مـا أدى إلى ارتفـاع عـدم

(1) انظر على سبيل المثال:

Reed Abelson, "Wal-Mart's Health Care Struggle Is corporate America's, Too, "New York Times, October 29, 2005.

المسـاواة. ويدمـج تفسـير المؤسسـات والمعايـير صعـود وسـقوط الطبقـة الوسـطى في قصـة واحـدة.

ويتنبأ تفسـير المؤسسـات والمعايير أيضا بشـكل صحيح بكيـف يمكـن للاتجاهـات في عـدم المساواة أن تختلـف بـين البلـدان. ضع في الاعتبـار أن قـوى التغير التكنولوجي والعولمـة قـد أثـرت في كل بلـد متقـدم: لقـد طبقـت أوروبـا تكنولوجيـا المعلومـات تقريبـا بنفس السرعـة التـي طبقناهـا بهـا، كـما أن الملابـس الرخيصـة في أوروبـا مـن المحتمـل أن تكـون قـد صنعـت في الصـين مثلـما هـي الملابـس الرخيصـة في أمريـكا. وفيــما لــو كانــت التكنولوجيــا والعولمــة هــما القــوى الدافعــة وراء ارتفــاع عــدم المسـاواة، إذن فأوروبـا ينبغـي أن تكـون قـد خـبرت نفـس الارتفـاع في عـدم المسـاواة الـذي شـهدته الولايـات المتحـدة. ولكـن فيـما يتعلـق بالمؤسسـات والمعايـير، عـلى أيـة حـال، فالأمـور مختلفـة إلى حـد كبـير بـين الأمـم المتقدمـة: في أوروبـا، عـلى سـبيل المثال، تبقـى النقابـات قويـة، وتديـن المعايـير المرتبـات المرتفعـة جـدا، وتشـدد عـلى عـدم تـلاشي اسـتحقاقات العـمال. لـذا فلـو كانـت المؤسسـات هـي القصـة، فعلينـا توقـع أن تكـون خـبرة الولايـات المتحـدة في ارتفـاع عـدم المسـاواة اسـتثنائية، ولا يـتردد صداهـا في أوروبـا.

وعنـد إجـراء مثـل هـذه المقارنـة، يكسـب تفسـير المؤسسـات والمعايـير؛ فأمريـكا فريـدة مـن نوعهـا. والبرهـان الأوضـح يـأتي مـن بيانـات ضرائـب الدخـل التـي تسـمح بمقارنـة نصيـب الدخـل الـذي يعـود للنخبـة الاقتصاديـة. تبـين هـذه البيانـات أنـه خـلال الحــرب العالميــة الثانيــة ومــا بعدهــا شــهدت البلــدان المتقدمــة جميعهــا انضغاطـا عظيـما، انخفاضـا حـادا في عـدم المسـاواة. في الولايـات المتحـدة تـم عكـس هـذه التسـوية بـدءا مـن السـبعينات، وقـد تـم الآن الاسـتئصال التـام لآثـار الانضغـاط العظيـم. في كنـدا، المرتبطـة بشـدة بالاقتصـاد الأمريـكي، وفي بريطانيـا، التـي كانـت لديهـا فترتهـا الخاصـة مـن الهيمنـة المحافظـة في ظـل مارجريـت تاتـشر، كان هنـاك اتجـاه محـدود أكـثر تجـاه تجـدد عـدم المسـاواة. ولكـن في اليابـان وفرنسـا كانـت هنـاك تغـيرات قليلـة للغايـة في عـدم المسـاواة منـذ عـام 1980.[1]

هنـاك أيضـا معلومـات غـير مكتملـة وأقـل اتسـاقا مـن مسـوح الدخـول العائليـة. والصـورة هنـا أكـثر ضبابيـة وغموضـا، ولكـن مـرة أخـرى نجـد أن الولايـات المتحـدة و

(1) See Piketty and Saez, "The Evolution of Top Incomes."

-إلى حد أقل- بريطانيا يبرزان كبلدين شهدا ارتفاعا حادا في عدم المساواة، بينما البلدان المتقدمة الأخرى شهدت إما ارتفاعا طفيفا وإما لم تشهد أي تغير على الإطلاق.(1)

وهناك، باختصار، حجة ظرفية قوية للاعتقاد بأن المؤسسات والمعايير، عوضا عن التكنولوجيا والعولمة، هي المصادر الكبرى لزيادة عدم المساواة في الولايات المتحدة. والمثال الواضح على تغيير المؤسسات هو انهيار الحركة النقابية في الولايات المتحدة. ولكن ما الذي أعنيه عندما أتحدث عن تغيير المعايير؟

المعايير وعدم المساواة: حالة فرار المديرين التنفيذيين

حينما يتحدث الاقتصاديون عن كيف أدت التغيرات في المعايير إلى زيادة عدم المساواة، فغالبا ما يكون لديهم مثال واقعي متماسك في أذهانهم: النمو الجامح فيما يتلقاه المسؤولون التنفيذيون. وعلى الرغم من أن المسؤولين التنفيذيين في الشركات الكبيرة لم يكونوا وحدهم الرابحين من زيادة عدم المساواة، فوضوحهم يجعل منهم مثلا توضيحيا جيدا لما حدث بشكل أكثر عمومية في كل أرجاء الاقتصاد.

وطبقا لدراسة لنظام الاحتياط الفيدرالي (البنك المركزي الأمريكي-المترجم) في السبعينات كان المدير التنفيذي الرئيسي في 102 من الشركات الكبرى (الخمسين شركة التي كانت على القمة مقاسة بقيمة المبيعات في نقطة زمنية ما خلال الفترة 1940-1990) قد تلقوا في المتوسط نحو 1.2 مليون دولار بدولارات اليوم. ولم يكن هذا يمثل راتبا ضيقا، على أقل تقدير. ولكنه كان يمثل أقل قليلا مما تلقي المسؤولون التنفيذيون في الثلاثينات، ونحو 40 مثلا "فقط" لما تلقاه العامل المتوسط بدوام كامل في اقتصاد الولايات المتحدة ككل في هذا الوقت. ولكن

(1) See Andrea Brandolini and Timothy Smeeding. “Inequality Patterns in Western-Type Democracies: Cross-Country Differences and Time Changes” (Luxembourg Income Study working paper no. 458, Apr. 2007).
في محاولة لتنظيم وترتيب بيانات المسح، أسفرت عن نتائج مشابهة لنتائج بيكتي وسايز، انظر:
http://www.tcf.org/list.asp?Type=NC&pubid=1403.

مـع السـنوات الأولى مـن هـذا العقـد،[1] عـلى أيـة حـال، بلـغ مـا تلقـاه المسـؤول التنفيـذي الرئيـسي في المتوسـط 9 ملايـين دولار في السـنة، وهـو مـا يبلـغ 367 مِثلامـما تلقـاه العامـل المتوسـط. وقـد شـهد المسـؤولون التنفيذيـون الآخـرون زيـادات ضخمـة فيـما تلقـوه مـن مدفوعـات، وإن كان ليـس كبـيرا بحجـم مـا حصـل عليـه المسـؤولون التنفيذيـون الرئيسـيون، فالمسـؤولان التنفيذيـان الأعـلى في الـشركات الكـبرى تحـت المسـؤول التنفيـذي الرئيـسي كانـا قـد حصـلا عـلى مـا يعـادل 31 مـرة مـا حصـل عليـه العامـل مـن راتـب في السـبعينات، ولكـن ارتفـع هـذا إلى مـا قـدره 169 مـرة في بدايـة القـرن الحـادي والعشريـن.[2]

ولفهـم هـذه التطـورات غـير العاديـة، دعنـا نبـدأ بقصـة مثاليـة عـن محـددات مـا يُدفـع للمسـؤولين التنفيذيين.[3] تخيـل أن ربحيـة كل شركـة تعتمـد عـلى الصفـات المميـزة للمديـر التنفيـذي فيهـا، وأنـه كلـما كانـت الشركـة أكـبر كان تأثـير المديـر التنفيـذي كبـيرا. وتخيـل أيضـا أن الصفـات المميـزة للمديـر التنفيـذي المحتمـل يمكـن ملاحظتهـا: أي أن كل شـخص يعـرف مـن هـو المديـر التنفيـذي الأفضـل رقـم مئـة في أمريـكا، ثـم مـن هـو المديـر التنفيـذي الأفضـل رقـم 99، وهكـذا. في هـذه الحالـة، سـوف تكـون هنـاك منافسـة عـلى المديريـن التنفيذيـين وسـتنتهي هـذه المنافسـة بتخصيـص أفضـل مديريـن تنفيذيـين لأكـبر الـشركات، حيـث تكـون مسـاهمتهم أكـثر أهميـة. وكنتيجـة لهـذه المنافسـة، فـما سـوف يتـم دفعـه لـكل مديـر تنفيـذي سـوف يعكـس قدراتـه أو قدراتهـا المميـزة.

والنتيجـة المبـاشرة لهـذه القصـة هـي أنـه عنـد القمـة سـوف تترجـم حتـى الاختلافـات البسـيطة في القـدرات المميـزة المتصـورة للمديـر التنفيذي في شـكل فروقات كبـيرة في المرتبـات. والسـبب هـو المنافسـة، فبالنسـبة للشركـة العملاقـة ربمـا يصـل الفـرق في الربحيـة بـين توظيـف عـاشر أفضـل مديـر تنفيـذي، أو المديـر التنفيـذي الأفضـل رقـم 11 ببسـاطة، عـشرات الملايـين مـن الـدولارات كل عـام. وبهـذا المعنـى

(1) نذكر مرة أخرى أن المقصود هنا هو العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. (المترجم)

(2) Carola Frydman and Raven Saks, "Historical Trends in Executive Compensation, 1936-2003," Federal Reserve Bank of New York, 2005.

(3) See Xavier Gabix and Augustin Landier, "Whay Has CEO Pay Increased So Much?" (National Board of Economic Research working paper no. 12365), July 2006.

يشير النموذج المثالي إلى أن المسؤولين التنفيذيين في القمة ربما يستحقون ما يدفع لهم. كما يقول النموذج المثالي أيضا إنه لو كان المديرون التنفيذيون يدفع لهم اليوم أكثر بكثير مما كانوا يتلقونه منذ جيل مضى، فلابد أن هذا لسبب ما-كالمنافسة الشديدة، وأسعار الأسهم الأعلى، أو أيا كان-أصبح من المهم أكثر مما كان معتادا أن يدير الشركة أفضل رجل.

ولكن بمجرد ما نعمل على إرخاء الفرضيات المثالية للقصة، يبدو أنه من غير الصعب رؤية أن ما يدفع للمدير التنفيذي أقل ارتباطا بالقوى الأساسية للعرض والطلب، ويخضع أكثر بكثير للتغيرات في المعايير الاجتماعية والنفوذ السياسي، مما تتضمنه هذه القصة.

أولا، من الصعب ترجمة القدرات المميزة للمسؤولين التنفيذيين وإلى أي حد تعد هذه الصفات مهمة في شكل أرقام. فتقدير إنتاجية قادة الشركات ليس مماثلا لقياس كم طوبة يمكن أن يرصها العامل في الساعة. كما لا يمكن بثقة تقييم المديرين بالنظر في ربحية الشركات التي يديرونها، لأن الأرباح تعتمد على الكثير من العوامل التي تقع خارج نطاق سيطرة المسؤول التنفيذي الرئيسي، علاوة على أن الربحية يمكن، لفترات ممتدة، أن تكون في أعين الناظر: بدت شركة إنرون كشركة أسطورية ناجحة بالنسبة لمعظم العالم، وشركة الإخوة تول، وشركة ماك مانشون كينج، بدت كقصص نجاح عظيمة ما دامت فقاعة سوق المساكن لا تزال تتضخم. لذا فالسؤال حول كم يجب أن يُدفع للمسؤول التنفيذي في القمة به عنصر ذاتي قوي، بل وحتى يخضع للموضة السائدة. في الخمسينات والستينات لم تكن الشركات الكبرى تفكر أنه من المهم أن يكون لديها قائد مشهور لديه كاريزما، وكان من النادر رؤية مسؤولين تنفيذيين كبار على أغلفة المجلات التي تغطي مجال الأعمال، وكانت الشركات تميل إلى ترقية المسؤولين من داخلها، مشددة على فضيلة أن يكون المسؤول الرئيسي لاعبا ضمن فريق. وعلى النقيض، أصبح المسؤولون التنفيذيون في الثمانينات وبعدها نجوم روك، وأصبحوا يُعرفون بشركاتهم بنفس قدر ما تُعرف شركاتهم بهم. هل تعد مجالس إدارة الشركات أكثر حكمة الآن مما كانت عليه عندما كان يتم اختيار شخص موثوق به من داخل الشركة لإدارتها؟ أم هل أصبحت هذه المجالس محصورة في ثقافة المشاهير؟

ثانيا، حتى إن كانت مجالس إدارة الشركات تستطيع الحكم على كل من الخصائص المميزة للمسؤول التنفيذي، وتستطيع إلى حد كبير تقدير أهمية هذه الخصائص في تحقيق الربحية، فالقيمة الحقيقية التي ينتهون لدفعها إلى قمة المسؤولية التنفيذية تعتمد إلى حد كبير على كم تدفع الشركات الأخرى. وهكذا، ففي عالم الشركات خلال الستينات والسبعينات، كانت الشركات نادرا ما تدفع رواتب مبهرة لنجوم الإدارة. بل وفي الواقع تميل الشركات إلى أن ترى المبالغ الضخمة التي تدفعها للعاملين في القمة كمصدر محتمل لانخفاض روح الفريق، إلى جانب كونها مصدرا كامنا لمشكلات عمالية. وفي ظل هذا المناخ، فحتى بالنسبة لمجلس إدارة الشركة الذي يعتقد فعلا أن توظيف مسؤول تنفيذي نجم هو الطريق الذي ينبغي المضي فيه، فليس عليه أن يعرض هذه المبالغ الفادحة لجذب هؤلاء النجوم. ولكن الرواتب التي تقدم للمديرين التنفيذيين اليوم، والتي تقدر بالملايين أو عشرات الملايين، تعد هي المعدل العادي. وحتى مجالس إدارة الشركات التي لا تعد مفتونة بفكرة قيادة النجوم ينتهي بها الأمر إلى دفع رواتب مرتفعة، جزئيا لكي يمكنها اجتذاب المسؤولين التنفيذيين الذين تعتبرهم مناسبين، وجزئيا بسبب أن أسواق المال سوف تنتابها الشكوك في الشركة التي لا تدفع لمسؤوليها التنفيذيين ببذخ.

وأخيرا، للدرجة التي يكون فيها هناك سوق للموهبة، فمن، بالضبط، هم المشترون؟ ومن يحدد ما هي درجة إجادة المدير التنفيذي؟ وكم ينبغي الدفع له للحيلولة بين أي شركة أخرى وبين الصيد غير المشروع لمعرفته في تنظيم وإدارة الشركات؟ والإجابة، بالطبع، هي أن مجلس إدارة الشركة، الذي يختار في أغلبيته عن طريق المسؤول التنفيذي الرئيسي، وخبراء تقدير رواتب هؤلاء المديرين الذين يتم توظيفهم، والذين دائما تقريبا ما يتم اختيارهم من قبل المسؤول التنفيذي الرئيسي، هم الذين يحددون مقدار ما يساويه هذا المسؤول التنفيذي. وهذا موقف يفضي إلى المبالغة في كل القدرات الشخصية المميزة للمدير التنفيذي، ومقدار أهمية هذه القدرات الشخصية المميزة للأرباح التي تحققها الشركة.

ويشير كل هذا إلى أن الدخول عند القمة-رواتب المسؤولين التنفيذيين الأعلى، وبالمماثلة دخول العديد من النجوم الآخرين-ربما تعتمد إلى حد كبير على عوامل "ناعمة" مثل المواقف الاجتماعية والخلفية السياسية. وربما أقوى تصريح

عـن هـذه النظـرة أتى مـن لوسـيان بيبشـك وجيـسي فريـد، مؤلفَـي كتـاب رواتبـدون إنجازالصـادر عـام 2004. وقـد جادلبيبشـك وفريـد بـأن المسـؤولين التنفيذيـين عـلى القمـة في الحقيقـة يضعـون رواتبهـم بأنفسـهم، وحيـث لا القـدرات المميـزة للمسـؤول التنفيـذي ولا سـوق الموهبـة لهـما أي سـند حقيقـي. والـشيء الوحيـد الـذي يحـد مـن راتـب المسـؤول التنفيـذي، يجـادل المؤلفـان، هـو "قيـد الفضيحـة": أي الاهتـمام بـأن التعويضـات المرتفعـة جـدا للمديـر التنفيـذي سـوف تخلـق ردود فعـل عنيفـة لـدى حامـل أسـهم الشركـة الهـادئ عـادة، والعـمال، والسياسـيين، أو الجمهـور العـام.(1)

وإلى الحـد الـذي تكـون فيـه هـذه الرؤيـة صحيحـة، يمكـن النظـر للارتفـاع الصاروخـي للدخـول عنـد قمـة الـشركات باعتبـاره ظاهـرة اجتماعيـة سياسـية، عوضـا عـن أن يكـون ظاهـرة اقتصاديـة ضيقـة. فقـد ارتفعـت الدخـول العالية بصـورة جنونية، ليـس بسـبب الطلـب المتزايـد عـلى الموهبـة ولكـن بسـبب أن مجموعـة مختلفـة مـن العوامـل تسـببت في مـوت الفضيحـة. فمنظـمات الأخبـار التـي ربمـا تكـون قـد أدانـت ذات مـرة رواتـب المديريـن التنفيذيـين السـخية، أشـادت بعباقـرة مجـال عملهـم بـدلا مـن ذلـك، والسياسـيون الذيـن ربمـا يكونـون قـد قـادوا ذات مـرة اسـتنكارات شـعبوية مـن قطـط الـشركات السـمان سـعوا لتملـق الأفـراد الذيـن يقدمـون مسـاهمات في تمويـل الحمـلات الانتخابيـة، والنقابـات التـي ربمـا تكـون ذات مـرة قـد خرجـت للاحتجـاج عـلى المكافـآت الضخمـة للمديريـن التنفيذيـين قـد تـم سـحقها بسـنوات انكسـار النقابـات. وآه، هنـاك شيء واحـد إضـافي: لأن الضريبـة الحديـة عـلى رواتـب القمـة انخفضـت مـن 70% فيبدايـة السـبعينات إلى 35% اليـوم، فهنـاك حافـز إضـافي للمسـؤول التنفيـذي في القمـة لـكي يغنـم مـن موقفـه: إن عليـه أن يبقـي جـزءا أكـبر مـن راتبـه المفـرط. والنتيجـة هـي انفجـار في اللامسـاواة في الدخـل عنـد قمـة سـلم توزيـع الدخـل.

فكـرة أن رفـع الرواتـب عنـد قمـة السـلم تعكـس بشـكل رئيـسي تغـيرا اجتماعيـا وسياسـيا، عوضـا عـن أن اليـد الخفيـة للسـوق، صفعـت بعـض الأشـخاص، باعتبارهـا تتعـارض كثـيرا مـع الكتـاب التعليمـي لطلبـة علـم الاقتصـاد في عامهـم الجامعـي الأول. ولكنهـا فكـرة كان لهـا بعـض المؤيديـن غـير المنتظريـن: البعـض مـن أكـثر المدافعـين

(1) Pay Without Performance: The Unfulfilled Promise of Executive Compensation (Harvard University Press, 2004).

تحمسا عن الطريقة التي يتم بها الدفع للمسؤولين التنفيذيين الحديثين يقولون نفس الشيء تقريبا.

وقبل أن أصل إلى هؤلاء المدافعين، اسمحوا لي أن أقدم لكم بضع كلمات قليلة من شخص استمع إلى ما يقولونه. من الخطاب الشهير لجوردون جيكو لحاملي أسهم صحيفة تيلدار في فيلم وول ستريت:

الآن، في أيام السوق الحرة، حيث بلدنا من أهم القوى الصناعية، فهناك محاسبة لصاحب المصلحة. عائلات كارنجي، وميلون،[1] الرجال الذين بنوا هذه الإمبراطورية الصناعية، تأكدوا مما يفعلون بسبب أن أموالهم هي التي كانت في خطر. واليوم، الإدارة ليست لها حصة في الشركة! والنقطة المهمة هي أن الأفكار والسادة المحترمين، وهذا الطمع -لأنني لا أجد كلمة أخرى أفضل-أمر جيد. الطمع هو الصحيح. الطمع يعمل.

وما لم يدركه مشاهدو هذا الفيلم اليوم، هو أن الكلمات التي وضعها المخرج أوليفر ستون على لسان جوردون جيكو كانت، بشكل لافت للنظر، مشابهة لما كان يقوله المنظرون الرئيسيون حول رواتب المسؤولين التنفيذيين في هذا الوقت. في عام 1990 نشر مشيل جنسن من كلية هارفارد للأعمال، وكيفين

(1) عائلة ميلون هي عائلة أمريكية ثرية ومتنفذة من بطرسبرج بولاية بنسلفانيا. نشأت ثروة العائلة مع تأسيس ميلون لبنك في عام 1869. وأصبحت العائلة مستثمرا رئيسيا ومالكة لغالبية أسهم شركة نفط الخليج (التي تم تأسيسها عام 1901 وأصبحت شيفرون-تكساكو في عام 1985)، وشركة ألكوا (منذ عام 1886)، ومجلة منبر تكساكو (منذ عام 1970)، وكوبرس (منذ 1912)، ونيويورك لبناء السفن (1968-1899) وشركة الورق المفحم، إضافة إلى مساهمات رئيسية مؤثرة في شركات وستنجهاوس، وهاينز، ونيوزويك، ويو. إس. للصلب، وبنك كريدي سويس الأول في بوسطون، وشركة جنرال موتورز. وقد أسست العائلة أيضا قاعة العرض الوطنية للأعمال الفنية، كما خدم بعض أفراد العائلة في منصب وزير الخزانة. والعائلة راعية لجامعة بطرسبرج، وجامعة كارنجي ميلون، وجامعة ييل، وجامعة هوبيتال ألبرت شويتزر في هاييتي، وفي مجال الفن جامعة فرجينيا، وقد أسميت جامعة كارنجي ميلون كتكريم للعائلة، إضافة إلى مؤسسها أندرو كارنجي الذي كان شريكا مقربا من عائلة ميلون، إضافة إلى كلية ميلون للعلوم. كان رب العائلة المؤسس هو القاضي توماس ميلون (1908-1813) ابنا لأندرو ميلون وريكا واشوب المنحدرين من عائلات مزارعين إسكتلنديين- إيرلنديين هاجرا من إيرلندا إلى ضواحي بطرسبرج في ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة. (المترجم)، انظر:

Mellon family, Wikipedia, the free encyclopedia.

ميرفي من جامعة روتشيستر، مقالا في مجلة هارفارد للأعمال، لخصا فيه آراءهما التي كانت آراء نافذة بالفعل حول رواتب المسؤولين التنفيذيين. وكما أعلنا، كانت المشكلة مع مجال الأعمال الأمريكي، هي أن "التعويضات التي تدفع للمسؤولين التنفيذيين في القمة هي حقيقة مستقلة عن الإنجاز. ففي المتوسط تدفع الشركة الأمريكية لقادتها المهمين مثلما يدفع للبيروقراطية. ومن ثم فلا عجب أن العديد من المسؤولين التنفيذيين يتصرفون كالبيروقراطيين، عوضا عن التصرف كمنظمين للأعمال يسعون لتعظيم قيمة شركاتهم وتعزيز مكانتها في الأسواق العالمية!" وبمعنى آخر فالطمع أمر جيد.[1]

لماذا إذن لا تربط الشركات بين الرواتب والإنجاز؟ بسبب الضغوط الاجتماعية والسياسية.

لماذا لا تربط مجالس المديرين بشكل أوثق المرتبات بالإنجاز؟ يقدم المعلقون العديد من التفسيرات، ولكن تقريبا كل تحليل رأيناه يتغاضى عن مكون قوي: التكلفة الموجبة لجعل مرتبات المسؤولين التنفيذيين علنية. فقواعد الإفصاح الحكومية تحتم أن تبقى رواتب المسؤولين التنفيذيين موضوعا ظاهرا ومثار جدل.

وفوائد الإفصاح واضحة، فهي تقدم ضمانات ضد السلب والنهب بواسطة المديرين الذين يقومون بمباشرة العمل بالتواطؤ مع المديرين "الأسرى" الذين يضعونالخطط ويرسمون السياسات والتوجهات.

وتكاليف الإفصاح أقل تقديرا ولكنها قد تفوق الفوائد. فعقود مديري العمال ليست أمرا شخصيا بين صاحب العمل والعاملين. فالأطراف الثالثة تلعب دورا مهما في عملية التعاقد، حيث تعمل قوى سياسية قوية داخل وخارج الشركات على تشكيل رواتب المسؤولين التنفيذيين. وعلاوة على ذلك، فسلطة قرارات التعويضات لا تستند على المساهمين ولكن على لجان التعويضات التي يتم تشكيلها عامة من مديرين خارجيين. ويتم انتخاب هذه اللجان عن طريق المساهمين ولكنهم ليسوا وكلاء مثاليين عنهم. والإفصاح العام عن "ما الذي يفعله الرئيس" يعطي ذخيرة لجمهور الناخبين الخارجيين بأجنداتهم التي تتضمن

(1) Michael C. Jensen and Kevin J. Murphy, "CEO Incentives-It's Not How Much You Pay, but How," Harvard Business Review (May/June 1990), pp. 138-53.

مصالحهم الخاصة. وتتفاعل لجان التعويضات بشكل نمطي مع الهياج حول مستويات المرتبات المبالغ فيها بوضع حد أقصى-ضمني أو صريح-لكمية الأموال التي يجنيها المسؤول التنفيذي.[1]

وبمعنى آخر، فإن جنسن وميرفي كتبا ما كتباه في وقت كانت فيه رواتب المسؤولين التنفيذيين لا تزال منخفضة بمقاييس اليوم، معتقدين أن المعايير الاجتماعية، في شكل قيد الغضب، سوف تبقي على رواتب المسؤولين التنفيذيين منخفضة. وبالطبع فقد رأيا ذلك كأمر سيئ، وليس كأمر جيد. وقد صرفا النظر عن القلق بشأن الصفقات الذاتية التي يجريها المسؤول التنفيذي ووضعا "السلب والنهب" و"الأسرى" بين قوسين. ولكن تفسيرهما الضمني للاتجاهات في رواتب المسؤولين التنفيذيين كان هو ذاته التفسير الذي كان ينتقد الرواتب العالية. فقد أشارا إلى أن راتب المسؤول التنفيذي قد انخفض في الواقع بالقيم الحقيقية بين نهاية الثلاثينات وبداية الثمانينات، على الرغم من نمو الشركات لتصبح أكبر كثيرا. والسبب، كما أكدا، هو ضغط الجمهور. ولذا فقد كانا يجادلان بأن الاعتبارات الاجتماعية والسياسية، وليس القوى الاقتصادية الضيقة، تؤدي إلى تخفيضات حادة في الفرق بين دخل العمال والرؤساء في عهد ما بعد الحرب.

واليوم تعد فكرة أن الرواتب الضخمة هي جزء من فوائد النظام الذي يتم فيه منح المسؤولين التنفيذيين حافزا للأداء الجيد قد أصبح شيئا أشبه بالنكتة السخيفة. في مقال ظهر في مجلة فورتشن عام 2001 "السطو العظيم على راتب المسؤول التنفيذي"،[2] ملخص من التهكم والسخرية: لعلك تحسب أن الأمر يسير كما يلي: إن السهم لا يتحرك، ولذا فينبغي ألا تتم مكافأة المدير التنفيذي. ولكن الأمر يمضي في الحقيقة في الاتجاه العكسي، فالسهم لا يتحرك، ولذا علينا أن نجد بعض الأسس الأخرى لمكافأة المدير التنفيذي". وقد اقتبس المقال ميشيل جنسن النادم نوعا ما: "لقد كنت عامة قلقا في السابق من أن هؤلاء الرجال لا يتلقون رواتب بما يكفي. ولكني حتى الآن أشعر بالانزعاج".[3] ولكن بصرف النظر،فإن

---

(1) Ibid.

(2) http://money.cnn.com/magazines/fortune/fortune_archive/2001/06/25/305448/index.htm.

(3) Ibid.

العقيدة القائلة بأن الطمع أمر جيد فعلت فعلها، بالمساعدة على تغيير المعايير الاجتماعية والسياسية. فالرواتب التي كانت في السابق تشكل أخبارا في الصفحة الأولى، وتخلق غضبا حولها منذ جيل مضى، تصنف بالكاد على أنها تستحق الذكر اليوم.

وليس بمفاجأة أن رواتب المسؤولين التنفيذيين في بلدان أوروبا-التي لم تشهد نفس التغيرات في المعايير والمؤسسات-قد تخلفت كثيرا عن نظيرتها الأمريكية. فالمدير التنفيذي لشركة بريتش بتروليم، ومقرها في المملكة المتحدة، يتلقى أقل من نصف ما يتلقاه المدير التنفيذي لشركة شيفرون، وهي شركة في نصف حجم شركة بريتش بتروليم، ولكن مقرها في الولايات المتحدة. وكما عبر عن ذلك مستشار أوروبي في الرواتب: "ليس هناك عامل خزي في الولايات المتحدة. في أوروبا، هناك أكثر من مجرد اهتمام وقلق بشأن الأثر الاجتماعي".[1]

ومن أجل أن أكون منصفا، لم يكن المسؤولون التنفيذيون هم الأعضاء الوحيدين في النخبة الاقتصادية الذين رأوا دخولهم تحلق منذ السبعينات. فقد جادل بعض الاقتصاديين بأن هناك أنواعا معينة من التغيرات التكنولوجية، مثلصعودوسائل الإعلام الجماهيري، ربما تكون قد أنتجت فجوات كبيرة في الرواتب بين الأفراد الذين يبدون، على السطح، لهم نفس المؤهلات.[2]وحقيقة فربما يكون صعود وسائل الإعلام الجماهيري قد ساعد على تفسير لماذا يحصل المشاهير من مختلف الأنواع على أكثر بكثير جدا مما اعتادوا الحصول عليه في السابق. ومن الممكن المجادلة بأنه بطريقة غامضة ربما يمكن للتكنولوجيا المساعدة في تفسير لماذا اتسعت فجوات الدخول بين المحامين والمهنيين الآخرين: ربما تكون أجهزة الفاكس والإنترنت قد دعت الأكثر نفوذا وأهمية في المجال ينكبون على الكثير من العمل الذي يتطلب هذا الشيء الإضافي الموجود لديهم (ربما يشير الكاتب هنا إلى المعرفة والموهبة والخبرة-المترجم)، بينما المهنيون الأقل موهبة يتركون مع العمل الكادح الروتيني. مع ذلك، تُظهر رواتب المسؤولين التنفيذيين كيف أن

(1) "U.S.-style Pay Deals for Chiefs Become All the Rage in Europe," New York Times, June 16, 2006, p. A1.

(2) Sherwin Rosen, " The Economics of Superstars," American Economic Review 71, no. 5 (Dec. 1981), pp. 845-58

التغير في المؤسسات والمعايير يمكن أن يؤدي إلى تزايد عدم المساواة، وكما سبق ورأينا بالفعل، تشير المقارنات الدولية إلى أن المؤسسات، وليس التكنولوجيا، هي التي في قلب التغيرات التي حدثت خلال الثلاثين عاما الماضية.

السبب لماذا

تغيرت المؤسسات والمعايير في الولايات المتحدة منذ السبعينات بطرق شجعت أو سمحت بارتفاع حاد في عدم المساواة. لكن من أين، على أية حال، أتت التغيرات والمؤسسات؟ الإجابة تبدو أنها السياسة.

فلتأخذ بعين الاعتبار، على سبيل المثال، مصير النقابات. فقد كانت النقابات ذات يوم عاملا مهمّا في تحجيم عدم المساواة في الدخول، وذلك لتأثيرها المباشر في زيادة أجور أعضائها، وأيضا بسبب أن أسلوب النقابات في الوصول لتسويات الأجور-والتي بشكل ثابت كانت تعمل على رفع أجور العمال ذوي الأجور الأقل أكثر من الآخرين-كان، في الخمسينات والستينات، ينعكس في سوق العمل ككل. وكان انحدار النقابات قد أزال هذا النفوذ والتأثير المعتدل. ولكن لماذا انحدرت النقابات؟

الإجابة التقليدية هي أن هذا الانحدار هو نتيجة للتغير في هيكل قوة العمل. فوفقا لوجهة النظر هذه، اعتاد الاقتصاد الأمريكي أن يكون مهيمنا عليه عليه بواسطة الصناعة التحويلية، وهو أيضا القطاع الذي كانت توجد به النقابات القوية. فكر في النقابة المتحدة لعمال صناعة السيارات وعمال الصلب. أما الآن فنحن في الأغلب اقتصاد خدمات، جزئيا بسبب التغيرات التكنولوجية، وجزئيا بسبب أننا نستورد العديد من سلع الصناعة التحويلية. وبكل تأكيد، إذن، فربما يفسر تراجع التصنيع انحدار النقابات.

إلا أنه اتضح أن هذا غير صحيح. لقد تراجعت الصناعة التحويلية في الأهمية، ولكن معظم الانحدار في عضوية النقابات أتى من انهيار الانضمام إلى النقابات داخل الصناعة التحويلية ذاتها، من 39% من العمال في عام 1973 إلى 13% في عام 2005. أيضا، ليس هناك قانون اقتصادي يقول إن الانضمام إلى النقابات ينبغي أن يكون مقيدا بالصناعة التحويلية فقط. بل على النقيض، فشركة مثل وول مارت التي لا تواجه منافسة أجنبية، ينبغي أن تكون حتى هدفا أفضل لتكوين نقابي

عـن شركات الصناعـة التحويليـة. فكـر كيـف سـيغير هـذا وجـه الاقتصـاد الأمريـكي: لـو كان العاملـون في وول مـارت جـزءا مـن نقابـة يمكنهـا أن تطالـب بأجـور أعـلى ومزايـا أفضـل، فلربمـا تكـون أسـعار التجزئـة أعـلى قليـلا، ولكـن عمـلاق تجـارة التجزئـة لـن يخـرج مـن العمـل، وكان عـدد أعضـاء الطبقـة الوسـطى سـيزيد بعـدة مئـات الألـوف. تخيـل تمديـد تلـك القصـة لعمالقـة تجـارة التجزئـة الآخريـن، ويمكنـك أن تلتقـط الإحسـاس بكيـف حـدث الانضغـاط العظيـم في ظـل رئاسـة فرانـك ديلانـو روزفلـت.

لمـاذا، إذن، لا يتـم تكويـن نقابـة في وول مـارت؟ لمـاذا، عمومـا، تقهقـرت الحركـة النقابيـة في الصناعـة التحويليـة بينـما فشـلت في اكتسـاب أعضـاء في صناعـات الخدمات الصاعـدة؟ والإجابـة بسـيطة ومُـرة: مصالـح الأعمالالتـي بـدا أنهـا وصلـت إلى التوافـق مـع الحركـة العماليـة في السـتينات، بـدأت في الهجـوم عـلى النقابـات بدايـة مـن السـبعينات. ونحـن لا نتكلـم عـن الإقنـاع الهـادئ، ولكننـا نتحـدث عـن تكتيـكات قاسـية، تضمنـت عـادة الفصـل غـير القانـوني للعـمال الذيـن حاولـوا تنظيـم أو دعـم النشـاط النقـابي. وخـلال أواخـر السـبعينات وأوائـل الثمانينـات كان واحـد مـن بـين كل عشريـن عامـلا صـوّت للنقابـة قـد تـم فصلـه بشـكل غـير قانـوني. بعـض التقديـرات تضـع هـذا الرقـم عنـد مسـتويات أعـلى تبلـغ واحـدا مـن كل ثمانيـة عـمال.

وانهيـار الحركـة النقابيـة في الولايـات المتحـدة التـي حدثـت بدايـة من السـبعينات ليـس لهـا نظـير في أي أمـة غربيـة أخـرى. يظهـر جـدول 5 مقارنـة صارخـة بـين الولايات المتحـدة وكنـدا، ففـي السـتيناتكانت القـوة العاملـة في الولايـات المتحـدة، مـن حيـث عضويـة النقابـات أفضـل قليـلا مـن عضويـة القـوة العاملـة الكنديـة. ومـع نهايـة التسـعينات، عـلى أيـة حـال، كانـت نقابـات الولايـات المتحـدة قـد طـردت مـن القطـاع الخـاص، بينـما كانـت الحركـة النقابيـة الكنديـة سـليمة في الجوهـر. فقـد تحـول المنـاخ السـياسي الأمريـكي ليصبـح مواتيـا لإفشـال النقابـات، بينـما لم يشـهد المنـاخ السـياسي الكنـدي ذلـك.

لقـد وصفـت في الفصـل السـادس مركزيـة مكافحـة النقابـات في صعـود بـاري جولدووتـر، والطريقـة التـي لعبـت بهـا معارضـة النقابـات دورا رئيسـيا في تقويـة القاعـدة في مجـال الأعـمال للحركـة المحافظيـة. وبحلـول منتصـف السـبعينات، كان لـدى الحركـة المحافظيـة نفـوذ سـياسي كاف بحيـث شـعرت دوائـر الأعـمال أنهـا لديهـا القـوة لتحـدي النقابـات.

وبمجرد تولي رونالد ريجان لمنصب الرئيس اكتسبت الحملة ضد النقابات دعما وتحريضا بالدعم السياسي من أعلى المستويات. وكان قمع ريجان، بوجه خاص، لنقابة مراقبي الحركة الجوية إشارة للانقضاض واسع النطاق على النقابات في كل أرجاء الاقتصاد.

جدول 5. نسبة عضوية النقابات للعمال الذين يتلقون أجورا ورواتب

السنة	الولايات المتحدة	كندا
1960	30.4	32.3
1990	13.5	32.6

Source: David Card, Thomas Lemieux, and W. Craig Riddle, Unionization and Wage Inequality: A Comparative Study of the U.S., the U.K., and Canada (National Bureau of Economic Research working paper no. 9473, Jan. 2003).

وكان تراجع النقابات -التي كانت يوما ما عائقا قويا أمام عدم المساواة- سياسيا بأوسع معنى للكلمة. إذ كان ذلك تمرينا على استخدام القوة داخل الحكومة وفي مجتمعنا ككل.

ولفهم التباعد العظيم، إذن، فنحن بحاجة لفهم كيف تأتى للحركة المحافظية أن تصبح مثل هذا العنصر القوي في الحياة السياسية الأمريكية.



الفصل الثامن
سياسة عدم المساواة

لمدة ستة أعوام، من عام 1994 وحتى نهاية فترة إدارة كلينتون، خاض الكونجرس الجمهوري والرئيس الديمقراطي في صراع قوة مرير. وكانت دراما محاكمة الرئيس في عام 1998 هي الحدث الذي يتذكره معظم الناس. ولكن إغلاق الحكومة[1] في عام 1995، والذي كان أمر يتعلق بشؤون الدولة وليس سلوكا

(1) إغلاق الحكومة الأمريكية في عام 1995 و1996-1995 كان نتيجة للنزاع بين الرئيس الديمقراطي بيل كلينتون والكونجرس الجمهوري حول تمويل برنامج الرعاية الصحية، والتعليم، والبيئة، والصحة العامة في الميزانية الفيدرالية لعام 1996. وقد تم إغلاق الحكومة بعد أن استخدم كلينتون حق الاعتراض (الفيتو) على مشروع قانون الإنفاق الذي أرسله له الكونجرس الذي يسيطر عليه الجمهوريون. وقد اتخذت الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة قرارا بالتسريح الموقت للعاملين في الحكومة، وعلقت الخدمات غير الأساسية من 14 نوفمبر إلى 19 نوفمبر 1995، ومن ديسمبر 1995 إلى 6 يناير 1996، وقد استغرق الإغلاق 27 يوما في عام 1995. وكان اللاعبان الرئيسيان في تلك الأزمة الرئيس بيل كلينتون ورئيس مجلس النواب نيوت جينجريتش. (المترجم)،انظر:
Unitd States federal government shutdowns of 1995-1996,Wikipedia, the free encyclopedia.

شخصيا، هو الذي كشف أكثر عن هذا الصراع. لقد كان قتالا بين رؤى مختلفة حول الحكومة والمجتمع.

وقد حدث الإغلاق بشكل أساسي بسبب نيوت جينجريتش، رئيس مجلس النواب، حيثكان يحاول فرض خطته التي تقضي بإحداثخفض حاد في تمويل ميديكير[1] (برنامج التأمين الصحي للمسنين الذين يبلغ عمرهم 65 عاما فأكثر- المترجم) وبنفس القدر من الأهمية يعطي المسنين الأصحاء حافز للانسحاب من ميديكير، وإضعاف كل من شمول البرنامج وقاعدته المالية. وفي الواقع فقد أراد جينجريتش إخضاع ميديكير للموتالبطيء بالاختناق. وكان لدى جينجريتش أصوات كافية لتمرير هذه الخطة من خلال الكونجرس، ولكنه لم يكن يملك الأصوات لإلغاء حق الاعتراض الرئاسي. ولذا فقد حاول إكراه كلينتون بحرمان الحكومة الفيدرالية من التمويل الذي تحتاجه لكي تستمر في العمل.

ولا يعني الإغلاق الفيدرالي حرفيا أن كل المكاتب الحكومية ستغلق. فنحو نصف القوة العاملة الفيدرالية ظلت في وظائفها، والخدمات الأكثر أساسية تم الحفاظ عليها. ولكن فظاظة وخشونة الحدث لا تزال لافتة: كان الجمهوريون على استعداد للعب لعبة خطرة مع قدرة الحكومة على العمل في مسعاهم لإزالة واحد من أعمدة دولة الرفاه في الولايات المتحدة.

وكما اتضح، فقد أساء جينجريتش تقدير كل من كلينتون والناخبين. فقد ظل كلينتون صامدا بثبات. ولام الجمهور جينجريتش، وليس إدارة كلينتون، على المواجهة، وفي النهاية تراجع الجمهوريون. واتهام كلينتون بعد ثلاثة أعوام، الذي يبدو على خلاف ذلك حدثا غريبا، كان أفضل فهم له أنه محاولة من جينجريتش للانتقام. وقد أوضح إغلاق 1995 ما الذي أضحت عليه سياسة التحزب الأمريكية، وبخلاف التقصير فقد بينت مواجهة الإغلاق ما كان عليه التحزب الأمريكي حقا.

---

(1) أصر الجمهوريون آنذاك على أنهم لا يقترحون خفضا في برنامج الرعاية الصحية للمسنين، لأن كمية الدولارات المنفقة لكل مسن سوف تستمر في الارتفاع في ظل مقترحهم. ولكن الزيادات في التمويل كانت سوف تقصر عن الزيادات في التكاليف الطبية، ولذا فقد كانوا في الواقع يقترحون تخفيضات كبيرة، وقد ميزت مراوغات مماثلة الجدال حول الضمان الاجتماعي في عام 2005.

وقد عانى العديد من الشخصيات في السياسة والصحافة من مرض أطلق عليه بعض الليبراليين "البوردرية"[1] الذي أدى إلى رثاء الثنائية الحزبية الراحلة، ولكن يجري الحديث كما لو أن عدم قدرة سياسيي اليوم على التغلب على المشكلات وإقرار التفاهم هو نتيجة لخلل غامض في الشخصية. وليس هناك شك في أن بعض قادتنا السياسيين لديهم وفرة في خلل الشخصية؛ كان لكلينتون مشكلاته، وجينجريتش الذي استمر في شؤونه الخاصة مع إحدى مرؤوساته[2] حتى عندما كان يدين فجور كلينتون، مستعرضا توليفة من العظمة المتكلفة والنفاق النادرين حتى بين السياسيين. ولكن السياسة، وليست الشخصيات، هيالسبب في أن السياسة قد أصبحت شديدة المرارة ومتحزبة.

فالعصر العظيم للثنائية الحزبية لم يكن انعكاسا للشخصية المهذبة السلوك لدى الجيل السابق من السياسيين. بل على خلاف ذلك، فقد عكست تلك الثنائية الحزبية طبيعة التغلب على مصاعب النزاعات السياسية في عصر لم تكن الأحزاب فيه متباعدة بعضها عن بعض في القضايا الأساسية. في أعقاب انتخابات عام 1948 قرر الجمهوريون أن إنجازات الصفقة الجديدة لا يمكن عكسها، وتوقفوا عن محاولة ذلك، بينما الديمقراطيون، الذين صنعوا ثورة في الثلاثينات والأربعينات، استقروا على برنامج الإصلاح المتزايد. وكانت النتيجة عصرا يبلغ طوله جيلا كاملا من الثنائية الحزبية الهادئة. وقد انتهى هذا العصر، وبزغت حزبية مريرة، حينما غير الجمهوريون تفكيرهم للمرة الثانية. والسبب وراء وجود كراهية شديدة بين الحزبين اليوم هو أنه بداية من السبعينات أصبح الحزب الجمهوري، مرة أخرى، حزبا معروفا بمعارضته لفرض الضرائب على الأغنياء ومنح المزايا للفقراء والطبقة الوسطى، وقادرا على فعل كل ما يلزم من أجل تعزيز هذه الأجندة.

وفهم طبيعة الانقسام الحزبي شيء؛ وفهم أسبابه شيء آخر. في الواقع فرض زحف الحزب الجمهوري نحو اليمين لُغزين عظيمين: أولا، لماذا يشن واحد من

---

(1) أطلق هذا الوصف على اسم دايفيد بوردر كاتب عمود في واشنطن بوست، و"عميد صحفيي واشنطن"، أمضى معظم عهد بوش واضعا اللوم في الشقاق بشكل متساو على جميع الأطراف.

(2) الإشارة هنا إلى فضيحة جنسية طالت نيوت جينجريتش وكُشف عنها في أثناء ترشحه للرئاسة عام 2012 في مواجهة باراك أوباما، إذ قيل إنه عرض على زوجته البقاء ضمن علاقة زواج "غير مشروط" حتى يتاح له استمرار علاقته بعشيقته التي تزوجها بعد ذلك بعد أن طلق زوجته. (المترجم)

الحزبين الأمريكيين الكبار حملة لتفكيك دولة الرفاه في عصر يتزايد فيه عدم المساواة بسرعة، ومن المفترض أن يكون فيه فرض ضريبة على الأغنياء لكي يمكن تقديم مزايا للطبقة الوسطى والطبقة الدنيا أكثر شعبية، وليس أقل شعبية؟ وثانيا، لماذا كان الحزب الجمهوري قادرا على كسب عدد كبير من الانتخابات، على الرغم من أجندته الاقتصادية المضادة للشعبية؟

في هذا الفصل سأحاول حل اللغز الأول، مبقيا على السؤال الثاني للفصل التالي. وقبل أن أصل إلى هناك، على أية حال، دعني أتعامل مع الاعتراض الشائع: مهما ادعى الحزبان أو أيا كان ما يقولانه، فإنهما ليسا مختلفين تماما فيما يفعلانه.

الانقسام الحزبي

خلال حملته الانتخابية عام 2000 سخر المرشح لانتخابات الرئاسة رالف نادر من السياسيين في الحزبين الرئيسيين، باعتبارهما "جمهورقراطيين" لا يمكن التمييز بينهما كممثلين لمصالح الأثرياء. وحتى في هذه الانتخابات، حينما استطاع جورج دبليو بوش، إلى حد ما، اجتذاب الصحافة لتصفه باعتباره معتدلا، اختلف رأي معظم الأمريكيين عن ذلك، وعند هذه النقطة رأت الغالبية العظمى من الأمريكيين أن الحزبين مختلفين جدا في الحقيقة. رغم ذلك، فكيفية إدراك الأحزاب لا يمكن أن تكون مرشدا جيدا لما يفعلانه بالفعل. فهل هما حقيقة كانا على مثل هذا الاختلاف؟

حينما أصبح رالف نادر شخصية مرموقة في الستينات، كان الحزبان حقيقة متماثلين كما قال. وحتى منتصف السبعينات كان من الصعب التمييز بين الحزبين بعدة طرق: فقد خفض جون ف. كيندي الضرائب، ورفعها ريتشارد نيكسون، وكان التصويت على التشريعات الرئيسية غالبا ما يتضمن تصويتات واضحة عابرة للحزبيَة في الاتجاهين. (أي تصويت الديمقراطيين في صالح تشريعات تؤيدها غالبية الجمهوريين أو العكس-المترجم). فعلى سبيل المثال، أتى جانب مهم من التصويت المؤيد لبرنامج الرعاية الصحية للمسنين"Medicare" وبرنامج الرعاية الصحية للعائلات المنخفضة الدخل "Medicaid" من جمهوريين، بينما كانت هناك معارضة ملموسة للبرنامجين من ديمقراطيين. وفي التصويت النهائي في

مجلس النواب، صوت سبعون جمهوريا بنعم، بينما صوت سبعة وأربعون نائبا ديمقراطيا بلا. ولكن هذا كان عصرا آخر.

ولرؤية كيف اختلفت الأمور، ضع مؤشرا واحدا سهل القياس للاختلاف ما بين الحزبين: السياسة الضريبية، وخاصة تجاه الأثرياء. فقد بدأ كل من ريجان وكلينتون وجورج دبليو بوش عهد إدارته بتغيير رئيسي في السياسة الضريبية. فبينما خفض كل من ريجان وبوش الضريبة على الأغنياء، رفعها كلينتون عليهم.

وبشكل خاص، بدأ ريجان فترته بتخفيضات حادة في معدلات ضريبة الدخل الشخصي، وخفض حاد في معدل الضريبة الفعال على أرباح الشركات. وكل من هذين المقياسين يقدم مزايا كبيرة غير متناسبة للعائلات المرتفعة الدخل، التي تدفع بداية معدل ضرائب دخل أعلى، وأيضا تمتلك معظم الأسهم التي تستفيد من ضرائب الشركات الأقل. وعلى النقيض من ذلك رفع كلينتون معدل ضرائب الدخل على شرائح الدخل الأعلى، بينما قلص الحد الأعلى على ضريبة الرواتب لبرنامج الرعاية الصحية للعائلات منخفضة الدخل، وهو ما أصاب أساسا نفس مجموعة النخبة التي كانت المستفيد الأول من خفض ريجان للضرائب. وخفض بوش الضرائب مرتين، في عام 2001 و2003، واستغل الوهم المقتضب بالنجاح في العراق ليدفع نحو جولة ثانية من الخفض. وقد تمثل الخفض الأول في إجراءخفض حاد على المعدل الأقصى لضريبة الدخل وألغى تدريجيا الضريبة العقارية، والتي يقع عبئها على الأثرياء فقط، بينما تَمثل الخفض الثاني في خفض الضرائب على الأرباح الموزعة على الأسهم والمكاسب الرأسمالية، ومرة أخرى فالمستفيدون الأساسيون هم الأمريكيون أصحاب أعلى الدخول.

ويظهر جدول 6 معدل الضريبة الفعال الحقيقي الذي يدفعه الـ1% على القمة من السكان-أي،النسبة من دخل الأفراد في هذه المجموعة (التي يناظر دخلها حاليا نحو 425 ألف دولار سنويا فأكثر) الذي تدفعه حقيقة كضرائب-في سنوات مختارة. والأمر أكيد بما فيه الكفاية، لقد ربح الأغنياء الكثير في أثناء حكم ريجان وبوش الثاني، بينما خسروا كثيرا في فترة حكم كلينتون. (في كل من سنوات ريجان وكلينتون تآكلت التغيرات الأولية في السياسة الضريبية على مر الزمن، إذ كان على كل رئيس أن يتعامل مع كونجرس يسيطر عليه الحزب المعارض، ولكن النقطة ما زالت قائمة).

جدول6. معدلات الضريبة الفيدرالية المتوسطة على شريحة الـ1% الأعلى دخلا

34.6	1980
27.7	1982
30.6	1992
35.8	1994
33.0	2000
31.1	2004

Source: Congressional Budget Office, "Historical Federal Effective Tax Rates," http://www.cbo.gov/ftpdoc.cfm?index=7718&type=1.

ومر معظم هذه التغييرات الضريبية وفقا لتصويت يتبع الخط الحزبي. فقد مرت زيادة كلينتون-جور[1] الضريبية في عام 1993 في مجلس النواب من دون صوت جمهوري واحد مؤيد لها؛ ومر خفض بوش الضريبي في مجلس النواب عام 2003 بصوت جمهوري واحد معترض، وتصويت سبعة ديمقراطيين فقط لصالح الخفض. وكان قانون البنزين للأمن الأمريكي لعام -2005وهو بشكل أساسي عدة إعفاءات ضريبية لكل شركات النفط-قد مر بصوت واحد، إذ صوت 13 جمهوريا فقط ضد إقرار القانون ولم يكن هناك صوت ديمقراطي واحد مؤيد له.

وقد يبدو سجل الإنفاق أقل وضوحا، ولكن هذا فقط لأن الحزبين كانا أقل قدرة على تنفيذ أجندتيهما.

(1) ألبرت أرنولد "آل" جور الابن (31 مارس -1948) نائب رئيس الولايات المتحدة الخامس والأربعين في عهد الرئيس كلينتون من عام 1993 وحتى 2001. وهو رجل أعمال ومن مناصري الدفاع عن البيئة. وكان مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة عام 2000 وخسر الانتخابات رغم فوزه بأصوات الناخبين بفارق أكثر من نصف مليون صوت،فقد خسر في المجمع الانتخابي لصالح جورج دبليو بوش عندما سوت المحكمة العليا الجدل القانوني حول إعادة فرز أصوات ولاية فلوريدا عبر الحكم بـ 5-4 لصالح بوش. وكان آل جور مسؤولا منتخبا لمدة 24 سنة،إذ خدم لمدة ثمان سنوات كعضو بمجلس النواب ومثلها في مجلس الشيوخ ومثلها أيضا كنائب للرئيس. أسس بعد هزيمته في الانتخابات عددا من المنظمات غير الربحية منها التحالف لحماية البيئة، وقد حاز جائزة نوبل للسلام لنشاطه في مجال تغير المناخ. (المترجم)، نقلا عن موسوعة ويكيبيديا، مادة آل جور.

فقد حاول ريجان في البداية إقرار تخفيضات عميقة في الضمان الاجتماعي، وتخلى عن المحاولة فقط في وجه معارضة جارفة في الكونجرس وكذا لرد فعل الجمهور. ولكن ريجان، على أية حال، تمكن من تمرير قواعد جديدة خفضت من فوائد برنامج طوابع الغذاء، والمعونات للعائلات التي تعول أطفالا، وتأمين البطالة. وهناك محاولة كلينتون الشهيرة في تقديم نوع من الرعاية الصحية الشاملة، وفشل كلية. ولكنه تمكن، على أية حال، من تحقيق زيادة كبيرة في ائتمان ضريبة الدخل المكتسب، والتي رفعت من مستوى دخول العمال أصحاب الدخل المنخفض.

وبعد أن مكنت انتخابات 1994 الجمهوريين من السيطرة على الكونجرس، حاولوا-كما رأينا-تقويض تمويل برنامج الرعاية الصحية للمسنين. وقد فشلوا، بينما تمكن بوش الصغير من تمرير توسع ملموس في برنامج الرعاية الصحية للمسنين، ليغطي الأدوية التي يوصي بها الطبيب. ولكن هذا كان بكل وضوح بنيّة تقديم غطاء سياسي، وكان البرنامج الجديد مصمما بطريقة تحابي مصالح شركات الأدوية. وعلاوة على ذلك، فبتقديمه دعما كبيرا لخطط مزايا برنامج الرعاية الصحية للمسنين، إذ كانت أموال الضرائب تتسرب من خلال وسطاء القطاع الخاص، أخذ مشروع قانون بوش لبرنامج الرعاية الصحية للمسنين خطوة جوهرية نحو هدف جينجريتش في خصخصة البرنامج. وسعى بوش في عام 2005 لخصخصة جزئية للضمان الاجتماعي، في حين قلص وعوده بفوائد مستقبلية؛ ولو كان قد تم تطبيقها لكانت خطة بوش قد قضت على الضمان الاجتماعي التقليدي خلال بضعة عقود قليلة. ومثل محاولة ريجان تقليص الضمان الاجتماعي، على كل حال، فشلت هذه المحاولة سريعا.

لذلك فالاختلافات بين الحزبين ليست وهما. فالجمهوريون يخفضون الضرائب على الأغنياء ويحاولون تقليص مزايا الحكومة وإضعاف دولة الرفاه. بينما الديمقراطيون يزيدون الضرائب على الأغنياء في الوقت الذي يحاولون فيه توسيع المزايا الحكومية وتقوية دولة الرفاه.

وعلى الجمهور التقاط التغيير. ففي الستينات والسبعينات، مال الناخبون للانقسام بشكل متساو تقريبا بشأن السؤال عما إذا كان هناك اختلاف ملحوظ

بين الحزبين. ولكن بحلول عام 2004، على أية حال، رأى 76% من الأمريكيين أن هناك اختلافات ملحوظة بين الحزبين، مقارنة بنحو 46% في عام 1972.(1)

دفع الحزب الجمهوري نحو التطرف

أعلن الرئيس أن "التأمين الصحي الشامل، فكرة حان أوانها في أمريكا. لنقم بالعمل الآن من أجل أن نضمن لكل الأمريكيين الوسائل المالية اللازمة للحصول على رعاية صحية مرتفعة". هل كان ذلك الذي يتحدث هو بيل كلينتون؟ لا، لقد كان ريتشارد نيكسونالذي كانت خطتة للتأمين الصحي الشامل، المقترحة في عام 1974، تماثل إلى حد كبير تلك الخطط التي قدمها الليبراليون الديمقراطيون مثل جون إدواردز اليوم. ولم ير التشريع النور لوقت طويل، على أية حال، بسبب طي ريتشارد نيكسون في قضية ووترجيت.(2)

وتقول أحيانا الحركة المحافظية الحديثة، بازدراء، إن نيكسون حكم كليبرالي. وفيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية وسياسة البيئة، كان هذا صحيحا، على الأقل بمعايير اليوم. إضافة إلى اقتراح التأمين الصحي الشامل، ضغط نيسكون من أجل ضمان حد أدنى من الدخل. وعلى جانب الإيرادات مرر نيكسون زيادة في الضرائب في عام 1969، تضمنت ابتكار بديل الحد الأدنى للضرائب يشمل اتخاذ إجراءات صارمة ضد الأمريكيين الأثرياء الذين يتمكنون من استخدام الملاجئ الضريبية لتجنب دفع الضريبة. وعلى جبهة أخرى فقد مرر قانون الهواء النظيف، وأرسل العشرات من الإجراءات البيئية للكونجرس. وأبلغني خبراء هيئة حماية البيئة أن سنوات نيكسون كانت سنوات ذهبية.

ونيكسون، باختصار، كان شخصية انتقالية. فعلى الرغم من أنه استخدم العديد من التكتيكات السياسية المرتبطة بالحركة المحافظية، فقد كان براجماتيا عوضا عن أن يكون أيديولوجيا، كما هي حال العديد من الجمهوريين. وقد

(1) American National Election Studies, “The ANES Guide to Public Opinion and Electoral Behavior,” table 2B-4, http://electionstudies.org/nesguide/toptable/tab2b_4.htm.

(2) "رسالة خاصة للكونجرس تقترح خطة تأمين صحي شامل"، 6 فبراير 1974
httpوo://www.presidency.ucsb.edu/ws/index/php?pid=4337.

تغيرت شخصية الحزب الجمهوري بسرعة بعد سنوات نيكسون. في عام 1984 نشر توماس إيدسال من واشنطن بوست كتابالسياسة الجديدة لعدم المساواة، وهو تحليل عميق ونافذ البصيرة وتنبُّئي بشكل لافت للنظر عن التغيرات التي كانت حادثة بالفعل في السياسة الأمريكية. وفي جوهر تحليله كان هناك إعادة تجديد ودفْع نحو تطرف الحزب الجمهوري الذي، من وجهة نظره، حدث عند نحو منتصف إلى نهاية السبعينات:

ومثل هذه المجموعات التي كانت في السابق عدائية ومتشككة في بعضها باعتبارها تمثل جماعات الضغط لصالح الشركات،ومنظمات أيديولوجية الجناح اليميني الملتزمة بفئة من القيم الاجتماعية والثقافية،ومصالح رواد الأعمال في حزام الشمس،[1] وخاصة شركات البترول المستقلة، وعدد ممن يطلق عليهم المحافظين الجدد أو مفكري الحرب الباردة ذوي وجهات النظر المتشددة في مجال الدفاع والسياسة الخارجية والذين، على الرغم من أنهم في بعض الأحيان كانوا ديمقراطيين اسما، يقدمون الدعم لسياسة وسياسات الحزب الجمهوري، واقتصاديين يدعون إلى إجراء تحول راديكالي في النظام الضريبي، ومع تفضيل ضريبة تميل للانخفاض تجاه الشركات والموسرين- وجدت كل هذه المجموعات أن الحزب الجمهوري يقدم لهم أرضية مشتركة كافية لتشكيل تحالف بينهم.[2]

وبمعنى آخر، استولت الحركة المحافظية على الحزب الجمهوري.

وكان رونالد ريجان هو أول رئيس من الحركة المحافظية. وفي الدائرة الداخلية لرونالد ريجان، كانت هناك آراء ترتبط بما سبق ووصفه الرئيس أيزنهاور ذات مرة "مجموعة شظية ضئيلة" مهيمنة، فدايفيد ستوكمان، مدير ميزانية ريجان، اعتبر الضمان الاجتماعي مثالا على "اشتراكية سرية"، بينما أنصار نظرية العرض المتحمسون الذين آمنوا بأن خفض الضرائب سوف يزيد من العائدات، أعطيت لهم مناصب رئيسية في وزارة الخزانة وفي أماكن أخرى في الحكومة. كما فعل ريجان أيضا ما بوسعه لكي يعكس إنجازات نيكسون البيئية، فخفض ميزانية هيئة حماية البيئة ودمر أنشطتها التنفيذية. ووزيره الأول للداخلية، جيمس وات، كان معارضا متحمسا لحماية البيئة مع روابط قوية مع اليمين الديني الذي

(1) راجع تعريف بحزام الشمس في الفصل السادس. (المترجم)

(2) Thomas Edsall, The New Politics of Inequality (W. W. Norton, 1984), p. 73.

يحصل على الخمس من كمية الأراضي العامة المفتوحة للتنجيم عن الفحم. وقد اشتهر وات بإجباره على الاستقالة بعد أن تباهى بأن هيئة العاملين معه تضم "شخصا أسود، وامرأة، واثنين من اليهود، وشخصا مُقعدا".[1]

وكانت قدرة ريجان على فرض أجندة الحركة المحافظة محدودة بحدود الحقائق السياسية. فقد هيمن الديمقراطيون على مجلس النواب طوال فترة حكمه. وحاز الجمهوريون على الأغلبية في مجلس الشيوخ حتى آخر عامين له في الحكم، ولكن العديد من الشيوخ الجمهوريين كانوا لا يزالون معتدلين على نمط أيزنهاور. وهذه الحقائق السياسية أجبرت ريجان على الاعتدال في سياساته. فعلى سبيل المثال، على الرغم من أن دائرته الداخلية أرادت تخفيض مزايا الضمان الاجتماعي، فقد أُجبر في نهاية المطاف على تأمين تمويل الضمان الاجتماعي عبر زيادة الضرائب بدلا من ذلك.

وبعد ريجان، على أية حال، أصبح الحزب الجمهوري متطرفا تماما. فلتأخذ مثلا بعين الاعتبار البرنامج السياسي لعام 2004 للحزب الجمهوري في تكساس الذي يعطي فكرة عما يفكر فيه -حقيقة- المخلصون في الحزب: إن البرنامج السياسي الوطني يجب أن يقدم على الأقل مظهرا للاعتدال، ولكن في تكساس بإمكان الجمهوريين أن يكونوا جمهوريين. وقد دعا البرنامج إلى التخلص من هيئات فيدرالية "تتضمن، ولكن لا تقتصر على، هيئة المشروبات الكحولية، والتبغ، والأسلحة، ومنصب وزير الصحة، وهيئة حماية البيئة، ووزارات الطاقة، والإسكان والتنمية الحضرية، والخدمات الصحية والإنسانية، والتعليم، والتجارة، والعمل". ودعا البرنامج أيضا إلى خصخصة الضمان الاجتماعي وإلغاء الحد الأدنى للأجور. وفي الواقع فقد أرادجمهوريو تكساس إبطال الصفقة الجديدة بالكامل.

وفي الواقع أرادت الحركة المحافظة أن تمضي حتى أبعد من ذلك، كما وضح ذلك عبر الحملة الداعية إلى إنهاء الضرائب على الثروة الموروثة. وكانت الضريبة العقارية مؤسسة قديمة، إذ تم وضعها في صيغتها الحديثة قيد التنفيذ في عام 1916. وهي الضريبة الأكثر تصاعدية بين الضرائب الفيدرالية، أي أن عبئها كان يقع أكثر بشكل غير متناسب على الأثرياء مقارنة بأي ضريبة أخرى. وفي نهاية

(1) Frances X. Clines, “Watt Asks That Reagan Forgive ‘Offensive’ Remark About Panel,” New York Times, September 23, 1993.

التسعينات، وقبل تخفيض بوش الضريبي، كان لدى نحو 2% فقط من المتوفين عقارات كبيرة بما يكفي لكي يفرض عليها أي ضريبة على الإطلاق. وفي حدود الدخل، كانت نسبة الـ1% الأغنى من السكان تدفع تقريبا نحو ثلثي الضرائب العقارية، ونسبة الـ10% الأغنى تدفع 96% من هذه الضرائب.[1]

وحيث إن حفنة فقط من الناخبين هي التي تدفع الضرائب العقارية، بينما الكثير من الناخبين يستفيدون من برامج الحكومة التي تساعد الضريبة العقارية على دفع تمويلها، فأي حزب يسعى لتلبية حاجات الناخبين الوسيطين أو النمطيين سيكون -ربما تفكر- ميالا لترك الضريبة العقارية على حالها. وفي الواقع، هذا ما فعله الجمهوريون لمدة سبعين عاما، فالمحاولة الأخيرة الجادة لإلغاء الضريبة العقارية حتى جرت المحاولات الراهنة كانت في عام 1925-1926. وفشلت هذه المحاولة إلى حد كبير بسبب معارضة حتى بعض الجمهوريين لإلغائها.[2] ولكن في التسعينات بدأ الحزب الجمهوري جعل إلغاء الضريبة العقارية أولويةمرة أخرى. وتضمنت تخفيضات بوش الضريبية لعام 2001 الإلغاء التدريجي للضريبة العقارية، بتخفيض المعدلات الضريبية وزيادة الإعفاءات، لتخلص إلى الإلغاء الكامل للضريبة بحلول عام 2010. وبمعنى آخر بدا الحزب الجمهوري اليوم مستعدا للمضي أبعد مما ذهب إليه الحزب الجمهوري فيالعشرينات، أي خلال السنوات الأخيرة للعصر الذهبي للعصر المُذهَّب الطويل، في خفض الضرائب على الأثرياء.

وبعض من أعضاء الاتجاه المحافظ صريحون في إبداء رغبتهم في إعادة عقارب الساعة للوراء. فجروفر نوركويست، المؤيد للاتجاه المعارض للضرائب والذي تم وصفه بأنه "المشير" في حملة خفض الضرائب، مشهور بقوله: "هدفيهو تقليص الحكومة إلى النصف خلال خمسة وعشرين عاما، لتخفيضها إلى الحجم الذي يمكننا من إغراقها في حوض الاستحمام".[3] بل وحتى الأكثر كشفا، على أية

(1) Decedents, http://www.taxpolicycenter.org/Tax Facts/TFTemplate.cfm? Docid=52&Topic=60; distribution, http;//www.taxpolicycenter.org/TaxFacts/TFDB/TFTemplate. Cfm?Docid=50&Topic2id=60.

(2) Michael Graetz and Ian Shapiro, Death by a Thousand Cuts (Princeton University Press, 2005), pp. 222-24.

(3) Robert Dreyfuss, "Grover Norquist: Field Marshal of the Bush Plan," The Nation, May 14, 2001.

حـال، هـو تصريحـه الـذي قـال فيـه بأنـه يريـد إعـادة أمريـكا إلى "عهـد مكينلي،[1] مـن دون الحمائيـة"، أي إلى الطريـق الـذي كانـت عليـه أمريـكا "حتـى تيـدي روزفلـت، حينـما سـيطر الاشـتراكيون. ضريبـة الدخـل، وضريبـة المـوت، والقواعـد التنظيميـة، وكل هـذا".[2]

والحـزب الجمهـوري الحديـث، إذن، تـم الاسـتيلاء عليـه مـن جانـب الراديكاليـين: أنـاس يريـدون إلغـاء القـرن العشريـن. ولم يكـن هنـاك أي تطـرف مقابـل للحـزب الديمقراطـي، ولـذا فاسـتيلاء الجنـاح اليمينـي عـلى الحـزب الجمهـوري هـو السـبب الكامـن وراء الانقسـام الحـزبي المريـر اليـوم. ويبقـى، عـلى أيـة حـال، سـؤال: كيـف تمكنـت الحركـة المحافظـة مـن أن تنتـزع السـيطرة وتحتفـظ بهـا عـلى واحـد مـن حـزبي أمريـكا السياسـيين الرئيسـيين؟

المؤامرة الواسعة

يمكـن تلخيـص طبيعـة سـيطرة الحركـة المحافظيـة عـلى الحـزب الجمهـوري ببسـاطة شـديدة: نعـم، فرجينيـا،[3] هنـاك مؤامـرة واسـعة للجنـاح اليمينـي،[4] ألا

(1) انظر تعريفا به في الفصل الثاني. (المترجم)

(2) Willian Greider, “Rolling Back the 20th Century, “The Nation, May 26, 2003.

(3) "نعـم فرجينيـا، هنـاك سـانتا كلـوز" عبـارة مـن افتتاحيـة بعنـوان "هـل هنـاك سـانتا كلـوز؟" وقـد ظهـرت هـذه الافتتاحيـة يـوم 21 سـبتمبر عـام 1897، في جريـدة نيويـورك صـن، ومـن يومهـا صـارت جـزءا مـن الفولكلـور الشـعبي الخـاص بالكريسـماس في الولايـات المتحـدة. وتعـد هـذه الافتتاحيـة أكـثر افتتاحيـة يعـاد طبعهـا في أي جريـدة بالإنجليزيـة. ويرجـع أصـل القصـة إلى أنـه في عـام 1897سـألت فرجينيـا أوهانيـون الطفلـة ذات الثمانيـة أعـوام والدهـا الدكتـور فيليـب أوهانيـون، مسـاعد الطبيـب الشرعـي في مانهاتـن، عـما إذا كان سـانتا كلـوز موجـودا حقيقـة. ونصـح الدكتـور أوهانيـون ابنتـه بـأن تكتـب رسـالة لجريـدة صـن البـارزة في نيويـورك، في ذلـك الوقـت، تسـألهم عـن ذلـك، مؤكـدا لهـا: "إذا رأيتِـه في جريـدة صـن، فهـو موجـود". وعـن غـير قصـد أعطـى الدكتـور أوهانيـون لواحـد مـن محـرري صـن، وهـو فرانسـيس فارسـيلوس تشـيرش، الفرصـة ليرتفـع فـوق هـذا السـؤال البسـيط ويتنـاول القضايـا الفلسـفية الكامنـة وراءه. (المترجـم)، انظـر:

“Yes, Virginia, there is a Santa Claus”, Wikipedia, the free encyclopedia.

(4) "مؤامـرة واسـعة للجنـاح اليمينـي" هـي نظريـة مؤامـرة أشـارت إليهـا هيـلاري كلينتـون حينـما كانـت السـيدة الأولى في الولايـات المتحـدة عـام 1998 دفاعـا عـن زوجهـا، الرئيـس بيـل كلينتـون، وهـو وصـف

وهـي: هنـاك مجموعـة مـن المؤسسـات المتشـابكة تعـد مسـؤولة في النهايـة أمـام مجموعـة صغـيرة مـن الأشـخاص تكافـئ بشـكل جماعـي الموالـين وتعاقـب المخالفـين. وهـذه المؤسسـات تمـد الساسـة المطيعـين بالمـوارد لـكي يكسـبوا الانتخابـات، وتوفـر المـلاذ الآمـن في حالـة الهزيمـة، كـما توفـر لهـم الفـرص المهنيـة المربحـة بعـد أن يتركـوا مناصبهـم. وتضمـن تغطيـة إخباريـة إيجابيـة للسياسـيين الذيـن يتبعـون خـط الحـزب، بينـما تزعـج وتضعـف المعارضـين. ويسـاند هـذه المؤسسـات جيـش دائـم كبـير مـن مفكـري الحـزب والنشـطاء السياسـيين.

وعـلى الرغـم مـن أن عـالم المؤسسـات البحثيـة للجنـاح اليمينـي بعيـد عـن أن يكـون المكـون الأكـثر أهميـة في "المؤامـرة الواسـعة،" فإنـه يقـدم نافـذة مفيـدة لكيفيـة عمـل المؤامـرة. وهـاك بعـض المشـاهد مـن حيـاة المؤسسـات البحثيـة الحديثـة:

خـبر: بـروس بارتلـت، اقتصـادي محافـظ وخبـير مـن خـبراء إدارة ريجـان، يعمـل في المركـز الوطنـي لتحليـل التخطيـط، وهـو مؤسسـة بحثيـة متخصصـة في الدعـوة إلى الخصخصـة. ويتضمـن الدعـم المـالي للمركـز تمويـلا مـن 12 مؤسسـة، مـن بينهـا كاسـل روك، وإيرهـارت، وجيـه إم، وبـرادلي، وسـكايف، وأولـين.[1] ولخيبـة أملـه في سياسـات جـورج بـوش، كتـب بارتلـت كتابـا بعنـوان مُحتـال، وهـو كتـاب اتهـم بـوش بكونـه ليـس محافظـا حقيقيـا. وعـلى الفـور تـم فصلـه مـن منصبـه في المركـز الوطنـي لتحليـل التخطيـط.

خـبر: السـيناتور ريـك سـانتورم، وهـو محافـظ متشـدد يمثـل ولايـة بنسـلفانيا المعتدلـة نسـبيا، تـم اكتسـاحه في انتخابـات التجديـد النصفـي لمجلـس الشـيوخ عـام 2006. تسـلم عـلى الفـور وظيفـة مديـر لبرنامـج "أعـداء أمريـكا" في مركـز الأخـلاق والسياسـة العامـة، وهـو منظمـة حـددت لنفسـها مهمـة وحيـدة هـي "توضيـح وفـرض الرابطـة بـين الأخـلاق التقليديـة اليهو-مسـيحية وبـين الجـدال العـام حـول

أطلقتـه عـلى الادعـاء بالفضيحـة ضدهـا وضـد زوجهـا، متضمنـة مـا عـرف بفضيحـة مونيـكا لونيسـكي، باعتبارهـا جـزءا مـن حملـة طويلـة لأعـداء كلينتـون السياسـيين. وقـد اسـتخدم المصطلـح مـن وقتهـا، وأعـادت هيـلاري كلينتـون اسـتخدام المصطلـح مـرة أخـرى في أثنـاء حملتهـا الانتخابيـة لنيـل ترشـيح الحـزب الديمقراطـي لانتخابـات الرئاسـة عـام 2016. (المترجـم)، انظـر:

Vast right-wing conspiracy, Wikipedia, the free encyclopedia

(1) http://www.sourcewatch.org/index/php? Title=National_Center_for_Policy_Analysis.

قضايا السياسة المحلية والخارجية". ويدعم المركز بمنح من ثمان مؤسسات هي: كاسل روك، وإيرهارت، وكوش، وبرادلي، وسميث ريتشاردسون، وأولين، واثنتين من مؤسسات سكايف.(1)

خبر: المركز الوطني لبحث السياسة العامة، مؤسسة بحثية مكرسة لـ"تقديم حلول وفقا لفلسفة السوق الحرة لمشكلات السياسة العامة اليوم"، وهو نشاط تضمن بشكل رئيسي في السنوات الأخيرة صب الشكوك حول الاحترار العالمي. وكان المركز في واجهة الأخبار في عام 2004 عندما عُرف أنه ساعد جاك أبراموف،(2) عضو جماعات الضغط الجمهورية، في غسيل أموال، فقد سربت المؤسسة البحثية مليون دولار إلى شركة وهمية بعنوان بريد مباشر هو نفسه عنوان أبراموف. لماذا المركز الوطنيلبحث السياسة العامة؟ لأنه منذ تم تأسيس هذا المركز في عام 1982، كانت تترأسه آمي موريتز ريدينور، وكانت شريكة لأبراموف عندما أصبح رئيس الجمهوريين في الجامعات في عام 1981. وكان زوج ريدينور أيضا من بين الموضوعين

(1) http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Ethics_and _Public_Policy_Center; http://www.epcc.org/news/newsid.2818/news_detail.asp.

(2) جاك آلان أبراموف (28 فبراير -1959) عنصر ضغط، ورجل أعمال، ومنتج سينمائي وكاتب. كان مركزا لعدة تحقيقات مكثفة حول الفساد الذي أدى لإدانته إضافة إلى 21 شخصا اعترفوا بأنهم مذنبين أو وجدوا مذنبين، بمن في ذلك مسؤولو البيت الأبيض جيه ستيفن جرليز ودايفيد سافافيان، وعضو مجلس النوابيوب ناي، وتسعة آخرون من الأعضاء في جماعات الضغط أو معاوني أعضاء الكونجرس. كان أبراموف رئيس اللجنة الوطنية الجامعية للحزب الجمهوري من عام 1981 إلى 1985، وكان عضوا مؤسسا في مؤسسة الحرية الدولية التي، كما قيل، تم تمويلها من جانب نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، كما خدم كعضو في هيئة مديري المركز الوطني لبحث السياسة العامة، وهو مؤسسة بحثية محافظة. بين عامي 1994 و2001 كان على قمة جماعات الضغط لصالح شركة برستون جايتس وإيليس، ثم لصالح جرينبرج ترووريج حتى مارس 2004. بعد عريضة الاتهام في شأن تورط جاك أبراموف في فضيحة جماعة ضغط الأمريكيين الأصليين وتعاملاته مع كازينو صن كروز في يناير 2006، حكم عليه بالسجن ستة أعوام في سجن فيدرالي لاتهامه بالاحتيال البريدي، والتآمر لتقديم رشى لمسؤولين عموميين، والتهرب الضريبي. وقد قضى 43 شهرا في السجن قبل الإفراج عنه في 3 ديسمبر 2010. وكانت حياة أبراموف كعنصر في جماعات الضغط وما أحاط بها من فضائح وتحقيقات موضوعا لفيلمين في عام 2010: الأول فيلم وثائقي بعنوان كازينو جاك والولايات المتحدة للمال، وقد أطلق الفيلم في مايو 2010، والفيلم الآخر كازينو جاك، أطلق في 17 ديسمبر 2010 وكان من بطولة كيفين سبايسي في دور أبراموف. (المترجم)، انظر:
Jack Abramoff, Wikipedia, the free encyclopedia.

على كشف الرواتب، إذ كان يدفع للاثنين بالملايين. وتلقى المركز الوطني لبحث السياسة العامة تمويلا من كاسل روك، وإيرهارت، وسكايف، وبرادلي، وأولين.(1)

وليس هناك شيء على اليسار يقارن بعالم المؤسسات البحثية للجناح اليميني. وتوجد في جريدة واشنطن بوست زاوية ثابتة تدعى "مدينة المؤسسات البحثية" التي "تنشر أعمدة يقدمها 11 مركزا بحثيا مرموقا". ومنبين المؤسسات الـ11 المحترمة بشدة، هناك خمس منظمات تتبع الحركة المحافظة: معهد المبادرة الأمريكية، ومعهد كاتو، ومؤسسة التراث "هيرتدج"، ومعهد مانهاتن، ومعهد هدسون. ومؤسسة بحثية واحدة فقط هي مركز التقدم الأمريكي، يمكن اعتبارها حقا ذراعا للحركة التقدمية، ولم يتم تأسيس المركز إلا في عام 2003. والمؤسسات البحثية الأخرى، مثل معهد بروكنجز، التي عادة ما يتم تصنيفها على أساس أنها مؤسسات "ليبرالية"، هي فيالواقع منظمات وسطية ملتبسة من دون خط سياسي محدد. وهناك عدد قليل من المؤسسات البحثية التقدمية بخلاف مركز التقدم الأمريكي تلعب دورا في الجدل السياسي، مثل مركز أولويات الموازنة والسياسة ومعهد السياسة الاقتصادية. ولكن فيما يتعلق بالتمويل وعدد العاملين، على أية حال، فهذه المنظمات مجرد "بساريا" مقارنة بـ"حيتان" الحركة المحافظية.

وانتشار المؤسسات البحثية للحركة المحافظة منذ السبعينات يعني أنه من الممكن بالنسبة لمفكري الحركة تحقيق مستوى معيشي جيد عن طريق شغل عدة مناصب. ولكن هناك ثمنا ينبغي دفعه-كما اكتشف بروس بارتلت، من المتوقع منك أن تكون منضبطا، وليس مفكرا مستقلا-غير أنالكثيرين يعتبرونها صفقة جيدة.

وإلى حد كبير جدا تم استحضار تلك المراكز البحثية للوجود عن طريق حفنة من المؤسسات التي أقامتها العائلات الثرية. والمراكز البحثية الكبيرة، مثل هيرتدج ومعهد المبادرة الأمريكية بوجه خاص، تلقت أيضا كميات ضخمة من أموال الشركات.

(1) http://www.sourcewatch.org/index.php?title=National_Center_for_Public_Policy_Research.

ولشبكة المراكز البحثية نظائرها في عالم الصحافة. فمطبوعات مثل المجلة الوطنية، والمصلحة العامة، والمشاهد الأمريكي كانتأسيسها، مثل المؤسسات البحثية للحركة المحافظة، قد تم بالكثير من المساعدة من مؤسسات الجناح اليميني: تقريبا نفس المؤسسات التي ساعدت على تأسيس المراكز البحثية. وهناك أيضا عدد من صحف الحركة المحافظة، فالصفحة الافتتاحية لوول ستريت جورنال لعبت منذ زمن طويل دورا رئيسيا، بينما أصبحت جريدة واشنطن تايمز التي تسيطر عليها كنيسة صن مايونج موون التوحيدية، الوكر الفعلي لإدارة بوش. وهناك، بالطبع، شبكة فوكس للأخبار، مع شعارها الأورويلي:[1]منصفة ومتوازنة.

وأخيرا ولكن بكل تأكيد ليس آخرا، هناك حلقة الاتصال بين العاملين في جماعات الضغط والسياسيين. والتعدد الظاهر في جماعات ضغط الشركات، مثله مثل التعدد في المؤسسات البحثية المحافظة، يخفي المركزية الحقيقية للحركة. فحتى هزيمته في عام 2006 التي أجبرته على الحصول على وظيفة جديدة في مواجهة أعداء أمريكا، كان السيناتور ريك سانتورم يعقد اجتماعا كل ثلاثاء مع نحو دستتين من قمم المسؤولين في جماعات الضغط. وإليك كيف وصف نيكولاس كونفيسور هذه الاجتماعات في عام 2003:

كل أسبوع، يمرر العاملون بجماعات الضغط قائمة بالوظائف المتاحة ويتناقشون فيمن يدعمونه للحصول عليها. ومسؤولية سانتورم هي التأكد من أن كل وظيفة قد حصل عليها جمهوري من الموالين: رئيس هيئة العاملين مع السيناتور، على سبيل المثال، أو مساعده لشؤون البيت الأبيض، أو أحد العاملين في جماعات الضغط الذي أثبت أنه يمكن الاعتماد عليه. وبعد أنيستقر سانتورم على المرشح، يقوم الحضور من جماعات الضغط بالتأكد من أنه مفضل لدى القيادة الجمهورية.[2]

وكانت اجتماعات سانتورم الأسبوعية وغيرها من الاجتماعات المشابهة يديرها روي بلنت، وهو عضو الحزب الذي يتأكد من أن جميع الجمهوريين الذين

---

(1) نسبة إلى الروائي البريطاني جورج أورويل الذي كتب عدة روايات، من أشهرها رواية 1984 ورواية مزرعة الحيوان. (المترجم).

(2) Nicholas Confessore, "Welcome to the Machine," Washington Monthly, July/Aug. 2003, cover story.

يشـكلون الأغلبيـة في مجلـس النـواب قـد أدلـوا بأصواتهـم، وكانـت هـذه الاجتماعـات هـي نقطـة الـذروة في "إسـتراتيجية الشـارع ك"، وهـو الاسـم الـذي أطلقـه جروفـر نوركويسـت ورئيـس الأغلبيـة السـابق في مجلـس النـواب تـوم ديـلاي عـلى خطـة أعـدت لطـرد الديمقراطيـين مـن جماعـات الضغـط، ومنـح الوظائـف للجمهوريـين الموالـين. وكان جـزء مـن هـدف هـذه الاسـتراتيجية هـو التأكـد مـن أن الجمهوريـين قـد تلقـوا نصيـب الأسـد مـن مسـاهمات الـشركات، بينـما يعـاني الديمقراطيـون مـن مجاعـة تمويـل؛ وهـو هدفقـد تـم التخديـم عليـه بالضغـط المبـاشر في عـام 1995 عندمـا جمـع ديـلاي قائمـة بلجـان العمـل السـياسي[1] الأربعمئـة الأكـبر إلى جانـب مقاديـر ونسـب المـال التـي تمنحهـا لـكل حـزب، ثـم يدعـو جماعـات الضغـط "غـير الوديـة" إلى مكتبـه لوضـع القانـون. وأخـبر ديـلاي جريـدة واشـنطن بوسـت أنـه "إذا كنـت تريـد أن تلعـب دورا في ثورتنـا، فعليـك أن تعيـش طبقـا لقواعدنـا".[2] وعـلى قـدر مسـاو مـن الأهميـة، عـلى أيـة حـال، سـاعد الاسـتيلاء عـلى جماعـات الضغـط عـلى فـرض الـولاء داخـل الحـزب الجمهـوري، بتقديـم مجموعـة كبـيرة مـن الوظائـف بالمحسـوبية، وهـي وظائـف تدفـع رواتـب جيـدة جـدا جـدا؛ يمكـن اسـتخدامها كعائـد لهـؤلاء الذيـن يمتثلـون لخـط الحـزب.

وقـد خلقـت المؤسسـات المختلفـة للحركـة المحافظيـة حوافـز قويـة للسياسـيين الجمهوريـين باتخـاذ مواقـف عـلى يمـين الوسـط كثـيرا. والأمـر ليـس فقـط أمـر الحصـول عـلى مسـاهمات للحملـة الانتخابيـة، بـل هـو أمـر الآفـاق المسـتقبلية للوضـع المـالي الشـخصي. ويعتقـد الجمهـور بشـدة أن برنامـج الرعايـة الصحيـة للمسـنين يجـب أن يسـتخدم قوتـه التفاوضيـة للحصـول عـلى أقـل سـعر للأدويـة، ولكـن الجمهـوري بيـلي تاوزيـن، وهـو ديمقراطـي تحـول ليكـون جمهوريـا وكان رئيسـا للجنـة الطاقـة والتجـارة في مجلـس النـواب بـين عامـي 2001 و 2004، مـرر تشريعـا لبرنامـج الرعايـة الصحيـة للمسـنين يحظـر التفـاوض عـلى الأسـعار، ثـم انتقـل لمنصـب رئيـس جماعـة ضغـط صناعـة الأدويـة الرئيسـية براتـب يتكـون مـن سـبعة أرقـام (أي راتـب يتجـاوز عـشرة

(1) المنظمات التي تدبر الأموال للتأثير في الانتخابات أو التشريعات، وخاصة على المستوى الفيدرالي. (المترجم)انظر: https://translate.google.com/#en/ar/political%20action%20committee

(2) David Maraniss and Michael Weisskopt, “Speaker and His Directors Make the Cash Flow Right,” Washington Post, November 27, 1995, p. A01.

ملايين دولار-المترجم). وكان ريك سانتورم يبدو بوضوح أنه يميني جدا بالنسبة لبنسلفانيا، ولكنه لم يجد أدنى مشكلة في العثور على وظيفة لطيفة بمؤسسة بحثية بعد هزيمته في الانتخابات، بينما لينكولن شافي، الجمهوري المعتدل من رود أيلاند الذي فقد أيضا مقعده في مجلس الشيوخ في نفس العام، كان عليه الاكتفاء بإجراء مقابلة من أجل الحصول على وظيفة للتدريس لمدة عام في جامعة براون.

وقد أرجعتني هزيمة لينكولن شافي إلى جانب آخر للطريقة التي سيطرت بها مؤسسات الحركة المحافظية على الحزب الجمهوري، فهم لا يساندون فقط السياسي الجمهوري الممتثل لخط الحزب، بل يعاقبون هؤلاء الذي لا يمتثلون. فقد واجه شافي تحديا قذرا في الانتخابات التمهيدية داخل الحزب من على يمينه. وقد تلقى خصمه، ستيف لافي، أكثر من مليون دولار دعما من النادي من أجل النمو، والذي يتخصص في تأديب الجمهوريين الذين لا يؤيدون بشكل كاف خفض الضرائب. وقد أعلن ستيفن مور، رئيس النادي في ذلك الوقت، عام 2001: "نحن نريد أن تتم رؤيتنا باعتبارنا فارضين لخفض الضرائب".

وكانت لدى النادي آمال مرتفعة باستبعاد شافي؛ فقبل ذلك بعامين تمكن المرشح المدعوم إلى حد ما من قبل النادي من أجل النمو من هزيمة السيناتور أرلين سبكتر، وهو جمهوري آخر معتدل نسبيا، في الانتخابات التمهيدية فيبنسلفانيا. وكانت هذه التحديات فعالة. فكما قال واحد من رجال الكونجرس الجمهوريين فيعام 2001: "عندما يكون لديك 100% من تصويت الجمهوريين المؤيد لخفض بوش للضرائب، فسوف تعرف أنهم ينظرون من فوق أكتافهم ولا يريدون أن يتولى ستيف مور تجنيد مرشحين في مقاطعاتهم".

وكان سبكتر قد انتُخب أول مرة لمجلس الشيوخ في عام 1980، واستطاع الحفاظ على المنصب الذي فاز به منذ الأيام التي كان فيها الحزب الجمهوري لا يزال لديه مساحة للاعتدال.

أما السياسيون الجمهوريون الشباب فقدترعرعوا، إلى حد كبير، داخل حزب تم تعريفه من قبل الحركة المحافظية. فقد كان اليمين المتشدد قد استولى بالفعل على الجمهوريين الجامعيين بحلول عام 1972، حينما تم انتخاب شخص مثل كارل روف كرئيس لمنظمة الجمهوريين الجامعية. وكان الخريجون الآخرون المرموقون من منظمة الجمهوريين الجامعية يضمون أشخاصا مثل ريك سانتورم،

وجروفر نوركويست، ورالف ريد، وجاك أبراموف. وكانت الحركة المحافظية تدير اللجنة الجمهورية الوطنية، وهو ما يعني أنهم كانوا مسؤولين عن تجنيد المرشحين للكونجرس، وكان من المحتم أن يختاروا رجالا ونساء على شاكلتهم. أما الجمهوريون القليلون بالكونجرسالمعتدلون فقد كانوا، وباستثناءات نادرة، قد تم انتخابهم أول مرة قبل ريجان أو، على الأكثر، قبل انتخابات عام 1994 التي وضعت خاتم سيطرة جناح جينجريتش على الحزب.

نقطة واحدة أخيرة: شددت مؤسسات الحركة المحافظية على استمرار الأهداف التي لا يوجد مناظر لها على الجانب الآخر. فقد حاول جيمي كارتر تأسيس سياسة وطنية للطاقة كان بإمكانها تخفيض الاعتماد على النفط المستورد، وكان هذا ما حدث، فلم يتوقع أحد أن يلتقط بيل كلينتون الأشياء من عند النقطة التي تركها كارتر. وحاول رونالد ريجان وفشل في خفض مزايا الضمان الاجتماعي، ولكن الحركة المحافظية أخذت هذا كمجرد انتكاسة تكتيكية. وفي مقالة نشرت عام 1983 وتعد شهيرة الآن، دعا محللو معهد كاتو ومؤسسة التراث "هيرتدج" إلى "إستراتيجية لينينية" لإضعاف التأييد للضمان الاجتماعي، وذلك "لتحضير الساحة السياسية من أجل ضمان ألا يتكرر إخفاق الثمانية عشر شهرا الأخيرة".[1] وكانت هذه الاستراتيجية وراء محاولة جورج دبليو بوش خصخصة النظام-وحتى هزيمة- أو إذالم تتم هزيمة الحركة المحافظية على نحو تام كما حدث مع الحركة المحافظية ما قبل الصفقة الجديدة، فستكون هناك محاولات أكثر في المستقبل.

ما الذي حدث؟

إن ميكانيزمات الانقسام الحزبي المتزايد تعد واضحة. فالتحزب المرير أصبح القاعدة لأن الجمهوريين قد تحركوا جهة اليمين، وتحرك الحزب الجمهوري جهة اليمين لأنه تم الاستيلاء عليه من جانب الحركة المحافظية. ولكن ما زال هناك سؤال حول السبب الأساسي. فقد كانت العائلات الثرية التي تكره الضرائب، ومصالح الشركات التي تكره القواعد الحكومية التنظيمية، والمفكرين الذين

(1) Stuart Buttler and Peter Germanis, "Achieving a Leninist Strategy," Cato Journal 3, no. 2 (Fall 1983), pp.547-61.

يؤمنون بأن دولة الرفاه غير مشروعة معنا دائما. لكن في الخمسينات والستينات، على أية حال، كانت هذه الجماعات هامشية، يعاملها كلا الحزبين على أنها جماعات من المهووسين. ما الذي حولهم إذن إلى قوة لديها من القوة ما يكفي لتحويل السياسة الأمريكية؟

ما يراه أعضاء الحركة المحافظية أنفسهم، إلى حد إذا ما فكروا في أسباب صعودهم على الإطلاق، أنها قصة انتصار الأفكار الجيدة على الأفكار السيئة. وتمضي القصة إلى حد ما على النحو التالي: الكساد العظيم مجتمعا مع الدعاية اليسارية، أعطى للناس انطباعا خاطئا للاعتقاد أنهم بحاجة لحكومة كبيرة لحمايتهم. ومؤسسات الحكومة الكبيرة، في المقابل، أصبحت تخلد ذاتها. ولكن الرجال الشجعان، من ميلتون فريدمان إلى رونالد ريجان، علموا الجمهوريين تدريجيا أن الحكومة هي المشكلة، وليست الحل. والانقسام الحزبي موجود فقط بسبب أن بعض الناس ما زالوا لم يروا الضوء.

وعلى النقيض التام من هذا الحساب البطولي للتغيير السياسي هناك النظرة الميكانيكية بأن نمو عدم المساواة الاقتصادية هو جذر السبب وراء صعود الحركة المحافظية. وكما شرحت في الفصل الأول، فقد بدأت العمل على هذا الكتاب بهذه النظرةالتي تمضي شيئا ما على النحو التالي: المال يشتري النفوذ، ومع نمو نسبة قليلة من الأمريكيين الأغنياء ليصبحوا أكثر غنى بسبب قوى غير متعادلة مثل التغير التكنولوجي، فقد أصبحوا أغنياء بشكل كاف ليشتروا لأنفسهم حزبا. وفي ظل هذه النظرة، يعد صعود الحركة المحافظية منتجا جانبيا لصعود عدم المساواة.

وبالتأكيد، من المنطقي أكثر التفكير في أن التصاعد الشديد في عدم المساواة في الدخل منذ السبعينات حول السياسة الأمريكية لتنسب كل ذلك إلى عبقرية وألمعية نفر قليل من المثقفين. ولكن فرضية أن التركيز المرتفع في الدخل قد مكن النخبة الاقتصادية، ودفع الحزب الجمهوري نحو اليمين، تعمل في مواجهة مشكلة التوقيت.فتحرك الحزب الجمهوري الحاد نحو اليمين بدأ قبل أن تكون هناك أي زيادة ملحوظة في عدم المساواة في الدخل. فقد تم ترشيح رونالد ريجان في عام 1980، وهو العام الذي كان فيه الغني ليس أكثر غنى، قياسا إلى الأمريكي العادي، عما كان عليه خلال سنوات أيزنهاور. وفي الكونجرس بدأ التحول السياسي

في انتخابات عامي 1976 و1978. وكما أشار إيدسال "فقد نما القلب المتشدد للشباب، الأيديولوجي الملتزم من أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين" من 4 أعضاء في عام 1975 إلى 11 في عام 1979، مع تحرك مناظر حدث أيضا في مجلس النواب.[1] وحدث استيلاء حركة المحافظين على اللجنة الجامعية للجمهوريين حتى في وقت أبكر من ذلك، فقد تم انتخاب كارل روف كرئيس للجنة في عام 1972. والمؤسسات الرئيسية للحركة المحافظية تم تأسيسها في نفس الوقت تقريبا. فقد تم تأسيس مؤسسة التراث، على سبيل المثال، في عام 1971. ومائدة الأعمال المستديرةالتي دمجت عددا من الجماعات رخوة التنظيم في جماعة ضغط قوية تمثل سياسة مناصرة للشركات-والتي شكلت في نهاية المطاف قاعدة سانتورم لاجتماعات شارع ك-تم تكوينها في عام 1972، وغرفة تجارة الولايات المتحدة ولدت من جديد كقوة ضغط مؤثرة بعد ذلك بوقت قصير.

أضف إلى هذا البرهان الذي قدمته في الفصل السابع أن التغييرات في المؤسسات والمعايير يقف وراء الكثير من ارتفاع عدم المساواة، وأن التغيرات السياسية هي التي أدت إلى هذه التغييرات في المؤسسات والمعايير، وبذلك تفقد النظرة الميكانيكية بأن عدم المساواة هو الذي حرك الجمهوريين تجاه اليمين معظم وجاهتها.ومن المحتمل أن ارتفاع تركيز الدخل قد عمل على تعزيز الاتجاه نحو اليمين للحزب الجمهوري، مع نمو عدد وثروة المانحين القادرين على منح تمويل ببذخ للسياسيين اليمينيين المتشددين المناسبين. ولكن لا بد من أن هناك شيئا آخر جعل العملية تسير في طريقها.

وهذا الشيء، حسبما أعتقد، هو كوكبة القوى الموصوفة في الفصلين السادس والسابع. وملخص القصة أنه في نهاية الخمسينات وبداية الستينات نما "المحافظون الجدد"، المجموعة الضيقة النخبوية المتمركزة حول المجلة الوطنية "ناشيونال ريفيو"، إلى حركة جدية بالاندماج مع فصائل أخرى غير راضية لا عن الاعتدال، ولا عن أمريكا الطبقة الوسطى في سنوات ما بعد الحرب. فالمتحمسون المناهضون للشيوعية وجدوا في الحركة المحافظية توأم روحهم الذي يشاركهم نفس المخاوف. والأشخاص الذين أغضبتهم فكرة الأشخاص الآخرين الذي يتلقون الرفاه وجدوا حركة يمكنها أن تجعل من استيائهم وسخطهم أمرا محترما سياسيا. ووجد رجال

(1) Edsal, New Politics of Inequality, p. 47.

الأعـمال الناقمـون مـن اضطرارهـم إلى التعامـل مـع النقابـات حركـة يمكنهـا تحويـل غضبهـم إلى عمـل سـياسي فعـال.

وكان اقـتراب هـذه القـوى قويـا بمـا فيـه الكفايـة لكي تتـم تسـمية بـاري جولدووتر مرشـحا لمنصـب الرئاسـة، ولكـن فقـط لأن المؤسسـة الجمهوريـة أخـذت عـلى حـين غـرة. وخسرجولـد ووتـر الانتخابـات بهزيمـة سـاحقة. وعـلى الرغـم مـن ذلـك مضـت الحركـة قدمـا، وتعلمـت. فقـد علـم ريجـان الحركـة كيفيـة إلبـاس الأفـكار الاقتصاديـة النخبويـة خطابـا شـعبويا. ونيكسـون، عـلى الرغـم مـن أنـه ليـس مـن بـين أفـراد الحركـة المحافظـة، بـيّن كيـف يمكـن للجانـب المظلـم مـن أمريكا-الضغائـن الثقافيـة والاجتماعيـة، والقلـق والتوتـر حـول الأمـن في الداخـل والخـارج، وقبـل أي شيء آخـر، العرق-يمكـن اسـتغلالها لكسـب الانتخابـات.

وهـذا الجـزء الأخـير كان حاسـما. فالقـدرة عـلى تحويـل المواقـف اليمينيـة المتشـددة إلى إسـتراتيجية رابحـة، وليـس الاحتجـاج عديـم الجـدوى، جلـب التمويـل الواسـع النطـاق الـذي أقـام مؤسسـات الحركـة: "المؤامـرة اليمينيـة المتشـددة الواسـعة" التـي نعرفهـا اليـوم.

وهـذا، عـلى أيـة حـال، يذهـب بنـا إلى اللغـز الثـاني الـذي أوضحتـه سـابقا في هـذا الفصـل: لمـاذا كان دعـاة دولـة الرفـاه الأصغـر وسياسـات تخفيـض الضرائـب قادريـن عـلى كسـب الانتخابـات، عـلى الرغـم مـن أن نمـو عـدم المسـاواة في الدخـل يعمـل عـلى أن تكـون دولـة الرفـاه أكثرشـعبية؟ هـذا هـو موضـوع الفصـل التـالي.

الفصل التاسع
أسلحة الدمار الشامل

لا يدلي الناخبون بأصواتهم لتحقيق مصلحتهم الذاتيةفقط، ففي الواقع المواطن الحريص على مصلحته الذاتية بشكل تام لن يزعج نفسه بالتصويت على الإطلاق، لأن تكلفة الذهاب إلى المقر الانتخابي تفوق التأثير المحتمل لأي صوت منفرد على رفاهيته أو رفاهيتها. بعض الأشخاص قد يصوتون ضد "الحكومة الكبيرة" كمسألة مبدأ، حتى لو كان من المحتمل أن يكونوا من المستفيدين الصافيين من برامج الحكومة، بينما ربما يؤيد آخرون برامج اجتماعية سخية من المحتمل ألا يكونوا بحاجة لها. ومع ذلك فمن المتوقع أن تعكس تفضيلات الناخبين مصالحهم الذاتية إلى حد ما. وهم يفعلون، فالناخبون في الثلث الذي يقع في قاع توزيع الدخل من المحتمل إلى حد كبير جدا أن يفضلوا إنفاقا حكوميا أعلى، وبرامج الحكومة التي توفر العمل، وهكذا، وذلك مقارنة بالناخبين في الثلث الذي يقع في قمة توزيع الدخل.[1] وبالنسبة لـ"الحكومة الكبيرة"-دولة الرفاه-فإنها تفعل شيئين: الأول كونها نوعا من التأمين، فهي تحمي الناس من بعض مخاطر

(1) See Larry Bartels, "What's the Matter With What's the Matter with Kansas?"

الحياة، وتضمن لهم أنه مهما حدث أنهم لن يعانوا من الجوع في أيامهم الأخيرة أو، فيما لو كانوا فوق الخامسة والستين، لن يكونوا غير قادرين على تحمل تكلفة إجراء عملية جراحية. والشيء الثاني أنها توزع بشكل عام الدخل تجاه الأسفل.

لتأخذ بعين الاعتبار، على سبيل المثال، آثار برنامج الرعاية الصحية للمسنين. فالبرنامج شكل فعال جدا للتأمين الاجتماعي،فهو يوفر راحة البال حتى لهؤلاء الذين انتهى بهم الأمر إلى الدفع للنظام، في شكل ضرائب ورسوم إضافية، أكثر مما تلقوه من مزايا. فعدد ليس بالقليل من الأمريكيين في أواخر الخمسينات أو بداية الستينات من أعمارهم يفكرون في أنفسهم أنهم يجب أن يتشبثوا حتى يبلغوا برنامج الرعاية الصحية للمسنين، فيدفعون رسوما إضافية للتأمين الصحي لا يقدرون على تحملها، أو يعيشون بقلق وتوتر بدون التأمين على أمل أنهم لن يصابوا بمرض خطير، حتى يبلغوا في النهاية سن الخامسة والستين السحري.

لكن هناك سببا آخر لشعبية برنامج الرعاية الصحية للمسنين، على الرغم من أنه نادرا ما يعلن عن ذلك بالتحديد، وهو أنه برنامج لإعادة توزيع الدخل،بحيث يأخذ من الأقلية الثرية ويُعطي للأغلبية الأقل ثراءً. والمزايا التي يؤمنها البرنامج هي نفسها للجميع، ولكن أغلب الضرائب التي تدعم البرنامج- والتي هي متناسبة مع الدخل تقريبا[1]-يتم دفعها عن طريق ما لا يزيد على 25% من السكان. تذكر، أنه فيما يتعلق بالدخل تعد الولايات المتحدة بحيرة ووبيجون[2] معكوسة، فمعظم الناس تحت خط متوسط الدخل. لذا فبرنامج

(1) كما هو كل شيء يتضمن تمويلا حكوميا، فالأمر أكثر تعقيدا من ذلك. فالجزء أ من برنامج الرعاية الصحية للمسنين، الذي يقدم الرعاية الصحية بالمستشفيات، يتم تمويله عن طريق ضريبة تناسبية على كل الدخول المكتسبة (ولكن ليس على دخل رأس المال مثل توزيعات الأرباح على الأسهم والمكاسب الرأسمالية). أما الجزء الباقي من البرنامج فيتم دفع تمويله من الإيرادات العامة التي تعنى غالبا ضرائب الدخل الشخصي، وهي ضريبة تصاعدية بشدة يتم دفعها أساسا بواسطة أغنى 10% من العائلات.

(2) بحيرة ووبيجون هي مدينة خيالية في ولاية مينسوتا بالولايات المتحدة، ابتكرها المؤلف جاريسون كيلور وقال إنها موطن صباه، ويقدم كيلور فقرة تتضمن تغطية للأخبار من بحيرة ووبجيون في برنامجه الإذاعي "رفيق منزل البراري" الذي يقدم كل يوم سبت بين الخامسة والسابعة بالتوقيت المركزي للولايات المتحدة. يعتقد أن موقعها هو إلى شمال سانت كلود، ويدعى أن مدينة هولدينج

الحكومـة الـذي يفـرض الضريبـة عـلى كل فـرد بينـما يقـدم مزايـاه لـكل فـرد لا بـد مـن أن يبـدو كصفقـة جيـدة لمعظـم الأمريكيـين.

والجانـب المتعلـق بإعـادة التوزيـع لبرنامـج الرعايـة الصحيـة للمسـنين يعـد صفـة مميـزة لدولـة الرفـاه ككل. ومـن الواضـح أن البرامـج التـي تتطلـب التحقـق مـن الموقـف المـالي للشـخص الـذي يحـاول الحصـول عـلى خدماتهـا، مثـل برنامـج الرعايـة الصحيـة لـلأسر والأشـخاص ذوي الدخـول المنخفضـة والمـوارد المحـدودة وبرنامـج طوابـع الأغذيـة، تعيـد توزيـع الدخـل، ولكـن هـذا يحـدث أيضـا بالنسـبة لاسـتحقاقات الطبقـة الوسـطى. فالأمريكيـون الذيـن يقبعـون في قـاع الـ60% مـن المتكسـبين يمكنهم توقـع تلقـي مزايـا للضـمان الاجتماعـي أكـثر بكثـير مـما دفعـوه مـن ضرائـب في FICA (قانـون مسـاهمات التأمـين الفيدرالي-المترجـم)، بينـما هـؤلاء الـ20% في القمـة يمكنهـم توقـع تلقـي أقـل مـما دفعـوا.[1]

ولهـذا، يجـب توقـع اتجـاه الـرأي العـام جهـة اليسـار مـع تزايـد عـدم المسـاواة في الدخـل، أي أن الناخبـين يجـب أن يكونـوا أكـثر تأييـدا للبرامـج التـي تفـرض ضرائـب عـلى الأغنيـاء وتقـدم مزاياهـا لعمـوم السـكان. وهـو مـا ثبتـت صحتـه إلى حـد مـا عـبر اسـتطلاعات الـرأي، فحتـى مـع تحـرك الحـزب الجمهـوري كثـيرا نحـو اليمـين، كانـت اسـتطلاعات الـرأي العـام تشـير إلى أن الجمهـور، إذا كان قـد تحـرك مـن الأسـاس، فقـد تحـرك جهـة اليسـار.

فـورد في ولايـة مينسـوتا التـي بلـغ عـدد سـكانها 708 نسـمة في تعـداد عـام 2010 هـي المدخـل لبحـيرة ووبيجـون.

يختتـم كيلـور فقرتـه حـول الأخبـار ببحـيرة بووبيجـون دائمـا بالقـول "حسـنا، كانـت هـذه هـي الأخبـار مـن بحـيرة ووبيجـون، حيـث كل النسـاء أقويـاء، وكل الرجـال حسـنو المظهـر، وحيـث كل الأطفـال فـوق المتوسـط"، وهـو مـا يشـير إليـه المؤلـف في المـتن عـلى أنـه عـلى العكـس مـن ووبيجـون ففيـما يتعلـق بالدخـل يقـع معظـم النـاس تحـت المتوسـط.(المترجم)، انظـر:

Lake Wobegon, Wikipedia, the free encyclopedia.

A Prairie Home Companion, Wikipedia, the free encyclopedia.

Holdingford, Wikipedia, the free encyclopedia.

(1) See Karen Smith and Eric Toder, "Lifetime Distributional Effects of Social Security Retirement Benefits," paper prepared for the Third Annual Joint Conference fort the Retirement Research Consortium, "Making Hard Choices About Retirement," May 17-18, 2001, Washington, D.C.

والمصدر الرئيسي للبيانات عن الاتجاهات بعيدة المدى في استطلاعات الرأي في الولايات المتحدة هي منظمة دراسات الانتخابات الوطنية الأمريكية، وهي المنظمة التي تسأل نفس الأسئلة باستمرار في استطلاعات رأي الجمهور منذ فترة طويلة، ترجع في بعض الحالات إلى الخمسينات. والأسئلة الثلاثة الأكثر كشفا التي صمدت بشكل مباشر تقريبا هي عن حجم الحكومة ومدى سخاء دولة الرفاه.

فقد عالج أحد الأسئلة الرعاية الطبية، حيث يسأل الناس أن يضعوا أنفسهم على مقياس من 1 إلى 7، حيث يمثل 1 تأييدا قويا لخطة حكومية تغطي التكاليف الطبية، و7 يمثل تأييد الاعتماد على المدفوعات الخاصة وشركات التأمين. في عام 1972، أجاب 37% من المبحوثين بـ1 أو2 أو 3، وهو ما يبين تأييدا للتأمين الصحي الحكومي، بينما أجاب 35% بـ5 أو6 أو 7. بينما في عام 2004 كان التأييد للتأمين الصحي الحكومي قد ارتفع إلى 42%، وانخفضت المعارضة إلى 27%.

أما السؤال الثاني فيسأل عما إذا كان ينبغي على الحكومة "التأكد من أن كل شخص لديه عمل ومستوى معيشي جيد". في عام 1972 كانت إجابة هذا السؤال أن 28% رأوا أن الحكومة ينبغي عليها فعل ذلك، بينما 40% رأوا أنه "ينبغي على الحكومة فقط أن تترك كل شخص للمضي قدما بالاعتماد على نفسه".وفي عام 2004 كانت هذه الأرقام 31% و42% على الترتيب، فقد كان هناك عدد أقل من الجالسين على الحياد أو الذين لم يقرروا رأيهم، ولكن الموقف المتوسط لم يتغير.

أخيرا، يسأل السؤال الثالث عما إذا كان ينبغي على الحكومة أن تقدم خدمات وإنفاقا أكثر أم أقل. ولسوء الحظ، هذا السؤال يعود فقط إلى عام 1982، حينما أراد 32% حكومة أصغر، و25% أرادوا حكومة أكبر. بحلول عام 2004 أراد 20% فقط حكومة أصغر، بينما أراد 43% حكومة أكبر.

تشير هذه البيانات إلى أن الهيئة الناخبة، فيما لو كان قد حدث لها أي شيء، قد تحركت نحو اليسار. ربما لم تتحرك جهة اليسار كما قد يتوقع المرء مع الوضع في الاعتبار تزايد عدم المساواة. ولكن الرأي العام، على خلاف الحزب الجمهوري، لم يتحرك بحدة جهة اليمين. ومع ذلك فالحقيقة هي أن الجمهوريين استمروا في كسب الانتخابات، وهي ملاحظة ربما تكون قد فقدت بعض ولكن لم تفقد كل قوتها بأي مقياس بعد التجديد النصفي للكونجرس في عام 2006. ما الذي يفسر إذن النجاح الانتخابي للحزب الجمهوري؟

كنساس في عقولنا

إن الحركة التي تسعى لخفض الضرائب بينما تحاول تفكيك دولة الرفاه لديها مشكلات متأصلة في كسب تأييد الجماهير العريضة. فخفض الضرائب، خاصة نوع خفض الضرائب الذي تريده الحركة المحافظة، تقدم معظم مزاياها لأقلية صغيرة من السكان، بينما الألم الناجم عن إضعاف شبكة الأمان سيضرب دائرة أوسع بكثير. والمنظمات والمال يمكنهما إلى حد ما التعويض عن عدم الشعبية المتأصل للسياسات المحافظة، لكن كسب الانتخابات يتطلب عادة أن تعثر الحركة المحافظة على طريقة ما لتغيير الموضوع.

في كتابة الشهير الصادر عام 2004 ما خَطْب كنساس؟ عرض توماس فرانك صورة قاتمة للناخبين من الطبقة العاملة الذين من السهل خداعهم مرة بعد أخرى، بالاستعراضات الجانبية:

الخدعة لا تشيخ أبدا، والوهم لا يفقد مفعوله. أدلِ بصوتك لإيقاف الإجهاض تلق تخفيضا على ضرائب الأرباح الرأسمالية. صوّت لكي نجعل بلدنا قويا مرة أخرى تلق نزع التصنيع. صوّت من أجل هزيمة أساتذة الجامعات الصحيحين سياسيا تلق التخلص من القواعد التنظيمية في قطاع الكهرباء. صوّت لكي نلقي الحكومة من على أكتافنا تلق تكتل الشركات والاحتكارات في كل مكان، من وسائل الإعلام إلى تعبئة اللحوم. صوّت لكي نقف شامخين في مواجهة الإرهاب تلق نظاما اجتماعيا تتركز الثروة فيه أكثر كما لم يكن أبدا على امتداد فترة حياتنا، حيث تم تجريد العمال من القوة وتمت مكافأة المديرين التنفيذيين للشركات بطريقة تفوق الخيال.(1)

ما مدى صحة هذه الصورة؟ لقد أخذتني الدهشة حينما ظهر كتاب فرانك، وما زلت أعتقد أنه بحث مكتوب ببراعة عن عبقرية الحركة المحافظية في استغلال الموضوعات العاطفية وريائها في أولويات الحكومة. لكن علماء السياسة، وبوجه خاص زميلي في جامعة برنستون لاري بارتلز-الذي كتب استجابة علمية

(1) Thomas Frank, What's the Matter with Kansas? How Conservatives Won the Heart of America (Henry Holt, 2004).

بعنـوان "مـا الخطـب مـع مـا خطـب كنسـاس؟"- وضـع موضـع التسـاؤل إلى أي حـد تـم -حقيقـة- خـداع الناخبـين مـن الطبقـة العاملـة؟

الحقيقـة هـي أن التصويـت قـد أصبـح تصويتـا طبقيـا أكـثر، وليـس أقـل، بمـرور الوقـت، وهـو مـا قـد تتوقعـه بالضبـط بالنظـر إلى التغـير في طبيعـة الحـزب الجمهـوري. كان الحـزب الجمهـوري في الخمسـينات والسـتينات يـدار بواسـطة رجـال يتبعـون مبـدأ أيزنهـاور حـول "الجمهورياتيـة الحديثـة". رجـال قبلـوا بمـيراث الصفقـة الجديـدة. وخـلال هذيـن العقديـن كان البيـض أصحـاب الدخـل المرتفـع بالـكاد مـن المحتمـل أكـثر أن يعتـبروا أنفسـهم جمهوريـين، أو يصوتـوا للمرشـحين الجمهوريـين، وذلـك مقارنـة بالبيـض أصحـاب الدخـل المنخفـض. ومنـذ اسـتولت الحركـة المحافظيـة عـلى الحـزب الجمهـوري، عـلى أيـة حـال، نشـأ انقسـام طبقـي قـوي. فالأثريـاء أصبحـوا بشـكل متزايـد يصوتـون للجمهوريـين، بينـما البيـض أصحـاب الدخـل المنخفـض، وخاصـة خـارج الجنـوب، كان مـن المحتمـل في الواقـع أن يصوتـوا للديمقراطيينأكـثر مـما كانـوا قبـل نصـف قـرن مـضى.

ومـع ذلـك لا يـزال هنـاك شيء ما سـمح للحركة المحافظيـة بالفـوز بالانتخابات،على الرغـم مـن سياسـتها التـي كان ينبغـي أن تكـون غـير شـعبية بالنسـبة لأغلبيـة الأصوات. ولـذا دعنـا نتحـدث عـن القضايـا غـير الاقتصاديـة التـي اسـتغلها المحافظـون، ولنبـدأ بالقضيـة التـي لم يذكرهـا فرانـك بغرابـة في هـذا الخـرف العظيـم: العـرق.

فيلادلفيا

اسـأل أي رجـل أو امـرأة في الشـارع عـن التداعـي الحـر المرتبـط باسـم رونالـد ريجـان، وربمـا يجيـب أو تجيـب بـ"خفـض الضرائـب" أو "هزيمـة الشـيوعية". ولكـن ريجـان لم يبـدأ حملتـه للرئاسـة بمسـيرات حـول الاقتصـاد أو السياسـة الخارجيـة. فخـلال سـعيه لنيـل موافقـة الجمهوريـين عـلى تسـميته كمرشـح للرئاسـة، وضـع بصمتـه بمبالغتـه الضخمـة بشـأن حالـة غـش في مخصصـات الرفـاه في شـيكاجو، وقـدم مصطلـح "ملكـة الرفـاه".[1] ولم يذكـر عـرق المـرأة، ولم يكـن بحاجـة لفعـل ذلـك. وقـد

(1) "Welfare queen's Becomes Issue in Reagan Campaign," New York Times, Feb. 15, 1976, p.51

بـدأ حملتـه عـام 1980 بحديـث حـول حقـوق الولايـات في معـرض بمقاطعـة بالقـرب مـن فيلادلفيـا، مسيسـبي، المدينـة التـي تـم اغتيـال ثلاثـة مـن العامـلين في حملـة الحقـوق المدنيـة بهـا في عـام 1964. واسـتلم كل شـخص الرسـالة.

بالنظـر إلى كَـمّ مـا كُتـب حـول التغيـيرات في السياسـة الأمريكيـة عـلى مـدى الجيل المـاضي، وكـم هـو مـؤلم مـا احتـواه هـذا الكـم حـول مصـادر تراجـع الديمقراطيـين وصعـود الجمهوريـين، فالمدهـش أن الكـم الكبـير مـن الظاهـرة ككل يمكـن اختصـاره في خمـس كلـمات فقـط: البيـض الجنوبيـون بدأواالتصويـت للجمهوريـين.

قبـل أن أتحـدث عـن التحـول السـياسي، لنحصل على بعـض المنظور التاريخي،نشـير إلى أن الولايـات المتحـدة كانـت سياسـيا عـلى يمـين البلـدان المتقدمـة الأخـرى لفـترة طويلـة. فالإنفـاق عـلى الدعـم والتحويلات-جوهـر إنفـاق دولـة الرفاه-كانـت حصتـه النسـبية مـن الناتـج المحـلي الإجـمالي أقـل في الولايـات المتحـدة مقارنـة بأوروبـا منـذ القـرن التاسـع عـشر. فبحلـول عـام 1937 كان قدر مـا أنفقته البلـدان الأوروبيـة بالفعل عـلى برامـج دولـة الرفـاه، قياسـا إلى حجـم اقتصاداتهـا، هـو نفسـه القـدر الـذي أنفقتـه الولايـات المتحـدة عـام 1970، بعـد إقامـة برنامـج الرعايـة الصحيـة للمسـنين، وبرنامـج الرعايـة الصحيـة لـلأسر والأشـخاص ذوي الدخـول المنخفضـة والمـوارد المحـدودة.

مـا الـذي يفـسر هـذا الاختـلاف؟ هـذا السـؤال سـؤال قديـم، يعـود عـلى الأقـل إلى كتـاب ويرنـر سـومبارت الصـادر عـام 1906، لمـاذا ليسـت هنـاك اشـتراكية في الولايـات المتحـدة؟ وقـد تـم عـزو الاختـلاف إلى كل شيء مـن الأجـور المرتفعـة- كتـب سـومبارت "كل الاشـتراكيات الطوباويـة تخفـق، عـلى لحـم البقـر المشـوي وفطـيرة التفـاح"[1]-إلى تضمـين الأوضـاع الثقافيـة. ولكـن التقديـر الراهـن الأكـثر منهجيـة الـذي قدمـه ألبرتـو ألسـينا، وإدوارد جليـزر، وبـروس سـاسردوت، وهـم ثلاثـة اقتصاديـين مـن هارفـارد، يخلـص إلى أن العامـل الأكـثر أهميـة في الاسـتثنائية الأمريكيـة الدائمـة ربمـا يكـون العـرق: الخـلاف العرقـي لعـب دورا في تحديـد المعتقـدات حـول الفقـر. وبمـا أن الأقليـات كانـت مفرطـة التمثيـل بـين الفقـراء الأمريكيـين، فـإن أي إجـراءات لإعـادة التوزيـع عـلى أسـاس الدخـل سـوف تقـوم بإعـادة التوزيـع بشـكل خـاص للأقليـات. وقـد اسـتخدم معارضـو إعـادة التوزيـع بانتظـام خطابـا يسـتند إلى العـرق لمحاربـة

(1) Warner Sombart, Warum gibt es in den Vereinigten Staaten keinen Sozialismus? (Mohr, 1906).

سياسات الجناح اليساري. وعبر البلدان، يشكل الانقسام العرقي وسيلة للتنبؤ القوي بإعادة التوزيع. وداخل الولايات المتحدة، كان العرق هو العامل المفرد الأكثر أهمية للتنبؤ بدعم الرفاه. وكانت العلاقات العرقية الأمريكية المضطربة هي بوضوح السبب الرئيسي لغياب دولة الرفاه الأمريكية.[1]

وقد ثبتت صحة هذا الاستنتاج عبر كل من تاريخ المعارك السياسية حول برامج دولة الرفاه، وشكل السياسة الإقليمية اليوم.

ولنبدأ بإصلاحات الصفقة الجديدة التي لم تحدث: التأمين الصحي الشامل. فكل دولة متقدمة باستثناء الولايات المتحدة لديها نظام شامل للرعاية الصحية؛ فكيف فاتنا ذلك؟ ولربما كانت أفضل فرصة مواتية لإقامة مثل هذا النظام هي في أواخر الأربعينات، حينما حاول الرئيس هاري ترومان إقامة مثل هذا النظام الذي كان سيبدو بشكل أساسي مماثلا لبرنامج الرعاية الصحية للمسنينMedicare ولكنْ لكل السكان. وقد بينت استطلاعات الرأي الدعم الساحق من الجمهور للرعاية الشاملة (كما يدعمها اليوم). ولكن كما تم وصف ذلك في الفصل الرابع، فشلت محاولة ترومان في وجه معارضة من جماعتين حيويتين، هما الاتحاد الطبي الأمريكي، والبيض الجنوبيونالذين كانوا سيستفيدون من البرنامج بسبب دخولهم المنخفضة، ولكنهم عارضوه بسبب الخوف من أن البرنامج سوف يؤدي إلى الدمج العرقي في المستشفيات.[2]

وكانت آثار العرق على تأييد دولة الرفاه واضحة أيضا من المقارنة بين الولايات الأمريكية. وقد بيّن ألسينا وجليزر وساسردوت أنه كانت هناك علاقة ارتباط قوية بين التكوين العرقي على مستوى الولاية وبين سياساتها، وبشكل عام، كلما ارتفعت نسبة السكان السود من إجمالي سكان الولاية، كان الانفاق الاجتماعي بالنسبة للفرد منخفضا. ويمكن إلى حد ما أن يعكس ذلك حقيقة أن الولايات الجنوبية كانت، على الرغم من هجرة الأمريكيين الإفريقيين جهة الشمال

(1) Alberto Alesina, Edward Glaeser, and Bruce Sacerdote, "Why Doesn't the US Have a European-Style Ewlfare State?" (National Bureau of Economic Research working paper no. 8524, Oct. 2001.

(2) See Jill Quadagno, One Nation Uninsured: Whay the U.S. Has No Health Insurance (Oxford University Press, 2005).

واتجاه الدخول الإقليمية نحو التقارب، تضم الأكثر سوادا والأكثر فقرا مقارنة ببقية الولايات المتحدة. ولكن الأمر أكثر من هذا، فحتى بعد أخذ مستويات الدخول في الاعتبار، تظل علاقة الارتباط على حالها.

ولجعل هذه النقطة أكثر واقعية، افترض أننا نقارن السياسة والسياسات في ماساتشوستس وفرجينيا. وكلا الولايتين قابلة للمقارنة تقريبا فيما يتعلق بكل من الدخل المتوسط والدخل الوسيط للفرد، وهو ما يخبرنا بأن الولايتين لهما مستويات مشابهة من الدخل، وبأنه ليست هناك اختلافات كبيرة فيما يخص تركيز الدخل عند القمة. ومع ذلك فالموقف السياسي مختلف بشكل كبير، فماساتشوستس معروفة بأنها ليبرالية، بينما فرجينيا كانت لزمن طويل محافظة بعمق. (ربما تغير هذا الآن، ولكنّ جعلها أكثر بياضا يعد ظاهرة حديثة جدا). ويمكنك إجراء مقارنات مماثلة بين أي ولايتين أخريين واحدة منهما من الفيدرالية القديمة[1] والأخرى مماثلة لها اقتصاديا في الشمال، وفي معظم الحالات، وليس كلها، سنجد أن الولاية الجنوبية أكثر، الولاية الأكثر سوادا تعد أكثر محافظة بكثير. وليس من الصعب استخلاص أن العرق هو الاختلاف.

وعلى الرغم من ذلك كان تحالف الصفقة الجديدة يضم الجنوب، وذلك لأسباب تمت مناقشتها في الفصل الرابع. كانت هناك مصلحة ذاتية فجة: الجنوب كان لفترة طويلة إقليما فقيرا، ولذا كسب بشكل غير متناسب من دولة الرفاه. وكان هناك التاريخ: ظل الحزب الجمهوري، في عقول الجنوبيين، حزب لينكولن. وكان هناك استعداد أولي من جانب ليبراليي الشمال للتوصل إلى صفقة مع الشيطان، ولذا قبلوا بقوانين جيم كرو[2] مقابل تأييد الجنوب لهم في الأجندة الواسعة لدولة الرفاه.

وفي نهاية المطاف، على أية حال، انهار الزواج بين البيض الجنوبيين وبقية الحزب الديمقراطي بسبب خلافات لا يمكن حلها. وقد بدأت العملية مع باري جولدووترالذي التزم بموقف قوي فيما يتعلق بحقوق الولايات، وأخذ موقفا معارضا لقانون الحقوق المدنية لعام 1964. وباستثناء أريزونا، كانت كل الولايات التي كسبها جولدووتر في انتخابات عام 1964 تقع في الجنوب. وفي انتخابات

(1) راجع تعريفا بولايات الفيدرالية القديمة في الفصل الثاني. (المترجم)

(2) انظر تعريفا بقوانين جيم كرو في الفصل الثاني. (المترجم)

عـام 1968 ذهـب كثـير مـن ولايـات الجنـوب لجـورج والاس، ولكـن نيكسـون اسـتطاع التقـاط عـدة ولايـات حدوديـة. ومـع حلـول عـام 1980 اسـتطاع ريجـان كسـب الولايـات الجنوبيـة مـع إغـراءات مسـترة قليـلا لمشـاعر التفرقـة العنصريـة، بينـما كان الديمقراطيـون مرتبطـين بشـدة بالحقـوق المدنيـة والعمـل الإيجـابي، أكـثر مـن أي وقـت مـضى. وفي الواقـع فاللغـز الحقيقـي هـو لمـاذا اسـتغرق وفـد الكونجـرس الجنـوبي هـذا الوقـت الطويـل لـكي ينقلـب؟

مـا هـو النصيـب الـذي يمكـن أن يُعـزى إلى التحـول الجنـوبي في صعـود الحركـة المحافظيـة؟ مـا توضحـه الأرقـام هـو أن الانتصـار المحافـظ ينسـب بالكامـل إلى التحـول، بـل وأكـثر مـن ذلـك.

قـارن تشـكيلة مجلـس النـواب عنـد زمنـين يفصـل بينهـما نصـف قـرن. فبعـد انتخابـات عـام 1954 كانـوا قـد بـدأوا لتوهـم مـا اتضـح أنـه سـيكون سـيطرة لهـم عـلى المجلـس لمـدة أربعـين عامـا، إذ حصلـوا عـلى 232 مقعـدا مـن إجـمالي 435 مقعـدا. وبعـد انتخابـات عـام 2004 كان لـدى الجمهوريـين مقاعـد تماثـل عـدد المقاعـد التـي كانـت لـدى الديمقراطيـين في عـام 1954، لتكـون لديهـم أوسـع أغلبيـة حققوهـا عـلى الإطـلاق خـلال فـترة حكمهـم عـلى مـدار 12 عامـا. لـذا مـن أيـن كسـب الجمهوريـون تقدمهـم هـذا؟ الإجابـة هـي أن الديمقراطيـين في الحقيقـة كانـوا قـد كسـبوا مقاعـد خـارج الجنـوب. وبالتـالي فأكـثر مـن كامـل خسـارة الديمقراطيـين الصافيـة للجمهوريـين أتـت مـن التحـول الجنـوبي.

ويعكـس التحـول الجنـوبي تغـيرا في السـلوك التصويتـي للبيـض الجنوبيـين. في عـام 1954 كان الجنوبيـون البيـض مـن كل مسـتويات الدخـل مـن الأكـثر احتـمالا بشـكل كبـير أن يصوتـوا للحـزب الديمقراطـي مقارنـة بنظرائهـم في الشـمال. أمـا بحلـول عـام 2004 فلـم يعـد الجنوبيـون البيـض ذوو الدخـل المنخفـض مختلفـين عـن البيـض منخفـضي الدخـل في سـائر أنحـاء البـلاد، بينـما كان الجنوبيـون البيـض مـن ذوي الدخـل المتوسـط والمرتفـع جمهوريـين بشـكل غـير متناسـب. في الانتخابـات الرئاسـية عـام 2000 وعـام 2004 كان البيـض خـارج الجنـوب يفضلـون بـوش، ولكـن بهامـش معتـدل فقـط. بينـما في الجنـوب صوتـوا لبـوش بهامـش بلـغ 35% أو أكـثر، وهـو مـا كان كافيـا

للتغلب على التصويت الديمقراطي الكاسح للجنوبيين السود.[1] ومن دون أصوات هؤلاء الجنوبيين البيض ما كان بوش ليقترب من البيت الأبيض.

والأهمية الكبيرة للتحول الجنوبي تعرض قصة بسيطة مربكة إلى حد ما حول النجاح السياسي للحركة المحافظية. وتمضي القصة كالآتي: بفضل تنظيمهم، والتشابك بين المؤسسات التي تشكل حقيقة المؤامرة الواسعة للجناح اليميني، كانت الحركة المحافظية قادرة على الاستيلاء على الحزب الجمهوري، ونقلت سياساته بحدة نحو اليمين. وفي معظم البلد أبعد هذا التحرك جهة اليمين الناخبين الذين تحركوا نحو الديمقراطيين. ولكن رغم ذلك كان الجمهوريون قادرين على كسب الانتخابات الرئاسية، وكسبوا في نهاية المطاف السيطرة على الكونجرس، لأنهم كانوا قادرين على استغلال موضوع العرق للفوز بالهيمنة السياسية على الجنوب. نهاية القصة.

أو ربما لم يكن ذلك هو -بدقة- نهاية القصة. فحتى قبل انتخابات عام 2006، أشار بعض المحللين-بشكل خاص توم شالر، عالم السياسة في جامعة ميريلاند-إلى أن الجمهوريين قد تفوقوا بالحيلة والخداع، وأنهم بدورهم أصبحوا عرضة لانقلاب شبيه بهذا الذي تعرض له الديمقراطيون وأخرجهم من السلطة.[2] ومثلما استمر الديمقراطيون في الاحتفاظ بالعديد من مقاعد الكونجرس الجنوبية لزمن طويل بعد انهيار زواج المصلحة التاريخي بين أنصار الصفقة الجديدة والديكسكراتيين،[3] واستمرت الدوائر الانتخابية المعتدلة نسبيا في بقية أنحاء البلد في إرسال جمهوريين إلى الكونجرس لزمن طويل، بعد أن كان الموفدون الجمهوريون إلى الكونجرس قد أضحوا، عمليا، كتلة تصويتية متماسكة يمينية التوجه. وفي الواقع، قد خسر عدد من هؤلاء الجمهوريين في نهاية المطاف مقاعدهم في انتخابات عام 2006. وبعد انتخابات عام 2006 كان لا يزال نحو 42% من المقاعد التي ما زال الجمهوريون

(1) Exit-poll data at http://www.nytimes.com/packages/pdf/politics/20041107_px_ELECTORATE.xls.

(2) Thomas Schaller, Whistling Past Dixie: How Democrats Can Win Without the South (Simon & Schuster, 2006).

(3) انظر تعريفا بهم في مقدمة الكتاب. (المترجم)

يحتفظون بها في الجنوب، وهو ما ليس بعيدا عن نسبة 47% التي كانت حصة مقاعد الديمقراطيين في عام 1954 في الجنوب.[1]

وبعد كل ما قيل، يبقى شيء من اللغز: ما الذي ظن الجنوبيون البيض أنهم سوف يجنونه حقيقة من الحزب الجمهوري؟ فالجمهوريون في واشنطن لم يجعلوا العالم أكثر أمانا لدعاة التفرقة العنصرية مرة أخرى. ولكي أكون منصفا، فمن المشكوك فيه ما إذا كان العديد من الجنوبيين سيسعون للعودة إلى قوانينجيم كرو حتى لو سمحت الأجهزة الاتحادية بذلك. ما عرضه ريجان في فيلادلفيا، مسيسبي، كان بشكل أساسي رمزيا -عصا في أعين اليانكي الميالين للنقد القاسي- عوضا عن أن يكون إمكانية للتراجع عن منجزات حركة الحقوق المدنية. ربما كان من الواجب أن يكون عنوان كتاب فرانك هو "ما خطب الديكسي؟"، والتشدق اللفظي كان ينبغي أن يكون على النسق التالي: "صوِّت للأيام الخوالي المجيدة للفخر الجنوبي، وتلقَّ خصخصة الضمان الاجتماعي". وحينما حاول بوش حقيقة محاولة استخدام "تفويضه" لخصخصة الضمان الاجتماعي، كان الجنوب معارضا للمقترح بنفس قدر معارضة بقية البلد له.[2]

كان العرق، إذن، أساسيا لقدرة المحافظين على الفوز بالانتخابات،على الرغم من السياسات الاقتصادية التي حابت الأقلية على حساب الأغلبية. ولكن ماذا عن الأشكال الأخرى من التشتت الفكري؟

إمبراطورية الشر والأشرار

"لقد رأى المحافظون وحشية هجمات 11/9 واستعدوا للحرب، بينما رأي الليبراليون وحشية هجمات الحادي عشر من سبتمبر وأرادوا تحضير لائحة اتهامات وعرضوا علاجا وتفهُّما على مهاجمينا". هكذا أعلن كارل روف، كبير المحللين الإستراتيجيين لدى جورج بوش، في حديث له عام 2005.[3]

---

(1) Klinlner and Schaller, "A Regional Analysis."

(2) See, for example, a Time Poll taken in March 2005, http://www.srbi.com/time_poll_arc13.html.

(3) "Rove Criticizes Liberals on 9/11," New York Times, June 23, 2005, p. A 13.

وكان روف، كـما نعـرف الآن، يحـارب آخـر حـرب: بحلـول عـام 2005 كانـت الهزيمـة فيالعـراق تعمـل عـلى التـآكل السريعفـي تصـور الجمهـور بـأن الجمهوريـين أفضـل مـن الديمقراطيـين في حمايـة الأمـة. ولكـن مـن أيـن أتى هـذا التصـور؟ وإلى أي حـد سـاعد في فـوز الجمهوريـين بالانتخابـات؟

عـادة مـا يتـم التأكيـد عـلى أن تفـوق الجمهوريـين في الأمـن القومـي يعـود إلى حـرب فيتنـام، وخاصـة إلى الانتصـار السـاحق لريتشـارد نيكسـون عـام 1972 عـلى ماكجفـرن. ولكـن كـما يحـدث عـادة عندمـا ننظر بتمعـن في التاريـخ السـياسي الحقيقي لهـذا البلـد، سـوف يكـون بعيـدا عـن الوضـوح تمامـا أن مـا يعرفـه كل شـخص هـو الحقيقـة. فقـد جـادل ريـك بيرلشـتين بـأن حتـى انتخابـات 1972 يمكـن القـول إنهـا هزيمـة شـخصية لماكجفـرن أكـثر مـن كونهـا نبـذا للديمقراطيـين الذيـن كسـبوا حقيقـة في مجلـس الشـيوخ، وعانـوا خسـائر معتدلـة في مجلـس النـواب.[1]

وفي الحديـث أكـثر حـول هـذه النقطـة، لا تشـير اسـتطلاعات الـرأي المتاحـة إلى أن الجمهـور رأى الديمقراطيـين بشـكل عـام ضعفـاء في مجـال الأمـن القومـي، في السـنوات التـي أعقبـت مبـاشرة سـقوط سـايجون. فحتـى وقـت متأخـر مثـل أكتوبـر 1979 أُجـرِي اسـتطلاع للـرأي بتكليـف مـن اللجنـة الجمهوريـة الوطنيـة، وفي سـؤال بهـذا الاسـتطلاع عـن أي حـزب كان أداؤه أفضـل في "الحفـاظ عـلى الأمـن العسـكري"، وُجِـد أن 29% مـن المصوتـين أجابـوا للجمهوريـين، و28% أجابـوا للديمقراطيـين، وأجـاب 21% بـأن أيـا مـن الحزبـين يمكنـه القيـام بالعمـل في هـذا المجـال بشـكل جيـد.[2] إن تصـور أن الديمقراطيـين ضعفـاء في مجـال الأمـن القومـي-وهـو التصـور الـذي جعـل الاسـتغلال الحـزبي لـ11/9 ممكنـا-لم يسـتقر حقيقـة إلا في الثمانينـات. وهـو تصـور لديـه صلـة

(1) Rick Perlstein, "Why Democrats Can Stop the War," Salon, Jan. 24, 2007, http://www.salon.com/opinion/feature/2007/01/24/perlstein/index_np.html.

(2) National Survey for RNC/NRCC, Oct. 21-Nov. 15, 1979, data from Roper Center for Public Opinion Research.

وأظهـر اسـتطلاعان للـرأي أجرتهـما مؤسسـة هاريـس في عـام 1978 أن الحزبـين كانـا قريبـين للغايـة مـن بعضهـما في هـذا المجـال. انظـر:

http://www.ropercenter.uconn.edu/data_access/ipoll.html.

ضئيلة للغاية بحقائق الدفاع أو السياسة الخارجية. بل وعوضا عن ذلك كان أمرا يخص سطور في قصة، وقبل أي شيء آخر كان رامبو[1] للتاريخ.

ليس من السهل أبدا الاعتراف بالهزيمة. فبعد الحرب العالمية الأولى كان من المشهور أن العديد من الألمان أصبحوا يعتقدون في الطعن في الظهر: أسطورة أن القوات الألمانية قد تم "طعنها في ظهرها" بواسطة القادة المدنيين الضعفاء. ومنذ سقوط سايجون فصاعدا كان هناك أمريكيون، مثلهم مثل أقرانهم في ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الأولى، أصبحوا قابلين للعدوى بنظريات الطعن في الظهر، وادّعوا أن الجيش كان قادرا على الفوز في الحرب لو أن المدنيين فقط لم يقيدوا يديه. وحينما كانت ذكريات حرب فيتنام لا تزال حية بكل ما فيها من رعب وعبث، على أية حال، كان هؤلاء يمثلون أقلية تصويتية صغيرة.

لو كانت هناك لحظة شكلت فيها هذه النظريات تيارا رئيسيا، فهي تلك التي كانت مع نجاح فيلم الدم الأول في عام 1982، الفيلم الأول في سلسلة أفلام رامبو، والذي قال فيه رامبو: "لقد فعلت كل ما كان بوسعي للفوز. ولكن شخصا ما لم يسمح لنا بالفوز". كما قاد حملة هجومية ضد "يرقات الذباب في المطار هؤلاء، الذين يحتجون، ويبصقون، ويدعونني قاتل أطفال". وأصبحت صور المحتجين الذين يبصقون على الجنود العائدين متجذرة في الثقافة الشعبية. وليس هناك أي دليل على أن هذا قد حدث حقيقة على الإطلاق، وليست هناك حالات موثقة موثوق بها لمحاربين عائدين تم البصق عليهم وأطلق عليهم "قتلة أطفال". ورغم ذلك، أصبحت أسطورة الليبراليين الذين لا يحترمون القوات مثبتة في أذهان العامة.

وبعد الطعن في الظهر أتت خيالات الانتقام. بسالة غير عادية (1983)، ومفقود في العمليات (1984)، ورامبو: الدم الأول الجزء الثاني (1985)-التي أعادت اختراع التشوش: جندي مصاب في الفيلم الأول يصبح بطلا في أفلام الحركة-داعبت سوق الخيالات حيث يقوم رجال عسكريون متمردون في الحقيقة بإعادة الحرب، والفوز بها.

---

(1) الإشارة هنا إلى سلسلة أفلام رامبو التي قام ببطولتها الممثل الأمريكي سيلفستر ستالوني وقام فيها بدور بطل الملاكمة الأمريكي الذي يهزم بطل الاتحاد السوفيتي في منافسة على بطولة العالم. (المترجم)

وقـد عمـل المـزاج الحـربي العـدواني الجديـد للأمـة في مصلحـة المحافظـين. ولم يكـن السـجل الحقيقـي لليبراليـين في معارضـة حـرب فيتنـام عـلى هـذا القـدر مـن الأهمية،فبحلـول الثمانينـات كانـت حقائـق مـا حـدث قـد انزلقـت مـن ذاكـرة الجمهـور إلى حـد كبـير. ومـا كان يهـم، في المقابـل، هـو طريقـة بـث الحركـة المحافظة للخـوف والبغـض تجـاه الشـيوعية التـي تقابـل رجـع صداهـا مـع رغبـات الأمـة في الرجـوع للحالـة الطبيعيـة مـن حالـة مـا بعـد متلازمـة فيتنـام. وحينـما وصـف ريجـان الاتحـاد السـوفييتي بأنـه "إمبراطوريـة الـشر"، مـال الليبراليـون والمعتدلـون إلى التهكـم والسـخرية، ليـس بسـبب كونهـم ضعفـاء في الأمـن القومـي، ولكـن بسـبب كونهـم براجماتيـين بصـدد مـا يجـب عملـه لتحقيـق الأمـن. ولكـن العديـد مـن الأمريكيـين أعجبهـم وصـف ريجـان.

وكانـت جهـود الحركـة المحافظيـة لـكي تعـرف نفسـها عـلى أنهـا المدافـع عـن الأمـة قـد تمـت مسـاعدتها بحقيقـة أن العسـكرية ذاتهـا، وهـي مؤسسـة محافظـة دومـا، أصبحـت كذلـك كثـيرا بعـد منتصـف السـبعينات. في عـام 1976 عـرّف جمـع مـن القـادة العسـكريين أنفسـهم كمسـتقلين، بينـما عـرف الثلـث أنفسـهم عـلى أنهـم جمهوريـون. بحلـول عـام 1996 اعتـبر الثلثـان أنفسـهم جمهوريـين.[1] وربمـا يكـون هـذا التحـول في التعريـف السـياسي لـه عـدة أسـباب. الأول هـو القـادة العسـكريون الذيـن كانـوا -عـلى خـلاف المدنيـين- أقـل قـدرة عـلى وضـع الهزيمـة في فيتنـام وراء ظهورهـم، وربمـا كانـوا متعاطفـين خاصـة مـع أسـطورة الطعـن في الظهـر. وربمـا يكـون للأمـر علاقـة أيضـا بالميزانيـات، فقـد تـرأس كارتـر تقليـص الجيـش بعـد فيتنـام، بينـما زاد ريجـان بتوسـع كبـير الإنفـاق العسـكري، ثـم جـاء كلينتـون ليـترأس خفضـا آخـر، وهـذه المـرة بعـد سـقوط الاتحـاد السـوفييتي. وقـد لعبـت السياسـة الإقليميـة أيضـا دورا، كـما يظهـر في إحـدى المقـالات[2]:

(التحـول العسـكري نحـو الجمهوريـين) نَجَـم أيضـا مـن التغـير في سياسـات إغـلاق القواعـد، مجتمعـة مـع التحـول المنتظـم في تحـول الجنـوب نحـو الجمهوريـين. فالفـترة

---

(1) Ole R. Holsti, "A Widening Gap Between the U.S. Military and Civilian Society? Some Evidence," 1976-96. International Security 23 (Winter 1999): pp. 5-44.

(2) Rosa Brooks, "Weaning the Military from the GOP," Los Angeles Times, Jan. 5, 2007, p. A23.

منـذ نهايـة السـتينات شـهدت إغـلاق العديـد مـن برامـج تدريـب فيالـق ضبـاط الاحتيـاط في الشـمال الشرقـي، والتوسـع في هـذه البرامـج في الجنـوب. ومـع نهايـة التسـعينات، أكـثر مـن 40% مـن جميـع برامـج تدريـب فيالـق ضبـاط الاحتيـاط كان في الجنوب-بشـكل رئيسي في جامعـات الولايات-عـلى الرغـم مـن أن الجنـوب كان موطـن نحـو 30% مـن طلبـة جامعـات الأمـة. والإغلاقـات المماثلـة في القواعـد العسـكرية كانـت تعنـى أن أعـدادا غـير متناسـبة مـن الأفـراد العسـكريين كانـوا الآن يتمركـزون في قواعـد في الجنـوب والجنـوب الغـربي.

وأخـيرا وليـس آخـرا، ربمـا كان هنـاك أيضـا مكـوِّن يتعلـق بـ"القيـم": مـع تحـول المجتمـع الأمريـكي ليكـون أكـثر تسـامحا، فـإن الجيش-حيـث الزنـا مـا زال يُعَـد جريمـة في ظـل ظـروف معينة-اسـتمر في النمـو ليصبـح غريبـا بشـكل متزايـد. والثورة الجنسـية، التـي نربطهـا عـادة بالسـتينات، لم تذهـب إلى سـوق الجملـة حتـى السـبعينات، وهـي نقطـة تـم التأكيـد عليهـا في عناويـن واحـدة مـن روايـات جـون أبدايـك الكثـيرة التـي دارت حـول الزنـا والظـرف الإنسـاني، ذكريـات عـن إدارة فـورد.

ومـع اكتسـاب الحركـة المحافظيـة للقـوة، حينئـذ، كانـت قـادرة بشـكل متزايـد عـلى لـف نفسـها في العلـم، لادعـاء أنهـا قويـة في مجـال الأمـن القومـي مقارنـة بالطرف الآخـر، ولادعـاء تأييـد الغالبيـة الكـبرى مـن القـادة العسـكريين.

ومـن الصعـب الادعـاء، عـلى أيـة حـال، أن التفـوق الجمهـوري المتصـوَّر في مجـال الأمـن القومـي قـد لعـب دورا حاسـما في أي انتخابـات وطنية قبـل 11/9. وهـذا التصور أضر الديمقراطيـين في عـدة مناسـبات، فصـورة مايـكل دوكاكيـس (مرشـح الحـزب الديمقراطـي لانتخابـات الرئاسـة-المترجم) في دبابـة سـاعدت عـلى خسـارة انتخابـات عـام 1988، والجـدال حـول المثليـن جنسـيا في الجيـش سـاهم في اسـتيلاء الجمهوريـين عـام 1994 عـلى الكونجـرس. وقـد صنعـت أصـوات العسـكريين الفـارق في عـام 2000، ولكـن كان هنـاك العديـد مـن الأشـياء الأخـرى، ففـي انتخابـات متقاربـة النتائـج يمكـن اعتبـار أي عامـل يعطـي للحـزب الجمهـوري عـدة آلاف مـن الأصـوات عامـلا حاسـما.

وفقـط مـع انتخابـات عامـي 2002 و2004 أصبـح موضـوع الأمـن القومـي موضوعـا حقيقيـا في كسـب الانتخابـات. فمـع مواجهتـه لفضيحـة في مجـال الأعـمال، واقتصـاد ضعيـف، ومـع الميـل الطبيعـي لفقـدان حـزب الرئيـس مقاعـد في انتخابـات التجديـد النصفـي، كان ينبغـي أن يتراجـع الجمهوريـون في عـام 2002، لينتهـي الأمـر

بسيطرة الديمقراطيين على مجلس الشيوخ، وربما على مجلس النواب أيضا. ولكن الأمة احتشدت حول جورج بوش، مع وعده بمعاقبة "الأشرار" المسؤولين عن 11/9 وإحضار أسامة (بن لادن) حيا أو ميتا. وانخرط حزب بوش في استغلال سياسي فجلهذا العمل الوحشي، بما في ذلك إعلانات كانت وجوه الديمقراطيين تتحول فيها إلى وجه صدام حسين. وكانت النتيجة نصرا كبيرا للحزب الجمهوري.

بحلول انتخابات عام 2004 كانت الشكوك حول حرب العراق تتصاعد، ولكن كان أغلب الهيئة الناخبة لا يزال في حالة إنكار. وعشية الانتخابات كان أغلب الناخبين لا يزالون يؤمنون بأن الولايات المتحدة قد فعلت "الشيء الصحيح" بغزوها للعراق، وكانت على طريق النصر.[1] ويكاد يكون من المؤكد أن الأمن القومي أعطى بوش هامش انتصاره.

وفي أعقاب انتخابات عام 2004 مباشرة، كان هناك العديد من التصريحات التي تفيد بأن التفوق المتصوَّر للجمهوريين في مجال الأمن القومي سوف يساعد على تثبيت أغلبية جمهورية دائمة. وهكذا جادل توماس إيدسال -الذي أشدت به بالفعل على كتابه التنبئي الصادر عام 1984، السياسة الجديدة لعدم المساواة- في كتابه الصادر عام 2006 بناء أمريكا الحمراء بأن الأمن القومي سوف يثبت أنه عنصر دائم في تفوق الحزب الجمهوري: "أيّ ضعف في الدفاع الوطني يتم تتبعه للحزب الديمقراطي سيتم تضخيمه بشكل كبير في سياق الحرب الطويلة".[2]

ومع ذلك فهناك حالة جيدة يمكن تقديمها عن أن الاستغلال الناجح للأمن في انتخابات عامي 2002 و2004 كان محدودا بشكل متأصل من حيث طبيعته، وربما تتأصل فيه إستراتيجية لهزيمة الذات: مالم تنخرط الولايات المتحدة بنشاط في حرب كبرى، يميل الأمن القومي إلى أن ينحسر كقضية. وقد تعلم جورج بوش الكبير ذلك في عام 1992، فقد أعطته حرب الخليج عام 1991 بشكل مؤقت شعبية بلغت 80%، ولكن بعد عام لاحق تحول اهتمام الجمهور نحو الشؤون الاقتصادية، وأعاد الديمقراطيون فوزهم بالبيت الأبيض على الرغم من تصورات العامة عن أنهم ضعفاء في قضايا الدفاع.

(1) See Christopher Gelpi, Jason Reifler, and Peter Feaver, "Iraq the Vote" (photocopy, Duke University, 2005).

(2) Thomas Edsall, Building Red America (Basic Books, 2006), p. 21.

وقد بدا في البداية أن نفس الشيء حدث لبوش الأصغر، فمع حلول صيف 2002 كانت شعبيته قد هبطت من ذُرى مرتفعة، وتحول اهتمام الجمهور لفضائح الشركات والاقتصاد الضعيف. ثم أتى الاستعداد للحرب مع العراق. وربما لن نستطيع أن نعرف أبدا بالضبط لماذا أرادت الإدارة هذه الحرب بهذه الشدة، ولكن المغامرة العسكرية كان لها تأثيرها في إعطاء الأمن القوميأهمية مستمرة، وهي قضية يعتقد الجمهوريون أنهم يمتلكونها.

والمشكلة التي أصبحت في نهاية المطاف واضحة للغاية، أن إبقاء الاهتمام بالأمن القومي في الصدارة يعني العراك مع الناس الذين يردون على إطلاق النار، وفي العالم الواقعي لدىالأشخاص السيئين هدف أهم مما يفعلون في أفلام رامبو. ولم يكن المستنقع في العراق حادثة: "فحتى لو كان العراقيون قد استقبلونا مرحبين بالورود والشيكولاتة، فقد كان هناك مستنقع أكبر، وأكثر سوءا في المستقبل". وقد تحدث مسؤول بريطاني لمجلة نيوزويك[1] في عام 2002 قائلا: "كل شخص يريد الذهاب إلى بغداد. والرجال الحقيقيون يريدون الذهاب إلى طهران".

وعلاوة على ذلك، فالحركة المحافظية وجهود الحرب الرئيسية لا يمتزجان. فأي تعبئة عسكرية رئيسية تستحث الدعوات إلى التضحية المتساوية، وهو ما يعني زيادة في الضرائب، وفرض إجراءات صارمة على المتربحين الملحوظين، بل وأكثر من هذا. وقد أدت كل من الحربين العالميتين الأولى والثانية إلى تزايد في عضوية النقابات، وتزايد في تصاعد الضريبة، وخفض في عدم مساواة الدخل، وكلها أشياء ملعونة لدى المحافظين. وقد كتب الكثير عن الافتقار المفجع إلى التخطيط لما بعد غزو العراق. وما لم يتم التركيز عليه بشكلكاف هو أن إدارة بوش كان عليها أن تؤمن بأنه يمكن شن حرب بتكلفة منخفضة، لأن التقدير الواقعي لتكلفة الحرب ومتطلباتها كان سيضع تحديا مباشرا أمام أجندة الإدارة لخفض الضرائب. أضف إلى ذلك الذهن المغلق وعدم المرونة التي نجمت عن الفقاعة التي تعيش فيها الحركة المحافظية، والمحسوبية والفساد المتأصل في إدارة الحركة المحافظة، وكان محكوما على المغامرة العراقية بالفشل منذ البداية.

ويبدو أن قضية الأمن القومي قد منحت الحركة المحافظية نصرين انتخابيين، في عامي 2002 و2004، وما كان للحركة أن تكسبهما من دون ذلك، كما مدت في

(1) "periscope," Newsweek, Aug. 19, 2002, p.4.

سيطرة الجمهوريين على كل من الكونجرس والبيت الأبيض أربعة أعوام لما كان يقدر بأنه عمرهم الطبيعي. وأنا لا أريد أن أقلل من تبعات هذا التمديد الذي سيتم الشعور به لعقود مقبلة، وخاصة في المحكمة العليا. ولكن الدفاع لا يمكنأن يبدو، عند هذه النقطة، كمصدر دائم لتفوق المحافظين.

الأقلية الأخلاقية

نحن نؤمن بأن ممارسة اللواط تمزق نسيج مجتمعنا، وتساهم في انهيار وحدة العائلة، وتؤدي إلى انتشار الأمراض المعدية والخطيرة. والسلوك الشاذ جنسيا مناقض للحقائق الأساسية التي لا تتبدل والتي وضعها الله، والمعترف بها من جانب مؤسسي بلدنا، والتي يتشاركها أغلب سكان تكساس.

هكذا أعلن البرنامج الانتخابي لعام 2006 للحزب الجمهوري في ولاية تكساس الذي تعهد أيضا بـ"تبديد أسطورة فصل الكنيسة عن الدولة".

هناك سؤالان مختلفان بشأن دور الدين والقيم الأخلاقية في سياسة عدم المساواة. الأول هو إلى أي حد تم الاستيلاء على الحزب الجمهوري من جانب المؤمنين بعدم قبول فصل الكنيسة عن الدولةالذين أسمتهم ميتشيل جولدبرج، في كتابها المرعب مملكة قادمة، بالمسيحيين الوطنيين؟[1] والسؤال الآخر هو سؤال توم فرانك: إلى أي مدى مكن حشد "ناخبي القيم"، واستخدام قضية القيم في الذهاببالموضوع بعيدا عن قضايا الخبز والزبد، الحزبَ الجمهوري من تنفيذ أجندة اقتصادية مضادة للشعبية؟

فيما يتعلق بالسؤال الأول، حول نفوذ وتأثير اليمين المسيحي على الحزب الجمهوري، فالإجابة واضحة: إنه تأثير قوي جدا بالفعل. فالبرنامج الانتخابي لتكساس لا يشكل أفكارا هامشية داخل الحزب، بل يمثل ما تفكر به قاعدة النشطاء عن العامة. وفي الواقع كان من المدهش ذلك الوقت الطويل الذي استغرقه المحللون السياسيون لإدراك فقط كم هو قوي حقيقة نفوذ اليمين المسيحي. ويرجع هذا جزئيا إلى أن إدارة بوش قد أثبتت قدرتها الكبيرة على

(1) Michelle Goldberg, Kingdom Coming: The Rise of Christian Nationalism (W.W. Norton, 2006).

التكيـف بتوزيعهـا لرسـائل يمكـن فقـط للجمهـور المسـتهدف سـماعها. والمثـال الكلاسـيكي هـو وصـف بـوش لنفسـه عـلى أنـه "محافـظ عطـوف"، وهـو مـا سـمعه معظـم النـاس عـلى أنـه إعـلان عـن أنـه لـن يُقْـدِم عـلى تمزيـق شـبكة الأمـان. وقـد كان قولـه ذلـك حقيقـة هـو نتيجـة لرجوعـه إلى عمـل مارفـين أولاسـكي، وهـو مؤلـف يمينـي مسـيحي. ففـي كتابـه الصـادر عـام 1992، تراجيديـا العطـف الأمريـكي، رفـع نظـام الرعايـة الاجتماعيـة للقـرن التاسـع عـشر الأمريـكي الـذي تقـوم فيـه جماعـات دينيـة بتوزيـع المعونـات والديـن معـا، كنموذج،وقـام بالاقتبـاس مـن مؤلفـي العـصر المذهـب مـع الموافقـة عـلى مـا ذكـروه مـن إدانـة لـ"هـؤلاء المجرمـين اللطـاف، حسـني النيـة، الشـفوقين الذيـن يـصرون عـلى الانغـماس في الأعـمال الخيريـة العشـوائية".[1]

في ربيـع عـام 2007 وقعـت إدارة العـدل وقـت إدارة بـوش أخـيرا تحـت الرقابـة اللصيقـة، وأصبـح واضحـا أن الإدارة، في عـدة أوجـه مهمـة، قـد تـم الاسـتيلاء عليهـا مـن جانـب اليمـين المسـيحي. فعـدة مناصـب رئيسـية ذهبـت إلى خريجـي جامعـة ريجينـت التـي تـم تأسيسـها وإدارتهـا بواسـطة المبـشر بـات روبرتسـون، وقسـم الحقـوق المدنيـة تحـول إلى حـد كبـير ليركـز عـلى حمايـة جهـود مبـشري الجماعـات الدينيـة، بـدلا مـن التركيـز عـلى حمايـة حقـوق جماعـات الأقليـات. وفي إدارة الأغذيـة والـدواء، قـام بـوش باختيـار دبليـو دايفيـد هاجـر، المؤلـف المشـارك لكتـاب لأن المسـيح يرعـى النسـاء-وهو الكتـاب الـذي اقـترح قـراءات روحيـة معينـة كعـلاج لمتلازمـة مـا قبـل الحيض-للجنـة الاستشـارية للصحـة الإنجابيـة، وقـد لعـب هاجـر دورا في إرجـاء الموافقةعـلى حبـوب منـع الحمـل التـي تعـرف بحبـوب "صبـاح اليـوم التـالي".[2] واختـار بـوش في عـام 2006 لرئاسـة خدمـات تنظيـم الأسرة في إدارة الصحـة والخدمـات البشريـة، الدكتـور إريـك كيرواكالـذي عمـل في مركـز مسـيحي لاستشـارات الحمـل والـذي كان يَعتـبر أن توزيـع موانـع الحمـل "مهـين للمـرأة".[3] وهنـاك العديـد مـن الأمثلـة الأخـرى.

واليمـين المسـيحي الـذي نتكلـم عنـه هنـا ليـس مجـرد جماعـة مـن النـاس تجمـع بـين الإيمـان والميـول السياسـية المحافظـة. وكـما وصفـت ذلـك جولدبـرج في كتابهـا مملكـة قادمـة، يسـعى المسـيحيون الوطنيـون إلى "الحكم".إنهـا "أيديولوجيـا

(1) Marvin Olaskyk The Tragedy of American Compassion (Regnery, 1992), p. 227.

(2) Goldberg, Kingdom Coming, p. 150.

(3) "Bush Choice for Family-Planning Post Criticized," Washington Post, Nov. 17, 2006, p. A01.

سياسـية اسـتبدادية" أيديولوجيـا "تؤكـد عـلى حـق المسـيحيين في الحكـم".[1] وتأثـير هـذه الأيديولوجيـة عـلى الحـزب الجمهـوري الحديثعظيـم جـدا اليـوم لدرجـة أنـه يثير التسـاؤل حـول مَـن يسـتخدم مَـن. هـل تسـتخدم الحركـة المحافظـة الديـن لإلهـاء الجمـوع، كـما جـادل تومـاس فرانـك؟ أو هــل ضمــت الجماعـات الدينيـة مصالـح الـشركات إليهـا في طريقهـا للحكـم؟

والأمـر المهـم في مناقشـتنا الحاليـة هـو الإبقـاء عـلى حـس بالأفـق المسـتقبلي للأهميـة الانتخابيـة لليمـين الدينـي. فهـي جماعـة حسـنة التنظيـم يمكنهـا أن تعلـب دورا حاسـما في الانتخابـات متقاربـة النتائـج، ولكنهـا ليسـت كبـيرة كفايـة لـكي تمنـح الحركـة المحافظـة القـدرة عـلى انتهـاج سياسـات اقتصاديـة غـير شـعبية دون قيـود. والبيـض الذيـن يحـضرون للكنيسـة كثـيرا قامـوا بالتصويـت للجمهوريـين بفـارق كبـير منـذ عـام 1992، ولم يكـن الوضـع هكـذا سـابقا. ولكـن هنـاك تحفُّظَـين عـلى هـذه الملاحظـة: الأول أن الكثـير مـن هـذا التحـول يمثـل تحـول الجنـوب، وهـو الإقليـم الأكـثر تدينـا بكثـير مقارنـة ببقيـة البلـد، نحـو الحـزب الجمهـوري. والثـاني أن التقـارب مـا بـين الأعـلى تدينـا والأقـل تدينـا يعكـس حركـة في كل مـن الاتجاهـين، فالعلمانيـون وأولئـك الذيـن يرتـدون إيمانـا خفيفـا تحولـوا تجـاه الحـزب الديمقراطـي. ولـذا فمهـما كانـت درجـة تعبئـة الناخبـين المتدينـين الحادثـة لـن تكـون كافيـة للحيلولـة بـين الناخبـين البيـض خـارج الجنـوب وبـين الاتجـاه إلى الديمقراطيـين.

ومـرة أخـرى، فتعبئـة الناخبـين الإنجيليـين يمكنهـا الترجيـح في الانتخابـات متقاربـة النتائـج. ومـن دون دور الكنائسربمـا كانـت أوهايـو، وبالتـالي الأمـة كلهـا، قـد ذهبـت إلى كـيري (مرشـح الحـزب الديمقراطـي للرئاسـة) في انتخابـات عـام 2004. ولكـن الديـن لا يمكنـه الارتفـاع إلى مسـتوى يقـارب العِـرق كتفسـير للنجـاح السـياسي المحافـظ.

حرمان العمال من التصويت

هنـاك عامـل آخـر ينبغـي ضمـه إلى مزيـج التفسـيرات للنجـاح السـياسي المحافـظ: الناخـب النمطـي هـو أفضـل حـالا مـن العائلـة النمطيـة، وذلـك جزئيـا بسـبب أن المواطنـين الأفقـر مـن المحتمـل أقـل أن يقومـوا بالتصويـت مقارنـة بمـن تعـد أحوالهـم

(1) Goldberg, Kingdom Coming, p. 7.

طيبة، وذلك جزئيا أيضا لأن عددا كبيرا من ذوي الدخل المنخفض المقيمين في الولايات المتحدة ليسوا مواطنين. وهذا يعني أن السياسات الاقتصادية من وجهة النظر التي ستفيد الأقلية الثرية ولكنتؤذي الأغلبية ليست بالضرورة خسائر سياسية من وجهة نظر انتخابية. فعلى سبيل المثال، أنتج المركز غير الحزبي لسياسة الضرائب العديد من التقديرات عن الأثر النهائي لسياسة بوش بخفض الضرائب على فئات الدخل المختلفة، مع افتراض أن الإيراد المفقود بسبب خفض الضرائب سوف يتم تعويضه بشكل ما، ربما فلنقل بخفض الإنفاق على البرامج الاجتماعية. وأحد التقديرات يفترض تمويلا "إجماليا"، أي أن كل أمريكي سوف يعاني من خسارة المنافع الحكومية بصرف النظر عن دخله. وفي ظل هذا الافتراض فكل شخص يقل دخله عن 75 ألف دولار سيحقق خسارة صافية. وهؤلاء يشكلون نحو 75% من السكان. وسوف تكون الخسائر معتدلة للأشخاص الذين يقع دخلهم بين 50 ألف دولار و75 ألف دولار. وعلى الرغم من ذلك، على أية حال، فخفض الضرائب غير شعبي بالمرة، لأن 60% من السكان تقل دخولهم عن 50 ألف دولار سنويا. ولكن بيانات هيئة تعداد السكان تخبرنا بأن أقل من 40% من الناخبين لديهم دخول أقل من 50 ألف دولار في العام. ولذا فربما يكون خفض الضرائب ليس خسارة سياسية في آخر المطاف.

عرض مكارثيو بولورونتثال، بيانات تشير إلى أن الانحراف تجاه الأعلى فيما يتعلق بدخول الناخبين، عند مقارنته بدخول جميع المقيمين في الولايات المتحدة، قد زاد بشكل ملحوظ منذ بداية السبعينات. وأحد الأسباب وراء ذلك ربما يكون انهيار النقاباتالتي عملت الكثير في السابق من أجل تعبئة أصوات الطبقة العاملة. والسبب الآخر هو الزيادة السريعة في عدد السكان المهاجرين، وخاصة منذ عام 1980.[1]

سوف تساعد الهجرة، في المدى الزمني الطويل، على إضعاف الاستراتيجية السياسية للحركة المحافظية، لأسباب سوف أعرضها بتوسع في الفصل العاشر. وباختصار، لا يمكن لحركة المحافظين أن تقوم بوضع تكتيكات جذابة على أساس العرق بحيث تجتذب الناخبين البيض وفي نفس الوقت تتودد إلى النصيب المتزايد للهيسبانك (المهاجرين من أمريكا اللاتينية-المترجم) والآسيويين في الهيئة

(1) McCarty, Poole, and Rosenthal, Polarized America, p. 124.

الناخبة. وفي الواقع، كانت المشكلات التي نشأت أمام الحزب الجمهوري نتيجة تقاطع المهاجرين والعرق ظاهرة بالفعل في انتخابات عام 2006. وخلال الخمسة والعشرين عاما الماضية، على أية حال، ساعدت الهجرة على تمكين الحركة المحافظية، بتقليل نسبة العمال ذوي الأجر المنخفض الذين يقومون بالتصويت.

وكما أوضحت في الفصل الثاني، فقد ساعدت الهجرة الواسعة النطاق على تعزيز هيمنة المحافظين خلال فترة العصر المُذهَّب الطويل، وذلك بتأكيدها على حرمان جزء معتبر من القوة العاملة منخفضة الأجر من التصويت. ونهاية الهجرة الواسعة النطاق في العشرينات كان لها أثر غير مقصود تمثل في إنتاج سكان أكثر لهم كامل الحق في التصويت، ما ساعد على تحول التوازن جهة اليسار. ومع استئناف الهجرة منذ الستينات-التي هيمنت عليها تدفقات العمال ذوي المهارة المنخفضة والأجر المنخفض، خاصة من المكسيك-أدى إلى حد كبير إلى إعادة خلق مستويات العصر المُذهَّب من السكان المحرومين من التصويت. وتُبين الرسوم البيانية التي قدمها مكارثي وبول وروزنثال أن الهجرة عامل مهم ولكنه ليس كاسحا في انخفاض تصويت الأفراد ذوي الدخل المنخفض، أي أن الهجرة عامل مساهم في نجاح المحافظين، ولكنها ليست عاملا جوهريا. وأثر الحرمان من التصويت هو، على أية حال، أمر بحاجة للتفكير العميق حوله من جانب الليبراليين حينما يواجهون أسئلة عن إصلاح الهجرة.

هناك سؤال أخير، من العسير تجنبه، هو قضية التزوير: إلى أي حد تعتمد الاستراتيجية السياسية للحركة المحافظية على الفوز بالانتخابات عن طريق الغش؟ يمكننا التغاضي عن اعتراضات من نوع "كيف يمكنك الإشارة إلى مثل هذا الأمر؟ فالتزوير الانتخابي تقليد أمريكي قديم"، كما شرحت حينما وصفت سياسات العصر المُذهَّب. فالحركة المحافظية تعد -وكانت دائما- غير ديمقراطية بامتياز. في عام 1957 كالت المجلة الوطنية المديح لفرانشيسكو فرانكو الذي أطاح بحكومة إسبانيا المنتخبة وأسس مملكة الرعب، على اعتباره "بطلا وطنيا". في عام 2007 خطب أمام لجنة العمل السياسي المحافظ كل المرشحين الرئاسيين الجمهوريين الرئيسيين فيما عدا جون ماكين. فبعد أن تحدث حاكم ماساشوستس السابق ميت رومني أمام التجمع، أبدى ترحيبا حارا بالمتحدث التالي، كاتب العمود

الصحفـي آن كولـتر[1] الـذي أعلـن أننـا بحاجـة "لتهديدالليبراليـين جسـديا". ومـع الوضع في الاعتبـار مثـل هـذا التاريـخ فليـس هنـاك أي سـبب للاعتقـاد بـأن أي شـخصية قيادية في الحركـة سـوف تعـارض، مـن حيـث المبـدأ، سرقـة الانتخابـات.

وفي الواقـع ليـس هنـاك شـك في أن قمـع التصويت-اسـتخدام أيـة وسـائل متاحـة مـن أجـل منـع مـن يحتمـل أن يكونـوا ناخبـين مؤيديـن للحـزب الديمقراطـي، وعـادة مـن الأمريكيـين ذوي الأصـل الإفريقـي، مـن الإدلاء بأصواتهـم المشروعـة-كان تكتيـكا جمهوريـا مسـتمرا منـذ تـم الاسـتيلاء عـلى الحـزب مـن جانـب حركـة المحافظـين. في عـام 2000 أجـرت الجمهوريـة كاثريـن هاريـس[2] وزيـرة ولايـة فلوريـدا، مـا وصفتـه صحيفـة نيويـورك تايمـز بأنـه كان "تطهـيرا كاسـحا للناخبين المؤهلـين لـلإدلاء بأصواتهم"، وبشـكل غـير متناسـب للسـود الذيـن وقـع خطـأ في تعريفهـم عـلى أنهـم مجرمـين. ولـولا هـذا التطهـير مـا كان جـورج دبليـو بـوش ليصـل إلى البيـت الأبيـض.[3] وفي جورجيـا قـام المشرعـون الجمهوريـون بتمريـر قانـون لتعريـف الناخـب في عـام 2005 أوصى فريـق مـن المحامـين والمحللـين بـوزارة العـدل برفضـه، لأنـه كان مـن المحتمـل أن يميـز ضـد الناخبـين السـود، ولكـن تـم إلغـاء هـذا الفريـق في اليـوم التـالي وتعيـين فريـق آخـر مـن قبـل السياسـيين.[4] وكان هـذا جـزءا مـن إسـتراتيجية أعـرض كانـت -عـلى نحـو مميـز للحركـة المحافظية-تتضمـن التعـاون بـين المعينـين السياسـيين داخـل

---

(1) http://www.pfaw.org/pfaw/general/default.aspx?oid=1625.

(2) كاثريـن هاريـس (5 أبريـل -1957) تـم انتخابهـا عـام 1998 كآخـر وزيـرة منتخبـة لولايـة فلوريـدا، حيـث أصبـح حاكـم الولايـة يعـين الوزيـر بعـد ذلـك. تـم انتخابهـا في عـام 2002 لمجلـس نـواب الولايـات المتحـدة عـن فلوريـدا، وخدمـت لدورتـين في المجلـس. خـسرت حينـما تقدمـت لانتخابـات عـام 2006 لمقعـد في مجلـس الشـيوخ عـن ولايـة فلوريـدا. قامـت بصفتهـا وزيـرة لولايـة فلوريـدا مـن بين مسـؤولياتها رئاسـة الانتخابـات، بإجـراء تطهـير لقائمـة الناخبـين، حيـث أسـقطت العديـد مـن الناخبـين المؤهلـين قبـل الانتخابـات الرئاسـية بوقـت قصـير، وخـلال هـذا العـام اكتسـبت اهتمامـا وطنيـا لدورهـا في عمليـة إعـادة عـد الأصـوات في فلوريـدا، والتصديـق عـلى منـح جـورج دبليـو بـوش انتصـارا محـدودا عـلى آل جـور، حيـث تـم منحـه أصـوات ناخبـي فلوريـدا، مـا مكنـه بالتـالي مـن الفـوز بالانتخابـات عـلى المسـتوى الوطني.(المترجـم)، انظـر:

Katherine Harris, Wikipedia, the free encyclopedia.

Secretary of State of Florida, Wikipedia, the free encyclopedia.

(3) "How America Doesn't Vote," New York Times, Feb. 15, 2004, sec. 4, p. 10.

(4) "Criticism of Voting Law Was Overruled," Washington Post, Nov. 17, 2005, p. A01.

الحكومة مع عمليات القطاع الخاص وعبر تمويل من المصادر المعتادة، في هذه الحالة "المركز الأمريكي لحقوق التصويت" الذي تم تأسيسه عن طريق المستشار القانوني العام لحملة بوش-شنري عام 2004، واختفى هذا المركز فجأة في عام 2007 حينما أصبح إشعال النار في مكتب النائب العام الذي رفض الموافقة على اتهام مزيف بالغش الانتخابي فضيحة كبرى. ونعرض هنا كيف وصفت صحف مكلاتشي هذه الاستراتيجية:

وجدت صحف مكلاتشي أن هذه الاستراتيجية الانتخابية كانت نشطة على الأقل في ثلاث جبهات:

- جماعات الإعفاء الضريبي مثل المركز الأمريكي واتحاد المحامين الذين تم إسقاطهم في ولايات أرض المعركة، وذلك لتقييد قوانين بطاقات الهوية ومراقبة الاقتراع.
- قسم الحقوق المدنية بوزارة الدفاع قام بقلب تطبيق حقوق التصويت التقليدية رأسا على عقب عبر سياسات قانونية تقلل من حقوق الأقليات بدلا من أن تحميها.
- شجع البيت الأبيض ووزارة العدل بعض النواب العموميين المختارين على تحضير ملاحقات قضائية لتزوير الانتخابات، على الرغم من أن الدراسات أظهرت أن تزوير الانتخابات لم يكن مشكلة عريضة.

ولذا يعد قمع التصويت جزءا من الاستراتيجية السياسية لحركة المحافظين. ويمكنه أن يكون حاسما في الانتخابات متقاربة النتائج، وهو ما يعني أنه كأمر كمي يقع قمع التصويت في نفس طبقة تعبئة الجماعات الدينية، ولكنه ليس من نفس طبقة استغلال ردة فعل عنصرية البيض، التي بقيت في قلب قدرة الحركة المحافظية على تحقيق نجاحات انتخابية.

والسؤال المخيف حقيقة هو ما إذا كان التزوير الانتخابي قد مضى أو هل سيمضى إلى أبعد من حدود قمع التصويت إلى الفساد في عد الأصوات ذاتها. والاهتمام الأكبر هو ما يتعلق بآلات التصويت الإلكترونية التي تعمل بلمس الشاشة. في عام 2007 حظرت ولاية كاليفورنيا بشكل حاسم استخدام آلات تعمل بلمس الشاشة، بعد أن أكد فحص لباحثين من جامعة كاليفورنيا أسوأ مخاوف

النشطاء المنخرطين في عملية التصويت: أجهزة تم توريدها من شركات ديبولد، وسكويا، وموردين رئيسيين آخرين كانت، في الحقيقة، معرضة بشدة لقرصنة يمكنها تغيير نتائج الانتخابات. وقد أثار هذا السؤال-الذي لم أحاول حتى تقديم إجابة عنه-عما إذا كان هناك عملية تزوير انتخابي جرت في انتخابات عامي 2002 و2004، بل ومن الممكن حتى في عام 2006. والأكثر أهمية، هناك احتمالية مربكة أن اتجاهات التفضيلات السياسية التي سأناقشها في الفصل التالي ربما يتم تعديلها بتزايد التزوير. ومع الأخذ في الاعتبار تاريخ الحركة المحافظية، فلا يمكن ببساطة صرف النظر عن هذه الهموم باعتبارها نظريات مؤامرة مجنونة. فلو حدثت سرقة للأصوات على نطاق واسع، تتوقف كل الرهانات ولا يمكن توقع أي شيء في المستقبل، إذ سوف تكون أمريكا في أسوأ شكل حتى مقارنة بما يتصوره المتشائمون.

حدود الإلهاء

إذن فما الأمر مع أمريكا؟ كيف تمكن سياسيون يدعمون سياسات تؤذي معظم الناس من الفوز بالانتخابات؟ النظرة التي ترى أن الحركة المحافظية قد وجدت طرقا مؤكدة النجاح لإلهاء الجمهور وحمل الناس على التصويت ضد مصالحهم الذاتية ليست خاطئة بالكامل، ولكن تمت المبالغة فيها إلى حد كبير. وفي المقابل تستقر قدرة المحافظين على الفوز رغم سياساتهم غير الشعبية المعتمدة بشكل أساسي على قاعدة استغلال الانقسام العرقي. والدين والتضرع بالقيم الأخلاقية كان له بعض الأثر، ولكنه كان أقل أهمية بكثير، والأمن القومي كان حاسما في عامي 2002 و2004، ولكن ليس قبل ذلك. وهناك مؤشرات على أن معظم طرق الحركة المحافظية التي وجد أنها تلهي الجمهور تفقد فعاليتها. فالعنصرية وعدم التسامح الاجتماعي في انخفاض، وقطعت هزيمة العراق شوطا كبيرا في إضعاف الثقة في الجمهوريين في مجال الأمن القومي. وفي نفس الوقت تتصاعد المخاوف بشأن عدم المساواة وعدم الأمان الاقتصادي. وهذا، باختصار، وقت الفرصة السياسية لهؤلاء الذين يفكرون أننا مضينا في الاتجاه الخاطئ. وترسم بقية هذا الكتاب أبعاد تلك الفرصة، وما الذي يمكننا فعله بها.

الفصل العاشر
السياسة الجديدة للمساواة

جـاء الانتصـار الديمقراطـي في انتخابـات التجديـد النصفـي للكونجـرس في عـام 2006 كصدمـة للكثيريـن، وذلـك عـلى الرغـم مـن أنـه كان قـد تـم الإبـراق بـه قبـل ذلـك بفـترة بواسـطة اسـتطلاعات الـرأي. فالعديـد مـن المحللـين كانـوا قـد اسـتثمروا أنفسـهم عاطفيـا ومهنيـا في فكـرة التفـوق السـياسي الجمهـوري السـاحق. ولـديّ رف كامـل مـن كتـب صـدرت في عامـي 2005 و2006 تفـسر، بأسـف، أو ببسـاطة وذهـول، الانتصـار الجمهـوري، وكيـف أن التفـوق التنظيمـي للحـزب الجمهـوري، وتعاطـف مؤيديـه، وتميـزه في التمويـل، وملكيتـه لقضيـة الأمـن القومـي، وقدرتـه -حسـب بعـض التقارير-عـلى التلاعـب بالانتخابـات، مـا يجعلـه منيعـا لا يقهـر. ومـع الإيمـان بـأن الجمهوريـين لديهـم بوابـات التحكـم في السـلطة، لم يصـدق البعـض مـا تقولـه اسـتطلاعات الـرأي، وبالتحديـد أن الجمهـور الأمريـكي كان قـد نـال كفايتـه.

وحتـى بعـد أن أعلنـت نتائـج الانتخابـات، كان هنـاك تـردد ظاهـر في الاعـتراف الكامـل بمـا حـدث. فلشـهور عـدة بعـد الانتخابـات كان العديـد مـن محلـلي الأخبـار يؤكـدون عـلى واحـد مـن شـيئين: أنـه كان انتصـارا طفيفـا فقـط للديمقراطيـين، و/أو أن

الديمقراطيين الذين فازوا فعلوا ذلك من خلال كونهم محافظين. والادعاء الأول كان خطأ، أما الثاني فقد كان في أغلبه خطأ.

لم يكن هامش الفوز الديمقراطي في مجلس النواب طفيفا. في الواقع، كان أوسع من أي أغلبية جمهورية خلال هيمنة الحزب الجمهوري لاثني عشر عاما. وكانت الأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ طفيفة، ولكن حتى تحقيق هذا بعدما كان الحزب الديمقراطي متخلفا بخمسة مقاعد عن الحزب الجمهوري كان أمرا أشبه بالمعجزة، لأنه كان يتم انتخاب ثلث أعضاء مجلس الشيوخ فقط في هذا الوقت. وكان الوضع كالتالي: فاز الديمقراطيون والمستقلون المتحالفون مع الديمقراطيين بأربعة وعشرين مقعدا من بين ثلاثة وثلاثين مقعدا يجري التنافس عليها. كما أخذ الديمقراطيون أيضا ستة مناصب من حكام الولايات، وسيطروا على غرف التشريع في ثمان ولايات.

أما الادعاء بأن الديمقراطيين قد فازوا من خلال كونهم محافظين هو فقط أقل خطأ بمقدار ضئيل. فعدد من الوجوه الجديدة في الكونجرس كانوا ديمقراطيين فازوا في دوائر انتخابية محافظة نسبيا، وكانوا هم أنفسهم أكثر محافظة بقليل من الديمقراطي المتوسط. ولكن يبقى من الصحيح أن كل ديمقراطي كان على يسار الجمهوري، ولذلك مال التحول في السيطرة على الكونجرس جذريا بالتوازن السياسي جهة اليسار.[1] والمقارنة الحقيقية المرتبطة بالموضوع هي بين الأغلبية الديمقراطية الآن وبين الأغلبية الديمقراطية في 94-1993، وهو آخر زمن كان الحزب فيه مسيطرا على الكونجرس. ووفقا لأي مقياس تعد الأغلبية الجديدةالتي لا تعتمد على جناح جنوبي ديمقراطي محافظ، أكثر ليبرالية بكثير. فنانسي بيلوسي، الرئيسة الجديدة لمجلس النواب، كانت في عناوين الصحف لأنها أول امرأة تتولى هذا المنصب، ولكنها أيضا كانت أكثر رئيس للمجلس تقدمية على مر التاريخ.

ولكن ما الذي يعنيه الانتصار الديمقراطي والتحول نحو اليسار في الكونجرس؟ هل كان حادثا شاذا نتيجة لتفاهة وعدم استحقاق إدارة بوش؟ أم هل هو علامة على عملية جوهرية في إعادة الاصطفاف السياسي؟

---

(1) Update by McCarty, Poole, and Rosenthal at http://voteview.com/hou110.htm.

ليس بوسع أي أحد أن يكون واثقا من إجابته تماما. لكن في هذا الفصل، على أية حال، سأقوم بوضع تصور يؤمن بأن انتخابات 2006 لم تكن شذوذا، وأن الجمهور الأمريكي بات مستعدا لشيء مختلف: سياسة جديدة لعدم المساواة. ولكن بزوغ هذه السياسة الجديدة ليس استنتاجا لا مناص منه. فهذا سوف يحدث فقط إذا ما اغتنم السياسيون الليبراليون الفرصة.

عدم المساواة يعض

سأل معهد جالوب لاستطلاعات الرأي العام سؤالا في يونيو 2007 "بشكل عام هل أنت راض أم غير راض عن الطريقة التي تجري بها الأمور في الولايات المتحدة في هذا الوقت؟" أجاب 24% فقط بأنهم راضون، مقارنة مع 74% أجابوا بأنهم غير راضين. وكما كتبت هذا في صيف 2007: الأمريكيون غير سعداء للغاية بتوجه البلد.

وكان الكثير من هذا يترافق مع ما يجري في المستنقع العراقي. ولكن الأمر اللافت هو كيف أن ما بدا، للوهلة الأولى، على أنه اقتصاد جيد جدا لم يرفع المزاج الوطني إلا بمقدار ضئيل. فالناتج المحليالإجمالي كان يرتفع لمدة ستة أعوام تقريبا، وكان معدل البطالة 4.5%، أي نفس المعدلات التي تحققت تقريبا في نهاية التسعينات، وكانت سوق الأسهم تسجل مستويات جديدة في الارتفاع. ومع ذلك،فعندما سأل جالوب: "كيف تقيم الظروف الاقتصادية في البلد؟" أجاب نحو الثلث فقط "ممتازة" أو "جيدة". وكانتالنسبة قدر هذا مرتين في نهاية التسعينات.

وعندما بحث المحافظون عن شخص ما لكي يلوموه، اشتكوا من أن وسائل الإعلام لا تعرض الأنباء الجيدة عن الاقتصاد، تماما كما لم تعرض الأنباء الجيدة حول العراق. والأمر الأكثر جدية، أنالشعور المرضي حول الحرب ربما يكون قد انعكس على نظرة الجمهور إلى أمور أخرى. مع ذلك، من الجدير بالذكر أن معدل ثقة المستهلكين في عام 1968 -عام هجوم تيت Tet،[1] واحتجاجات ضخمة

(1) هجوم وقع في الحرب الفيتنامية في يناير-فبراير 1968 من جانب قوات الفيتكونج (حركة حرب العصابات الشيوعية) والجيش الفيتنامي الشمالي. وقد وقع الهجوم ليتزامن مع اليوم الأول في Tet (العام الفيتنامي الجديد)، كان الهجوم مفاجئا تماما على المدن الفيتنامية الجنوبية، وبخاصة العاصمة سايجون.على الرغم من أنه تم صد الهجوم بعد نجاحه الأولى، فإنه أدى لزعزعة الثقة في

ضد الحرب، وكما وثقت فيالفصل الخامس إحساس منتشر بأن الأشياء تتداعى- كان أكبر بكثير مما كان عليه هذا المعدل في صيف 2007.[1] ويشير هذا إلى أن هناك حدودا حول المدى الذي يمكن فيه للفزع من جوانب أخرى تخص الموقف الوطني تلوين القناعات عن كيفية الأداء الاقتصادي، وهو ما يشير بدوره إلى أن عدم سعادة الجمهور بالاقتصاد ليست فقط مجرد إسقاط لمشاعرهم السيئة بشأن الحرب. وتظل هناك نقطة أخرى أكثر أهمية: لقد كان شعور معظم الناس بعدم السعادة بحالة الاقتصاد شعورا سليما. وذلك بسبب زيادة عدم المساواة، فالأداء الجيد بالنسبة للأرقام الإجمالية مثل الناتج المحلي الإجمالي لم ينعكس في شكل مكاسب للعمال العاديين.

إنالانفصال الحالي بين النمو الاقتصادي الإجمالي وحظوظ الأمريكيين النمطيين هو، بقدر ما أستطيع القول، غير مسبوق في تاريخ الولايات المتحدة الحديث. كان عدم المساواة عاليا خلال العصر المُذهَّب الطويل، ولكن لأن عدم المساواة كان ثابتا، شهد معظم العمال تحسنا مستمرا في مستوى معيشتهم مع نمو الاقتصاد. والنمو خلال الازدهار العظيم في فترة ما بعد الحرب حتى انتهى في عام 1973 تمت المشاركة فيه على نطاق واسع. وحتى بعد بدء ارتفاع عدم المساواة في السبعينات، استمر نمو الاقتصاد في الترجمة إلى مكاسب لكل فرد تقريبا. وهكذا فقد ارتفع عدم المساواة في الثمانينات، ولكن توسع الاقتصاد بين 1982 فصاعدا كان لا يزال قويا بما فيه الكفاية ليسمح لريجان بإعلان "الصباح في أمريكا" في عام 1984، وليعمل على انتخاب جورج بوش الأول في عام 1988. واستمر عدم المساواة في التزايد خلال التسعينات، ولكن مع ذلك كان هناك تحسن درامي في مشاعر الرأي العام مع تعافي الاقتصاد من ركود 1990-1992.

والآن، على أية حال، أصبح ركود الأجور والدخل الوسيط في مقابل توسع اقتصادي إجمالي واضحا للغاية، إلى حد أن تصورات الرأي العام لكيفية الأداء

الولايات المتحدة وعجل بسحب قواتها من هناك. (المترجم)، انظر:

https://translate.google.com/#en/ar/Tet%20offensive

(1) See Sydney Ludvigson, "Consumer Confidence and Consumer Spending," Journal of Economic Perspectives 18, no. 2 (Spring 2004), pp. 29-50. Current data from www.pollingreport.com.

الاقتصادي لم تعد تبدو مرتبطة بالمؤشرات القياسية للأداء الاقتصادي. وها هي السنوات منذ عام 2001 كانت سنوات "بيل جيتس يدخل إلى حانة"، فالمتوسط قد ارتفع، ولكن هذا لا يعني شيئا لمعظم الناس. أو لكي نكون أقل مجازية فقد حلقت أرباح الشركات-فهي الآن عند أعلى مستوياتها على الإطلاق، كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي، منذ عام -1929وكذلك حلقت الدخول عند قمة السلم. ولكن أجور معظم العمال حافظت على ارتفاعها بالكاد في حدود معدلات التضخم. أضف إلى هذا الإحساس المتزايد بعدم الأمان، وخاصة بسبب تداعي نظام التأمين الصحي (الذي سنتكلم عنه أكثر في الفصل الحادي عشر)، ولذا فمن المعقول تماما بالنسبة لمعظم الأشخاص أن يشعروا بالتشاؤم حول الموقف الاقتصادي.

وتشير استطلاعات الرأي أيضا إلى أن الجمهور يتفهم دور عدم المساواة المتزايد، ويؤيد تدخل الحكومة لعمل شيء ما حيال ذلك. فمسح واسع النطاق لمؤسسة بيو حول اتجاهات الرأي العام وجد أن نسبة الجمهور التي تتفق على أن الأغنياء أصبحوا أكثر غنى وأن الفقراء أصبحوا أكثر فقرا، وأن الحكومة عليها مسؤولية مساعدة المحتاجين، وأن كل فرد ينبغي أن يؤمن له ما يكفي لكي يأكل ومكان ليعيش فيه، قد ارتفعت إلى مستويات لم تبلغها منذ التسعينات.[1] ويشير كل هذا إلى أن هناك فرصة لدفعة كبرى تجاه سياسات تتناول عدم المساواة و/ أو عدم الأمان الاقتصادي.

وحقيقة أن أرقام الاستطلاعات تماثل أرقام بداية التسعينات ربما ترفع بعض الأعلام التحذيرية. فبعد كل شيء، كان السخط الاقتصادي قد أدى إلى انتخاب بيل كلينتون عام 1992، ولكنه حينما حاول تمرير إصلاح الرعاية الصحية-الذي، كما سأجادل باستطراد في الفصل الحادي عشر بأنه ينبغي أن يكون محور أي أجندة إصلاحية تقدمية-فشل تماما. وهذه الهزيمة التشريعية أعقبها هزيمة انتخابية، هزيمة عام 1994 المنكرة التي أدت إلى سيطرة الجمهوريين على الكونجرس. ويثير هذا التساؤل عما إذا كان التاريخ سوف يعيد نفسه.

(1) Trends in Political Values and Core Attitudes, 1987-2007 (Pew Research Center for People and the Press, Mar. 2007), http://people press.org/reports/pdf/312.pdf.

هنـاك، عـلى أيـة حـال، العديـد مـن الأسـباب للتفكـير أنـه لـن يفعـل ذلـك، أو عـلى الأقـل ليـس مضطـرا إلى فعـل ذلـك.

السبب الأول هـو أن فشـل كلينتـون في الرعايـة الصحيـة يبـدو، حتـى عنـد النظـر إليـه بأثـر رجعـي، بعيـد جـدا عـن أن يكـون فشـلا محتومـا. فمـع قيـادة أفضـل، وتواصـل أفضـل مـع الكابيتـول هـل (مقـر الكونجـرس الأمريكي-المترجـم) والجمهـور، لربمـا كان كلينتـون قـادرا عـلى دخـول عـام 1994 بإنجـاز سـياسي داخـلي كبـير بنجـاح تـام. وحتـى بعـد أن أدت الدفعـة الأوليـة مـن كلينتـون إلى مواجهـة صعوبـات، قـدم جماعـة مـن المعتدلـين الديمقراطيـين والجمهوريـين حـلا وسـطا كان يمكنـه أن يغطـي 85% مـن غـير المؤمـن عليهـم صحيـا، ولكـن هيـلاري كلينتـون رفضـت المقترحـات.

والنقطـة الأكـثر جوهريـة هـو أن الاسـتياء الاقتصـادي اليـوم مـن الأقـل احتـمالا بكثـير أن يتـم إحلاله بشـؤون أخـرى مقارنـة بأوائل التسـعينات. لقد اكتـأب الأمريكيون مـن الاقتصـاد في عـام 1992 وهـو مـا يعـود إلى حـد كبـير لأن الاقتصـاد ككل كان كئيبـا، مـع معـدل بطالـة زاد عـلى 7%. وبمجـرد تعـافي الاقتصـاد، فقـدت قضيـة الاقتصـاد الكثـير مـن قوتهـا. ومـع حصـول المزيـد مـن الأشـخاص عـلى وظائـف ومزايـا الرعايـة الصحيـة، مـن بـين أشـياء أخـرى، كان الضغـط مـن أجـل إصـلاح الرعايـة الصحيـة قـد تـلاشى. (كان هنـاك أيضـا سـبب ثانـوي لانخفـاض الاهتـمام: خـلال معظـم فـترة التسـعينات كان يبـدو أن هيئـة التأمـين الصحيHMOقـادرة عـلى احتـواء التكاليـف. ومـرة أخـرى، المزيـد عـن ذلـك في الفصـل الحـادي عـشر). واليـوم، عـلى أيـة حـال، النـاس قلقـون عـلى أموالهـم وحالـة الاقتصـاد حتـى بعـد خمـس سـنوات مـن الأداء الاقتصـادي الجيـد إلى حـد مـا، مـع معـدل بطالـة ليـس بعيـدا جـدا عـن المعـدلات التاريخيـة الأكـثر انخفاضـا. ويبـدو مـن المحتمـل أن تنمـو أكـثر المطالبـات بـأن تقـوم الحكومـة بفعـل شيء مـا للعاملـين الأمريكيـين، بحيـث تصبـح أكـثر حـدة، وليـس أقـل.

وفي أثنـاء ذلـك، كان هنـاك شيء آخـر قـد تغـير، فـكل مـن الاتجاهـات الطويلـة المـدى في المجتمـع الأمريـكي والأحـداث الراهنـة قـد أضرت بقـدرة حركـة المحافظـين عـلى تغيـير الموضـوع، لإخفـاء حقيقـة أنهـم إلى جانـب ذوي الحظـوة بتحويـل انتبـاه الأمـة إلى موضوعـات أخـرى. وواحـد مـن المصـادر الرئيسـية لهـذا التغـير هـو الطريقـة التـي أضر بهـا بـوش مصداقيـة اليمـين في مجـال الأمـن القومـي.

العراق والسياسة الجديدة للأمن القومي

كما وثق كريس هيدجز في كتابه الصادر عام 2002، الحرب هي القوة التي تعطينا المعنى، حتى زمرة الحكم العسكري الأرجنتيني في أوائل الثمانينات، تصبح الحكومة التي كانت سببا في تضخم مفرط وانهيار اقتصادي، شعبية لفترة قصيرة، حينما بدأت حربا بلا معنى مع بريطانيا بغزوها لجزر الفوكلاند.[1] وكانت الشعبية العالية للغاية لجورج بوش بعد 11/9 تعكس نفس أثر المظاهرة حول العلم:[2] الحكومات تتلقى دائما دفعة أولية من تأييد الجمهور حينما تذهب للحرب، بصرف النظر عن عدم كفاءتها وفسادها وبصرف النظر عن حماقة الحرب.

ومع ذلك، من المشكوك فيه أن رئيسا ديمقراطيا كان من الممكن أن يتلقى دفعة سياسية كبيرة مثل تلك التي تلقاها بوش. خلال سنوات حكم ريجان وبوش الأول، كان الجمهوريون قد عززوا سمعة أنهم أقوى من الديمقراطيين في مجال الأمن القومي. وبصرف النظر عن السؤال المتعلق بما إذا كانت هذه السمعة توفر لها في أي وقت من الأوقات ما يبررها أم لا، فالنقطة هي أن 11/9 انسجمت مع السيناريو الموجود مسبقا. فالتساؤلات بشأن ما إذا كان بوش قد تجاهل تحذيرات عن التهديد تمت تنحيتها جانبا. وكان النجاح الأولي في أفغانستان قد تم التعامل معه على أنه إنجاز كبير لإدارة بوش، كأن ترجيح توازن القوى في حرب أهلية في بلد من بلدان العالم الثالث تعادل اليوم D.[3] وتم تجاهل تفاصيل صغيرة مثل هرب أسامة بن لادن من جبال تورا بورا.

---

(1) Chris Hedges, War Is a Force That Gives Us Meaning (Public Affairs, 2002).

(2) أثر (أو متلازمة) المظاهرة حول العلم، مفهوم مستخدم في العلوم السياسية والعلاقات الدولية لشرح التأييد الشعبي القصير المدى لرئيس الولايات المتحدة خلال فترات الأزمات الدولية أو الحرب. (المترجم)، انظر:

rally ‘round the flag effect, Wikipedia, the free encyclopedia.

(3) يوم 6 يونيو 1944 في الحرب العالمية الثانية، حينما قامت قوات الحلفاء بغزو شمال فرنسا عن طريق إنزال بحري على شواطئ نورماندي. واليوم D كمصطلح عسكري يعني اليوم الذي يبدأ فيه الهجوم القتالي أو العملية العسكرية. (المترجم)، انظر:

Normandy landings, Wikipedia, the free encyclopedia.

D-Day (military term), Wikipedia, the free encyclopedia.

وفي المجرى الطبيعي للأحداث، كانت قضية الأمن القومي ستتراجع تدريجيا من حيث أهميتها السياسية، كما حدث إلى حد كبير بعد حرب الخليج الأولى. ولكن بوش وهؤلاء الذين حوله وجدوا طريقة لاستمرار الحفاظ على سيكولوجية الحرب. ونحن لدينا صورة واضحة بشكل معقول لكيف باعت إدارة بوش أمريكا في الحرب مع العراق، فقد اختارت المخابرات تسجيل هدف سهل، مع خطاب بلاغي لَجُوج يربط بين العراق وبين 11/9، وهكذا دواليك. والأمر الأقل وضوحا هو لماذا أرادت الإدارة الهجوم على نظام ليس له أي شأن بالحادي عشر من سبتمبر. ويبدو بشكل مؤكد تقريبا، على أية حال، أن التصورات حول المزايا السياسية الداخلية لحرب رائعة صغيرة قد لعبت دورا مهما في اتخاذ قرار الغزو. والآن فالصورة المخزية الاحتفالية "المهمة أنجزت"، حيث هبط بوش على متن حاملة طائرات، كانت إلى حد كبير هي كل ما تعنيه الحرب. ولعبت الحرب في صالح بوش بشكل يبعث على الدهشة لفترة طويلة. وعلى الرغم من الفشل في العثور على أي أسلحة دمار شامل وتزايد عدد الضحايا، فقد استغرق الأمر أكثر من عامين قبل أن يبدأ غالب الأمريكيين في إبلاغ مستطلعي الرأي أن غزو العراق كان غلطة.

وعند هذه النقطة، على أية حال، أصبح قرف الجمهور من حرب العراق حقيقة مركزية في السياسة الأمريكية. وقد يكون ذلك ربما مجرد ظاهرة قصيرة المدى؛ والسؤال الذي يهتم به هذا الكتاب هو ما إذا كان هذا الفشل سوف يكون له تأثير على تغيير المشهد السياسي. أعتقد أن هذا سيحدث.

وبشكل نموذجي سوف يخلص الجمهور من الفشل إلى أنه إذا أردت أن تكسب حربا، فلا توظف حركة محافظة. وظف ليبراليا، أو على الأقل شخصا جمهوريا على نمط أيزنهاور. وربما كان الفشل في العراق محتوما، ولكن مهما كانت فرص النجاح التي ربما كانت تمتلكها الولايات المتحدة ضئيلة فقد بددتها الأخطاء اللصيقة بالحركة المحافظية. وبصفة خاصة حالة التفاؤل المفرط التي كانت تعانيها إدارة بوش ومحاولتها الدخول في حرب رخيصة الكلفة، مع حد أدنى من القوات البرية، تدفقت بشكل طبيعي من التزامها بخفض الضرائب. والاعتراف الصريح بأن الحرب مخاطرة، وعمل عالي الكلفة كانت ستحض على دعوات إلى المشاركة في التضحيات، تذكر أن الضرائب على الأغنياء ارتفعت وعدم المساواة

انخفض خلال الحربين العالميتين. ولكن إدارة بوش خططت لاستخدام الحرب لمد أجندتها الداخلية التي تعمل على تعزيز عدم المساواة. ويدعو السيناريو إلى حرب خاطفة واستعراض عسكري احتفالا بالانتصار، ثم بعدئذ جولة أخرى من الخفض الضريبي. ويتطلب هذا افتراض أن كل شيء سوف يكون سهلا، وصرف النظر عن تحذيرات من الخبراء العسكريين بأن الحرب ربما لا تمضي بهذه الطريقة.

وفيما وراء ذلك، لعبت المحسوبية التي هي جزء رئيسي من الحركة المحافظية دورا محوريا في فشل إعادة إعمار العراق. فالوظائف الرئيسية أعطيت لموالين حزبيين معدومي الخبرة. والأعمال الرديئة التي قام بها مقاولون لهم ارتباطات سياسية، مثل بناء مركز تدريب جديد للبوليس يقطر الغائط من سقفه مضى من دون عقاب.[1] وازدهر الفساد الكلي. وهذه الأخطاء لم تكن مصادفة، فالاستخدام النظامي للقوة السياسية لتوزيع الامتيازات على الحلفاء الحزبيين هو جزء من الغراء الذي يربط الحركة المحافظية. ومن أجل إدارة الحرب في العراق بكفاءة وأمانة، أي بالطريقة التي أدار بها فرانكلين ديلانو روزفلت الحرب العالمية الثانية، كان هذا يعني التصرف على الأقل ولو بعض الشيء مثلما حدث في الصفقة الجديدة، وكان هذا بمثابة لعنة وشيء مكروه لدى الأناس المسؤولين عن إدارة دفة الأمور.

ونموذجيا، كما ذكرت،كان ينبغي أن يفهم الجمهور من هذه الخبرة أن الحركة المحافظية لا يمكنها حقا الدفاع عن البلد. وعلى أقل تقدير ينبغي أن تكون الحرب العراقية قد حيدت لوقت طويل قادم قدرة الحركة المحافظية على الفوز بالانتخابات عبر تصنع غارات حربية والتكلم بعنف. فسوف يتذكر الناخبون ما أوصلنا إليه ذلك في ظل قيادةبوش، أن القادم ذا الكلام العنيف والمتصنع سوف يضل الأمة لتدخل في حرب غير ضرورية وكارثية. ولهذا ينبغي مضي وقت طويل نسبيا قبل أن يكون بمقدور حركة محافظة أخرى فعل ما فعله بوش في عامي

(1) أفضل مراجعة لحماقات إعادة الإعمار في:
Rajiv Chandrasekaran, Imperial Life in the Emerald City: Inside Iraq's Green Zone (Knopf, 2006).

وحول أكاديمية البوليس
"Heralded Police Academy a 'disaster,'" Washington Post, Sept. 28, 2006, p. A01.

2002 و2004: استخدام الأمن القومي لإلهاء الجمهور عن طبيعة سياساته التي هي نخبوية من حيثالجوهر وضد الشعبية.

وبعد كل ما ذكرناه، فازت الحركة المحافظية بشكل متكرر بانتخابات حتى في سنوات لم يكن تركيز الجمهور فيها على الأمن القومي. والعامل الأكثر أهمية على الإطلاق، والمصدر الدائم لهذه القوة الانتخابية، كان هو العرق: القدرة على إقناع مجموعة فرعية من الناخبين البيض بالاهتمام، على الأقل ضمنيا، بمخاوفهم من السود. ومصدر القوة الانتخابية لم يذهب بعيدا. لكن هناك، على أية حال، سببا جيدا للاعتقاد بأن قضية العرق تفقد قوتهاتدريجيا.

هل يفقد العرق ركيزته؟

نشر روي تيكسريا وجون جوديس في عام 2002 كتابهما الأغلبية الديمقراطية البازغة، وهو كتاب كان مراده تقليد الكتاب التنبؤي لكيفين فيليبس الصادر عام 1969 الأغلبية الجمهورية البازغة. ومثلهما مثل فيليبس جادل المؤلفان بأن الاتجاهات الديموجرافية، حسب زعمهما، تجري في صالح الديمقراطيين. وقد جعل الانتصار الجمهوري في عامي 2002 و2004 أطروحتهما تبدو خاطئة كليا، ولكن انتخابات عام 2006 أعطتها حياة جديدة. وفي مقال نشر عام 2007 جادل تيكسريا وجوديس بأن "هذه الانتخابات تسجل نهاية الإحياء الجمهوري العابر الذي استحثه رد فعل إدارة بوش على هجمات 11 سبتمبر الإرهابية، والعودة إلى الاتجاهات السياسية والديموجرافية التي كانت تؤدي إلى أغلبية للديمقراطيين وليسار الوسط في الولايات المتحدة.[1] وهذا ليس بعيدا جدا عن وجهة نظري الخاصة. ولكن نسختي أنا أكثر فظاظة وحدة من نسختهما. وربما أفضّل القول بأن سياسة ردة الفعل البيضاءالتي كانت جزءا لا يتجزأ من نجاح الحركة المحافظية، تفقد فاعليتها لسببين: أن أمريكا تصبح بيضاء أقل، وأن الكثير (ولكن ليس الكل) من البيض أصبحوا أقل عنصرية.

(1) Ruy Texeira and Jhon Judis, "Back to the Future: The Re-emergence of the Emerging Democratic Majority," American Prospect, June 2007.

وبتعبير "أبيض" فأنا في الحقيقة أعني "البيض من غير الأصول اللاتينية"، والنمو السريع للسكان من أصول لاتينية، من 6.4% من الإجمالي في عام 1980 إلى 12.5% عام 2000، هو السبب الرئيسي في تغير التركيب العرقي لأمريكا. والسكان الآسيويون ينمون أيضا بسرعة، وإن كان من نقطة أساس أقل من اللاتينيين: فقد كانت نسبة السكان الآسيويين 1.5% من السكان في عام 1980، ولكنها بلغت 3.8% عام 2000. وكلتا الجماعتين الإثنيتين تنمو أساسا بسبب الهجرة، على الرغم من أن ذوي الأصول اللاتينية لديهم معدل مواليد مرتفع.

والأثر السياسي الفوري للهجرة، كما بينت عند مناقشة العصر المُذهَّب الطويل، هو أن حرمان العمل ذوي الأجر المنخفض من التصويت، يحول بفاعلية التوازن السياسي جهة اليمين. وحينما يشكل العمال المهاجرون ذوو الأجر المنخفض قسما كبيرا من القوة العاملة، لا يصوت هؤلاء الذين لديهم الكثير ليكسبوه من السياسات التي تحث على المساواة، بينما يقوم هؤلاء الذين لديهم الكثير ليخسروه بالتصويت. ولو كان ذلك هو كل القصة، فتغيير المزيج الإثني لسكان الولايات المتحدة سوف يكون ببساطة هو الناتج الثانوي لعملية تساعد المحافظين وتضر بالليبراليين. ولكن هذا ليس كامل القصة، فالمهاجرون الجدد هم غير بيض، أو على الأقل يتم إدراكهم من جانب الكثير من البيض المولودين في الولايات المتحدة باعتبارهم غير بيض، وهو كل ما يهمنا هنا، والتفاعل ما بين هذه الحقيقة وبين سياسة العرق في أمريكا تخلق ديناميكية -سوف أجادل- ستحرم في نهاية المطاف الحركة المحافظية من أهم أسلحتها السياسية الفعالة.

ومن أجل فهم هذه الديناميكية على المرء أن يدرك أولا أن الهجرة قضية خلافية إلى حد كبير بالنسبة للتحالف الداعم للحركة المحافظية. فمصالح قطاع الأعمال مع الهجرة لأنهم يريدون قوة عمل وفيرة ورخيصة. ولكن الناخبين الذين يمكن أن يكونوا متأرجحين بسبب قضية العرق، وهو ما كان حاسما في نجاح الحركة، يميلون أيضا إلى أن يكونوا مع المولودين محليا بقوة. وقد قدم جون جوديس وصفا للصورة العامة للناخبين الجمهوريين المعارضين للهجرة:

إنهم مشابهونلناخبي الطبقة العاملة البيضاء الذين أصبحوا جمهوريين في السبعينات والثمانينات بسبب معارضتهم للدمج العنصري والثقافة المضادة.[1]

---

(1) انظر تعريفا بها في الفصل الخامس. (المترجم)

وهـم غالبـا، بشـكل نموذجـي، يكونـون بيضـا بروتسـتانتيين إنجيليـين، مـن الجنـوب ووسـط الغـرب والغـرب غـير الباسـفيكي، ذوي دخـول منخفضـة وغـير حاصلـين عـلى درجـة جامعيـة. ويعيشـون في المـدن الصغيرة-عـادة بعيـدا عـن الأماكـن التـي يتركـز بهـا المهاجرون-ويعتـبرون أنفسـهم "محافظـين".[1]

والنتيجـة هـي انقسـام مريـر داخـل الحركـة حـول سياسـة الهجـرة، وهـو مـا هـر لـه أثـر آخـر: الحقيقـة الواضحـة أن جناحـا مهـما مـن الحـزب الجمهـوري الحديـث مضـاد للهجـرة بشـدة يدفـع بالمهاجريـن غـير البيـض إلى أحضـان الحـزب الديمقراطـي. وقـد حـدث هـذا بالفعـل في كاليفورنيـا: فبيـت ويلسـون، الحاكـم الجمهـوري الأسـبق، حقـق انتصـارا مزعزعـا في انتخابـات عـام 1994 بجعـل الهجـرة غـير الشرعيـة مركـز حملتـه. وفي الأعـوام التـي تلـت ذلـك، عـلى أيـة حـال، كان رد فعـل السـكان المتزايديـن مـن أصـل أمريـكي لاتينـي أن أصبحـوا ديمقراطيـين بشـكل سـاحق، محولـين سياسـات الولايـة بحـدة إلى توجـه ليـبرالي. وحتـى انتخـاب أرنولـد شـوارزنجر حاكـما غـيّر قليـلا، فقـد تعلـم شـوارزنجر سريعـا أنـه لـكي يكـون فعـالا فعليـه أن يحكـم باعتبـاره نسـخة محدثـة مـن أيزنهـاور جمهـوري، إلى حـد أنـه كان، مثلـه مثـل حاكـم نيويـورك مايـكل بلومـبرج (الـذي أعلـن مؤخـرا عـن نفسـه باعتبـاره مسـتقلا)، يوصـف باعتبـاره ديمقراطيـا واقعيـا.

وبعبـارة أخـرى، اعتمـد نجـاح الحركـة المحافظيـة عـلى جاذبيتهـا للبيـض الذيـن يكرهـون السـود. ولكـن مـن الصعـب أن تكـون ضـد السـود مـن دون أن تكـون أيضـا ضـد الهجـرة. وبسـبب كـون النمـو السريـع في عـدد المهاجريـن يجعلهـم بشـكل متزايـد قـوة سياسـية فاعلـة، وربمـا تتحـول تدريجيـا قضيـة العرقالتـي كانـت أصـلا قويـا لـدى الحركـة المحافظيـة في المـاضي، لتصبـح عبئـا عليهـم.

وقـد سـعى الجمهوريـون لاحتـواء هـذه المشـكلة بالإبقـاء عـلى المهاجريـن وذريتهـم محرومـين مـن الحـق في التصويـت لأطـول مـدة ممكنـة. وبعـض مـن حـالات فضائـح تزويـر التصويـت التـي تـم وصفهـا في الفصـل التاسـع كانـت تسـتهدف ذوي الأصـول الأمريكيـة اللاتينيـة وليـس السـود. في عـام 2003، حينـما توصـل القانونيـون في وزارة العـدل بالإجـماع إلى أن خطـة إعـادة تقسـيم الدوائـر الانتخابيـة السـيئة السـمعة

(1) John Judis, “Continental Divide: Why the Immigration Bill Will Never Become Law,” New Republic, May 23, 2007.

في تكساس تنتهك قانون الحق في التصويت، شددوا على الطريقة التي تم بها تخفيف تأثير تصويت ذوي الأصول الأمريكية اللاتينية. (تم نقض ما توصل إليه هؤلاء القانونيين، بالطبع، واستُبدلت بهم مجموعة مختارة سياسيا، ومضت الخطة، ما أدى إلى كسب الجمهوريين لخمسة مقاعد في الكونجرس). ومع ذلك فإعادة تقسيم الدوائر لم تمنع الديمقراطيين من اكتساح الانتخابات ليسيطروا على مجلس النواب عام 2006، ومن الصعب رؤية مثل هذه الأعمال، القبيحة كما هي عليه، سوى تكتيك للتأجيل.

وفيما وراء الفجاجة، هناك الحقيقة المجردة بأن أمريكا تصبح أقل بياضا، وهناك أكثر من سبب مشجع للاعتقاد بأن موضوع العرق ربما يفقد قوته، لأننا كأمة أصبحنا أقل عنصرية. والدليل الأكثر دراماتيكية في تناقص العنصرية هو طريقة استجابة الناس لأسئلة حول الموضوع الذي أثار ذات مرة الرعب في قلوب البيض: تمازج الأجناس. ففي عام 1978، حين كان صعود الحركة المحافظية لموقع القوة في بداياته، كان 36% فقط من الأمريكيين الذين تم استطلاع آرائهم بواسطة معهد جالوب قد أجازوا الزواج بين البيض والسود، بينما استهجن 54% ذلك. وفي وقت متأخر عن ذلك كعام 1991 أجاز جمع تبلغ نسبته 48% هذا الزواج. وبحلول عام 2002، على أية حال، أجاز 65% من الأمريكيين الزواج بين الأجناس؛ وبحلول يونيو 2007، ارتفع هذا الجمع إلى 77%.

وقد لا يبدو هذا على صلة مباشرة بالسياسة. لكن بعد كل ذلك، فليس هناك شخص يقترح إعادة القوانين التي كانت موجودة ذات يوم وكانت ضد الزواج بين الأجناس. ولكن قدرة اليمين على استغلال الخلافات العرقية لديها القليل مما تفعله بالسياسات الواقعية، والكثير مما يمكن عمله للاستفادة من العواطف البدائية. ولو كانت هذه العواطف البدائية تفقد حدتها-وهي تفقدها بالفعل-تفقد بالتالي الاستراتيجية قوتها.

وظاهرة جزر العنصرية لا تُترجم في شكل ثورة سياسية فورا. فالجنوب العميق، بوجه خاص، ربما سوف يبقى جمهوريا بقوة لبعض الوقت في المستقبل. ولكن إستراتيجية الجنوبيين تنسل حرفيا من الأطراف: الولايات الحدودية، وهو المصطلح الذي يضم الآن فرجينيا، أصبح أكثر فأكثر تنافسيا للديمقراطيين. والحقيقة أن النصر المضطرب لجيمس ويب على جورج آلان في سباق فرجينيا لمجلس الشيوخ في عام

2006 كان خير مثال على الطريقة التي يمكن بها للعنصرية قديمة الطراز التفاعل مع الهجرة بطريقة تؤدي إلى إضعاف مكانة حركة المحافظين، إذ كان الكثير من الناس يقدرون الموهبة السياسية العالية التي أظهرها آلان، الشاب الكاليفورني ذو الراتب العالي والحياة الفخمة الذي أعاد اختراع نفسه كصبي جنوبي صالح، لدرجة أنهم اعتقدوا أنه لديه فرصة طيبة لأن يصبح المرشح الجمهوري القادم للرئاسة. ولكن حينئذ أتت حادثة مكاكا: بدأ آلان السخرية من س. ر. سيدهارث، المساعد ذي البشرة الداكنة لويب وهو أمريكي المولد ولكن ينحدر من أصل هندي، وأطلق عليه لقب "مكاكا" وهو ما تبين أنه كنية عنصرية غامضة. والحادثة التي تم تصويرها بالفيديو (كما هو شأن كل شيء هذه الأيام) كانت كافية لكي تضع ويب فوق القمة.

وأهمية التحول السياسيللعنصرية أمر يستحيل المبالغة فيه تقريبا. فالحركة المحافظية كقوة سياسية نافذةتعد فريدة من نوعها وتقتصر على الولايات المتحدة. والسبب الرئيسي الذي مكن حركة المحافظين من الازدهار هنا -بينما البشر الذين لديهم أفكار مناظرة في كندا وأوروبا يكونون في مرتبة أدنى على الحواف السياسية- هو التوتر العنصري الذي هو ميراث للعبودية. والتخفيف من بعض هذا التوتر، أو بتعبير أكثر دقة زيادة الثمن السياسي الذي يدفعه الجمهوريون لمحاولة استغلال هذا التوتر، سوف يجعل أمريكا أقل تفردا، وتصبح أكثر مثل باقي الديمقراطيات الغربية حيث التأييد لدولة الرفاه والسياسات التي تحد من عدم المساواة أكثر قوة.

ماذا على ما يرام مع كنساس؟

ربما يكون الجزء الأكثر جاذبية في تقرير معهد بيو حول الاتجاهات بعيدة المدى في المواقف هو القسم المتعلق بالقضايا الاجتماعية و"القيم". فمن المذهل إدراك كم كان الأمريكيون غير متسامحين، ليس من وقت طويل مضى، وكم تغيرت المواقف. على سبيل المثال، كان أكثر من نصف الذين أجابوا على أسئلة الاستطلاع في عام 1987 يعتقدون أن المدارس ينبغي أن يكون لديها الحق في فصل المدرسين المثليين جنسيا، وكان 43% يعتقدون أنه ربما يكون مرض الإيدز عقابا إلهيا على السلوك الجنسي المنحل. وبحلول عام 2007 انخفضت هذه الأرقام إلى

28% و23%، على التوالي. أو فلتأخذ السؤال الخاص بدور النساء في المجتمع: في عام 1987 كان 29% فقط يختلفون تماما مع مقترح أن على النساء العودة إلى أدوارهن التقليدية، ولكن بحلول عام 2007 ارتفعت نسبة المختلفين مع المقترح إلى 51%.

والمدى الذي حدث به تغيير في المواقف مثير للإعجاب. بينما الذي يترتب على ذلك سياسيا أقل وضوحا. فكما شرحت في الفصل التاسع، يتشكك علماء السياسة حول "ما الأمر مع كنساس؟" الأطروحة: بعد طحن الأرقام، وجدوا برهانا ضئيلا على أن القضايا الدينية والاجتماعية، في مقابل قضية العرق، قد أدت حقيقة بعدد كبير من أفراد الطبقة العاملة البيض إلى التصويت ضد مصالحهم الاقتصادية. "فناخبو القيم" يبدون حاسمين فقط في الانتخابات متقاربة النتائج. ومع هذا، وفيما يتعلق بعدم التسامح الديني والاجتماعي الذي تم استغلاله من جانب حركة المحافظين، فإن نطاق مثل هذا النمط من الاستغلال يتناقص بوضوح.

علاوة على ذلك هناك مؤشرات على ديناميكية في القضايا الاجتماعية والدينية التي تتشابه ببعض الطرق مع الديناميكية في قضية العرق، فمع تحول البلد ليصبح أكثر تسامحا يضع اعتماد الحزب الجمهوري على قاعدة غير متسامحة بشكل متزايد خارج مسار الأغلبية. والمثال على ذلك هو كنساس ذاتها، حيث عدد من الجمهوريين البارزين أصبحوا ديمقراطيين بعد انتخابات عام 2004 احتجاجا على هيمنة اليمين الديني على فرع الحزب المحلي. فقد قال رئيس الحزب الجمهوري في الولاية وهو يقوم بالتحول الحزبي: "لقد تعبت من المجادلات اللاهوتية حول ما إذا كان تشارلز داروين على حق". وكان رد فعل الحزب الجمهوري في كنساس هو أن طلب من أعضائه التوقيع على وثيقة مخيفة جديا، وغامضة تشبه الوثائق الماوية (نسبة إلى الزعيم الصيني ماو تسي تونج-المترجم) تسمى وثيقة "التعهد بالوحدة"، حيث كتب في هذه الوثيقة: "أقر أنا... أنه لن يكون هناك أي سبب عند أي لحظة في مستقبلي الحزبي أو الشخصي، يدفعني إلى التحول عن ولائي الحزبي".[1] وفي وقت كتابة هذا الكتاب، كان لكنساس حاكم ديمقراطي، وكان لدى الديمقراطيين اثنان من مقاعد الولاية الأربعة في مجلس النواب.

(1) http://bluetederising.blogspot.com/2007/07/kansasrepublicans-unveil-unity-pledge.html.

البحث عن إجابات

الأمريكيون قلقون من اقتصاد قد يتركهم في الخلف، حتى في الأوقات التي يفترض أنها أيام جيدة للاقتصاد. لقد أصبحوا أقل حساسية لسياسة الإلهاء: المناشدات بعدم التسامح العرقي والاجتماعي، وترويج الخوف على الأمن القومي. ولكل هذه الأسباب يبدو أنه من المحتمل أن تكون الحركة المحافظية قد ولت.

ويحتاج الليبراليون، على أية حال، أن يكونوا رمزا لأكثر من مجرد أنهم ليسوا بقدر سوء الناس الذين كانوا يديرون أمريكا مؤخرا. فكر مرة أخرى في الصفقة الجديدة: فشل حكم المحافظين جعل فوز الديمقراطيين في انتخابات عام 1932 بشكل ما أمرا لا مفر منه، ولكن لم يكن مؤكدا على الإطلاق أن هذا الانتصار سوف يترك ميراثا دائما. وما أدى إلى أن يكون لتأثير الصفقة الجديدة مثل هذه الديمومة هو حقيقة أن فرانكلين ديلانو روزفلت قدم إجابات على عدم المساواة وعدم الأمان الاقتصادي. وقد تضمنت تلك الإجابات، أولا وقبل كل شيء، مؤسسات دولة الرفاه الأمريكية، وفوق كل شيء، الضمان الاجتماعي. وكما رأينا، كانت الصفقة الجديدة ناجحة بشكل لافت أيضا في تسوية توزيع الدخل، ومن دون آثار سلبية على النمو الاقتصادي.

والآن نحن، مرة أخرى، أمة متقززة من حكم المحافظين. والأمر ليس عام 1932 مرة أخرى، ولكن هناك احتمالات جيدة جدا لأن يمسك الديمقراطيون-ونسبيا الليبراليون الديمقراطيون، في هذا الصدد-عاجلا بكل من الكونجرس والبيت الأبيض. والسؤال هو عما إذا كانت الأغلبية الجديدة ستنجز أي شيء يتمتع بالديمومة.

لا بد من أنهم سيكونون قادرين على فعل ذلك. فالليبراليون اليوم لديهم ميزة كبيرة مقارنة بالليبراليين من 70 سنة مضت: إنهم يعرفون ماذا يفعلون، على الأقل في قضية واحدة مهمة. سوف أشرح في الفصل التالي الأهمية الساحقة لقضية استكمال الصفقة الجديدة بأن يُقدم للأمريكيين شيء يتمتع به بالفعل كل مواطن في كل بلد متقدم آخر: نظام تأمين شامل للرعاية الصحية.

الفصل الحادي عشر
ضرورة الرعاية الصحية

تنفرد الولايات المتحدة، بين الأمم الثرية، بعدم تقديم الرعاية الصحية الأساسية لمواطنيها. وأغلب المناقشات حول سياسة الرعاية الصحية، بما في ذلك مناقشاتي أنا نفسي، تبدأ بالحقائق والأرقام حول التكاليف والعائد من غلق هذه الفجوة مع الأمم الثرية الأخرى. وسوف آتي لهذه الأمور بعد وقت قصير. ولكن دعوني أبدأ من نوع مختلف من الأسئلة: ما الذي نفكر أنه الشيء السليم أخلاقيا ويجب عمله؟

هناك حجة أخلاقية متماسكة ضد ضمان الرعاية الصحية، وتتلخص هذه الحجة بشكل أساسي في القول بأنه ربما لا تكون الحياة عادلة، ولكن ليست وظيفة الحكومة تخليص العالم من الظلم. فلو أن بعض الناس لا يستطيعون تحمل تكلفة التأمين الصحي، فسوف تؤكد هذه الحجة أن هذا مما يؤسف له، ولكن الحكومة ليس لها دخل في إجبار الآخرين على مد يد المساعدة من خلال فرض ضرائب أكثر ارتفاعا عليهم. فلو أن بعض الناس ورثوا جينات تجعلهم معرضين للمرض، أو حصلت لهم ظروف معينة في مرحلة ما من حياتهم تجعل من المستحيل عليهم الحصول على تأمين طبي، فهناك العديد من ضربات الحظ

السيئ في الحياة. ولا تستطيع الحكومة إصلاح كل هذه الأمور، وليس هناك سبب لكي ننتقي هذه المصاعب بالذات.

ومن الواضح أنني لا أتفق مع هذه الحجة. ولكني لم أعرضها لمجرد تفنيدها. ولكن ما أود أن أشير إليه بدلا من ذلكهو أنه بينما هناك حجة أخلاقية متماسكة ضد الرعاية الصحية الشاملة، فإنها حجة لن تسمعها غالبا في الجدل السياسي. هناك بالتأكيد عدد كبير من المحافظين الذين يؤمنون بأن الحكومة ليس لديها الحق في إنفاق أموال دافعي الضرائب على مساعدة غير المحظوظين؛ كانت الراحلة مولي إيفنز[1] مغرمة باقتطاف كلمات من مشرع تكساس الذي سأل: "من أين أتت فكرة أن كل شخص يستحق تعليما مجانيا؟ رعاية صحية مجانية؟ أيا كان مجانيا؟ لقد أتت من موسكو. من روسيا. لقد أتت مباشرة من حفرة في قاع الجحيم".[2] ولكن السياسيين لا يقولون شيئا مثل هذا أبدا في العلن.

والسبب وراء عدم فعلهم ذلك هو، بالطبع، معرفتهم بأنالناخبين لا يوافقون. وسوف يكون من المضني لك العثور على أكثر من مجرد حفنة من الأمريكيين الذين يعتبرون أنه يصح إنكار حق الناس في الرعاية الصحية بسبب تاريخهم المرضي، وتشير استطلاعات الرأي أيضا إلى أن أغلبية كبيرة تعتقد أن كل المواطنين الأمريكيين ينبغي أن تُضمن لهم الرعاية الصحية بصرف النظر عن دخلهم. وقضية أخلاقية الرعاية الصحية الشاملة ليست موضع خلاف.

وبدلا من ذلك تعتمد المعارضة للرعاية الصحية الشاملة على الادعاء بأن عمل الشيء السليم أخلاقيا غير ممكن، أو على الأقل أن تكلفته-بدولارات دافعي

---

(1) ماري تيلر "مولي" إيفنز (30 أغسطس 1944-31 يناير 2007) كانت كاتبة عمود صحفي، ومؤلفة، ومعلقة سياسية وكاتبة فكاهية. ولدت في كاليفورنيا وترعرعت في تكساس. حضرت إيفنز دراستها الجامعية في كلية سميث وفي المدرسة العليا للصحافة في جامعة كولومبيا. بدأت تاريخها المهني في الصحافة بجريدة مينابوليس تريبيون حيث كانت أول امرأة تتولى تغطية نشاط البوليس في الجريدة. انضمت إلى جريدة تكساس أوبزرفر في أوائل السبعينات ثم انتقلت فيما بعد إلى جريدة نيويورك تايمز. وأصبحت كاتبة عمود صحفي في دالاس تايمز هيرالد في الثمانينات، ثم بعد ذلك فورت وورث ستار تليجرام بعد إغلاق تايمز هيرالد. أصبح عمودها يتم تسويقه بعد ذلك عبر اتحاد وينشر في مئات الصحف. (المترجم)، انظر:

Molly Ivins, Wikipedia, the free encyclopedia.

(2) Molly Ivins, "Bucking the Texas Lockstep," Washington Post, May 15, p. A29.

الضرائب، وبجودة منخفضة من الرعاية لهؤلاء الذين يحققون دخلا طيبا في ظل النظام الراهن-سوف تكون مرتفعة جدا. ومن هنا تدخل الحقائق والأرقام. والحقيقة هي أن كل بلد متقدم آخر يستطيع تحقيق ما يفترض أنه مستحيل، تقديم الرعاية الصحية لكل مواطنيه. وجودة الرعاية التي يقدمونها، وفقا لأي مقياس متاح، هي بنفس جودتنا إن لم تكن أفضل. وهم يفعلون كل ذلك بينما ينفقون أقل بكثير بالنسبة للفرد على الرعاية الصحية مقارنة بإنفاقنا نحن. والرعاية الصحية، بتعبير آخر، يتضح أنها المنطقة حيث فعل الشيء السليم أخلاقيا هو في نفس الوقت وجبة غذاء مجانية بالتعبيرات الاقتصادية. وتشير كل الدلائل إلى أن نظاما أكثر عدالة سوف يكون أيضا أرخص في إدارته من نظامنا الحالي، مع تقديم رعاية أفضل.

ما زال هناك أمر واحد مهم لا بد من إدراكه عن الرعاية الصحية، وهو قضية يكترث الأمريكيون بها، إلى حد كبير، بسبب أن النظام الذي نملكه يتفكك بشكل واضح. تشير الاستطلاعاتدوما إلى أن الرعاية الصحية هي، في الواقع، الموضوع المحلي الأكثر أهمية للناخبين المتوقعين.

فأهمية القيم المشتركة والاقتصاديات الجيدة في أعين الناخبين، كل هذا ينبغي أن يجعل من إصلاح الرعاية الصحية محل أولوية. وكل ما نعرفه عن اقتصاد الرعاية الصحية يشير إلى أن نوع الإصلاح الذي سيعمل هو الإصلاح الذيسيكون، وفقا لأي تعريف، ليبراليا: سوف يتضمن عملا حكوميا يعمل على تخفيض عدم المساواة وعدم الأمان. وإصلاح الرعاية الصحية هو المحور الطبيعي للصفقة الجديدة الجديدة. وإذا كان الليبراليون يرغبون في أن يظهروا أن السياسات التقدمية يمكنها خلق مجتمع أفضل وأكثر عدالة، فهذا هو المكان الذي عليهم البدء منه.

وقبل أن أدلف إلى المقترحات الخاصة بإصلاح الرعاية الصحية، على أية حال، فأنا بحاجة للحديث قليلا عن اقتصاديات الرعاية الصحية.

نحن رقم سبعة وثلاثين!

لو كان الماضي يقدم لنا أي توجيه، فسوف يكون لدى نصف الأمريكيين خلال العام المقبل مصاريف طبية متواضعة. فربما سيشترون عدة زجاجات من الأسبرين، وربما يكون لديهم فحص طبي واحد أو اثنان، ولكنهم لن يكونوا مرضى، أو على الأقل لن يكونوا مرضى إلى الحد الذي يتطلب علاجا مكلفا. ومن الجانب الآخر سوف تتكبد أقلية من الأمريكيين مصاريف طبية ضخمة؛ سيحتاجون عمليات لتغيير شرايين القلب، أو غسيل كلوي، أو علاج كيماوي. وفي الإجمال فنحو 20% من السكان سوف يكونون مسؤولين عن 80% من التكاليف الطبية. والـ1% الأكثر مرضا بين السكان سوف يكونون، في المتوسط، بحاجة لما يعادل أكثر من 150 ألف دولار كتكاليف للرعاية الطبية العام المقبل وحده.[1]

وعدد قليل جدا من الأمريكيين يستطيع تحمل دفع مبالغ كبيرة كهذه من جيبه، خاصة لو كانت الرعاية الصحية مطلوبة لعدة سنوات، وهي تتطلب ذلك عادة. والرعاية الصحية الحديثة متوافرة للأمريكيين من الطبقة الوسطى وأقرانهم في الدول المتقدمة الأخرى فقط، بسبب أن شخصا آخر يدفع معظم الفواتير عندما ووقتما تظهر الحاجة للرعاية الصحية المكلفة.

في الولايات المتحدة، وبشكل متفرد بين الأمم الثرية، هذا "الشخص الآخر" هو عادة شركة تأمين خاصة. في كل مكان آخر معظم التأمين الصحي يقدم في الواقع من جانب الحكومة وفي النهاية عن طريق دافع الضرائب (على الرغم من أن التفاصيل قد تكون معقدة). وحتى في الولايات المتحدة، يمول دافعو الضرائب برنامجتأمين-نظام الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير"-يغطي كل شخص يبلغ من العمر خمسة وستين عاما فأكثر، وبرنامجا حكوميا آخر -برنامج الرعاية الصحية للأسر والأشخاص ذوي الدخل المنخفض "ميديكيد"- يغطي بعض (ولكن ليس كل) الفقراء جدا الذين لا يستطيعون تحمل تكلفة التأمين الخاص. ولكن الأغلبية الساحقة من الأمريكيين الذين لديهم تأمين صحي يحصلون عليه من القطاع الخاص. وهذا الاعتماد على التأمين الخاص يجعل من الولايات المتحدة

(1) Figure based on Kaiser Family Foundation, Trends and Indicators in the Changing Health Care Marketplace, -exhibit 1.11 http://www.kff.org/insurance/7031/index.cfm.

أيضا الدولة المتقدمة الوحيدة التيلا يتوافر لنسبة كبيرة من سكانها-نحو -15%أي تأمين على الإطلاق.

كلمة عن المصطلحات: يطلق المعارضون للتأمين الصحي الحكومي أحيانا "تشريك الطب".(نسبة إلى الاشتراكية-المترجم) ولكن هذا مضلل، إنه تشريك للتأمين، وهو ليس نفس الأمر إطلاقا. في كندا ومعظم البلدان الأوروبية، يعمل الأطباء لحسابهم أو يعملون أساسا في مستشفيات وعيادات مملوكة ملكية خاصة. فقط بريطانيا، بين الأمم الكبرى، لديها تشريك حقيقي للطب، حيث تدير الحكومة المستشفيات، والأطباء يخدمون باعتبارهم موظفي حكومة.

لذا كيف يعمل نظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة، باعتماده الفريد على التأمين الخاص، مقارنة بالنظم في البلدان المتقدمة الأخرى؟ يطلعنا الجدول 7 على القصة. فيظهر كيف تختلف الدول كثيرا في الإنفاق على الفرد للرعاية الصحية، ومقارنة ذلك الإنفاق بمتوسط العمر المتوقع، وهو المقياس الأبسط لكفاءة أداء نظام الرعاية الصحية. تنفق الولايات المتحدة تقريبا ضعف الإنفاق على الرعاية الصحية للفرد مقارنة بكندا، وفرنسا، وألمانيا، وتنفق تقريبا قدر إنفاق بريطانيا مرتين ونصف، ومع ذلك فالعمر المتوقع عندنا هو في قاع المجموعة.

جدول 7. مقارنة الرعاية الصحية في العالم الغربي

	الإنفاق للفرد في عام 2004 بالدولار	العمر المتوقع بالسنوات في عام 2004
الولايات المتحدة	6012	77.5
كندا	3165	80.2
فرنسا	3150	79.6
ألمانيا	3043	78.9
بريطانيا	2508	78.5

Source: World Health Organization, http://who.int/research/en/.

هذه الأرقام صارخة للغاية، وتمثل دحضا للحكمة التقليدية بأن القطاع الخاص أكثر كفاءة من القطاع العام، والتي ينكرها بعض السياسيين، والخبراء،

والاقتصاديين. كما قال المرشح الرئاسي الجمهوري رودي جولياني إن نظامنا للرعاية الصحية هو "أفضل نظام في العالم"، فيما عدا أن منظمة الصحة العالمية تصنف ترتيب هذا النظام باعتباره رقم 37 في العالم.[1] إن الأوروبيين يواجهون تكلفة مستترة ضخمة من البطء والتأجيلات ومن الخدمة غير الملائمة أو غير المريحة، هذا ما يقوله تيلر كوين، وهو اقتصادي محافظ، فيما عدا أن المسوح والاستطلاعات عبر الوطنية تقول إن حتى البريطانيين لديهم بشكل عام مداخل أفضل للرعاية الصحية مما لدى الأمريكيين: فهم ينتظرون أطول من أجل العمليات التقديرية عن مدة انتظارنا، ولكنهم يجدون الأمر أكثر سهولة في رؤية الطبيب في غضون مهلة قصيرة، وخاصة في مواعيد ما بعد انتهاء ساعات العمل وفي عطلات نهاية الأسبوع. وبالنسبة للألمان والفرنسيين فليس لديهم أي تأجيلات ملحوظة من أي نوع.[2]

ونحن نسمع بلا توقف أن الكنديين عليهم الانتظار أطول من الأمريكيين من أجل عملية تغيير الفخذ، وهو أمر صحيح. ولكن هذا مثال غريب للاختيار، لأن معظم عمليات تغيير الفخذ في أمريكا يتم الدفع لها من برنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير". والآن ميديكر برنامج حكومي، على الرغم من أنه ليس من الواضح أن كل فرد يعرف هذا، فخبراء السياسة الصحية يكررون كثيرا قصة كيف أن السيناتور السابق جون بروكس أوقفه أحد الناخبين وناشده ألا يترك الحكومة تضع يدها على "ميديكير". والمقصود، على أية حال، هو أن فجوة تغيير الفخذ هي مقارنة بين نظامين للتأمين الحكومي، وحيث النظام الأمريكي ممول بسخاء أكبر. وهو أمر ليس له أي علاقة بالفضائل المزعومة للمؤسسة الخاصة.

والأكثر جدية، هناك بعض الأسئلة حول إلى أي مدى يدفع أسلوب الحياة الأمريكي تكاليف الرعاية الصحية لأعلى. فعزرا كلين من الأفق الأمريكي يطلق على ذلك عقيدة "ولكننا نأكل برجر بالجبن أكثر"، وهذا صحيح،فالأمريكيون هم

(1) World Health Organization, The World Health Report 2000, available at: http://www.who.int/whr/2000/en/inc.

(2) Commonwealth Fund, "Mirror, Mirror on the Wall: An Update on the Quality of American Health Care Through the Patient's Lens," http://www.commonwealth-fund.org/publications/publications_show.htm?doc_id=364436.

أكثر عرضة للسمنة من الأوروبيين، وهو ما يؤدي بدوره إلى رفع التكاليف الطبية، وخاصة بالنسبة للحالات المزمنة مثل مرضى السكري. والمحاولات لطحن الأرقام، على أية حال، تشير إلى أن أساليب الحياة المختلفة، والأمراض التي تجعلنا هذه الأساليب أكثر عرضة لها، ليست كافية لتفسير سوى نسبة ضئيلة من فجوة التكاليف بين الولايات المتحدة والآخرين. وفي دراسة لمعهد ماكينزي العالمي قُدر أن الاختلاف في تشكيلة الأمراض بين الولايات المتحدة والدول المتقدمة الأخرى يعد مسؤولا عن أقل من 25 بليون دولار في تكاليف العلاج السنوية، أو أقل من 100 دولار من نحو الـ3000 دولار للفرد التي تعد زيادة في الإنفاق في الولايات المتحدة على الرعاية الصحية كل عام، مقارنة بالدول الأخرى.[1]

هناك شيء واحد إضافي ينبغي أن تعرفه: على الرغم من أن الولايات المتحدة تنفق أكثر بكثير على الرعاية الصحية من أي أحد آخر، فلا يبدو أنهذا يشتري رعاية أكبر بشكل ملحوظ. بمقاييس مثل عدد الأطباء لكل 100 ألف من السكان، متوسط عدد الزيارات للطبيب، عدد الأيام التي يتم قضائها في المستشفى، كمية الأدوية الموصوفة من الطبيب التي نستهلكها، وهكذا دواليك، فالرعاية الصحية الأمريكية لا تتميز عن الرعاية الصحية في الدول الغنية الأخرى.[2]ونحن خارج الرسوم البيانيةمن جهة ما ندفعه للرعاية (أي أن التكاليف مرتفعة للغاية مقارنة بالآخرين-المترجم)، ولكننا فقط في وسط هذه المجموعة من جهة ما نحصل عليه حقيقة مقابل أموالنا.

ويخبرنا كل هذا أن نظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة نظام غير كفء إلى أبعد الحدود. ولكن كيف يتأتى لبلد، في طليعة التكنولوجيا العالمية في العديد من المجالات، أن يكون لديه مثل هذا النظام غير الكفء من الرعاية الصحية؟ والإجابة الرئيسية هي أننا تعثرنا في نظام حيث يتم إنفاق مقادير كبيرة من الأموال ليس لتقديم الرعاية الصحية، ولكن في التنكر لها.

---

(1) McKinsey Global Institute, Accounting for the Cost of U.S. Health Care, Jan. 2007, http://www.mckinsey.com/mgi/rp/healthcare/accounting_cost_healthcare.asp.

(2) Gerard F. Anderson et al., "It's the Prices, Stupid: Why the U.S. Is So Different from Other Countries," Health Affairs 22, no. 3 (2003), pp. 89-105.

اقتصاد الصحة 101[1]

من المحتمل أن تكون أفضل طريقة لفهم ما تفتقده الرعاية الصحية في الولايات المتحدة هو النظر في الاختلاف بين ما نريد نحن-وأعني به ما تريده الغالبية العظمى من الأمريكيين-أن يقوم به نظامنا، وما يمنحه النظام، وفقا لأسلوب عمله الحالي، للاعبين الرئيسيين من حافز للعمل.

وكما جادلت، هناك ما يشبه الإجماع على أن كل الأمريكيين ينبغي أن يتلقوا رعاية صحية أساسية. وهؤلاء الذين لديهم رأي مخالف يحتفظون باعتقادهم لأنفسهم، لأن القول بأنه من المقبول إنكار الرعاية على شخص ما بسبب أنه ولد فقيرا، أو بجينات مختلة، هو أمر غير مقبول سياسيا. ولكن شركات التأمين الخاصة، على أية حال، لا تكسب المال بالدفع للرعاية الصحية. إنهم يكسبون الأموال بجمعهم أقساطا، بينما لا يدفعون للرعاية الصحية إلا إلى المدى الذي يمكنهم به النجاة من العقاب. وفي الواقع، في صناعة التأمين الصحي فالمدفوعات الحقيقية للرعاية، مثل دفع تكلفة عملية جراحية كبيرة، تتم الإشارة حرفيا إليها باعتبارها "خسائر طبية".

تحاول شركات التأمين الحفاظ على هذه الخسائر الطبية المؤسفة مضغوطة بطريقين رئيسيين، أحدهما من خلال "اختيار المخاطر"، والمعروف، وإن كان بغموض، على أنه "الاكتتاب" underwriting[2] وكل منهما مصطلح (أي اختيار المخاطر والاكتتاب-المترجم) ملطف لرفض بيع التأمين لأشخاص من المحتمل أنهم

(1) يشير الكاتب هنا إلى ما يمكن اعتباره مدخلا إلى اقتصاد الصحة، ويشار في الجامعات الأمريكية إلى المستويات التعليمية بالأرقام 100 و 200 وهكذا، والمستوى 100 هو المستوى الأولى في تعليم أي علم لطلاب الصف الأول الجامعي، أي ما يمكن اعتباره مدخلا إلى العلم الذي يتم درسه. (المترجم)

(2) تقوم شركات التأمين بتوظيف خبراء مهمتهم تقدير مخاطر التأمين على شخص أو أصل معين، واستخدام تلك المعلومات في وضع سياسات أقساط التأمين، سواء التأمين على الحياة أو التأمين الصحي أو التأمين على العقارات وغيرها. وعادة ما يتم استخدام برامج الكومبيوتر وبيانات فعلية لتحديد احتمال القيام بصرف قيمة التأمين خلال فترة سريان وثيقة التأمين. ويطلب عند التأمين على الأشخاص أو الأصول عالية المخاطر دفع أقساط أكثر ارتفاعا، للحصول على نفس مستوى الحماية التي يحصل عليها شخص أو أصل ذو مخاطر أقل. (المترجم)، انظر:

What is an 'Insurance Underwriter', Investopedia.

على الرابط: http://www.investopedia.com/terms/i/insurance-underwriter.asp

يريدونـه، أو فـرض أسـعار مرتفعـة جـدا للتأمـين عليهـم. تقـوم شركات التأمـين، حينـما تسـتطيع، بـكل حـرص بغربلـة مـن يطلبـون التأمـين بالبحـث عـن أي إشـارات لاحتـمال أن يكونـوا بحاجـة إلى رعايـة مكلفـة: فحـص تاريـخ العائلـة، وطبيعـة العمـل، وفـوق كل شيء آخـر التاريـخ المـرضي. وأي إشـارة تـدل عـلى أن طالـب وثيقـة التأمـين لديـه احتـمال أكـثر مـن المتوسـط لأن يتطلـب تكاليـف طبيـة عاليـة، عندهـا تتبـدد أي فرصة لـه في الحصـول عـلى تأمـين بأقسـاط يمكـن تحملهـا.

ولـو أن شـخصا مـا مـر مـن عمليـة اختيـار المخاطـر وعـلى الرغـم مـن ذلـك كان بحاجـة إلى رعايـة، هنـاك خـط دفـاع ثـان: تبحـث شركات التأمـين عـن طـرق مـا للتهـرب مـن الدفـع. حيـث تقـوم الـشركات بالبحـث بدقـة في المـاضي الطبـي للمؤمـن عليـه لرؤيـة مـا إذا كان بإمكانهـا الادعـاء بـأن هنـاك ماضيـا مرَضِيـا لم يقـم صاحـب الوثيقـة بالكشـف عنـه، ومـن ثـم تقـوم بفسـخ وثيقـة التأمـين. والأكـثر أهميـة في معظـم الحـالات، أنهـم يتحـدون المطالبـة التـي يقدمهـا الأطبـاء والمستشـفيات، في محاولـة للبحـث عـن أسـباب لكـون العـلاج المقـدم لا يقـع ضمـن نطـاق مسـؤوليتهم.

ولا تقـوم شركات التأمـين بفعـل كل ذلـك بسـبب كونهم أناسـا أشرارا. إنهـم يفعلون ذلـك لأن هيـكل النظـام يـترك لهـم فرصـا قليلـة. فـأي شركـة تأمـين لطيفـة، أي شركـة لا تحـاول القيـام بغربلـة العمـلاء المكلفـين ولا تبحـث عـن طـرق لتجنـب دفـع تكاليـف الرعايـة، سـوف تجتـذب أساسـا العمـلاء ذوي المخاطـر المرتفعـة، مـا يتركهـا عالقـة مـع كل التكاليـف التـي حاولـت كل شركات التأمـين الأخـرى تجنبهـا، وسـوف تمـضي هـذه الشركـة بالتـالي بسرعـة خـارج مجـال العمـل. ولـو أن الأشـخاص الذيـن يقومـون بـكل ذلـك ليسـوا أشرارا، عـلى أيـة حـال، فـإن تبعـات عملهـم شريـرة. تذكـر، هنـاك اعتقـاد يـكاد يكـون شـاملا بـأن كل شـخص لا بـد مـن أن يكـون لديـه رعايـة صحيـة وافيـة، مـا يعنـي تأمينـا كافيـا، ولكـن الطريقـة التـي يعمـل بهـا نظامنـا تنكـر عـلى ملايـين الأشـخاص التأمـين، أو تقـدم لهـم ذلـك فقـط بأسـعار لا يمكنهـم تحملهـا. وفي نفـس الوقـت تنفـق شركات التأمـين مبالـغ ضخمـة في غربلـة طالبـي التأمـين والقتـال عـلى دفـع تكاليـف الرعايـة. ومقدمـو الرعايـة الصحيـة، بمـن فيهـم الأطبـاء والمستشـفيات، ينفقـون مبالـغ ضخمـة للتعامـل والقتـال مـع شركات التأمـين لـكي تدفـع لهـم. هنـاك صناعـة كاملـة تعـرف باسـم "إدارة الإنـكار": شركات تسـاعد الأطبـاء عـلى المجادلـة مـع شركات التأمـين حينـما يتـم إنـكار الدفـع.

ولا ينشأ أي من هذه التكاليف في نظام للرعاية الصحية الشاملة تقوم فيه الحكومة بدور من يقوم بالتأمين. فلو أن كل شخص كان له الحق في تأمين صحي، فلن تكون هناك حاجة لعملية غربلة للناس لاستبعاد العملاء مرتفعي المخاطر. لو أن هيئة حكومية وفرت التأمين، لن تكون هناك حاجة للقتال على من يدفع مقابل روتين طبي معين: فلو كان الروتين مغطى بالتأمين تدفع الحكومة. ونتيجة لهذا تعد برامج التأمين الصحي الحكومية أقل بيروقراطية بكثير وتنفق أقل بكثير على الإدارة مقارنة بشركات التأمين الخاصة. على سبيل المثال، ينفق برنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير" نحو 2% فقط من التمويل المتاح له على الإدارة؛ بينما يصل الرقم في شركات التأمين الخاصة إلى نحو 15%. وتقدر ماكينزي العالمية أنه في عام 2003 كانت التكلفة الإضافية لإدارة صناعة التأمين الصحي في الولايات المتحدة، مقارنة بتكاليف برامج التأمين الحكومية في البلدان الأخرى، تبلغ نحو 84 مليار دولار.

وهذا حرفيا لا يبلغ نصفها الفعلي. فكما يقر تقرير ماكينزي "هذا الإجمالي لا يتضمن العبء الإداري الإضافي للهيكل متعدد الدفع ومنتجات التأمين عن المستشفيات ومراكز العيادات الخارجية... كما أنها لا تتضمن التكاليف الإضافية التي يتكبدها أصحاب الأعمال بسبب الحاجة إلى إدارات موارد بشرية قوية لتتولى مزايا الرعاية الصحية.[1] وهناك مقارنة يتم الاستشهاد بها على نطاق واسع حول النظامين في الولايات المتحدة وكندا حيث تمت محاولة تقدير تلك التكاليف الأخرى، وخلصت المقارنة إلى أن كلفة الإدارة الإجمالية في الولايات المتحدة-شاملة في ذلك تكلفة كل من شركات التأمين وتلك التكلفة الخاصة بمقدمي الرعاية الصحية-تصل إلى نحو 31% من الإنفاق الصحي مقارنة بأقل من 17% في كندا. وهذا يصل إلى مبلغ قدره 300 مليار دولار كتكاليف زائدة، أو نحو ثلث الفارق ما بين الإنفاق في الولايات المتحدة وكندا.[2]

---

(1) McKinsey, Accounting for the Cost, p. 18

(2) SteffieWoolhandler, Terry Campbell and David U. Himmelstein, “Costs of Health Care Administration in the United States and Canada,” New England Journal of Medicine (Aug. 2003), pp. 768-75.

إلى أيـن تذهـب بقيـة الأمـوال؟ عـلى خـلاف الـدول المتقدمـة الأخـرى، ليـس لـدى الولايـات المتحـدة هيئـة مركزيـة تتفـاوض مـع شركات الأدويـة حـول أسـعار العقاقـير. ونتيجـة لذلـك يسـتخدم الأمريكيـون أدويـة أقـل لـكل شـخص عـن المتوسـط في الـدول الأجنبيـة، ولكنـه يدفـع أكـثر منهـم بكثـير، وهـو مـا يضيـف نحـو 100 مليـار دولار أو أكـثر للتكلفـة الكليـة للرعايـة الصحيـة. وهنـاك أيضـا مجموعـة متنوعـة مـن أوجـه القصـور الخفيـة في نظـام الولايـات المتحـدة، مثـل الحوافـز الماليـة الضـارة التـي تـؤدي إلى تكاثـر وسـائل التصويـر المقطعـي في العيـادات الخارجية،بينمايتـم اسـتخدام هـذه المعـدات الغاليـة اسـتخداما قليـلا نسـبيا.

وأخـيرا فالأطبـاء في الولايـات المتحـدة يتـم الدفـع لهـم أكـثر مـن أقرانهـم في الـدول الأخـرى. وهـذا ليـس، عـلى أية حـال، مصـدرا كبيرا لاختـلاف التكاليـف مقارنـة بتكاليف الإدارة، والأدويـة، والمشـكلات الأخـرى. ومؤلفـو تلـك الدراسـة التـي قارنـت التكاليـف الإداريـة في كل مـن الولايـات المتحـدة وكنـدا تقـدر أن مرتبـات الأطبـاء المرتفعـة في الولايـات المتحـدة مسـؤولة عـن نحـو 2% مـن الاختـلاف في التكلفـة الإجماليـة.

هنـاك عطـب فظيـع واحـد إضـافي ينبغـي أن أذكـره عـن النظـام في الولايـات المتحـدة: لـدى شركات التأمـين حافـز ضئيـل للدفـع مقابـل الرعايـة الوقائيـة، حتـى حينـما تـؤدي إلى توفـير مبالـغ ضخمـة مـن التكاليـف الطبيـة مسـتقبلا. والمثـال السيئ السـمعة هـو مـرض السـكري، حيـث لا تدفـع شركات التأمـين عـادة مـن أجـل العـلاج الـذي قـد يسـمح بالتحكـم في المـرض في مراحلـه المبكـرة ولكنهـا تدفـع لعمليـات بـتر القـدم والتـي غالبـا مـا تكـون نتيجـة لمـرض السـكري الخـارج عـن نطـاق السـيطرة. وقـد يبـدو هـذا غـير عقـلاني، ولكـن خـذ في الاعتبـار حوافـز شركات التأمـين: شركـة التأمـين تتحمـل التكلفـة حينـما تدفـع للعـلاج الوقـائي، ولكنهـا مـن غـير المحتمـل أن تجنـي الفوائـد حيـث يغـير النـاس عـادة شركات التأمـين التـي يتعاملـون معهـا، أو يذهبـون مـن التأمـين الخـاص إلى برنامـج الرعايـة الصحيـة للمسـنين "ميديكـير" حينـما يصلـون إلى سـن الخامسـة والسـتين. ولـذا فالرعايـة الطبيـة التـي تكلـف نقـودا الآن ولكنهـا توفـر في المسـتقبل ربمـا تكـون غـير مهمـة مـن منظـور شركـة تأمـين مفـردة. وعـلى النقيـض مـن ذلـك، نجـد أن النظـم الشـاملةالتي تغطـي كل شـخص عـلى مـدى حياتـه، لديهـا حافـز قـوي للدفـع مقابـل الرعايـة الوقائيـة.

حتى الآن قمت بتصوير النظام في الولايات المتحدة كأنه كابوس، وهو كذلك للعديد من الأشخاص. ولكن رغم ذلك فلدى 85% من الأمريكيين بالفعل تأمين صحي، ومعظمهم يتلقى رعاية لائقة. لماذا يعمل النظام حتى بشكل جيد؟

جزء من الإجابة هو أنه حتى في أمريكا تلعب الحكومة دورا حاسما في تقديم التغطية الصحية. في عام 2005، كانتتم تغطية 80 مليون أمريكي ببرامج حكومية، أغلبهم في برامج "ميديكير" و"ميديكيد"إضافة إلبرامج أخرى مثل الرعاية الصحية لقدامى المحاربين. وهذا الرقم أقل من رقم الـ198 مليونا الذين يغطيهم تأمين صحي خاص، ولكن لأن كلا من البرنامجين مسخر إلى حد كبير للمسنينالذين لديهم تكاليف طبية عالية للغاية، مقارنة بالأفراد الشباب، فالحكومة تدفع حقيقة أكثر للرعاية الطبية مما تدفعه شركات التأمين الخاصة. ففي عام 2004 دفعت برامج الحكومة نحو 44% من تكاليف الرعاية الصحية في أمريكا، بينما دفعت شركات التأمين الخاصة 36% فقط؛ والباقي كان عبارة عن إنفاق من الجيب، وهو ما يوجد في كل مكان.

وباقي الإجابة عن لماذا يعمل النظام الأمريكي بشكل جيد على ما هو عليه حاليا هو أن الغالبية العظمى من الأمريكيين الذين لديهم تأمين صحي خاص يحصلون عليه من خلال عملهم. وهذا يعد جزئيا نتيجة للتاريخ، فخلال الحرب العالمية الثانية لم يكن مسموحا للشركات برفع الأجور للتنافس على توظيف العمال، ولذا قدم العديد منهم المزايا الصحية كبديل. وهو أيضا في جزء كبير منه نتيجة لمزايا ضريبية خاصة، فالمزايا الصحية، على خلاف الراتب، ليست عرضة لضرائب الدخل أو الضرائب على جداول المرتبات. ومن أجل الحصول على هذه الميزة الضريبية، على أية حال، فعلى صاحب العمل أن يقدم نفس الخطة الصحية لكل مستخدميه، بصرف النظر عن تاريخهم الصحي. والتغطية المرتبطة بالعمل، إذن، تلطف إلى حد ما من مشكلة الغربلة التي تقوم بها شركات التأمين لمن هم في حاجة فعلا إلى التأمين. وأيضا، يقوم أصحاب الأعمال الكبيرة إلى حد ما بدعم حق موظفيهم في العلاج.

ونتيجة لهذه المزايا، قدم التأمين المرتبط بالعمل منذ زمن طويل حلا عمليا لمشكلة الرعاية الصحية للعديد من الأمريكيين، وهو حل كان جيدا بما فيه

الكفاية لتجنب المطالب بالإصلاح الجذري للنظام. ولكن هذا الحل، كما كان قائما، يعاني من الانهيار.

أزمة بالحركة البطيئة

لم تتغير المعالم الأساسية لنظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة منذ عام 1965، عندما قام الرئيس ليندون جونسون بإنشاء برنامجي ميديكير وميديكيد. فهناك التأمين الحكومي للمسنين وللفقراء؛ والتأمين المرتبط بالعمل للعمال الذين لديهم وظائف جيدة في شركات جيدة، والتأمين الشخصي، فيما لو استطعت الحصول عليه، وهناك هؤلاء الذين ليسوا محظوظين كفاية للحصول على تغطية صحية مرتبطة بعملهم، وهناك حياة مفزعة من دون تأمين لعدد معتبر من الأمريكيين. وبينما بقيت المعالم على حالها، على أية حال، فقد تغيرت الأرقام. فالتأمين المرتبط بالعمل يتفكك تدريجيا، وبرنامج الرعاية الصحية للعائلات منخفضة الدخل تبنى بعض (ولكن ليس كل) الضعفاء. والخوف من فقدان التأمين الصحي تغلغل في وسط الطبقة الوسطى الأمريكية. وقد بدأت الحركة البطيئة لأزمة الرعاية الصحية في الثمانينات، ومرت باستقرار وجيز في التسعينات، وعادت الآن للانتقام. وجوهر الأزمة هو الانخفاض في التأمين المرتبط بالعمل. ففي وقت حديث كعام 2001، كان 65% من العاملين الأمريكيين لديهم تغطية تأمينية مرتبطة بالعمل. ولكن بحلول عام 2006 انخفضت هذه النسبة إلى 59%، من دون أي علامة على أن الاتجاه للانخفاض قد بلغ نهايته.[1] وما يقود الانخفاض في التغطية المرتبطة بالعمل، هو التكلفة المتزايدة للتأمين. فالأقساط السنوية في المتوسط للتغطية العائلية كانت أكثر من 11 ألف دولار في عام 2006، وهو ما يتجاوز ربع الكسب السنوي للعامل الوسيط.[2] أما بالنسبة للعامل الذي يتلقى دخلا منخفضا فيعد هذا أكثر من اللازمفي الحقيقة، فهذا المبلغ قريب من الدخل السنوي الكلي لعامل يعمل بدوام كامل ويتلقى الحد الأدنى للأجر. وقد وجدت إحدى الدراسات أنه بين الأمريكيين "ذوي الدخل المعتدل"، الذي يتم

(1) Kaiser Family Foundation, Employer Health Benefits Annual Survey 2006, exhibit 3.1, http://kff.org/insurance/7527/index.cfm.

(2) Kaiser Family foundation, op.cit.,.exhibit 1.11.

تعريفهم كأعضاء في عائلات تحقق دخلا بين عشرين وخمسة وثلاثين ألف دولار سنويا، كان أكثر من 40% منهم غير مؤمن عليهم في وقت ما خلال فترة بلغت عامين.[1]

لماذا أصبح الحصول على التأمين أكثر تكلفة؟ الإجابة، بشكل عكسي، هي التقدم الطبي. فالتقدم في التكنولوجيا الطبية يعني أن الأطباء يمكنهم علاج العديد من المشكلات التي لم يكن لها علاج في السابق، ولكن فقط بتكلفة باهظة. وشركات التأمين تدفع لهذه العلاجات ولكن تعوض ذلك برفع أقساط التأمين.

والاتجاه نحو ارتفاع التكلفة الطبية يمتد لعدة عقود سابقة. ويبين جدول 8 الإنفاق الإجمالي على الرعاية الصحية في الولايات المتحدة كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي منذ عام 1960؛ باستثناء حلقة قصيرة، سوف نتحدث عنها أكثر فيما بعد، إذ ارتفع هذا الإنفاق بانتظام. وطالما كانت التكلفة الطبية منخفضة نسبيا، على أية حال، كانت زيادة الإنفاق تمثل مشكلة ضئيلة: فقد تحمل الأمريكيون العبء المالي، واستفادوا من التقدم الطبي.

بحلول الثمانينات، على أية حال، ارتفعت التكلفة الطبية إلى النقطة التي كان فيها التأمين قد أصبح من غير الممكن تحمله للعديد من أصحاب الأعمال. ومع استمرار التكلفة الطبية في الارتفاع، بدأ أصحاب الأعمال في إسقاط التغطية التأمينية لعامليهم، ليزيدوا من عدد الأشخاص الذين ليس لديهم تأمين، والذينيفشلون عادة في تلقي مجرد حتى الرعاية الأساسية. وكما كتبنا-روبن ويلز وشخصي-في عام 2006:

يقوم نظامنا للرعاية الصحية عادة باختيارات غير رشيدة، وقد فاقم ارتفاع التكاليف من عدم الرشد ذلك. وتحديدا، تميل الرعاية الصحية الأمريكية إلى تقسيم السكان إلى داخليين وخارجيين. الداخليون هم هؤلاء الذين لديهم تأمين جيد، ويتلقون كل شيء يستطيع تقديمه الطب الحديث، مهما كانت تكلفته

(1) Commonwealth Fund Biennial Health Insurance Survey, 2005, http://www.commonwealthfund.org/surveys/surveys_show.htm?doc_id=367929.

باهظـة. أمـا الخارجيونفهـم هـؤلاء الذيـن لديهـم تأمـين فقـير أو ليـس لديهـم تأمـين عـلى الإطـلاق، ويتلقـون مقـدارا ضئيـلا جـدا...

وكـرد فعـل عـلى التكنولوجيـا الطبيـة الجديـدة، ينفـق النظـام حتـى أكـثر عـلى الداخليـين. ولكـنْ للتعويـض عـن الإنفـاق المرتفـع عـلى الداخليـين، جزئيـا، يتـم وضـع عـدد أكـبر مـن الأشـخاص في مكانـة الخارجيـين: تجريـد بيـتر مـن الرعايـة الأساسـية مـن أجـل الدفـع لبـول[1] هـو آخـر مـا توصـل لـه العلـم في طـرق العـلاج. وهكـذا لدينـا مفارقـة قاسـية هـي أن التقـدم الطبـي أمـر سـيئ بالنسـبة لصحـة الكثـير مـن الأمريكيـين.[2]

جدول 8. الإنفاق على الرعاية الصحية

السنة	الإنفاق كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي
1960	5.2
1970	7.2
1980	9.1
1990	12.3
1993	13.7
2000	13.8
2005	16.0

Source: Centers for Medicare and Medicaid Services, http://www.cms.hhs.gov/NationalHealthExpendData/.

وهـذه المفارقـة القاسـية كانـت تجـري عـلى قـدم وسـاق في الثمانينـات، وأدت، لبعـض الوقـت، إلى حركـة قويـة تطالـب بإصـلاح الرعايـة الصحيـة. وقـد كسـب هاريـس ووفـورد نـصرا مفاجئـا في انتخابـات بنسـلفانيا الخاصـة للشـيوخ عـام 1991،

(1) يضرب الكاتبين هنا مثالا كقول أبو العلاء المعري "غنى زيد يكون لفقر عمرو". (المترجم)

(2) Paul Krugman and Robin Wells, "The Health Care Crisis and What to Do About It," New York Review of Books 53 no. 5 (Mar. 23, 2006), http://www.nybooks.com/articles/18802.

فيما يعزى إلى حد كبير لتركيزه على مشكلات الرعاية الصحية. وقد التقط بيل كلينتون نفس التيمة، وساعد ذلك على انتخابه عام 1992.

ولكن محاولة كلينتون لتحقيق وعده فشلت، ثم إن ووفورد نفسه تمت هزيمته على يد ريك سانتورم، صاحب العضوية الكاملة في الحركة المحافظة، في عام 1994. (وسانتورم، بدوره، تمت هزيمته بقوة في عام 2006. وكما ذكرت في الفصل الثامن، فقد اتخذ له ملجأ في الوقت الراهن في أحد المراكز البحثية التابعة للحركة المحافظة، حيث أنشأ برنامجا أسماه "أعداء أمريكا"). لماذا فشل إصلاح الرعاية الصحية في ظل حكم كلينتون، ولماذا آن أوانه مرة أخرى؟

العوائق المستديمة أمام إصلاح الرعاية الصحية

كانت هناك أشهر قليلة خلال عام 1993 بدا خلالها أن الإصلاح الجوهري في نظام الرعاية الصحية أمر لا يقاوم. ولكنه فشل، وقد أعقب فشل خطة كلينتون النصر الجمهوري في انتخابات عام 1994، وهو تعاقب أفزع ولازَم الديمقراطيين حتى يومنا هذا. فالخوف من فشل آخر هو واحد من العوامل الرئيسية في تحجيم رغبة الديمقراطيين المهمين إلزام أنفسهم برعاية صحية شاملة الآن. والسؤال، على أية حال، هو ما الدرس الذي علينا حقا تعلمه من 1993.

وجدت من المفيد تقسيم أسباب فشل كلينتون إلى ثلاث فئات. الفئة الأولى، هناك العوائق المستديمة أمام الإصلاح، وهي ذات العوائق القائمة الآن كما كانت قائمة آنذاك. الفئة الثانية، هناك جوانب للموقف في عام 1993 لم تعد ذات صلة. والفئة الثالثة، هناك العثرات التي يمكن تجنبها: أخطاء ارتكبها كلينتون ولا ينبغي تكرارها.

فلنبدأ بالعوائق المستديمة، والتي من بين أكثرها جوهرية المعارضة العنيدة لحركة المحافظين. فقد أعلن ويليام كريستول، في المذكرة الأولى لسلسلة شهيرة من المذكرات الاستراتيجية التي تم توزيعها على الجمهوريين في الكونجرس، أن الجمهوريين ينبغي أن يسعوا "لقتل" خطة كلينتون. وقد شرح لماذا في وول ستريت جورنال: "إن تمرير خطة كلينتون للرعاية الصحية في أي شكل من الأشكال سوف يكون كارثيا. لأنه سوف يؤمن تدخلا فيدراليا غير مسبوق في الاقتصاد الأمريكي.

ونجاح هذه الخطة سوف يسجل إحياء لسياسة دولة الرفاه المركزية."[1] وقد مضى ليجادل بأن الخطة سوف تؤدي إلى نتائج سيئة، ولكن كان من الواضح أن انشغاله الرئيسي، هو أن الرعاية الصحية الشاملة ربما تنجح حقيقة، بما يعني أنها سوف تكون جماهيرية، وسوف تقدم حجة للتدخل الحكومي. إنه نفس المنطق الذي أدى إلى محاولة جورج بوش خصخصة الضمان الاجتماعي؛ وأكثر البرامج الحكومية خطورة، من وجهة نظر حركة المحافظين، هي تلك البرامج التي تعمل على أفضل ما يرام وبذلك تضفي الشرعية على دولة الرفاه.

وليس علينا أن نتكهن حول ما إذا كانت حركة المحافظين سوف تكون عنيدة بنفس القدر في معارضتهم للإصلاحات المستقبلية في الرعاية الصحية، فهم بالفعل كذلك في وقت كتابة هذا الكتاب، وحججهم حتى أكثر إسرافا وتهورا مما كانت عليه في عام 1993. فعلى سبيل المثال، حينما اكتشفت السلطات البريطانية أن حلقة من الأطباء المسلمين، قامت الخدمة الصحية الوطنية بتوظيفهم،يخططون للقيام بهجمات إرهابية، كان هناك جهد تنسيقي بين المنافذ الإعلامية، مثل فوكس نيوز وخبراء الحركة المحافظة، للدفع بفكرة أن الرعاية الصحية الوطنية تحض على الإرهاب، بأمانة.[2]

ومن المؤكد أيضا أن صناعة التأمين سوف تعارض خطة الإصلاح بضراوة، كما فعلت عام 1993. وما يتذكره معظم الناس من فشل كلينتون هو الإعلان الفعال للغاية "هاري ولويز"[3] الذي أدارته جماعة ضغط التأمينالتي أخافت الناس

(1) William Kristol, “How to Oppose the Health Care Plan-and Why,” Wall Street Journal, Jan. 11, 1994, p. A14

(2) For Fox News, see http://thinkprogress.org/2007/07/news-universal-health-care-breeds-terrorists/.

For pundits' attempts to make the same case, see http://rawstory.com/news/2007/Conservative_bloggers_try.to_link_Michael_0702.html.

(3) "هاري ولويز" حملة إعلانية تليفزيونية استمرت لمدة عام وتكلفت ما بين 14 و20 مليون دولار مولها اتحاد التأمين الصحي لأمريكا (HIAA)-سلف خطط التأمين الصحي لأمريكا الحالي (AHIP)-وهو جماعة ضغط لصناعة التأمين الصحي. وقد استمرت الحملة الإعلانية بشكل متقطع بين 8 سبتمبر 1993 وسبتمبر 1994 في معارضة لخطة الرئيس بيل كلينتون المقترحة حول الرعاية الصحية في 1993-1994 ومقترحات إصلاح الرعاية الصحية التي ناقشها الكونجرس في 1994. وكانت

ليصدقوا أن الخطة سوف تحرمهم من الاختيار الطبي. وربما الذي لم يدركوه هو أن معارضة الصناعة أتت كمفاجئة للكيلنتونيين، الذين حاولت خطتهم استمالة شركات التأمين بمنحهم دورا رئيسيا في إدارة النظام. وكل خطط الرعاية الصحية الرئيسية المطروحة الآن على المائدة، كما سيتم وصفها لاحقا، تحافظ بشكل مشابه على دور مهم لشركات التأمين الخاصة، ولكن الآن، وكما كان الأمر وقتها، لن يقلل ذلك من معارضة الصناعة. والحقيقة هي أنه ليس هناك إصلاح للرعاية الصحية يمكنه النجاح دون أن يخفض من التكاليف الإدارية الزائدة التي تفرضها الآن صناعة التأمين، ويعني هذا إجبار الصناعة على التقلص، حتى لو احتفظت شركات التأمين بدور في النظام. وفي الحقيقة ليست هناك طريقة لاشتراء تعاونهم.

مرة أخرى، ليس علينا أن نتكهن حول ذلك. فالديناميكية السياسية واضحة بالفعل في كاليفورنيا، حينما اقترح أرنولد شوارزنجر، النسخة الحديثة من جمهورية أيزنهاور: رعاية صحية شاملة على مستوى الولاية. وكانت خطة شوارزنجر تحافظ على دور شركات التأمين الخاصة، ولكنها سوف تضع قواعد لتنظيمهم في محاولة للتخلص من اختيار المخاطر. والمؤكد أن شركة الصليب الأزرق في كاليفورنيا، أكبر شركة تأمين في الولاية، أدارت حملة إعلانات على نمط هاري ولويز محذرة من أن "الإصلاحات غير المدروسة" يمكنها أن تضر بالرعاية الصحية في الولاية.

كما أن صناعة الأدوية سوف تكون هي أيضا مصدرا للمعارضة الضارية، وربما أكثر مما كانت عليه في عام 1993، لأن الإنفاق على العقاقير الطبية أصبح له الآن حصة أكبر بكثير في إجمالي التكلفة الطبية بأكثر مما كان عليه الوضع منذ خمسة عشر عاما مضت. ومثلها مثل معارضة شركات التأمين، تعد معارضة صناعة الأدوية لا مفر منها أساسا، لأن شركات الأدوية هي جزء من المشكلة،

الحملة تتكون من 14 إعلانا تلفزيونيا وإذاعيا ومطبوعا، تصور زوجين من الطبقة الوسطى من سكان الضواحي في الأربعينيات من أعمارهم، وقد قام بالدورين الممثل هاري جونسون والممثلة لويز كير كلارك، وقد أصابهما اليأس من الإجراءات البيروقراطية وجوانب أخرى من خطة إصلاح الرعاية الصحية. وتناشد المشاهدين ضرورة الاتصال بممثليهم في الكونجرس. وقد عاد نفس الزوجين في عدة إعلانات جديدة من أجل الدفع بإصلاح الرعاية الصحية خلال فترة حملة الانتخابات الرئاسية في عام 2000 و2004. ففي عام 2000 ظهر هاري ولويز في إعلان تليفزيوني موله اتحاد التأمين الصحي لأمريكا، يطالب بتقديم تغطية صحية للأمريكيين غير المؤمن عليهم. (المترجم)،انظر:
Harry and Louise,Wikipedia, the free encyclopedia.

فالرعاية الصحية في الولايات المتحدة أكثر كلفة جزئيا بسبب أننا ندفع أكثر بكثير مما تدفعه البلدان الأخرى فيالأدوية الموصوفة في نشرة طبية، وعاجلا أو آجلا سوف يحاول نظام الرعاية الصحية الشاملة المساومة لخفض هذه الأسعار.

إلى الآن الأمور سيئة: بعض المصادر الرئيسية المعارضة لإصلاح الرعاية الصحية في أوائل التسعينات سوف تبدي مقاومة شرسة مساوية اليوم. وهناك، على أية حال، إحساس جوهري أن الدفع الحالي تجاه الإصلاح أكثر ديمومة، ومنالمحتمل أن يباع بثمن بخس بسبب الأحداث، أقل مما كان عليه الدفع منذ خمس عشرة سنة مضت.

سنة 2008 ليست 1993

كما أوضحت في الفصل العاشر، لقد انتخب بيل كلينتون إلى حد كبير بسبب أن اقتصاد الولايات المتحدة كان في حالة كساد. وقد أعقب ركود 91-1990 فترة طويلة من النمو البطيء في التوظيف، ما يسمى بـ"انتعاش البطالة"، وهو ما شعر به معظم الناس كأنه استمرار للركود. وبدت أزمة الرعاية الصحية بشكل خاص حادة لأن الناس كانوا يفقدون عملهم، ويخسرون التأمين الصحي الذي ذهب مع هذه الوظائف. والمشكلة كانت بالنسبة لمصلحي الرعاية الصحية أنه بمجرد بدء تحسن وضع الاقتصاد، تحسن كذلك وضع التأمين الصحي. مع بداية عام 1994 كان ويليام كريستول قد أقنع الجمهوريين بمحاربة خطة كلينتون، ليس ببساطة وفقا لما تقول به ولكن بادعاء أنه ليس هناك أزمة في الرعاية الصحية الأمريكية. وكما يظهر الجدول 9، كان موقف التأمين الصحي في الواقع يتحسن بسرعة، فقد ارتفعت نسبة الأمريكيين الذين لديهم تأمين مرتبط بعملهم بحدة في عام 1994، مع حصول الأمريكيين المعينين حديثا على تغطية تأمينية إلى جانب عملهم. ولقد نجح تكتيك التسويف الذي انتهجه الجمهوريون إلى حد كبير لأنه مع الوقت الذي انتهت فيه السنة الأولى من رئاسة كلينتون، كان الأمريكيون يشعرون أن الوضع الراهن للرعاية الصحية أفضل.

وهذا ببساطة لن يحدث هذه المرة. فالسنوات المبكرة من هذا العقد كانت تتميز بركود وبانتعاش بطالة مشابه لما حدث في أوائل التسعينات. وبدأت صورة التوظيف في التحسن في عام 2003، على أية حال، وبحلول عام 2006 كان

معدل البطالة قد هبط إلى مستويات ليست أعلى كثيرا من المستويات المنخفضة المسجلة في أواخر التسعينات. ومع ذلك استمرت صورة التأمين الصحي في السوء. وهذه المرة لن يكون هناك تحسن مؤقت في الصورة يمكّن المعترضين من إنكار أن هناك أزمة.

جدول 9. التأمين الصحي المرتبط بالعمل

السنة	نسبة التغطية
1987	62.1
1993	57.1
1994	60.9
2000	63.6
2005	59.5

Source: U.S. Bureau of the Census health insurance tables,http://www.census.gov/hhes/www/hlthins/historic/hihistt1.html.

وكان هناك أيضا عامل آخر ينتج ارتياحا مؤقتا في نفس اللحظة التي كان يحاول فيها كلينتون بيع خطته الصحية: كان منتصف التسعينات هو العصر الذهبي لمنظمات المحافظة على الصحة"HMOs" .[1] وكانت الفكرة الأصلية وراء منظمات المحافظة على الصحة هي أن النظام التقليدي لدفع رسوم مقابل الخدمة، والذي تقوم فيه شركة التأمين بالدفع لأي طبيب مقابل الإجراء الطبي المتفق عليه، يؤدي إلى الإفراط في الإنفاق: كان الأطباء يقومون بطلب أي إجراء يمكن أن تَنجم عنه منافع طبية، ويمضي المرضى مع هذا الإجراء ما دامت جهة أخرى سوف تدفع. وكانت منظمة المحافظة على الصحة من المفترض أن تستبدل بهذا "رعاية مقتصدة"،فقد كان لدى الأطباء الذين هم جزء من شبكة منظمة المحافظة على

(1) منظمات تقوم بتقديم الرعاية الصحية في السوق الحرة مقابل أقساط تأمينية ثابتة محددة مسبقا. (المترجم)، انظر:

Health Maintenance Organization

على الرابط:

https://www.google.com.eg/search?q=what%20does%20HMOs%20stand%20for&oq=what%20does%20HMOs%20stand%20for&ie=UTF-8&aqs=chro

الصحة حوافز لوضع التكلفة في الاعتبار، ما يؤدي بهم إلى التخلي عن الإجراءات مرتفعة التكلفة التي تنجم عنها منافع طبية صغيرة. وسوف يقبل الناس بهذه الحدود، كما تمضي النظرية، بسبب أنها سوف تؤدي إلى تأمين أرخص بكثير.

والفكرة العامة بوضع التكلفة في الاعتبار فيما يتعلق بالقرارات الطبية منطقية إلى حد كبير. فالخدمة الصحية الوطنية البريطانية، وهي النموذج الحقيقي لتشريك الطب بين الدول المتقدمة الرئيسية، لديها ميزانية محدودة. والأطباء المحترفون الذين يديرون النظام يحاولون الاستفادة القصوى من هذه الميزانية بتصنيف الإجراءات الطبية في حدود الاستفادة الطبية من كل جنيه ينفق، ويحجمون الإنفاق قليل الإفادة. وفي الولايات المتحدة، تفعل الإدارة الصحية للمحاربين القدماء، وهي نوع من النموذج المصغر للنسخة الأمريكية من الخدمة الصحية البريطانية، الكثير من نفس الشيء. ويقوم كل من نظام الخدمة الصحية البريطانية والإدارة الصحية للمحاربين القدماء بعمل جيد بشكل ملحوظ في تقديم رعاية صحية فعالة،على الرغم من أن لديهما ميزانية محدودة جدا.

أما منظمات المحافظة على الصحة، على أية حال، فهي منظمات خاصة يديرها رجال أعمال، وليست هيئات عامة يديرها أطباء. ففي البداية بدا أنهم وفوا بوعدهم بالتوفير في التكلفة، ومعانتشار منظمات المحافظة على الصحة في التسعينات، توقف الاتجاه الطويل المدى لارتفاع تكاليف الرعاية الصحية، وهو التوقف الواضح تماما في الجدول 8. وخلال التسعينات أدت التوليفة الناجمة عن كل من التوفير في التكلفة الذي حققته منظمات المحافظة على الصحة، والاقتصاد المزدهر، إلى تحسن كبير ولكن مؤقت في صورة التأمين الصحي الظاهر في جدول 9.

ولكن في النهاية فشلت منظمات المحافظة على الصحة في تقديم توفير مستدام لسبب واحد بسيط: الناس لم تثق بها. فالمرضى في الخدمة الصحية الوطنية البريطانية، عامة، على استعداد للقبول ببعض الترشيد في الرعاية الصحية لأنهم يستوعبون أن النظام الصحي الوطني لديه ميزانية محدودة، وأنه يدار بواسطة أطباء يحاولون تحقيق الاستفادة القصوى من هذه الميزانية. بينما أعضاء منظمات المحافظة على الصحة الأمريكية أقل استعدادا بكثير للقبول بالترشيد لأنهم يعرفون أنه نظام يقوده محاسبون يحاولون تعظيم أرباح الشركة. وبسبب عدم الثقة وعدم الرضا، فقد بلغت منظمات المحافظة على الصحة المسجلة

كنسبة من الإجمالي ذروتها في منتصف التسعينات، على الرغم من أن أشكالا أخف من الرعاية المدارة استمرت في النمو. علاوة على ذلك، أجبرت صيحة استنكار من الجمهور، وجلسات استماع في الكونجرس، شركات التأمين على التراجع عن محاولاتها الشرسة لضغط التكاليف. ونتيجة لهذا ارتفعت مرة أخرى التكاليف الطبية في الولايات المتحدة بسرعة، وعاد التأمين المرتبط بالعمل للانخفاض مجددا.

يتضمن كل هذا أن الحجة من أجل إصلاح الرعاية الصحية هي أقل هشاشة الآن مما كانت عليه عام 1993. كانت لدى كلينتون مهلة زمنية قصيرة لاستغلال فرصته في إنجاز الإصلاح، قبل أن يتحول انتباه الجمهور إلى أشياء أخرى. أما هذه المرة فمن الصعب ابتكار أي شيء يؤدي إلى التقليل من إحساس الجمهور بأنه لا بد من فعل شيء، ودع المعارضين يدعون أنه ليست هناك أزمة.

نعم، حتى في عام 1993 ربما كان بوسع كلينتون إنجاز إصلاح الرعاية الصحية فيما لو لم يرتكب أخطاء حاسمة.

الأخطاء كي يتم تجنب تكرارها

لقد كتب الكثير عن الشخصيات التي شاركت في خطة كلينتون للرعاية الصحية ونقائصهم. ولن أحاول أن أضيف إلى كل ذلك. وبدلا من ذلك دعوني أركز على خطأين واضحين ارتكبهما كلينتون.

أولا، لم يشرع في البداية بسرعة كافية. وقد قدم ماثيو هولت، محلل الرعاية الصحية الذي أصبحت مدونته الإلكترونية حول السياسة الصحية مما يتحتم قراءته في هذا المجال، مقارنة صارمة بين محاولة كلينتون الفاشلة في الإصلاح وبين نجاح ليندون جونسون في الضغط من أجل برنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير".لقد وقّع جونسون حقيقة "ميديكير" ليصبح قانونا في 30 يوليو عام 1965، أي بعد أقل من تسعة أشهر على انتصاره في انتخابات 1964. بينما كلينتون لم يقدم حتى خطابه الوطني الأول حول الرعاية الصحية إلا في 23 سبتمبر عام 1993.[1]

(1) Matthew Holt, http://www.thehealthcareblog.com/the_health_care_blog/2005/07/policypoltics_w.html.

وكان التأجيـل الطويـل كارثيـا لعـدة أسـباب: مـع حلـول خريـف 1993 كانـت أي قـوة دفـع سياسـية مـن انتخابـات 1992 قـد تبـددت، وكانـت إدارة كلينتـون قـد غاصـت بالفعـل في قضايـا تافهـة مثـل دور المثليـين جنسـيا في القـوات المسـلحة، إلى جانـب فضائـح مختلقـة تـم تصنيعهـا بواسـطة غرفـة صـدى الحركـة المحافظـة. في نفـس الوقـت كان الانتعـاش الاقتصـادي يضعـف مـن مطلـب إصـلاح الرعايـة الصحيـة.

لمـاذا لم يتحـرك كلينتـون بشـكل عاجـل؟ جزئيـا كانـت مسـألة أولويات: كان شـاغله الأولي يتعلـق بالميزانيـة. وكان وضـع خطـة الصحـة لكلينتـون عمليـة ثقيلـة، تتضمـن فرقـة عمـل ضخمـة ولكـن سريـة، تمكنـت قيادتهـا مـن تنفـير العديـد مـن الحلفـاء الطبيعيـين. وقبـل أي شيء آخـر، عـلى أيـة حـال، كان كلينتـون غـير مسـتعد. فقـد بـزغ برنامـج الرعايـة الصحيـة للمسـنين "ميديكـير" مـن مناقشـات دارت عـلى مـدار سـنوات سـابقة؛ بينـما أتى كلينتـون بلـوح شـبه فـارغ. ولم تقـدم حملتـه الانتخابيـة أي أمـور تفصيليـة بشـأن إصـلاح الرعايـة الصحيـة، كـما أنـه لم يكـن هنـاك نقـاش وطنـي حـول الموضـوع لتمهيـد الأرضيـة.

وحينـما ظهـرت خطـة كلينتـون أخـيرا، اتضـح أن بهـا مشـكلة أخـرى: كان مـن السـهل جـدا تصويرهـا عـلى أنهـا تحـرم الأمريكيـين مـن الخيـار الطبـي.

وقـد تبنـت خطـة كلينتـون النظريـة الكامنـة وراء فكـرة الرعايـة المدارةالتـي تحـد مـن الإنفـاق عـلى الإجـراءات الطبيـة المكلفـة ولكـن الهامشـية طبيـا، بمـا يـؤدي إلى توفـير ضخـم في التكلفـة. وكانـت خطـة للتغطيـة الشـاملة، ولكنهـا كانـت أيضـا خطـة، في الواقـع، توجـه كل الأشـخاص نحـو منظـمات المحافظـة عـلى الصحـة "HMOs"التـي كان عليهـا الاشـتباك في "منافسـة مـدارة". وسرعـان مـا اسـتوطن معارضـو الخطـة في جانـب الرعايـة المـدارة. وكان الإعـلان الأول والأكـثر تدمـيرا لـ"هـاري ولويـز" يحـذر مـن أنـه "ربمـا تجبرنـا الحكومـة عـلى الاختيـار مـن بـين حفنـة قليلـة مـن خطـط الرعايـة الصحيـة التـي وضعهـا مسـؤولون حكوميـون".[1]

ومـن أجـل تجنـب تكـرار هـذا التاريـخ المؤسـف، عـلى إصلاحيـي الرعايـة الصحيـة اليـوم تجنـب هـذه الأخطـاء. إنهـم بحاجـة إلى العمـل بسرعـة واقتـدار: حينـما يتـولى

---

(1) الإعلان موجود الآن على اليوتيوب على الرابط:
http://youtube.com/watch? v=Dt3InhleeCg.

رئيس تقدمي وكونجرس تقدمي مقاليد الأمور، فيجب أن يكون لديهم على الأقل العناصر الأساسية لخطة رعاية صحية شاملة تم بالفعل الاستقرار عليها وتمت مناقشتها على نطاق واسع. وأن يصبح إصلاح الرعاية الصحية قضية مركزية في حملة الانتخابات الرئاسية الحاليةلهو شيء طيب للغاية.[1] وسوف يكونون بحاجة أيضا إلى تقديم خطة تطمئن الأمريكيين بأنهم سيحتفظون ببعض الاختيار، وأن هؤلاء الذين لديهم الآن تأمين جيد لنيجبروا على شيء أسوأ منه.

طرق لإصلاح الرعاية الصحية

حينما ابتدع فرانكلين ديلانو روزفلت الضمان الاجتماعي وتأمين البطالة، كان يخطو نحو منطقة مجهولة. فمثل هذه البرامج لم يكن لها وجود سابق في أمريكا، كما كانت برامج دولة الرفاه في كل من ألمانيا وبريطانيا محدودة ولا يعرف عنها سوى القليل في الولايات المتحدة. ولم يكن أي أحديعرف هل ستعمل خطط الصفقة الجديدة عند الممارسة على حماية الأمريكيين من المخاطر أم لا. وعلى النقيض، فقد وجدت الرعاية الصحية لعقود في أغلب العالم الغربي، ولدينا بالفعل معرفة جيدة جدا عما يعمل بنجاح.

قام عيزرا كلاين بعمل مسح جيد جدا لنظم الرعاية الصحية في البلدان المتقدمة الأخرى، وفقراته الافتتاحية تستحق الاقتباس بكاملها:

. ربما يكون الطب صعبا، ولكن التأمين الصحي سهل. وقد حظيت بقية الأمم الصناعية الأخرى به، وفعلت هذا من دون أن تترك 45 مليونا من مواطنيها غير مؤمن عليهم، و16 مليونا أو نحو ذلك بتغطية تأمينية قاصرة، ومن دون أن تترك التكلفة تتصاعد إلى عنان السماء وتهدد اقتصاداتها القومية بشدة.

وحتى أفضل من ذلك، هذه النجاحات ليست سرا، والميكانيزمات ليست مجهولة. اسأل الباحثين في مجال الصحة ما الذي ينبغي عمله، فسوف يتنهدون ويقترحون شيئا مشابها لما تقوم به فرنسا أو ألمانيا. اسألهم ما الذي يفكرون أننا نستطيععمله، سيتبدى يأسهم من أن التملص من صناعة التأمين وصناعة الأدوية والمحافظين والصناعيين وكل الباقين سوف تتركهم يتأتئون بالعبارات الطنانة

(1) يشير الكاتب هنا طبعا إلى حملة الانتخابات الرئاسية عام 2008. (المترجم)

والحلول، واشتراء الحلفاء الإقليميين وحسابات الادخار الصحية. والتعقيد الذائع الصيت عن الموضوع هو صنيعة القوى التي تريد الحفاظ على الوضع الراهن، وليست طبيعة الموضوع نفسه.[1]

تأمل النظام الفرنسي، الذي تصنفه منظمة الصحة العالمية باعتباره رقم واحد في العالم: تُبقي فرنسا على نظام تأميني يغطي كل فرد، يتم الدفع له من العائدات الضريبية. وهذا يمكن مقارنته ببرنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير". ويتم تشجيع الناس أيضا على شراء وثائق تأمين أخرى تغطي التكاليف الطبية أكثر-وهو ما يمكن مقارنته أيضا بالتأمين الصحي التكميلي الذي يقوم به العديد من المسنين الأمريكيين فوق برنامج ميديكير-ويتلقى الفقراء معونات لمساعدتهم على اشتراء تغطية إضافية، وهو ما يمكن مقارنته ببرنامج الرعاية الصحية للأسر والأشخاص ذوي الدخل المنخفض "ميديكيد" الذي يساعد الملايين من الأمريكيين.

ويذكر، بالمناسبة، أن النظامالكنديالذي عادة ما يستخدم كمثال لما سوف تبدو عليه الرعاية الصحية الشاملة في أمريكا، له ملمح لا يظهر في النظام الفرنسي ولا في ميديكير: غير مسموح للكنديين باشتراء رعايتهم الخاصة في المجالات التي تتم تغطيتها بواسطة التأمين الحكومي. والأساس المنطقي لمثل هذا التقييد أنه وسيلة لإحكام خفض التكاليف بالحيلولة بين الكنديين الأثرياء وبين المزايدة على الموارد الطبية النادرة. ومع هذا، فمن الواضح أن هذا ليس ملمحا أساسيا من ملامح الرعاية الشاملة. ومرة أخرى، فالمسنون الأمريكيون الذين يغطيهم برنامج ميديكير، مثلهم مثل الفرنسيين، أحرار في اشتراء قدر ما يريدون من الرعاية الصحية علاوة على ما تقدمه الحكومة.

والتشابهات بين النظام الفرنسي وميديكير ليست تشابهات تامة: فهناك سمات للنظام الفرنسي ليس لها نظير في أمريكا، على الأقل حتى الآن. فالعديد من المستشفيات الفرنسية مستشفيات تمتلكها الحكومة، على الرغم منأن هذه المستشفيات عليها التنافس على جذب المرضى مع القطاع الخاص. كما أن فرنسا أيضا لديها تركيز قوي على الرعاية الوقائية. فالحكومة الفرنسية تقدم تغطية

(1) Ezra Klein, "The Health of Nations," American Prospect, May 7, 2007, http://www.prospect.org/cs/articles?article=the_health_of_nations.

كاملة-وليس المشاركة في التسديد[1]-للظروف المزمنة مثل السكري وارتفاع ضغط الدم، ولذا فالمرضى لا يقتصدون في العلاج الذي قد يحول دون مضاعفات في المستقبل.

والنقطة الأساسية، على أية حال، هي أن نظام الرعاية الصحية الفرنسي، الذي يغطي كل فرد والذي يعد الأفضل في العالم، يبدو حقيقة بشكل كبير كأنه نسخة موسعة ومنقحة من ميديكير، برنامج مألوف وشعبي، ممتد لكل السكان. ونسخة أمريكية من النظام الفرنسي سوف تكلف أكثر من النظام الفرنسي لمجموعة متنوعة من الأسباب، من ضمنها الحقائق الخاصة بأن أطبائنا يدفع لهم أكثر وبأننا أكثر بدانة، وبالتالي أكثر عرضة لبعض الحالات المرضية المكلفة. وعموما، على أية حال، سوف ينهي ميديكير لكل فرد مشكلة غير المؤمن عليهم، ومن المؤكد تقريبا أن تكلفته سوف تكون أقل من تكلفة النظام الراهن، وهو النظام الذي يترك 45 مليونا من دون تغطية.

وفي عالم يديره خبراء سياسة، سوف يكون ذلك نهاية القصة. فالأمريكيون يحبون ميديكير؛ دعنا نمنحه لكل فرد. وتسديد تكلفة التوسع سوف تعني ضرائب أعلى، ولكن حتى بالنسبة للأمريكيين الذين لديهم حاليا تأمين سوف يتم تعويضهم بأكثر من الضرائب المرتفعة، لأنهم لن يكون عليهم دفع أقساط تأمين مرتفعة مثل تلك التي يدفعونها. تم حل المشكلة! من حسن الحظ أو سوئه، على أية حال، أن العالم لا يديره خبراء سياسة. والمقترحات لمأسسة نظام المسدد الواحد، والمعروف بميديكير للجميع، يواجه عدة حواجز طرق سياسية كبرى.

والحاجز الذي يسمع عنه الفرد في أغلب الأحوال هو المعارضة العنيدة من جانب صناعتي التأمين والأدوية لنظام المسدد الواحد. وعلى المصلحين أن يدركوا، على أية حال، أن مجموعات المصالح هذه سوف تخرج ضد أي إصلاح جدي للرعاية الصحية. فليس هناك وسيلة يمكن اشتراؤهم بها.

---

(1) ما يسدده المستفيد (خاصة في الخدمات الصحية) إضافة إلى ما تقوم بسداده شركة التأمين. (المترجم)، انظر:

https://translate.google.com/#en/ar/copayment

وربما كان من الممكن، على أية حال، أن نتعامل بلطف مع عائقين آخرين أمام التغيير: الحاجة إلى رفع الضرائب، وخوف الجمهور من فقدان الاختيار. أولا، مشكلة الضرائب: تمديد مديكير أو ما يساويها لكل أمريكي سوف يتطلب الكثير من الإيرادات الإضافية، ربما نحو 4% من الناتج المحلي الإجمالي. صحيح، هذه الضرائب الإضافية لن تمثل عبئا ماليا على البلد، لأنها سوف تحل محل الأقساط التأمينية التي يدفعها الناس الآن بالفعل. وعلى الرغم من هذه الحقيقةسوف يكون من الصعب للغاية إقناع الناس بأن زيادة كبيرة في الضرائب لن تمثل زيادة حقيقية صافية في العبء المالي عليهم، وخاصة أنه في وجه حملة المعارضة غير الأمينة سيدفع مثل هذه الاقتراح حتما نحو الصدام. وسوف يكون أيضا من الصعب تمرير زيادات ضريبية من الحجم الذي نحتاج إليه، وذلك حتى مع أغلبية تقدمية قوية.

ومشكلة الحفاظ على حق المريض في الاختيار تعد مشابهة، بطريقة ما. فتغطية من نمط تغطية ميديكير سوف تحل محل الكثير من التأمين الذي لدى الأمريكيين الآن بالفعل، وسوف يكونون أحرارا في اشتراء تغطية إضافية. ولكن الخطة التي تضع الناس بشكل آلي في نظام تأمين حكومي سوف يمكن تصويرها بسهولة على أنها خطة تحرمهم من الاختيار. وسوف يفعل المعارضون للإصلاح ما بوسعهم لتشجيع سوء الفهم.

ومن المهم أن نضع في اعتبارنا أن هاتين المشكلتين هما اعتراضان سياسيان على نظام المسدد الواحد، وليستا اعتراضين اقتصاديين. ففي الحدود الاقتصادية البحتة، يعد نظام المسدد الواحد بشكل واضح الطريق الذي ينبغي أن نسير فيه. فنظام المسدد الواحد، مع تكلفة إدارته المنخفضة والقدرة القوية على المساومة حول الأسعار، سوف يقدم رعاية صحية أكبر، بتكلفة أقل، مقارنة بالبدائل. وربما يكون الكمال، على أية حال، هو عدو الخير. فمن الأفضل كثيرا المضي بخطة إصلاح ممكنة سياسيا وتحقق بعض من مزايا نظام المسدد الواحد بدلا من الصبر من أجلالوصول إلى حل نموذجي.

والآن لننتقل إلى الأخبار الطيبة: خلال السنوات القليلة الماضية كان محللو السياسات والسياسيون يطورون منهجا لإصلاح الرعاية الصحية يبدو كحل وسط

عملي بين الكفاءة الاقتصادية والواقعية السياسية. ويتضمن هذا الحل أربعة عناصر:

- تصنيف المجتمع
- الدعم للعائلات قليلة الدخل
- تغطية إلزامية
- منافسة بين القطاعين العام والخاص

وسوف أبدأ بمناقشة العناصر الثلاثة الأولى، حيثأتوقف قليلا لأشرح ما الذي ستحققه مجتمعة، ثم أقوم بشرح دور العامل الرابع.

في ظل تصنيف المجتمع، يحظر على شركات التأمينأن تفرض أقساطا مختلفة على العملاء، أو حرمانهم من التأمين كُليةً، بناء على المخاطر المتصورة لإمكانية إصابتهم بالمرض. وتصنيف المجتمع "الصافي" هو قانون مطبق بالفعل في نيويورك وفيرمونت، وهو يتطلب أن تقدم شركة التأمين لكل فرد نفس وثيقة التأمين بنفس الأقساط. نهاية القصة. وفي ظل تصنيف المجتمع "المعدل"، وهو قانون مطبق بالفعل في ماساشوستس، ونيوجيرسي، وأماكن أخرى، يمكن أن يختلف قسط التأمين بناء على معايير معينة مثل العمر والجغرافيا، ولكن ليس وفقا للتاريخ الطبي. والغرض من تقييم المجتمع هو الحيلولة بين شركات التأمين وبين حرمان الأشخاص ذوي السوابق المرضية وغيرها من عوامل المخاطر من الرعاية، كما أنه من المفترض أيضا أن يقلل من تكاليف الإدارة، لأن شركات التأمين لم تعد تكرس مبالغ كبيرة لاكتشاف طالبي التأمين المحملين بمخاطر، ورفض طلباتهم.

أما الدعم فهو شيء نقوم به بالفعل، في ظل برنامج الرعاية الصحية للأسر والأشخاص ذوي الدخل المنخفض "ميديكيد". ومقترحات الإصلاح تدعو إلى مد هذا الدعم ليغطي العديد من الأشخاص الآخرين غير المؤهلين لبرنامج ميديكيد، ولكنهم رغم ذلك لا يستطيعون تحمل تكلفة التأمين، خصوصا الراشدين من العاملين ذوي الدخل المنخفض.

والتغطية الإلزامية تقول إنه لا بد من أن يكون لديك تأمين صحي، تماما مثلما يجب على أصحاب السيارات أن يكون لديهم تأمين على السيارة. كما أن التغطية الإلزامية تتعامل مع مشكلة الأفراد الذين يمكنهم تحمل أقساط التأمين

ولكنهم يجربون حظوظهم بدلا من ذلك بعدم التأمين، ثم ينتهون في غرف الطوارئ، حيث ينتهي الأمر بدافعي الضرائب عادة لدفع الحساب الذي لم يتم دفعه، فيما لو حدث أي شيء بصورة خاطئة. وتتضمن بعض الخطط أيضا إلزام صاحب العمل، وذلك بأنيطلب من أصحاب الأعمال التأمين على العاملين لديهم.

وجمع هذه العوامل الثلاثة معا يؤدي إلى نظام شامل للرعاية الصحية يدار من خلال شركات التأمينالخاصة. فالأشخاص الذين ربما قد يحرمون من التأمين بسبب تاريخهم الطبي يضمن لهم مدخل من خلال تصنيف المجتمع، والأشخاص الذين لم يكن لديهم القدرة على تحمل تكلفة التأمين تمد لهم يد المساعدة المالية، والأشخاص الذي قد يجربون أخذ فرصتهم بعدم التأمين لا يسمح لهم بذلك.

وقد قدمت ماساشوستس نظاما وفقا لهذه الخطوط المعروضة في عام 2006، كما كانت خطة أرنولد شوارزنيجر لكاليفورنيا مشابهة. وقد أعلن اثنان من المرشحين الرئيسيين الساعين لنيل موافقة الحزب الديمقراطي لانتخابات الرئاسة، جون إدواردز وباراك أوباما، خططا ذات صلة في وقت كتابة هذا الكتاب، على الرغم من أن احتواء خطة كل منهما على السمة الرابعةالتي سوف أقوم بمناقشتها حالا.

هل مثل هذا النظام، الذي تتحقق فيه الرعاية الشاملة من خلال التأمين الخاص، له أي ميزة جوهرية عن نظام المسدد الواحد؟ من الناحية الاقتصادية، لا. في الواقعإن أفضل عرض له هو عرضه كمحاولة لمحاكاة نظام المسدد الواحد من خلال القواعد التنظيمية والدعم، وستكون المحاكاة منقوصة. لقد سبق وقارنت مثل هذه الخطط بأجهزة روب جولدبرجالتي تقوم بإنجاز أهداف بسيطة بطريقة معقدة.[1] وبخاصة، فرض تصنيف المجتمع وتكليفات تقتضي بيروقراطية حكومية

(1) آلة روب جولدبرج هي عبارة عن آلة غريبة، اختراع، جهاز أو معدّة مفرط في هندستها بصورة عمدية لكي تقوم بمهمة بسيطة بأسلوب معقد، غالبا تتضمن تفاعلا متسلسلا. وقد أطلق التعبير باسم رسام الكاريكاتير والمخترع الأمريكي روب جولدبرج (1970-1883). وعلى مر الأعوام توسع التعبير ليعني أي نظام معقد أو مربك. وفي عام 1931 تبنى قاموس مريام ويبستر كلمة "روب جولدبرج" كصفة تم تعريفها على أنها إنجاز شيء ما بسيط من خلال وسائل معقدة. (المترجم)، انظر:

Rube Goldberg machine, Wikipedia, the free encyclopedia

هائلـة. المفارقـة أن إدارة الرعايـة الصحيـة مـن خـلال التأمـين الخـاص تقتـضي تدخـلا حكوميـا أكـثر مـما سـوف يتطلـب برنامـج حكومـي بسـيط.

وهنـاك، عـلى الرغـم مـن ذلـك، مزايـا سياسـية لنظـام تصنيـف المجتمـع والدعـم والتكليفـات. أولا وقبـل كل شيء، يتطلـب عائـدات إضافيـة أقـل بكثـير مـما يتطلبـه نظـام المسـدد الواحـد، لأن معظـم تكلفـة التأمـين سيسـتمر في دفعهـا في هيئـة أقسـاط كل مـن أصحـاب الأعـمال والأفـراد. وكل مـا تحتاجـه هـو عائـدات كافيـة لدعـم العائـلات منخفضـة الدخـل. وتشـير التقديـرات المعقولـة إلى أن العائـدات المطلوبـة لمأسسـة نظـام رعايـة صحيـة هجـين (أي يقـوم بالدفـع فيـه الأفـراد وأصحـاب الأعـمال والحكومة-المترجـم) أقـل بكثـير مـن العائـدات التـي تتـم خسـارتها بسـبب تخفيضـات بـوش الضريبيـة، والتـي تمـت جدولتهـا بحيـث ينتهـي أجلهـا في نهايـة عـام 2010. لـذا فمثـل هـذا النـوع مـن خطـة الرعايـة الصحيـة الشـاملة يمكـن تطبيقـه مـن دون أي حاجـة لتمريـر زيـادة ضريبيـة. وكل مـا عـلى رئيـس وكونجـرس ديمقراطيـين فعلـه هـو تـرك بعـض تخفيضـات بـوش الضريبيـة تنتهـي، وتوجيـه العائـدات التـي يتـم كسـبها نتيجـة لذلـك للرعايـة الصحيـة.

وفي نفـس الوقـت ستسـمح مثـل هـذه الخطـة للنـاس بـأن يكونـوا راضـين بتأمينهم الخـاص والاحتفـاظ بـه. وسـوف تحـاول صناعـة التأمـين اعـتراض سـبيل الإصـلاح بالهجـوم عـلى تصنيـف المجتمـع-في الواقـع كان تصنيـف المجتمـع موضوعـا لواحـد مـن إعلانـات "هـاري ولويـز" في عـام -1993ولكـن لـن يكـون بوسـع الصناعـة توجيـه الاتهـام للحكومـة بإجبارهـا النـاس عـلى الدخـول في رعايـة مـدارة.

عـلى الرغـم مـن أن رعايـة صحيـة شـاملة عـلى أسـاس التأمـين الخـاص تبـدو أكـثر عمليـة مـن نظـام المسـدد الواحـد، فإنهـا سـوف تتخـلى عـن بعـض مزايـا نظـام المسـدد الواحـد. فتكلفـة الإدارة، بشـكل خـاص، سـوف تكـون أعـلى، حيـث لا يـزال هنـاك تعـدد في القائمـين بالتأمـين وقتـال حـول مـن يدفـع مـاذا. هـل هنـاك أي وسـيلة لإصـلاح هـذه المشـكلات؟

وهنـا يـأتي العنـصر الرابـع. تسـمح خطـط إدوادرز وأوبامـا للنـاس بالبقـاء مـع التأمـين الخـاص، ولكنهـا تسـمح للنـاس أيضا باشـتراء حصة في الخطـة الحكوميـة للتأمين عـلى نمـط برنامـج ميديكـير، بسـعر يعكـس التكلفـة الحقيقيـة بالنسـبة للحكومـة. والسـماح بالاشـتراء في برنامـج ميديكـير تخلـق منافسـة بـين الخطـط الخاصـة والعامـة.

وتشير الدلائل إلى أن الخطط الحكومية، ستكون لها تكاليف عامة أقل بسبب أنها لن توجه مبالغ ضخمة للتسويق، ولذا فسوف تكسب هذه المنافسة. حينما بدأ برنامج ميديكير يتطلب تنافس خطط مزايا ميديكير-خطط دافع الضرائب المدعومة بالقطاع الخاص للمسنين-مع برنامج ميديكير التقليدي على أسس اكتوارية عادلة، جفت الخطط الخاصة. (لقد بدأت فيالتوسع مجددا بعد عام 2003 حيث قدم برنامج تحديث ميديكير دعما كبيرا للخطط الخاصة، تبلغ في المتوسط نحو ألف دولارلكل مستفيد سنويا. ولكن هذه قصة أخرى). فيما لو استمرت خططالحكومة في التفوق على القائمين بالتأمين الخاص، سوف يتطور النظام بمرور الوقت إلى نظام المسدد الواحد، مع خسارة شركات التأمين الخاصة لحصتهم السوقية. وسوفيمثل ذلك، على أية حال، اختيارا من جانب الجمهور، وليس فرض مرسوم حكومي يجبر الناس على البرامج الحكومية.

فيما لو تم سن خطة وفقا لهذه الخطوط، سوف تكون النتيجة نظام للرعاية الصحية في الولايات المتحدة ليس مماثلا لأي بلد آخر، سوى أنه سيشابه إلى حد ما النظام الألمانيالذي يتم فيه تقديم التأمين الصحي من خلال "صناديق المرض" التنافسية، ولكن التي تتحكم فيها قواعد تنظيمية صارمة. والنظام الألماني، مثل النظام الفرنسي، يكلف أقل بكثير من نظامنا بينما يقدم تغطية شاملة ورعاية عالية الجودة. كما أن أداءه أفضل من النظام في الولايات المتحدة في كل بعد من أبعاد مداخل الرعاية الصحية؛ فهو أسهل في إمكانية رؤية الطبيب خلال مهلة قصيرة، والانتظار في غرف الطوارئ أقصر، بل وحتى العمليات الجراحية الاختيارية تتضمن تأجيلات أقل مما يحدث هنا.[1]

هناك الكثير والكثير جدا من التفاصيل التي يمكن استنباطها، ولكن الشيء المهم هو أن نظام رعاية صحية شامل يبدو عمليا جدا، من وجهة نظر اقتصادية، ومالية، بل وحتى من وجهة نظر سياسية.

(1) Commonwealth Fund, Mirror, Mirror on the Wall: An International Update on the Comparative Performance of American Health Care, May 2007, http://www.commonwealthfund.org/publications/publications_show.htm?doc_id=482678.

مكافأة إصلاح الرعاية الصحية

السبب الرئيسي لإصلاح نظام الرعاية الصحية الأمريكي هو ببساطة عمله على تحسين جودة الحياة لأغلب الأمريكيين. ففي ظل نظامنا الراهن يفتقر عشرات الملايين إلى رعاية صحية ملائمة، وملايين أكثر وجدوا حياتهم يتم تدميرها بالعبء المالي للتكاليف الطبية، وكثيرون آخرون يعيشون دون تأمين أو أفلسوا بسبب التكاليف الصحية ويعيشون في خوف من أنهم سوف يكونون التالين من دون تأمين. وكل هذا غير ضروري، فكل بلد ثري آخر لدية تغطية شاملة. وتقليل المخاطر التي يواجهها الأمريكيون تستحق كل هذا العناء حتى لو كانت بتكلفة كبيرة، ولكن في هذه الحالة ليس هناك تكلفة على الإطلاق. فرعاية صحية شاملة سوف تكون أرخص وأفضل من نظامنا المجزأ الراهن.

وهناك، على أية حال، سبب مهم آخر لإصلاح الرعاية الصحية. وهو ذات السبب الذي كانت حركة المحافظين حريصة جدا على قتل خطة كلينتون من أجله. فنجاح هذه الخطة، كما يقولكريستول، "سوف يسجل إحياء سياساتدولة الرفاه المركزية"، وهو ما كان يعني به فعليا أن رعاية صحية شاملة كانت ستعطي حياة جديدة لفكرة الصفقة الجديدة بأن المجتمع عليه أن يقدم يد المساعدة لأعضائه الأقل حظا. وفي الواقع النجاح كفيل بفعل ذلك، وهو ما يشكل حجة كبيرة في صالح الإصلاح.

فرعاية صحية شاملة يمكنها، باختصار، أن تكون بالنسبة للصفقة الجديدة الجديدة ما كانه الضمان الاجتماعي للصفقة الجديدة الأصلية: كلاهما برنامج محوري في حد ذاته، ويعيد التأكيد على مبدأ أننا حفظة إخواننا. والحصول على رعاية شاملة يجب أن يكون الأولوية المحلية الأساسية لليبراليين الحديثين. وبمجرد تسجيلهم للنجاح هناك، يمكنهم الالتفات للحدود، وهي المهمة الأكثر صعوبة في كبح عدمالمساواة الأمريكي.

الفصل الثاني عشر
مواجهة عدم المساواة

كانت أمريكا التي ترعرعتُ فيها مجتمعا للمساواة النسبية والطبقة الوسطى. وقد عاد البلد خلال الجيل الماضي، على أية حال، مرة أخرى إلى مستويات عدم المساواة التي كانت قائمة خلال العصر المُذهَّب. وفي هذا الفصل سوف أشير إلى السياسات التي يمكنها المساعدة على عكس اتجاه هذه التغييرات. وكما فعلت عندما ناقشت الرعاية الصحية، على أية حال، سوف أبدأ بالسؤال عن القيم. لماذا ينبغي أن نعير الانتباه لمستوى عدم المساواة المرتفع والآخذ في الارتفاع؟

واحد من الأسباب التي تدفع للانتباه لعدم المساواة هو الأمر المباشر المتعلق بمستويات المعيشة. وكما وثقت بإفاضة في الفصل السابع، فقد ذهب نصيب الأسد من النمو الاقتصادي في أمريكا خلال الثلاثين عاما الماضية إلى أقلية صغيرة وثرية، إلى حد أنه بات من غير الواضح ما إذا كانت الأسرة النمطية قد استفادت أي استفادة على الإطلاق من التقدم التكنولوجي وزيادة الإنتاجية التي صحبتها. والافتقار إلى تقدم اقتصادي واضح للعائلات ذات الدخل المنخفض والمتوسط هو في حد ذاته سبب مهم للسعي نحو توزيع أكثر عدالة للدخل.

وفيـما وراء ذلـك، عـلى أيـة حـال، يكمـن التدمـير المفـرط الـذي سـببه عـدم المسـاواة لمجتمعنـا ولديمقراطيتنـا. فمنـذ وجـدت أمريـكا، كانـت فكرتنـا عـن أنفسـنا أننـا أمـة مـن دون فـوارق طبقيـة حـادة، ليـس مجتمعـا متعادلالديـه مسـاواة مثاليـة، ولكـن مجتمـع لا تشـكل الفجـوة فيـه بـين النخبـة الاقتصاديـة والمواطـن العـادي هـوة لا يمكـن تجسـيرها. وهـذا هـو السـبب في أن تومـاس جيفرسـون كتـب يقـول: "إن طبقـة مـلاك الأراضي الصغـيرة هـي أكـثر جـزء نفيـس في الدولـة".[1] وترجمـة هـذه العبـارة بمصطلحـات حديثـة هـو تأكيـد عـلى أن طبقـة وسـطى عريضـة هـي أكـثر جـزء نفيـس في الدولـة، وتبقـى عبـارة جيفرسـون صحيحـة كـما لم تكـن أبـدا. فعـدم المسـاواة المرتفـع، والـذي أعادنـا لـكي نصبـح أمـة بطبقـة وسـطى ضعفـت كثـيرا، لـه تأثـير هـدام عـلى العلاقـات الاجتماعيـة والسياسـة، وهـو الأمـر الـذي أصبـح ظاهـرا للغايـة مـع تحـرك أمريـكا بشـكل أعمـق داخـل عـصر مذهـب جديـد.

تكاليف عدم المساواة

أتـت أفضـل الحجـج التـي رأيتهـا حـول التكاليـف الاجتماعيـة لعـدم المسـاواة مـن الحركـة المحافظـة وهـي تحـاول الجـدال في صالـح العكـس. ففـي عـام 1997 نـشر إيرفنـج كريسـتول، وهـو واحـد مـن المثقفـين المحافظـين الجـدد الأصليـين، مقـال في جريـدة وول سـتريت عنوانـه "عـدم المسـاواة في الدخـل مـن دون صراع طبقـي". وقـد جـادل كريسـتول في هـذا المقـال بأننـا ينبغـي ألا نقلـق مـن عـدم المسـاواة في الدخـل، لأن الفـوارق الطبقيـة، وبـصرف النظـر عـما قـد تقولـه الأرقـام، قـد اختفـت في الواقـع، كلهـا تقريبـا. مؤكـدا، اليـوم، أن:

عـدم المسـاواة في الدخـل عـادة مـا يُغمـر بمسـاواة اجتماعيـة أعظـم... في كل مدننـا الكـبرى، ليـس هنـاك مطعـم واحـد يمكـن فيـه لمديـر تنفيـذي أن يتنـاول غـداءه أو عشـاءه مـع تأكـده المطلـق مـن أنـه لـن يلتقـي مصادفـة بسـكرتيرته. ولـو ركبتالطائـرة في الدرجـة الأولى، فمـن يـا تـرى سـيكونونرفاق رحلتـك؟ لـن تعـرف أبـدا. وفيـما لـو

(1) Thomas Jefferson, Letter to James Madison, Oct. 28, 1786, http://press-pubs.uchicago.edu/founders/documents/v1ch15s32.html.

سـافرت لباريـس، فسـوف تضيـع في زحمـة مـن الشـباب الذيـن يومضـون ببطاقاتهـم الائتمانيـة.[1]

وبادعـاء أن عـدم المسـاواة في الدخـل أمـر غـير مهـم لأن لدينـا مسـاواة اجتماعيـة، كان كريسـتول في الواقـع يقـر بـأن عـدم المسـاواة في الدخـل ربمـا سـتكون مشـكلة لـو أدت إلى عـدم مسـاواة اجتماعيـة. وهنـا يكمـن الـشيء: إنهـا تفعـل. فأوهـام كريسـتول عـن عـالم يعيـش فيـه الأغنيـاء تمامـا مثـلي ومثلـك،ولا يشـعر فيـه أحـد بالدونيـة الاجتماعيـة، لا يحمـل أي وجـه شـبه بأمريـكا التـي نعيـش فيهـا.

فأسـاليب حيـاة الأغنيـاء والمشـهورين يمكـن القـول إنهـا الجـزء الأقـل أهميـة في القصـة، ومـع هـذا فمـما يسـتحق الإشـارة أن رؤيـة كريسـتول حـول المديـر التنفيـذي الـذي يفـرك أكتافـه مـع الطبقـة الوسـطى تتعـارض تمامـا مـع التقاريـر الإخباريـة لروبـرت فرانـك مـن جريـدة وول سـتريت، حيـث إنـه مكلـف بتغطيـة حيـاة الأثريـاء. في كتابـه أرض الأغنيـاء "ريتشيسـتان" "Richistan" يصـف فرانـك مـا تعلمـه:

أغنيـاء اليـوم كونـوا بلدهـم الافـتراضي الخـاص بهـم... لقـد بنـوا عالمـا مسـتقلا يحبونـه لأنفسـهم، مكتمـلا بنظـام الرعايـة الصحيـة الخـاص بهـم (الأطبـاء الحـراس)، وشـبكة السـفر (طـيران خـاص، ونـوادي الوجهـة)،[2] واقتصـاد منفصـل... الأغنيـاء لا يصبحـون مجـرد أكـثر غنـى؛ وإنمـا يصبحـون أجانـب ماليـا، ويخلقـون بلدهـم الخـاص داخـل البلـد، ومجتمعهـم الخـاص داخـل المجتمـع، واقتصادهـم داخـل الاقتصـاد.[3]

(1) Irving Kristol, "Income Inequality Without Class Conflict," Wall Street Journal, Dec. 18, 1997, p.A 22.

(2) تـم تقديـم نـوادي الوجهـة في عـام 1998، وتقـوم شركات باسـتهداف العائـلات الثريـة التـي تريـد منافـع ملكيـة البيـت الثـاني، ولكـن مـع المزيـد مـن المرونـة والاختيـار للمـكان الـذي يمضـون فيـه إجازتهـم كل سـنة. وبالانضـمام لنـوادي الوجهـة، يكسـب العضـو فرصـة وجـود العديـد مـن المنـازل التـي يمكنـه قضـاء إجازتـه فيهـا في أماكـن متعـددة حـول العـالم مقابـل رسـم عضويـة يدفـع مـرة واحـدة واسـتحقاقات عضويـة سـنوية. (المترجـم)، انظـر:
destination club, Wikipedia, the free encyclopedia.

(3) Robert Frank, Richistan: A Journey through the American Wealth Boom and the Lives of the New Rich (Crown Publishers, 2007,), pp. 3-4

والحقيقـة هـي أن عـدم المسـاواة الشاسـعة في الدخـل تجلـب عـدم مسـاواة اجتماعيـة شاسـعة في ركابهـا. وعـدم المسـاواة الاجتماعيـة هـذا ليـس مجـرد أمـر حسـد وإسـاءات. فـإن لهـا تبعـات سـلبية حقيقـة عـلى الطريقـة التـي يعيـش بهـا النـاس في هـذا البلـد. فقـد لا يكـون أمـرا مهـما كثـيرا أن الأغلبيـة العظمـى مـن الأمريكيـين لا يمكنهـم تحمـل كلفـة الإقامـة في الأجنحـة الفندقيـة التـي تبلـغ كلفـة الليلـة الواحـدة فيهـا 11 ألـف دولار، والتـي تشـكل ركيـزة في الفنـادق الفخمـة حـول العـالم.[1] ولكـن الأمـر المهـم إلى حـد كبـير هـو أن الملايـين مـن عائـلات الطبقـة الوسـطى يشـترون منـازل لا يمكنهـم حقـا تحمـل كلفتهـا، والالتـزام بالمزيـد مـن ديـون الرهـن العقـاري وبأكـثر مـن قدرتهـم عـلى التعامـل معهـا بشـكل آمـن، لأنهـم يئسـوا مـن قدرتهـم عـلى إرسـال أولادهـم لمدرسـة جيـدة، وتكثيـف عـدم المسـاواة يعنـي أن مـدارس الأحيـاء المرغوبـة تنمـو بأعـداد قليلـة، ومرتفعـة التكلفـة جـدا للعيـش فيهـا.

وقـد درسـت كل مـن إليزابيـث وارن، خبـيرة الإفـلاس في مدرسـة هارفـارد للقانـون، وأميـلا وارن تياجـي، مستشـارة الأعـمال، تزايـد الإفـلاس في الولايـات المتحـدة. بحلـول عـام 2005 وقبـل وقـت قصـير للغايـة مـن وضـع قانـون جديـد يجعـل مـن الصعـب عـلى الأفـراد إعـلان إفلاسـهم موضـع التطبيـق، كان عـدد العائـلات التـي تقـدم طلبـا لإشـهار إفلاسـها كل عـام يبلـغ خمسـة أمثـال العـدد في أوائـل الثمانينـات. والسـبب المبـاشر لهـذا التصاعـد في إشـهار الإفـلاس هـو التـزام العائـلات بالمزيـد مـن الديـون، وأدى هـذا إلى تصريحـات أخلاقيـة حـول أن النـاس تنفـق كثـيرا جـدا عـلى الكماليـات التـي لا يسـتطيعون تحمـل كلفتهـا. ومـا توصلـت إليـه وارن وتياجـي، عـلى أيـة حـال، هـو أن عائـلات الطبقـة الوسـطى كانـت حقيقـة تنفـق أقـل عـلى الكماليـات عـما اعتـادت إنفاقـه عليهـا في السـبعينات. وبـدلا مـن ذلككانالارتفـاع في الديـن يعكـس بشـكل أسـاسي زيـادة الإنفـاق عـلى السـكن، مدفوعـا إلى حـد كبـير بالتنافـس للوصـول إلى مـدارس أحيـاء جيـدة. وكان الأمريكيـين مـن الطبقـة الوسـطي قـد حـوصروا في سـباق فـئران، ليـس بسـبب كونهـم طماعـين أو حمقـى ولكـن بسـبب محاولتهـم منـح

(1) "Suites for the Sweet," Newsweek International, July 2-9, http://www.msnbc.msn.com/id/19388720/site/ newsweek, part of a special report on "Secret Habits of the Super Rich."

أبنائهـم فرصـة في مجتمـع أصبـح غـير متسـاو بشـكل متزايـد.[1] ومعهـم كل الحـق في أن يقلقـوا: فبدايـة سـيئة يمكنهـا أن تفسـد فـرص الطفـل عـلى مـدى عمـره.

والأمريكيـون لا يزالـون يميلـون للقـول، حينـما يُسـألون، إن الأفـراد بإمكانهـم صنـع مكانتهـم في المجتمـع. وطبقـا لأحـد اسـتطلاعات الـرأي كان 61% مـن الأمريكيـين موافقـين عـلى العبـارة التـي تقـول إن "النـاس تكافـأ عـلى جهدهـا"، مقارنـة بنحـو 49% في كنـدا و23% فقـط في فرنسـا.[2] وفي الواقـع، عـلى أيـة حـال، أنـه كان لـدى الأمريكيـين عـدم مسـاواة شاسـع في الفـرص وكذلـك في النتائـج. فنحـن ربمـا نؤمـن بـأن أي شـخص يمكنـه النجـاح مـن خـلال العزيمـة والكـدح، ولكـن الحقائـق تقـول شيء آخـر.

هنـاك العديـد مـن الأدلـة تظهـر أن قصـص هوارشـيو ألجـر[3] هـي قصـص نـادرة جـدا في الحيـاة الواقعيـة. وواحـد مـن الأدلـة الأكـثر لفتـا للأنظـار تـأتي مـن دراسـة نشرهـا المركـز الوطنـي لإحصـاءات التعليـم، والتـي اقتفـت أثـر الخـبرة التعليميـة للأمريكيـين الذيـن كانـوا في الصـف الثامـن في عـام 1988. وقـد تـم تصنيـف هـؤلاء تبعـا للموهبـة الواضحـة، والتـي تـم قياسـها وفقـا لاختبارهـم في مـادة الرياضيـات، وتبعـا للمكانـة الاجتماعيـة الاقتصاديـة لوالديهـم، والتـي تـم قياسـها عـبر الوظيفـة، والدخـل، والتعليـم.

النتيجـة الرئيسـية معروضـة في جـدول 10. ولا يحمـل الأمـر أي مفاجئـة، فـكل مـن حصلـوا عـلى درجـات مرتفعـة في الاختبـار وكان والداهـم ذوي مكانـة عاليـة زادت فرصـة التلميـذ في انهـاء التعليـم الجامعـي. ولكـن مكانـة العائلـة تهـم أكـثر. فالتلاميـذ الذيـن وقعـوا في الربـع الأخـير مـن حيـث درجاتهـم في الاختبـار، ولكـن كانـوا ينحـدرون

(1) Elizabeth Warren and Amelia Warren Tyagi, “What’s Hurting the Middle Class,” Boston Review, Sept./Oct. 2005, http://bostonreview.net/BR30.5/Warrentyagi.html.

(2) Tom Hertz, Understanding Mobility in America (Center for American Progress, 2006), http://www.american progress.org/issues/2006/04/b1579981.html.

(3) أسـطورة هوارشـيو ألجـر هيقصـة النجـاح الأمريكيـة الكلاسـيكية، المسـار الـذي تتخـذه الشـخصية "مـن الثيـاب الرثـة إلى الغنـى". وتـأتي هـذه القصـة في روايـات هوراشـيو ألجـر، والتـي كانـت ذات شـعبية طاغيـة بعـد الحـرب الأهليـة الأمريكيـة. وقـد كتـب ألجـر أكـثر مـن 120 كتابـا لذكـور الطبقـة العاملـة الشـابة، وواحـدة مـن أمثلتهـا المبكـرة المعروفـة روايـة "ديـك ذو الثيـاب الرثـة"، والتـي نـشرت عـام 1867. وقـد وصفـت كتبـه عـلى أنهـا قصـص "مـن الثيـاب الرثـة إلى الغنـى" (المترجـم)، انظـر:
Horatio Alger myth, Wikipedia, the free encyclopedia.

مـن عائـلات تضعهـا مكانتهـا في الربـع الموجـود عـلى القمـة- اعتدنـا أن نطلـق عليهـم حينـما كنـت مراهقـا "أأب" اختصـارا لـ"أطفـال أغنيـاء بلـداء"[1]-كان مـن المحتمـل أكـثر أن ينهـوا تعليمهـم الجامعـي مقارنـة بتلاميـذ كانـت درجاتهـم في الاختبـار تضعهـم في الربـع المتربـع عـلى القمـة ولكـن كانـت مكانـة والديهـم تقـع في الربـع الموجـود بالقـاع. ومـا يبلغنـا بـه ذلـك هـو أن فكـرة أننـا لدينـا أي شيء قريـب مـن المسـاواة في الفـرص هـو بشـكل واضـح مجـرد خيـال. وسـوف يكـون الأقـرب للحقيقـة، عـلى الرغـم مـن أنهـا ليسـت كل الحقيقـة، القـول بأنـه في أمريـكا الحديثـة، الطبقة-الطبقـة الموروثة-تتفـوق عـادة عـلى الموهبـة.

أليـس هـذا صحيحـا في كل مـكان؟ ليس لنفس المـدى. فالمقارنات الدوليـة لـ"الحراك مـا بـين الأجيـال"، أي المـدى الـذي يسـتطيع فيـه النـاس تحقيـق مكانـة أعـلى مـن مكانـة والديهـم، تعـد خادعـة لأنـه لا يتـم جمـع بيانـات متوافقـة تمامـا في كل البلـدان، عـلى الرغـم مـن أنـه مـن الواضـح أن هوراشـيو ألجـر قـد تحـرك لبعـض الأماكـن في أوروبـا. والحـراك هـو أعـلى مـا يكـون في بلـدان إسـكندنافيا، ومعظـم النتائـج تشـير إلى أن الحـراك أقـل في الولايـات المتحـدة مقارنـة بمـا هـو عليـه في فرنسـا، وكنـدا، وربمـا حتـى بريطانيـا. وليـس الأمـر فقـط أن الأمريكيـين ليسـت لديهـم فرصـة متكافئـة، بـل إن الفرصـة أقـل تكافـؤا هنـا عنهـا في أي مـكان آخـر في الغـرب.

جـدول 10. نسـبة التلاميـذ المقيديـن في الصـف الثامـن عـام 1988 وأنهـوا تعليمهم الجامعي

	الدرجات في الربع في القاع	الدرجات في الربع في القمة
الوالدان في الربع في القاع	3	29
الوالدان في الربع في القمة	30	74

Source: National Center for Education Statistics, The Condition of Education 2003, p. 47.

وليـس مـن الصعـب الفهـم لمـاذا. فافتقارنـا الفريـد إلى الرعايـة الصحيـة الشـاملة، في حـد ذاتـه، يضـع الأمريكيـين غـير المحظوظـين بوالديهـم في موقـف سـيئ، لأن الأطفال

(1) في النص الأصلي يستخدم الكاتب RDKs اختصارا لـ "Rich Dump Kids"- المترجم

الأمريكيين من العائلات الأقل دخلا عادة ما يكونون غير مؤمن عليهم، ومن المحتمل أكثر أن تكون لديهم مشكلات صحية تعرقل فرصهم في الحياة. التغذية السيئة، بسبب الدخل المنخفض والافتقار إلى الدعم الاجتماعي، يمكن أن يكون له نفس الأثر. اضطرابات الحياة التي تؤثر على والدي الطفل يمكنها أن تجعل من الصعب الحراك لأعلى، وضعف شبكات الأمان الاجتماعي في الولايات المتحدة يجعل من مثل هذه الاضطرابات أكثر احتمالا وأكثر سوءا إذا ما حدثت. ثم هناك التفاوت الشديد في جودة التعليم الأساسي في الولايات المتحدة، وهلم جرا. ونهاية كل هذا هو أنه على الرغم من أن مبدأ "الفرص المتكافئة"، وليس "تكافؤ النتائج"،يبدو على ما يرام، فإنه تمييز وهمي إلى حد كبير. فالمجتمع الذي به نتائج غير متكافئة للغاية من المحتم، إلى حد كبير، أن يكون مجتمعا لديه عدم تكافؤ مرتفع في الفرص أيضا. وفيما لو كنت تصدق حقيقة أن كل الأمريكيين يستحقون فرصة متكافئة عند خط البداية، فهذه حجة لعمل شيء لخفض عدم المساواة.

عدم المساواة المرتفع في أمريكا، إذن، يفرض تكاليف خطيرة على مجتمعنا تذهب إلى أبعد من مجرد الضغط على القوة الشرائية لمعظم العائلات. وهناك وسيلة أخرى تضرنا بها عدم المساواة: إنها تفسد سياستنا. لقد قال ويدرو ويلسون في عام 1913 "لو كان هناك رجال في هذا البلد كبار بما فيه الكفاية لامتلاك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية"، وهي كلمات لا يمكن تصورها على الأغلب من الرؤساء الحديثين، "وهم في طريقهم لتملكها".[1] حسنا، والآن هناك رجال، وهم يفعلون. ليس بشكل كامل، طبعا، لا يكاد يمر أسبوع دون الكشف عن حالة قام فيها نفوذ المال على نحو بشع بتشويه سياسة الحكومة.

مع وقت ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة، كان هناك مثال مذهل: الطريقة التي احتشد بها حتى بعض الديمقراطيين لمساندة مديري صناديق التحوط[2]

(1) Woodrow Wilson, The New Freedom (Doubleday, 1913), Downloaded from Project Gutenberg, http://www.gutenberg.org/files/14811/14811-h/14811-h.htm.

(2) صندوق التحوط هو وسيلة بديلة في الاستثمار مصممة من أجل حماية محفظة أوراق مالية من تذبذبات السوق، في الوقت الذي تحقق فيه عائدا إيجابيا سواء في حالة صعود السوق أو هبوطه. وعلى مدار الزمن كان المستثمرون يبحثون دوما عن طرق لتعظيم أرباحهم في نفس الوقت الذي يخفضون فيه المخاطر إلى الحد الأدنى. وقضية حماية استثمار ما من مخاطر السوق

الذين يتلقون تخفيضات ضريبية غير معقولة. من خلال ثغرة في طريقة تفسير قوانين الضرائب، كان هؤلاء المديرون-الذين يكسب البعض منهم أكثر من مليار دولار في السنة-يتم حساب معظم إيراداتهم على أسس ضريبة الكسب الرأسماليالتي تبلغ نحو 15% فقط، حتى وإن كان آخرون من أصحاب الإيرادات المرتفعة يدفعون معدلا يبلغ 35%. وتكلف الثغرة في صناديق التحوط الحكومة أكثر من 6 مليارات دولار سنويا كعائدات ضريبية مفقودة، وهي تقريبا تكلفة مد الرعاية الصحية لنحو 3 ملايين طفل.[1] ويذهب نحو ملياري دولار تقريبا من إجمالي من هذه العائدات الضريبية المفقودة إلى خمسة وعشرين فردا فقط. وحتى الاقتصاديون المحافظون يعتقدون أن التخفيض الضريبي ليس لهما يبرره، ولا بد من إزالته.[2]

ومع ذلك فالتخفيض الضريبي لديه دعم سياسي قوي، ليس فقط من الجمهوريين. في يوليو 2007 جعل السيناتور شارلز شومر من نيويورك،ورئيس لجنة الحملات الانتخابية بالحزب الديمقراطي، الأمر واضحا بأنه سوف يفضل إزالة الثغرة الضريبية الخاصة بصناديق التحوط فقط إذا ما تمت إزالة جميع التخفيضات الضريبية عميقة الجذور الأخرى في نفس الوقت. وكما فهم كل شخص، كانت هذه "حبة دواء سامة"،[3] طريقة لعرقلة الإصلاح دون قول ذلك صراحة. وعلى الرغم من أن شومر قد أنكر ذلك، فإن كل شخص كان يشك في

تجري محاولتها (على الرغم من أنها لم تكن دوما ناجحة) عبر الاستثمارات البديلة التي تحاول تخفيف حدة الخسارة والحفاظ على رأس المال. وهذه الاستثمارات البديلة هي ما يطلق عليه صناديق التحوط. (المترجم)، انظر:

Hedge Fund Definition, Hedge Fund Market Association.

على الرابط: http://www.hedgefundmarketing.org/hedge-fund-definition/

(1) "Tax Breaks for Billionaires," Economic Policy Institute Policy Memorandum, no. 120, http://www.epi.org/content.cfm/pm120.

(2) See, for example, Jessica Holzer, "Conservatives break with GOP Leaders on a Tax Bill," The Hill, July 18, 2007, http: // the hill.com/leading-the-news/conservatives-break-with-gop-leaders-on-a-tax-bill-2007-07-18.html.

(3) المعنى القاموسي: عنصر يضاف في هيكل الشركة لكي يصبح الاستيلاء عليها غير مرغوب فيه من أي شركة أخرى. (المترجم)، انظر:

http://idioms.thefreedictionary.com/poison+pill

أن منصبه يعزى إلى المبالغ الكبيرة التي كانت تساهم بها صناديق التحوط في الحملات السياسية الديمقراطية.[1]

وثغرة صناديق التحوط هي مثال كلاسيكي على كيف أن تركيز الثروة في حفنة قليلة من الأيادي يفسد السياسة. وأبعد من هذا توجد القصة الكبرى حول كيف أن عدم المساواة في الدخل قد دعم صعود الحركة المحافظية، وهي قوة تعد جوهريا غير ديمقراطية. وكما ناقشت في الفصل السابع، فتزايد عدم المساواة قد تسبب فيه بدرجة مهمة نوعا ما التحول نحو اليمين في سياستنا، ولكن علاقة السببية تمضي في الاتجاه الآخر أيضا، بمعنى أن الاتجاه نحو اليمين السياسي يؤدي إلى تزايد عدم المساواة. فقد أدت الثروة الجديدة للأغنياء إلى تزايد نفوذهم، والحفاظ على مؤسسات الحركة المحافظية بل وجذب الحزب الجمهوري أكثر ليدور في فلك الحركة. وقبح سياساتنا يعد أنه إلى حد كبير انعكاس لعدم المساواة في توزيعنا للدخل.

وتضغط المستويات العالية من عدم المساواة، على نطاق أكثر اتساعا، على الروابط التي تجمعنا معا كمجتمع. لقد كان هناك اتجاه نزولي طويل الأمد في مدى ثقة الأمريكيين في الحكومة أو بعضهمفي بعض. في الستينات، كان معظم الأمريكيين يوافقون على فرضية أن "معظم الناس يمكن الثقة فيهم"؛ أما اليوم فمعظم الأمريكيين لا يوافقون على تلك الفرضية.[2] في الستينات، اعتقد معظم الأمريكيين أن الحكومة تعمل "من أجل خير الجميع"، أما اليوم فمعظمهم يعتقد أنها تعمل من أجل "حفنة من المصالح الكبيرة".[3] وهناك دليل مقنع على أن تنامي عدم المساواة هو ما يكمن وراء شكوكنا المتناميةالتي تجعل من الولايات المتحدة، بشكل متزايد، مثل دولة من دول أمريكا اللاتينية. وكما أشار عالما السياسة إريك يسلانر وميتشيل براون (في بحث دعماه ببيانات مكثفة)، فإنه "في

---

(1) "In Opposing Tax Plan, Schumer Supports Wall Street Over Party," New York Times, July 30, 2007, p. A1.

(2) Eric M. Uslaner and Mitchell Brown, "Inequality, Trust, and Civic Engagement," American Politics Research 33, 6 (2005), pp. 868-94.

(3) The ANES Guide to Public Opinion and Electoral Behavior, table 5A.2, http://electionstudies.org/nesguide/toptable/tab5a_2.htm.

عالم من يملكون ومن لا يملكون، نجد أن هؤلاء الذين يقعون عند طرفي الطيف الاقتصادي لديهم سبب ضئيل للإيمان بأن معظم الناس يمكن الثقة فيهم...فالثقة الاجتماعية ترتكز على قاعدة من المساواة الاقتصادية".[1]

تخفيض عدم المساواة في الدخل: سياسات ما بعد السوق

في مناقشة الطرق التي يمكنها أن تخفض من عدم المساواة، من المفيد وضع تمييز بين مفهومين لعدم المساواة، ونوعين من سياسات خفض عدم المساواة.

المفهوم الأول لعدم المساواة هو عدم المساواة في الدخل السوقي. فالولايات المتحدة، طبعا، هي اقتصاد سوق. ومعظم الناس يحصلون على معظم دخلهم ببيع عملهم لصاحب عمل؛ ويحصل الناس على دخل أيضا من السوق كعائد على الأصول مثل الأسهم، والسندات، والعقارات. ولذا فواحد من مقاييس عدم المساواة هو عدم المساواة في الدخل الذي يحصل عليه الناس من بيعهم أشياء. وتوزيع الدخل السوقي غير متساو للغاية ويصبح أكثر سوءا مع الوقت. في الحقيقة، يعد الدخل السوقي موزعا الآن بشكل غير متساو، تماما كما كان عليه الوضع في العشرينات.

ولكن هذه ليست هي نهاية القصة، فالحكومة تجمع جزءا من الدخل السوقي في هيئة ضرائب، وتحول جزء من هذا العائد الضريبي مرة أخرى إلى الجمهور، سواء في شكل مدفوعات مباشرة، مثل شيكات الضمان الاجتماعي التي هي مصدر رئيسي للدخل لمعظم المسنين الأمريكيين، أو بالدفع للسلع والخدمات مثل الرعاية الصحية. ولذا فمقياس آخر من مقاييس عدم المساواة هو عدم المساواة في الدخل القابل للتصرف، أي الدخل بعد الأخذ في الاعتبار الضرائب المقتطعة وإضافة التحويلات الحكومية. في أمريكا الحديثة، كما في كل البلدان المتقدمة، نجد أن عدم المساواة في الدخل القابل للتصرف فيه أقل من عدم المساواة في الدخل السوقي، لأن لدينا دولة رفاه، ولو أنها صغيرة بالمعايير العالمية. الضرائب والتحويلات التي تؤدي إلى تراجع إلى حد ما في مستوى معيشة الأغنياء

(1) Uslaner and Brown, "Inequality, Trust, and Civic Engagement."

بينـما تسـاعد الأقـل حظـا، هـي السـبب في أن أمريـكا في عـام 2007 لا تشـعر بنفـس الشـعور بعـدم المسـاواة الـذي كانـت تشـعر بـه في العشرينـات.

والآن، فواحـد مـن طـرق خفـض عـدم المسـاواة في أمريـكا هـو فعـل المزيـد مـن ذلـك: توسـيع وتحسـين سياسـاتنا مـا بعـد السـوقالتي تأخـذ عـدم المسـاواة في الدخـل السـوقي كمعطـى، ولكنهـا تتـصرف كي تخفـض وطأتـه. ولرؤيـة كيفيـة عمـل ذلـك، دعـوني أصـف لكـم مثـالا لبلـد يعمـل بصـورة ضخمـة مـا هـو أكـثر مـن أجـل خفـض عـدم المسـاواة مقارنـة بمـا نفعلـه نحـن: فرنسـا.

إذا كنـت تمـر بمرحلـة صعبـة في حياتـك-أو لـو كانـت حياتـك بكاملهـا صعبـة- فمـن الأفضـل بـكل تأكيـد أن تكـون فرنسـيا عـن أن تكـون أمريكيـا، ففيـما لـو فقـدت عملـك وكان عليـك القبـول بعمـل أدنى، فليـس عليـك القلـق مـن فقـدان تأمينـك الصحـي، لأن التأمـين الصحـي يقـدم عـن طريـق الحكومـة. وفيـما لـو كنـت خـالي عمل لوقـت طويـل، فالحكومـة تسـاعد عـلى الحفـاظ عـلى غذائـك ومسـكنك. ولـو كنـت في وضـع مـادي صعـب نتيجـة تكلفـة تربيتـك أطفـالا، فإنـك تحصـل عـلى مـال إضـافي مـن الدولـة، إلى جانـب المسـاعدة في الرعايـة النهاريـة للأطفـال. لا يضمـن ذلـك لـك حيـاة مريحـة، ولكـن أفـراد عائلتـك، خاصـة أطفالك،تتـم حمايتهـم حقـا مـن معانـاة الحرمـان المـادي الشـديد.

ومـن جانـب آخـر، فيـما لـو مضـت الأمـور معـك بشـكل جيـد جـدا، فكونـك فرنسـيا لـه جانـب سـلبي. فمعـدلات ضريبـة الدخـل أعـلى إلى حـد مـا مـن المعـدلات في الولايـات المتحـدة، أمـا الضرائـب عـلى الرواتـب، وخاصـة المقـدار الذييدفـع رسـميا بواسـطة صاحـب العمـل ولكنـه في الحقيقـة يؤخـذ مـن الأجـور، فتعـد أعـلى بكثـير. وتكلفـة الحيـاة مرتفعـة أيضـا بسـبب أن فرنسـا لديهـا ضريبـة قيمـة مضافـة مرتفعـة، وهـي نـوع مـن ضريبـة المبيعـات الوطنيـة. وبالنسـبة للأشـخاص أصحـاب الدخـول العاليـة نجـد أن هـذه الأعبـاء لا تعوضهـا بالكامـل مزايـا التأمـين الصحـي الحكومـي والمنافـع الأخـرى. ولـذا فالرجـل الفرنـسي الـذي يعـد دخلـه (شـاملا ضريبـة الرواتـب التـي يدفعهـا صاحـب عملـه) في المـدى الـذي نعـده فيـه شـخصا مـن الطبقـة الوسـطى العليـا أو أعلى،تكـون لديـه قـوة شرائيـة أقـل بشـكل كبـير مـن القـوة الشرائيـة لـدى الأمريكيـين الذيـن يحصلـون عـلى نفـس مسـتوى الدخـل.

وبعبارة أخرى، فلدى فرنسا سياسات ما بعد سوق مكثفة تخفض من عدم المساواة لتريح المكلومين، ولكنها إلى حد ما تفجع الميسورين. وفي هذا المقام تعد فرنسا صورة نمطية للأمم الغربية غير الناطقة بالإنجليزية. بل إنه حتى الأمم الأخرى الناطقة بالإنجليزية تعمل أكثر مما نعمل نحن لخفض عدم المساواة بعد السوق.

على سبيل المثال، تنفق الولايات المتحدة أقل من 3% من الناتج المحلي الإجمالي على برامج تخفض من عدم المساواة بين من هم أقل من 65 سنة. ولمطابقة ما تفعله كندا فعلينا إنفاق 2.5% إضافية من الناتج المحلي الإجمالي؛ ولمطابقة ما تفعله معظم أوروبا من المطلوب أن ننفق 4% زيادة من الناتج المحلي الإجمالي، ولمطابقة ما تفعله الدول الإسكندنافية فعلينا إنفاق 9% إضافية.[1] تخفض برامج الولايات المتحدة الفقر بين غير المسنين بنسبة 28%، مقارنة بـ54% في كندا، و61% في بريطانيا، و78% في السويد.[2] وتهون هذه الأرقام في حقيقة الأمر من الاختلاف بين الولايات المتحدة وكل الآخرين، بسبب أنها لا تأخذ في الحسبان فشل أمريكا الفريد في ضمان الرعاية الصحية للجميع.

وواحدة من الطرق "السهلة" لكي تخفض الولايات المتحدة من عدم المساواة لأبعد من الخفض الفعال الذي سننجزه مع الرعاية الصحية الشاملة، أن تقوم أمريكا بالعمل أكثر لمساعدة غير المحظوظين من خلال الإعانة العامة من مختلف الأنواع، ويتم الدفع مقابلها بضرائب أكثر ارتفاعا على الميسورين. وربما يتكون الإنفاق الإضافي إلى حد كبير من توسيع البرامج التي لدينا بالفعل: توسيع ضريبة الدخل المكتسب، وبرنامج طوابع غذاء أكثر كرما، ومساعدة إسكان أكبر، وهكذا. كما يمكن أن تتضمن أيضا بنودا أخرى مثل دعم الطفل والمساعدة في الرعاية النهارية للأطفال. وسوف أتحدث حول من أين يمكن أن تأتي الإيرادات الإضافية لاحقا في هذا الفصل.

---

(1) Irwin Garfinkel, Lee Rainwater, and Timothy Smeeding, "Equal Opportunities for Children: Social Welfare Expenditures in the English Speaking Countries and in Western Europe, "Focus 23, no. 3 (Spring 2005), pp. 16-23.

(2) Timothy M. Smeeding, "Public Policy, Economic Inequality, and Poverty: The United States in Comparative Perspective," Social Science Quarterly 86, suppl. 1 (Dec. 2005), pp. 955-83

ولكـن ألا تعمـل الضرائـب العاليـة ودولـة رفـاه المكثفـة عـلى إزالـة الحوافـز للعمل والابتـكار؟ فنصيـب الفـرد مـن الناتـج المحـلي الإجـمالي في فرنسـا يبلـغ 74% فقـط مـن نصيـب الفـرد مـن الناتـج المحـلي الإجـمالي في الولايـات المتحـدة. أليسـت هـذه حجـة دامغـة ضـد التحـرك في الاتجـاه الفرنـسي؟ حسـنا، فرنسـا والـدول الأخـرى صاحبـة البرامـج الاجتماعيـة السـخية لديهـا مشـكلات اقتصاديـة جديـة. ولكـن هذه المشـكلات، عـلى أيـة حـال، لا ترتبـط ببسـاطة أو بشـكل وثيـق بسـخاء البرامـج الاجتماعيـة كـما قـد تفكـر.

ففرنسـا لديهـا ناتـج محـلي إجـمالي بالنسـبة للفـرد أقـل بكثـير مـن الولايـات المتحـدة. وهـذا يعـود بشـكل كبـير إلى أن نسـبة أقـل مـن السـكان هـي التـي تعمـل، فالناتـج المحـلي الإجـمالي للشـخص الفرنـسي العامـل أقـل مـما هـو عليـه في الولايـات المتحـدة بنسـبة 10% فقط.[1] وهـذا الاختـلاف في الناتـج المحـلي الإجـمالي لـكل عامـل، بـدوره، يرجـع بالكامـل إلى أنهـم في فرنسـا يحصلـون عـلى وقـت راحـة أكـثر بكثـير: يعمـل العـمال الفرنسـيون في المتوسـط 86% فقـط مـن عـدد سـاعات العمـل التـي يعملهـا العـمال الأمريكيـون.[2] ويبـدو مـن ثـم أن إنتاجيـة العامـل في السـاعة هـي أعـلى بقليـل في فرنسـا منهـا في الولايـات المتحـدة.

والسـؤال الحقيقـي هـو أي جانـب مـن جوانـب الاختـلاف الفرنـسي يمثـل مشـكلة، وأيهـا يمثـل ببسـاطة اختيـارات مختلفـة ربمـا تكـون أفضـل؟ الرقـم الأقـل المتعلـق بعدد سـاعات العمـل في فرنسـا يبـدو أنـه يقـع في الفئـة الثانيـة. فالإجـازات في الولايـات المتحـدة قصـيرة جـدا، والعديـد مـن العـمال لا يحصلـون عـلى إجـازات عـلى الإطـلاق. وقـد أخـذت فرنسـا بالأسـاس قـرارا، بفـرض وقـت الإجـازة بحكـم القانـون وكذلـك التسـويات النقابيـة، مـن أجـل مقايضـة الدخـل الأقـل بالمزيـد مـن وقـت الراحـة. وهنـاك بعـض الدلائـل عـلى أن هـذا القـرار جعـل معظـم النـاس حقيقـةً أفضـل حـالا. وقـد ذكـرت واحـدة مـن الدراسـات الحديثـة عـن الاختـلاف في سـاعات العمـل بـين أوروبـا والولايـات المتحـدة، أن الاسـتطلاعات تشـير إلى أن النـاس تـود العمـل سـاعات

(1) Bureau of Labor Statistics, "Comparative Real Gross Domestic Product Per Capita and per Employed Person," ftp://ftp.bls.gov/pub/special.reests/ForeignLabor/flsgdp.txt.

(2) See Organization for Economic Cooperation and Development (OECD) Statistical Index, http://dx.doi.org/10.1787/075816831582.

أقـل، ويبـدو أن المقارنـات الدوليـة عـن "الرضـا عـن الحيـاة" تقـول إن العمـل وقتـا أقـل يحسـن مـن نوعيـة الحيـاة حتـى ولـو أدى إلى انخفـاض في الدخـل. وعـلى الرغـم مـن ذلـك فمـن الصعـب عـلى أي فـرد، يعمـل لحسـاب نفسـه، مقايضـة الدخـل الأقـل بوقـت الفـراغ الأكـثر. والقوانـين والقواعـد التنظيميـة الفرنسـية تحـل هـذه المشـكلة بطلبهـا أن يأخـذ صاحـب العمـل إجـازة ربمـا يكـون شـيئا جيـدا فيالحقيقـة، حتـى عـلى الرغـم مـن أنهـا تخفـض الناتـج المحـلي الإجـمالي.[1]

وإضافـة إلى عملهمسـاعات أقـل مـن السـاعات التـي يعملهـا الأمريكيـون، فالفرنسـيون أقـل احتـمالا أن يعملـوا عـلى الإطـلاق. وكي أكـون أكـثر تحديـدا: الشـباب والكبـار يميلـون لئـلا يكونـوا ملتحقـين بـأي عمـل عـلى الإطـلاق. فنحـو 80% مـن البالغـين في سـن الشـباب، هـؤلاء الذيـن يبلـغ عمرهـم مـا بـين 25 و45 عامـا، ملتحقـون بعمـل، وهـي نفـس النسـبة تقريبـا في الولايـات المتحـدة. ولكـن نحـو 25% فقـط مـن المقيمـين في فرنسـا الذيـن تبلـغ أعمارهـم مـا بـين 15 و24 سـنة يعملـون، مقارنـة بـ54% في الولايـات المتحـدة، ونحـو 41% مـن الذيـن تبلـغ أعمارهـم بـين 55 و64 سـنة يعملـون في فرنسـا، مقارنـة بـ62% يعملـون هنـا.[2] والسـؤال هنـا هـو عـما إذا كان يتم النظـر إلى معـدلات التشـغيل المنخفضـة هـذه كمشـكلة.

تعـد معـدلات التشـغيل المنخفضـة بـين الشـباب في فرنسـا أقـل مـن توصيفهـا بالمشـكلة مقارنـة بمـا تبـدو عليـه. فهـي تعكـس إلى حـد مـا القواعـد المنظمـة التـي تجعـل مـن الصعـب عـلى أصحـاب الأعـمال فصـل العاملـين لديهـم، ولـذا تـؤدي إلى الـتردد في توظيـف العاملـين في المقـام الأول. والفحـص الوثيـق، عـلى أيـة حـال، يكشـف أن هنـاك أسـبابا أخـرى لانخفـاض تشـغيل الشـباب الصغـير في فرنسـا ربمـا تكـون أكـثر أهميـة. فالفرنسـيون مـن المحتمـل أكـثر، مقارنـة بالأمريكيـين، أن يبقـوا في المـدارس: نحـو 92% مـن المقيمـين الفرنسـيين الذيـن تـتراوح أعمارهـم بـين 15 و19 سـنة ملتحقـون بالمـدارس، ونحـو 45% مـن هـؤلاء الذيـن تـتراوح أعمارهـم بـين 20 و24 سـنة، مقارنـة بنسـب تبلـغ 84% و35%، عـلى التـوالي، في الولايـات المتحـدة. ونحـو

(1) Alberto Alesina, Ed Glaeser, and Bruce Sacerdote, “Work and Leisure in the U.S. and Europe: Why So Different?” (National Bureau of Economic Research working paper no. 11278, Apr. 2005.

(2) OECD Statistical Index, op. cit.

10% فقط من الطلاب الفرنسيين يلتحقون بعمل في نفس الوقت الذي يدرسون فيه، مقارنة بنحو 20% في الولايات المتحدة. والافتراض هو أن المزيج الفرنسي من مجانية التعليم والدعم المالي العام يجعل الشباب من الأسر الأقل دخلا يركزون في دراستهم، بينما في أمريكا ليس هناك خيار أمام أبناء مثل هذه العائلات سوى التسرب من التعليم، أو شق طريقهم عبر الجمع بين العمل والدراسة. ويبدو هذا ميزة للنظام الفرنسي وليس العكس.(1)

وبمجرد بلوغهم سن العمل، كما رأينا، يكون من المحتمل أن يلتحق الفرنسيون بالعمل مثلما نفعل نحن، وهي حقيقة تبدو على خلاف كبير جدا مع صورة قوة العمل الكبيرة الخاملة المتبطلة التي عادة ما يتم رسمها في التقارير الإخبارية الأمريكية. والموقع الوحيد الذي يواجه فيه الفرنسيون مشكلة جدية-وفقط من أجل أن أكون واضحا، إنها مشكلة مهمة جدا-هو في انخفاض التشغيل ومعدلات مشاركة قوة العمل للعاملين المتقدمين في العمر. ويعكس هذا بعضأخطاء السياسة الكبرى، وخاصة القرار الذي اتخذ منذ نحو ربع قرن مضى بتخفيض سن التقاعد الذي يستحق فيه العاملون الحصول على مزايا المعاش الكاملة إلى سن الستين. وكل من هاتين المشكلتين المشار إليهما (انخفاض التشغيل وانخفاض معدلات مشاركة قوة العمل للعاملين المتقدمين في العمر) تشجع على التقاعد المبكر، وتفرض أعباء كبيرة على دافعي الضرائب.

ولذا فالفرنسيون يرتكبون أخطاء. ولكنالقول بأن "فرنسا قد أساءت إدارة سياستها المتعلقة بالمعاشات" يختلف تماما عن قولناإن "الاقتصاد الفرنسي قد شُلَّ بواسطة دولة رفاه ضخمة". فمن المضلل للغاية استخدام المثال الفرنسي كحجة ضد عمل المزيد من أجل مساعدة الفقراء وغير المحظوظين.

(1) Data from OECD Education at a Glance, http://www.oecd.org/dataoecd/46/22/37368734.xls.

حساب المساواة

افترض أننا اتفقنا على أنالولايات المتحدة ينبغي أن تصبحأكثر فأكثر مثل بقية البلدان الصناعيةالتي تعمل نظم الضرائب والرفاه لديها على خفض عدم المساواة أكثر بكثير مما تعمل نظمنا. والسؤال التالي هو ما الذي قد يترتب على هذا القرار؟

جزئيا سوف يترتب عليه إلغاء العديد من التخفيضات الضريبية للأثرياء التي مررتها حركة المحافظين منذ عام 1980. ويظهر جدول 11 ما الذي حدث لثلاثة معدلات ضريبية أثرت بشدة على الـ1% في القمة من سكان الولايات المتحدة، بينما تركت أثرا ضئيلا على كل شخص آخر. بين عامي 1979 و2006 تم خفض معدل الضريبة الأقصى على الدخل المكتسب بمقدار النصف، كما تم خفض الضريبة على الكسب الرأسمالي بنفس القدر تقريبا،وانخفض معدل الضريبة على أرباح الشركات بأكثر من الربع. وباتت تفرض ضرائب على الدخول العليا في الولايات المتحدة أقل بكثير مما كان معتادا. وهكذا فإن رفع الضرائب على الأغنياء مجددا نحو مستوياتها التاريخية يمكنه أن يدفع جزئيا من أجل شبكة أمان اجتماعي تعمل على الحد من عدم المساواة.

جدول 11. أعلى ثلاثة معدلات ضريبية (نسب مئوية)

	الحد الأعلى للضريبة على الدخل المكتسب	الحد الأعلى للضريبة على المكاسب الرأسمالية طويلة الأمد	الحد الأعلى للضريبة علي أرباح الشركات
1979	70	28	48
2006	35	15	35

Source: Urban-Brookings Tax Policy Center, http://taxpolicycenter.org/taxfacts/tfdb/tftemplate.cfm.

الخطوة الأولى تجاه استعادة التصاعد في النظام الضريبي هي ترك تخفيضات بوشالضريبية على الميسورين جدا تنتهي عند أجلها المحدد في نهاية عام 2010، كما هو مجدول لها حاليا. وهذا وحده سوف يجمع كمية كبيرة من العائدات. وقد قدر مركز بروكنجز الحضري غير الحزبي للسياسة الضريبية أن ترك تخفيضات بوش الضريبية تنتهي للأشخاص أصحاب الدخول التي تفوق 200 ألف دولار،

سوف يساوي نحو 140 مليار دولار سنويا بدءا من عام 2012. وهو ما يكفي لكي يتم الدفع للدعم المطلوب من أجل تطبيق الرعاية الصحية الشاملة. والتراجع عن التخفيضات الضريبية من هذا النوع سوف يخفض إلى حد كبير من عدم المساواة. وسوف يفعل ذلك جزئيا بخفض الدخول عند القمة بقدر معتدل: يقدر مركز السياسة الضريبية أن السماح بانتهاء أجل التخفيضات الضريبية للأمريكيين الذين يجنون أكثر من 200 ألف دولار سنويا سوف يقلل دخول أغنى 1% من الأمريكيين بعد الضريبة بنحو 4.5% مقارنة بما سوف تكون عليه لو تم تحويل تخفيضات بوش الضريبية إلى تخفيضات دائمة. وفي نفس الأثناء سوف يتم ضمان الرعاية الصحية للأمريكيين الأقل دخلا وأصحاب الدخول المتوسطة، وهو واحد من المظاهر الأساسية لكون المرء ينتمي حقيقة إلى الطبقة الوسطى.(1)

والخطوة الأخرى السهلة نسبيا من وجهة نظر سياسية سوف تكون إغلاق بعض الثغرات الواضحة في نظام الولايات المتحدة. وتشمل هذه القاعدة التي تم وصفها آنفا والتي تسمح للمساومين الماليين، مثل مديري صناديق التحوط، بتصنيف دخولهم باعتبارها كسبا رأسماليا،وتتم محاسبتها ضريبيا بمعدل 15% بدلا من 35%. والثغرات الضريبية الرئيسية تتضمنأيضا قواعد تترك الشركات، وبوجه خاصشركات الدواء، تحول أرباحها المسجلة إلى منطقة منخفضة الضرائب فيالخارج، بما يكلف البلاد مليارات أخرى؛ فقد قدرت دراسة حديثة أن التهرب الضريبي الذي تمارسه الشركات متعددة الجنسيات يكلف نحو 50 مليار دولار سنويا.(2)

والمضي إلى أبعد من التراجع عن تخفيضات بوش الضريبية وغلق الثغرات الواضحة سوف يكون التزاما سياسيا أكثر صعوبة. مع ذلك ربما تكون هناك تحولات سريعة فيما يبدو واقعية سياسيا. في نهاية عام 2004 بدا أنه من المحتمل جدا خصخصة الضمان الاجتماعي، محور الصفقة الجديدة، وإنهاؤه

(1) Tax Policy Center, "Options to Extend the 2001-2006 Tax Cuts, Static Impact on Individual Income and Estate Tax Liability and Revenue ($ billions), 2008-17," Table-0126, http://taxpolicycenter.org/TaxModel/tmdb/Content/PDF/T07-0126.pdf.

(2) Kimberly A. Calusing, "Multinational Firm Tax Avoidance and U.S. Government Revenue" (Working paper, Wellesley College, Wellesley, MA, 2007).

تدريجيا. اليوم يبدو الضمان الاجتماعي آمنا، وتبدو الرعاية الصحية الشاملة في متناول اليد. فيما لو أمكن تحقيق الرعاية الصحية الشاملة، وتمت إعادة تنشيط فكرة الصفقة الجديدة بأن الحكومة يمكن أن تكون قوة من أجل الخير، فربما حينها لن تبدو الأشياء التي تظهر الآن على أنها غير ممكنة بعيدة إلى هذا الحد.

وتبين كل الدلائل التاريخية والدولية أن هناك مجالا لأن تذهب الزيادات الضريبية على دخول الأشخاص في القمة إلى مدى أبعد من مجرد التراجع عن تخفيضات بوش الضريبية. فحتى قبل تخفيضات بوش الضريبية، كانت معدلات الضريبة على الدخول في القمة في الولايات المتحدة تعد منخفضة بالمعايير التاريخية: كان معدل الضريبة على فئة الدخل في القمة نحو 39.6% خلال سنوات كلينتون، مقارنة بـ70% في السبعينات و50% حتى بعد تخفيضات ريجان الضريبية في عام 1981. وأيضا تعد معدلات الحد الأقصى للضريبة في الولايات المتحدة منخفضة مقارنة بتلك المعدلات الموجودة في البلدان الأوروبية. على سبيل المثال، في بريطانيا، معدل الضريبة على الدخل الأعلى يبلغ 40%، فيما يبدو مساويا للحد الأقصى للضريبة في سنوات كلينتون. وعلى كل حال، في بريطانيا يدفع أصحاب الأعمال أيضا ضريبة تأمين اجتماعي، وهو ما يعادل نصيب المشتغل في قانون المساهمات فيالتأمين الفيدرالي،[1] تطبق على كل الدخل المكتسب-ما يعادل مساهمة صاحب العمل في قانون المساهمات في التأمين الفيدرالي FICA هنا في الولايات المتحدة-وهو يطبق على كل الدخول المكتسبة. (بينمامعظم المعادل في الولايات المتحدة يفرض فقط على الدخول التي تصل في الحد الأقصى إلى 97500 دولار). ونتيجة لهذا يواجه المشتغلون البريطانيون الذين يتلقون رواتب مرتفعة جدا معدل ضريبة فعليا يبلغ تقريبا نحو 48%. وفي فرنسا تبلغ المعدلات الفعلية الأعلى ارتفاعا أكبر حتى من هذا. وأيضا، في بريطانيا يتم حساب الضريبة على المكاسب الرأسمالية على اعتبارها دخولا عادية، ولهذا معدل الضريبة الفعلي على المكاسب الرأسمالية

---

(1) ضريبة قانون مساهمات التأمين الفيدرالي تفرض على رواتب العاملين لكي يتم دفع معاشات الضمان الاجتماعي للمسنين الأمريكيين، وتغطية نفقات برنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير". والضريبة تعد خصما إلزاميا من كشوف الرواتب. (المترجم)، انظر:

Extension, What is the FICA tax that is taken out of my paycheck? http://articles.extension.org/pages/42696/what-is-the-fica-tax-that-is-taken-out-of-my-paycheck

للأفراد أصحاب الدخل المرتفع تبلغ 40%، مقارنة بـ15% في الولايات المتحدة.[1] وإذا ما تمت معاملة المكاسب الرأسمالية ضريبيا على اعتبارها دخلا عاديا في الولايات المتحدة فسوف تجني عائدا أكبر بشكل ملحوظ، وتحد أيضا من مدى التجاوزات الضريبية مثل ثغرة صناديق التحوط.

أيضا، منذ الصفقة الجديدة وحتى السبعينات كان يعدر أمرا عاديا ومناسبا أن تكون هناك معدلات ضريبة "سوبر" على الأفراد أصحاب الدخول المرتفعة جدا. فقد كان عدد قليل من الأشخاص فقط عرضة لمعدل 70% كمعدل ضريبي على الفئة الأعلى دخلا، ودعك من الـ90% وأكثر التي مثلت المعدلات الضريبية القصوى خلال سنوات حكم أيزنهاور. وبينما كانت من المعتاد المجادلة بأن فرض ضريبة إضافية على الدخول العالية جدا لن تخدم أي غرض حقيقي سوى معاقبة الأغنياء، بسبب أنها لن تجمع كمية كبيرة من الأموال، فإن هذا لم يَعد صحيحا. فالأمريكان الذين يمثلون نسبة 0.1% في القمةاليوم، وهي طبقة بحد أدنى من الدخل يبلغ نحو 1.3 مليون دولار وبدخل متوسط يبلغ نحو 3.5 مليون دولار، وتتلقى أكثر من 7% من الدخل الإجمالي، صعودا من مجرد 2.2% في عام 1979.[2] ومن شأن ضريبة إضافية على هذا الدخل أن تجمع كمية معتبرة من الحصيلة التي قد يمكن استخدامها في مساعدة الكثير من الناس. وإجمالا، إذن، فالخطوة التالية هي التراجع عن تخفيضات بوش الضريبية وتطبيق رعاية صحية شاملة، ثم ينبغي بذل جهد أوسع لاستعادة تصاعدية الضريبة في الولايات المتحدة، واستخدام الحصيلة في الدفع مقابل مزايا أكثر لمساعدة العائلات أصحاب الدخول المتوسطة والمنخفضة.

وبواقعية، على أية حال، فلن يكون هذا كافيا لدفع النفقات الاجتماعية مقارنة بما لدى البلدان المتقدمة الأخرى، ولا حتى المستوى الكندي المتواضع نسبيا. إضافة إلى فرض ضرائب أكثر ارتفاعا على الأغنياء، تفرض الدول المتقدمة الأخرى ضرائب مرتفعة أكثر على الطبقة الوسطى، من خلال مدفوعات أعلى للتأمين الاجتماعي وضرائب القيمة المضافة، وواقعيا ضريبة مبيعات وطنية.

(1) OECD Tax Database, http://www.oecd.org/ctp/taxdatabase.

(2) Piketty and Saez, 2005 preliminary estimates, http://elsa.berkeley.edu/~saez/TabFig-2005prel.xls.

وضرائب التأمين الاجتماعي والقيمة المضافة ليست، في حد ذاتها، تصاعدية. فأثرها في خفض عدم المساواة غير مباشر ولكن كبير. وتدفع هذه الضرائب للمزايا، وهذه المزايا تساوي أكثر كنسبة من الدخل للأشخاص أصحاب الدخول الأقل.

وكأمر سياسي، تعد عملية إقناع الجمهور بأن عائلات الطبقة الوسطى ستصبح أفضل حالا بدفع ضرائب أعلى إلى حد ما مقابل شبكة أمان اجتماعي أقوى، ستكون بيعة صعبة بعد عقود من الدعاية ضد الضرائب، وضد الحكومة. والكثير مما أود رؤيته هو توجيه الولايات المتحدة لنحو 2% أو 3% من الناتج المحلي الإجمالي للإنفاق الاجتماعي الأبعد من الرعاية الصحية، وربما يكون هذا مسعى عليه الانتظار حتى يؤسس الليبراليون سجلا قويا من الاستخدام الناجح للحكومة لجعل حياة الناس أفضل وأكثر أمنا. وواحد من أسباب إصلاح الرعاية الصحيةالذي يعد مهما إلى أبعد الحدود في ذاته، أنه سوف تكون له مزايا إضافية: سيشق الدرب نحو أجندة تقدمية أعرض. وهذا هو أيضا السبب الذي يجعل حركة المحافظين مصممة بضراوة على عدم ترك إصلاح الرعاية الصحية ينجح.

خفض عدم المساواة السوقية

تستطيع سياسات ما بعد السوق عمل الكثير من أجل خفض عدم المساواة. ولكنهذا ينبغي ألا يكون محط تركيزنا الكامل. الانضغاط الكبير تضمن أيضا خفضا حادا في عدم المساواة في الدخل السوقي. وقد تم تحقيق هذا جزئيا من خلال التحكم في الأجور في أثناء الحرب العالمية الثانية، وهي تجربة نأمل ألا تتكرر. مع ذلك، هناك خطوات عدة يمكن أخذها.

الخطوة الأولى قد تم اتخاذها بالفعل، فقد مرر الكونجرس في عام 2007 الزيادة الأولى في الحدالأدنى للأجر خلال عقد. في الخمسينات والستينات كان الحد الأدنى للأجر يبلغ في المتوسط نحو نصف الأجر المتوسط. وبحلول عام 2006، على أية حال، كانت القوة الشرائية للحد الأدنى للأجر قد تآكلت بفعل التضخم، لدرجة أنها كانت عند أدنى نقطة لها منذ عام 1955، وكانت تبلغ فقط نحو 31% من الأجر المتوسط. وبفضل الأغلبية الديمقراطية الجديدة في الكونجرس، تمت جدولة الحد الأدنى بحيث يرتفع من مستواه الحالي البالغ 5.15 دولار للساعة إلى

7.25 بحلول عام 2009. ولن يؤدي هذا الرفع إلى استعادة كل التآكل الذي حدث، ولكنها خطوة أولى مهمة.

وهناك دائما اعتراضان شائعان، وإن كانا متناقضين، غالبا ما نسمعهما حول زيادة الحد الأدنى للأجر. فمن جهة، تتم المجادلة بأن رفع الحد الأدنى سوف يؤدي إلى خفض التشغيل ويزيد من البطالة. ومن جهة أخرى تتم المجادلة بأن رفع الحد الأدنى سوف يؤدي إلى أثر ضئيل أو لن يؤثر على الإطلاق على زيادة الأجور. والدلائل، على أية حال، تشير إلى أن زيادة الحد الأدنى سوف يكون لها في الواقع أثر إيجابي معتدل.

فيما يتعلق بجانب التشغيل، بينت الدراسة الكلاسيكية لدايفيد كارد من جامعة بركلي وآلان كروجر من جامعة برنستون، وهما اثنان من أفضل اقتصاديي العمل في الولايات المتحدة، أنه ليست هناك دلائل على أن زيادات الحد الأدنى للأجر في المدى الذي شهدته الولايات المتحدة قد أدت إلى خسارة في فرص العمل.(1) وقد تمت مهاجمة دراستهما بعنف لسببين، الأول أنها تبدو متعارضة مع المناهج التعليمية الأولية في علم الاقتصاد "Econ 101" وثانيا بسبب أنها كانت مربكة ومقلقة أيديولوجيا للكثيرين. ومعهذا فقد صمدت الدراسة بشكل جيد جدا أمام التحديات المتكررة، وهناك دراسات لحالات جديدة تؤكد على نتائجها مستمرة في الظهور. فعلى سبيل المثال كان الحد الأدنى للأجر في الساعة في ولاية واشنطن يزيد بمقدار ثلاثة دولارات تقريبا عن الحد الأدنى للأجر في ولاية إيداهوالمجاورة لها، وخبرة الأعمال بالقرب من حدود الولايتين تميل إلى توضيح أنه لو كان قد حدث أي شيء على الإطلاق، فهو أن واشنطن قد كسبت فرص عمل على حساب إيداهو. وكما ذكرت نيويورك تايمز فإن "أصحاب الأعمال الصغيرة في واشنطن، يقولون إنهم ازدهروا لما يتجاوز توقعاتهم بكثير... وكان مراهقو إيداهو يعبرون خط حدود الولاية للعمل في مطاعم الأكل السريع في واشنطن".

وتشير جميع الدلائل التجريبية إلى أن زياداتالحد الأدنى للأجر في المدى الذي من المحتمل أن يتحقق لن تؤدي إلى أي خسائر ملموسة في فرص العمل. حقيقة،

(1) David Card and Alan B. Krueger, "Minimum Wages and Employment: A Case Study of the Fast-Food Industry in New Jersey and Pennsylvania," American Economic Review 84, no. 4 (1994), pp. 772-93.

فزيـادة الحـد الأدنى للأجـر، فلنقـل، إلى 15 دولار فيالسـاعة ربمـا مـن المحتمـل أن تـؤدي إلى خسـارة في فـرص العمـل، لأنهـا سـوف تُزيـد بشـكل دراماتيـكي مـن تكلفـة العمـل في بعـض الصناعـات. ولكـن هـذا ليـس مـا هـو مطـروح علىالطاولـة أو حتـى بقربهـا.

وفي غضـون ذلـك، يمكـن أن تكـون لزيـادات الحـد الأدنى للأجـر آثـار كبـيرة عـلى الأجـور في نهايـة الجـزء السـفلي مـن سـلم الأجـور. ويقـدر معهـد السياسـة الاقتصاديـة أن الـ10% مـن قـوة العمـل في الولايـات المتحـدة الذيـن يحصلـون عـلى أسـوأ الأجـور، 13 مليـون عامـل، سـوف يكسـبون بمجـرد سـن تشريـع زيـادة الحـد الأدنى للأجـر. ومـن بـين هـؤلاء، هنـاك حاليـا 5.6 مليـون يتلقـون أقـل مـن الحـد الأدنى الجديـد للأجر، سـوف يحققـون منفعـة مباشرة. والباقـون عـمال يتلقـون أكـثر مـن الحـد الأدنى الجديـد للأجـر، ولكنهـم سـوف يسـتفيدون مـن التداعيـات المترتبـة عـلى دفـع الحـد الأدنى لأعـلى مـما هـو عليـه.

والحـد الأدنى للأجـر، عـلى أيـة حـال، يهـم أساسـا العـمال الأقـل أجـرا. بينـما أي جهـد أوسـع لخفـض عـدم المسـاواة السـوقية سـوف يقتـضي عمـل شيء بشـأن الدخـول عنـد درجـات أعـلى مـن السـلم. وأكـثر الأدوات أهميـة في هـذا الصـدد مـن المحتمـل أن تكـون وضـع نهايـة لثلاثـين عامـا مـن ميـل سياسـة الحكومـة ضـد النقابـات.

جادلـت في الفصـل الثامـن بـأن التدهـور الشـديد في الحركـة النقابيـة في الولايـات المتحـدة لم يكـن، كـما تـم الادعـاء عـادة، نتيجـة حتميـة للعولمـة والمنافسـة المتزايـدة. فالمقارنـات الدوليـة تُظهـر أن تدهـور النقابـات في الولايـات المتحـدة هـو أمـر فريـد، عـلى الرغـم مـن أن الـدول الأخـرى واجهـت نفـس ضغـوط العولمـة. ومـرة أخـرى، في عـام 1960 كانـت لـدى كنـدا والولايـات المتحـدة في الأسـاس نفـس المعـدلات للتنظيـم النقـابي، 30% و32% مـن العاملـين بالأجـور والرواتـب عـلى التـوالي. وبحلـول عـام 1999 هبـط معـدل التنظيـم النقـابي في الولايـات المتحـدة إلى 13%، ولكـن معـدل التنظيـم النقـابي في كنـدا لم يتغـير. وكـما ناقشـت في الفصـل الثامـن، لا يقـع تدهـور النقابـات في أمريـكا عـلى قـوى السـوق، ولكـن عـلى المنـاخ السـياسي الـذي خلقتـه الحركـة المحافظيةالتـي سـمحت لأصحـاب الأعـمال بالانخـراط في نشـاطات تُفشـل النقابـات، ومعاقبـة العـمال لدعمهـم للتنظيـمات النقابيـة. ومـن دون هـذا التغـير في المنـاخ السـياسي، ربمـا كان معظـم اقتصـاد الخدمات-خاصـة عمـلاق بيعالتجزئـة وول مـارت- منظـما نقابيـا اليـوم.

وقد يستطيع مناخ سياسي جديد بعث الحياة في الحركة النقابية، وبعث الحياة في النقابات لا بد من أن يكون هدفا تقدميا رئيسيا. فتشريع محدد، مثل قانون حرية اختيار المشتغلالذي سوف يخفض من قدرة أصحاب الأعمال على إخافة العمال لكي يرفضوا النقابة، هو فقط جزء مما نحتاج إليه. وهو أيضا حاسم في تطبيق قوانين العمل الموجود بالفعل في الكتب. فكثير من، إن لم يكن معظم، النشاط ضد النقابات الذي أدى إلى تدهور حاد في التنظيم النقابي الأمريكي كان غير مشروع حتى في ظل القانون القائم. ولكن أصحاب الأعمال قدّروا، على نحو صائب، أنهم يمكنهم أن يفعلوا ذلك، وأن يفلتوا من العقوبة.

والسؤال الصعب في الإجابة عليه هو المدى الذي يمكن أن تقوم فيه حركة نقابية جديدة يتم تمكينها في الولايات المتحدة بخفض عدم المساواة. تشير المقارنات الدولية إلى أنها يمكن أن تشكل فارقا كبيرا جدا. فالزيادات الحادة في عدم المساواة في الأجور في الغرب حدثت في الولايات المتحدة وبريطانيا، وكلتاهما شهدت تدهورا حادا في عضوية النقابات. (ما زالت بريطانيا منظمة نقابيا أكثر بكثير من أمريكا، ولكنها اعتادت أن يكون لديها أكثر من 50% كمعدل للتنظيم النقابي). وعلى الرغم من أن اقتصاد كندا وثيق الصلة باقتصاد الولايات المتحدة، يبدو أن لديها تزايدا أقل بكثير في عدم مساواة الأجور، ومن المحتمل أن تكون مقاومة حركة نقابية قوية سببا رئيسيا وراء تفسير لماذا حدث ذلك. ترفع النقابات أجور أعضائها، الذين يميلون إلى أن يكونوا في منتصف توزيع الأجور؛ كما تميل أيضا إلى تسوية الأجور بين أعضائها. وربما كان الأكثر أهمية، أن النقابات تعمل كقوة موازية للإدارة، تفرض معايير اجتماعية تحد من الارتفاع الشديد والانخفاض الشديد بين الناس الذين ليسوا حتى أعضاء نقابيين. كما أن النقابات تُعبئ أيضا أعضاءها من أجل التصويت للسياسات التقدمية. هل مع إعادة الولايات المتحدة للمستويات التاريخية في التنظيم النقابي سيتراجع جزء كبير من التباين العظيم؟ نحن لا نعرف، ولكنه قد يفعل. وتشجيع انبعاث النقابات يجب أن يكون هدفا رئيسيا للسياسة التقدمية.

تنشيط الحركة النقابية ليس هو التغيير الوحيد الذي يمكنهخفض عدم المساواة المتطرفة في الأجور. فكما ذكرت في الفصل الثامن، هناك عدد من العوامل الأخرى أحبطت الرواتب شديدة الارتفاع لمدة جيل كامل بعد الحرب العالمية

الثانيـة. أحدهـا كان التغـير في المنـاخ السـياسي، فالرواتـب المرتفعـة جـدا للمسـؤولين التنفيذيـين كانـت تسـتثير تدقيـق الجمهـور، وجلسـات اسـتماع الكونجـرس، وحتـى التدخـل الرئـاسي. ولكـن كل هـذا انتهـى في سـنوات رئاسـة ريجـان.

لا تـزال الخـبرة التاريخيـة تشـير إلى أن أغلبيـة تقدميـة جديـدة ينبغـي عليهـا ألا تكـون خجـلى مـن مسـاءلة رواتـب القطـاع الخـاص حينـما تبـدو فاحشـة. والإقنـاع الأخلاقـي كان فعـالا في المـاضي، ويمكنـه أن يكـون كذلـك مـرة أخـرى.

انضغاط عظيم آخر

الانضغـاط العظيـم، الخفـض المفاجـئ في عـدم المسـاواة الاقتصاديـة الـذي حـدث في الولايـات المتحـدة خـلال الثلاثينـات والأربعينـات، حـدث في وقـت أزمـة. واليـوم الدولـة الأمريكيـة مضطربـة، ولكننـا لسـنا في وسـط كسـاد عظيـم أو حـرب عالميـة. في المقابـل، ينبغـي علينـا ألا نتوقـع تغيـيرات متطرفـة أو فجائيـة مثـل تلـك التـي حدثـت منـذ سـبعين سـنة مضـت. فعمليـة خفـض عـدم المسـاواة الآن مـن المحتمـل أن تـأتي أكـثر في هيئـة الاعتـدال العظيـم وليـس الانضغـاط العظيـم.

مـع ذلـك، سـواء نظرنـا إلى الموضـوع كأمـر اقتصـادي أو نظرنـا إليـه في حـدود السياسـية العمليـة، فمـن المحتمـل خفـض عـدم المسـاواة وجعـل أمريـكا أمـة طبقـة وسـطى مجـددا. والآن هـو الوقـت الـذي علينـا فيـه البـدء في ذلـك.

الفصل الثالث عشر
ضمير شخص ليبرالي

واحدة من مفارقات أمريكا على ما يبدو في بداية القرن الحادي والعشرين هي أن هؤلاء الذين من بيننا يدعون أنفسهم ليبراليون هم، بمعنى مهم جدا، محافظون، بينما هؤلاء الذين يدعون أنفسهم محافظين هم على الأغلب في العمق راديكاليون. يريد الليبراليون استعادة مجتمع الطبقة الوسطى الذي ترعرعت فيه؛ وهؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم محافظين يريدون أخذنا إلى الوراء للعصر المُذهَّب، وإلغاء قرن من التاريخ. يدافع الليبراليون عن المؤسسات العريقة مثل الضمان الاجتماعي وبرنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير"؛ بينما هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم محافظين يريدون خصخصة أو إضعاف تلك المؤسسات. يريد الليبراليون احترام مبادئنا الديمقراطية وحكم القانون؛ بينما هؤلاء الذين يدعون أنفسهم محافظين يريدون أن تكون لدى الرئيس قوى ديكتاتورية، وقد صفقوا لإدارة بوش حينما كانت تسجن الناس دون تهم وتعرضهم للتعذيب.

ومفتاح فهم هذه المفارقة هو التاريخ الذي وصفته في هذا الكتاب. فمبكرا في عام -1952وهو ما اتضح أنه سابق لأوانه بعض الشيء-أعلن أدلاي ستيفنسون أن:

الخيمياء الغريبة للزمن حولت الديمقراطيين بشكل ما إلى الحزب المحافظ الحقيقي في البلاد، الحزب المتفاني في الحفاظ على كل ما هو أفضل ويبني بصلابة وأمان على هذه الأسس. أما الجمهوريون، فعلى النقيض من ذلك يسلكون مثل الحزب الراديكالي، حزب المجازفين المندفعين والساخطين على الدنيا، العازمين على تفكيك المؤسسات التي كان قد تم بناؤها بثبات في نسيجنا الاجتماعي.(1)

وكان ما يعنيه أن الديمقراطيين قد أصبحوا المدافعين عن الضمان الاجتماعي، وتأمين البطالة، وحركة نقابية قوية -مؤسسات الصفقة الجديدة التي خلقت وحافظت على مجتمع طبقة وسطى-بينما كان الجمهوريون يحاولون تقويض هذه المؤسسات.

وصف ستيفنسون للجمهوريين كان قبل بضع سنوات. في السنوات التي تلت حديثه سيطر جمهوريو أيزنهاور "الحديثون" على حزبهم بعيدا عن الحرس القديم الذي كان لا يزال يحارب الصفقة الجديدة، وعلى مدى العقدين التاليين كان الحزب الجمهوري يقاد في الغالب بواسطة رجال قبلوا بإنجازات الصفقة الجديدة. ومع صعود الحركة المحافظية، على أية حال، تم استئناف الهجوم على هذه الإنجازات. واستؤنفت الصراعات الكبرى حول السياسة المحلية خلال الخمسة عشر عاما الماضية -محاولة نيوت جينجريتش خنق برنامج الرعاية الصحية للمسنين "ميديكير"، ومحاولة جورج دبليو بوش خصخصة الضمان الاجتماعي- كان مما وصفه ستيفنسون بالضبط: حزب المجازفين المندفعين والساخطين على الدنيا يحاول تفكيك المؤسسات التي كانت مكونات أساسية في النسيج الاجتماعي لأمريكا الحديثة.

وكان الصراع يدور حول الحفاظ على ديمقراطيتنا إلى جانب نسيجنا الاجتماعي. وقد حققت الصفقة الجديدة أكثر من مجرد خلق مجتمع طبقة وسطى. فقد جذبت أمريكا لتصبح أقرب إلى مُثُلها الديمقراطية، بمنح العمال الأمريكيين قوة

---

(1) Quoted in Viereck, "The New Conservatism."

سياسية حقيقية وإنهاء الوضع المهيمن للنخبة الثرية. حقيقة، اعتمدت الصفقة الجديدة على تحالف مصلحي مع أنصار التفرقة العنصرية الجنوبيين، ولكن في النهاية، وبشكل لا فكاك منه، حولت أخلاقيات الصفقة الجديدة الديمقراطيين إلى حزب الحقوق المدنية والحقوق السياسية. وقد أدى قانون الضمان الاجتماعي لعام 1935، بحكم التطور الطبيعي، إلى قانون الحق في التصويت بعد ثلاثين سنة أخرى. والليبرالية، بمعنى آخر، ليست فقط حول دولة الرفاه: هي أيضا حول الديمقراطية وسيادة القانون. وهؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم محافظين هم في الجانب الآخر، لديهم إستراتيجية سياسية ترتكز في جوهرها على استغلال عدم رغبة بعض الأمريكيين في منح حقوق متساوية لمواطنيهم: هؤلاء الذين لا يشاركونهم في لون الجلد، أو الذين لا يشاركونهم عقيدتهم، أو الذين لا يشاركونهم تفضيلاتهم الجنسية.

وكما وثقت في هذا الكتاب، كانت الحركة المحافظية مضادة للديمقراطية، ومنجذبة للسلطوية، منذ البداية، حينما مدحت المجلة الوطنية فرانشيسكو فرانكو ودافعت عن حق البيض الجنوبيين في حرمان السود من التصويت. وهذا الموقف، المضاد للديمقراطية، السلطوي، لم يذهب بعيدا أبدا. حينما يشتبك الليبراليون والمحافظون حول حقوق التصويت في أمريكا اليوم، يحاول الليبراليون دوما تمكين المواطنين من حقهم في التصويت، بينما يحاول المحافظون دائما منع بعض المواطنين من التصويت. وحينما يشتبكون حول صلاحيات الحكومة، يكون الليبراليون دوما المدافعين عن الإجراءات القانونية، بينما يصر المحافظون على أن هؤلاء الممسكين بالسلطة لديهم الحق أن يفعلوا ما يحلو لهم. حاولت إدارة بوش بعد 11/9 أن تنمي بعمق مناخا سياسيا غير أمريكي كان يعتبر فيه أي انتقاد للرئيس عملا غير وطني، ومع استثناءات محدودة، فقد هلل لذلك المحافظون الأمريكيون.

أنا أؤمن بمجتمع مساواة نسبية، مدعوم بمؤسسات تحد من التطرف في الثروة وفي الفقر. أنا أؤمن بالديمقراطية، والحريات المدنية، وحكم القانون. وهذا يجعل مني ليبراليا، وأنا فخور بذلك.

الليبرالية والحركة التقدمية

العديد من الناس المنخرطين بعمق في السياسة الفعلية يتشاركون في نفس المعتقد الذي ذكرته للتو، ومع ذلك فهم يفضلون أكثر أن يصفوا أنفسهم على أنهم تقدميين، عوضا عن ليبراليين. وإلى حد ما يأتي هذا كرد فعل على حملة دعائية استمرت لعدة عقود أدارتها حركة المحافظين، ونجحت إلى حد بعيد في جعل الأمريكيين يزدرون كلمة "ليبرالي" ولكنها كانت أقل نجاحا بكثير في خفض التأييد للسياسات الليبرالية. تظهر الاستطلاعات بشكل عام أن عددا قليلا نسبيا من الأمريكيين، عادة أقل من 30%، يعرفون أنفسهم على أنهم ليبراليون. على الجانب الآخر، تحبذ أغلبية كبيرة من الأمريكيين المواقف السياسية التي نطلق عليها عادة ليبرالية، مثل ضمان التأمين الصحي لكل أمريكي.

مع ذلك "تقدمي" ليست ببساطة كلمة جديدة لما اعتدنا أن تعنيه "ليبرالي". والاختلاف الحقيقي بين المصطلحين، على الأقل كما أستخدمهما أنا وآخرون عديدون، هو بين الفلسفة والعمل. فالليبراليون هم هؤلاء الذين يعتقدون في المؤسسات التي تحد من عدم المساواة والظلم. والتقدميون هم هؤلاء الذين يشاركون، ضمنا أو صراحة، في تحالف سياسي يدافع عن هذه المؤسساتويحاول توسيعها. أنت ليبرالي، سواء عرفت ذلك أو لم تعرف، إذا كنت تعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن تكون لديها رعاية صحية شاملة. وأنت تقدمي إذا أنت شاركت في الجهد المبذول كي تَظهر الرعاية الصحية الشاملة في حيز الوجود.

وواحد من التغييرات الهامة في المشهد السياسي في الولايات المتحدة خلال سنوات حكم بوش هو تحالف الحركة التقدمية التي تُشابه في بعضالمجالات -فقط- الحركة المحافظية. فمثل الحركة المحافظية، تعد الحركة التقدمية تجمعا لمؤسسات تتصادق، وليست تتماثل، معحزب سياسي كبير: فالعديد من الديمقراطيين تقدميون، ومعظم التقدميين يؤيدون الديمقراطيين، ولكن الحركة تمتد إلى أبعد كثيرا من الحزب. فهي تتضمن أجزاء من تحالف الصفقة الجديدة القديم، وخاصة العمل المنظم، وتشكيلة من مراكز الدراسات، وهويات مستحدثة مثل "ناشطي الإنترنت" [1]"netroots" المجتمع الافتراضي الذي يترابط عبر المدونين

(1) ناشطون سياسيون يتواصلون برسائلهم عبر الإنترنت، وخاصة عبر المدونات. (المترجم)، انظر:
https://translate.google.com/#en/ar/campaigners

والمواقع التقدمية على الشبكة، مثل "دايلي كوس" الذي يجذب الآن تدوينات دورية من قادة سياسيين ديمقراطيين. وعلى صعيد آخر، على أية حال، هناك اختلافات حادة بين الحركة التقدمية والحركة المحافظية. ففي الحركة التقدمية درجة أقل بكثير من المركزية، فعلى الرغم من أن أعضاء الجناح اليميني يرون اليد الخفية لجورج سورس[1] وراء كل شيء، فالواقع هو أنه ليس هناك ما يمكن مقارنته على اليسار بالتمويل المنسق للحركة المحافظية. في المقابل، ليس هناك مثيل للتوحد الكبير في وجهات النظر الذي يفرضه الممولون، والقسم الضمني بيمين الولاء الذي يقسم به في حركة المحافظين.

ما يعمل على تحويل المؤسسات التقدمية إلى حركة ليس المال، ولكن النظرة للذات. فالعديد من الأمريكيين ذوي المعتقدات الليبرالية بشكل أو بآخر يعتبرون الآن أنفسهم أعضاء في حركة مشتركة، وبأهداف مشتركة تتمثل في الحد من عدم المساواة والدفاع عن المبادئ الديمقراطية. وتحتفظ الحركة بأعظم احتقار لديها للديمقراطيين الذين لا يتخذون موقفا ضد اليمين، والذين يرضخون لخصخصة الضمان الاجتماعي أو التصعيد في العراق.

خلال سنوات حكم كلينتون لم تكن هناك حركة تقدمية بهذا المعنى، ودفعت الأمة ثمنا لذلك. فعند النظر للماضي، يبدو واضحا أن بيل كلينتون لم تكن لديه أبدا أجندة واضحة المعالم. ولم يكن يعرف في الأساس ما هو المفروض عليه عمله. وحينما وصل إلى الحكم، كان مستشاروه تستحوذ عليهم فكرة المواجهة

(1) جورج سورس (12 أغسطس -1930)، قطب من أقطاب مجتمع الأعمال، مستثمر، ومؤلف. ينحدر من أصل يهودي ويحمل جنسية مزدوجة (المجر والولايات المتحدة). وهو رئيس صندوق سورس الاستثماري. وهو مشهور بكونه "الرجل الذي حطم بنك إنجلترا المركزي" بسبب مضاربته بمقدار 10 مليارات دولار أمريكي على العملة البريطانية، وتحقيق ربح قدره مليار دولار خلال الأربعاء الأسود لأزمة صرف العملة البريطانية في عام 1992. ويعد سورس واحدا من بين أغنى ثلاثين شخصا في العالم. وهو معروف بتأييده للقضايا التقدمية والليبرالية الأمريكية. وبين عامي 1979 و2015 تبرع سورس بأكثر من 11 مليار دولار لقضايا خيرية متعددة. وقد لعب دورا مهما في التحول السلمي من الشيوعية للرأسمالية في أوروبا الشرقية (1989-1984) وقدم واحدة من أكبر الوقفيات لجامعة أوروبا الوسطى في بودابست بالمجر. وسورسرئيس أيضا لمؤسسات المجتمع المفتوح. (المترجم)، انظر:

George Soros, Wikipedia, the free encyclopedia.

التجارية مع اليابان، وهو شيء لم يكن له أي معنى أبدا، ولم يتم درسه بتمعن أبدا، ولم يكن هناك أي أساس حقيقي وراء ذلك. وهناك العديد من الأسباب وراء فشل خطة هيلاري كلينتون للرعاية الصحية، ولكن نقطة الضعف الرئيسية كانت أنه لم تكن هناك أبدا أي محاولة لإعطائها مضمونا يخص أهداف حركة عريضة: كانت مشروعا شخصيا تم تطويره في عزلة ومن دون تحالف مؤيد. وبعد الانتصار الجمهوري في عام 1994، تم تقليص بيل كلينتون لكي يقوم بمجرد تغييرات هامشية في السياسة. لقد أدار الحكومة بشكل جيد، ولكنه لم يتقدم بأجندة أوسع، كما أنه لم يَبنِ حركة. وهذا قد يحدث ثانية، ولكنه إن حدث فسوف يشعر التقدميون أنهم قد تمت خيانتهم.

الأجندة التقدمية

أن تكون ليبراليا، بمعنى ما، يعني أن تكون محافظا، بمعنى أنك، على نطاق أوسع، تريد لنا أن نعود إلى الماضي إذ كنا مجتمع طبقة وسطى. وأن تكون تقدميا، على أية حال، يعني أن يتضمن ذلك بوضوح أنك تريد الحركة نحو الأمام. ربما يبدو هذا كتناقض، ولكنه ليس كذلك. فالتقدم بالأهداف التقليدية لليبرالية يتطلب سياسات جديدة.

خذ على سبيل المثال حالة إضافة الأدوية الموصوفة في روشته طبية إلى برنامج ميديكير، والتي يمكن القول إنها سياسة محافظة،لأنها تحافظ على المهمة الأصلية للبرنامج. كان برنامج ميديكير يفترض دوما أن يغطي معظم التكاليف الصحية. لم تكن الأدوية مضمَّنة في البرنامج الأصلي، لأنها عند ذلك الوقت لم تكن تشكل نفقات كبيرة. وحينما أصبحت الأدوية المعالجة للأمراض المزمنة تشكل تكلفة ضخمة للعديد من المسنين، كان برنامج ميديكير الأصلي بتركيزه على تغطية نفقة المستشفيات غير منسجم مع مهمته، وأصبحت إضافة الأدوية الموصوفة ضرورة للحفاظ على الغاية الأصلية للبرنامج.

يمكنك قول شيء مماثل، بقوة أقل قليلا، عن الرعاية الصحية الشاملة. فقانون الضمان الاجتماعي لعام 1935 أسس مزايا للتقاعد ونظاما على المستوى الفيدرالي ومستوى الولاية لتأمين البطالة، ولكن غرضة الأعم، كما يقول تاريخ الإدارة الرسمية للضمان الاجتماعي، هو "مواجهة بعض المشكلات الخطيرة لعدم

الأمـان الاقتصـادي التـي تنشـأ في مجتمـع صناعـي".[1] وحمايـة العائـلات في مواجهـة تكاليـف الرعايـة الصحيـة الرهيبـة تتـلاءم بشـكل جيـد للغايـة مـع هـذا الغـرض. وفي الواقـع، كان فرانكلـين ديلانـو روزفلـت قـد وضـع في حسـبانه تضمـين التأمـين الصحـي في القانـون ولكنـه تراجـع لأسـباب سياسـية. وسـوف يكـون تحقيـق الرعايـة الصحيـة الشـاملة، حينئـذ، اسـتكمالاالميراث روزفلـت. عـلاوة عـلى ذلـك، فالرعايـة الصحيـة بالنسـبة للضـمان الاجتماعـي هـي كالأدويـة لبرنامـج ميديكـير. فقـد كانـت ذات مـرة نفقـات قليلـة نسـبيا، ولكـن اليـوم يمكـن القـول إنـه ربمـا كان عـدم الأمـان بسـبب التكاليـف الطبيـة هـو أكـبر خطـر مـالي منفـرد تواجهـه أمريـكا العاملـة. ولـو أخذنـا بعـين الاعتبـار أن هدفنـا هـو تدعيـم مجتمـع طبقـة وسـطى، فضـمان التأمـين الصحـي يعـد أساسيا: ربمـا كان التأمـين الصحـي المرتبـط بالعمـل جيـدا كفايـة لمعظـم الأمريكيـين منـذ 30 عامـا مضـت، ولكنـه غـير كاف بالمـرة اليـوم. المجتمـع الـذي نجـد أن 40% مـن سـكانه إمـا ليـس لديهـم تأمـين وإمـا لديهـم تأمـين غـير كاف، مـا يدفعهـم لتأجيـل الرعايـة الطبيـة بسـبب تكلفتهـا، لا يعـد مجتمـع طبقـة وسـطى.

والأجنـدة التقدميـة، إذن، سـوف تتطلـب تغـيرات رئيسـية في السياسـة العامـة، ولكنهـا سـتكون أي شيء سـوى أن تكـون راديكاليـة. وهدفهـا سـوف يكـون اسـتكمال عملالصفقـة الجديـدة، بمـا في ذلـك توسـيع الضـمان الاجتماعـي ليغطـي المخاطـر التـي يمكـن تجنبهـا والتـي أصبحـت أكـثر أهميـة بكثـير في العقـود الأخـيرة. وكمسـألة اقتصاديـة، فتحقيـق تلـك الأجنـدة سـوف يكـون قابـلا للتنفيـذ جـدا. وسـوف يرقـى ذلـك إلى مسـتوى منـح كل مواطنـي الولايـات المتحـدة ليـس أقـل مـن مسـتوى الحماية مـن المخاطـر الماليـة وسـوء الحـظ الشـخصي الـذي يتمتـع بـه مواطنـو الـدول المتقدمـة الأخـرى بالفعـل.

في الواقـع، إن القيـام بمجـرد مسح للمشـهد السـياسي الحـالي سـيصدم المـرء بمـدى جـودة صياغـة الأجنـدة التقدميـة، ومـدى الوهـن الفكـري الـذي أضحـت عليـه الحركـة المحافظيـة. عندكتابـة هـذا الكتـاب كان المرشـحون الديمقراطيـون للرئاسـة يناقشـون خططـا للرعايـة الصحيـة الشـاملة، ومداخـل جديـدة للتعامـل مـع الفقـر، وخيـارات لمسـاعدة مشـتري المنـازل الذيـن يواجهـون اضطرابـات، وغيرهـا الكثـير. وفي أثنـاء ذلـك لم يقـدم المنافسـون الجمهوريـون أي اقتراحـات محـددة، فهـم يبـدون كأنهـم يتنافسـون

(1) http://www.ssa.gov/kids/history.htm.

حـول مـن يبـدو أكـثر مثـل رونالـد ريجـان، ومن هـو الأكـثر حماسـا للتعذيـب. وللدرجة التـي يمثـل فيهـا الحـزب الديمقراطـي الحركـة التقدميـة، يصبـح حـزب الأفـكار.

أن تكون حزبيا

الأجنـدة التقدميـة واضحـة وقابلـة للتحقيـق، ولكنهـا سـتواجه معارضـة شرسـة. فالحقيقـة المركزيـة في الحيـاة السياسـية الأمريكيـة الحديثـة هـي سـيطرة حركـة المحافظـين عـلى الحـزب الجمهـوري، حيـث تعـد رؤيـة هـؤلاء المحافظـين لمـا ينبغـي أن تكـون عليـه أمريـكا مناقضـة بالكامـل لرؤيـة الحركـة التقدميـة. وبسـبب تلـك السـيطرة، فالفكـرة المحبوبـة لـدى النقـاد السياسـيين أننـا يمكننـا صنـع التقـدم مـن خـلال توافـق حـزبي ثنـائي، هـي ببسـاطة فكـرة خرقـاء. ففـي مجـال إصـلاح الرعايـة الصحيـة، وهـي الأولويـة الأولى لـدى التقدميـين، ليـس هنـاك طريـق للوصـول إلى حـل وسـط بـين الحزبـين: بـين الجمهوريـين الذيـن يريـدون خنـق برنامـج ميديكـير، والديمقراطيـين الذيـن يريـدون ضـمان التأمـين الصحـي للجميـع. وحينـما تقـدم خطـة إصـلاح الرعايـة الصحيـة فعـلا للكونجـرس، فسـيفعل قـادة الحركـة المحافظيـة مـا فعلـوه في عـام 1993: سيناشـدون الجمهوريـين معارضـة الخطـة في أي شـكل، خشـية أن يضعـف نجـاح إصـلاح الصحـة أجنـدة الحركـة المحافظـة. ومعظـم الجمهوريـين مـن المحتمـل أن يمضـوا في هـذا السـبيل.

وأن تكـون تقدميـا، إذن، يعنـي أن تكـون حزبيـا، عـلى الأقـل الآن. والطريقـة الوحيـدة التـي يمكـن بهـا تشريـع الأجنـدة التقدميـة هـي فيـما لـو حـاز الديمقراطيـين منصـب الرئاسـة وأغلبيـة كبـيرة بمـا فيـه الكفايـة في الكونجـرس للتغلـب عـلى المعارضـة الجمهوريـة. ولإنجـاز مثـل هـذا النـوع مـن التفـوق السـياسي سـوف يتطلـب الأمـر قيـادة تجعـل معـارضي الأجنـدة التقدميـة يدفعـون ثمنـا سياسـيا لتعويقهـم السـياسي: القيـادة التـي، مثـل فرانكلـين ديلانـو روزفلـت، ترحـب بكراهيـة جماعـات المصالـح التـي تحـاول منعنـا مـن جعـل مجتمعنـا أفضـل.

لـو نجحـت الحركـة التقدميـة الجديـدة، سـوف تتقلـص في نهايـة المطـاف حاجتنـا للثنائيـة الحزبيـة. ففـي الخمسـينات كان بإمكانـك أن تؤيـد الضـمان الاجتماعـي والنقابـات ومـع ذلـك تظـل تصـوت لأيزنهـاور بضمـير حـي، لأن الحـزب الجمهـوري في النهايـة (وبشـكل مؤقـت) كان قـد قبـل بالصفقـة الجديـدة. وفي المـدى الطويـل

يمكننا أن نأمل العودة إلى مثل هذا النوع من السياسة: حزبان سياسيان معقولان يقبلان بكل ما هو أفضل لبلدنا، ولكنهما يتنافسان حول قدرتهما على الوفاء بالوعد بحياة كريمة لكل الأمريكيين، وأن يبقى كلاهما نزيها.

حتى الآن، أن تكون نشطا ليبراليا يعني أن تكون تقدميا، وأن تكون تقدميا يعني أن تكون حزبيا. ولكن الهدف النهائي ليس حكم حزب واحد. إنه إعادة تأسيس ديمقراطية تنافسية حيوية حقا. لأن الديمقراطية في النهاية، لكونك ليبراليا، هي كل شيء.

نبذة عن المؤلف

بول كروجمان

- درس علم الاقتصاد بالعديد من الجامعات الأمريكية، منها ييل وستانفورد ونيويورك ومعهد ماساشوستس للتكنولوجيا.
- ألّف وحرر 27 كتابا، وله أكثر من 200 ورقة بحثية منشورة بالدوريات العلمية المتخصصة أو في شكل فصول في كتب محررة.
- مجال تميزه الذي قدم فيه أكبر إسهاماته هو التجارة الدولية والتمويل، فهو واحد من واضعي "نظرية جديدة للتجارة" التي انبثقت نتيجة لمراجعة جوهرية لنظرية التجارة الدولية.
- له كتابات في العديد من المطبوعات التي تستهدف الجمهور العام، ويكتب منذ عام 1999 مرتين أسبوعيا في جريدة نيويورك تايمز.
- حصل على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 2008.

نبذة عن المترجم

مجدي صبحي يوسف رزق

- خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية-قسم الاقتصاد.
- خبير اقتصادي بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ورئيس تحرير التقرير السنوي "الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية" الصادر عن المركز.
- صدرت له ترجمتان، الأولى بعنوان "الثورة الإسلامية والاقتصاد: صراع النخب حول استقلال الاقتصاد الإيراني" عن دار التنوير بالقاهرة عام 2012، والثانية بعنوان "تاريخ إيران الحديثة" عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت عام 2014.

هذا الكتاب دراسة في التاريخ الأمريكي وبصفة خاصة تاريخ عدم العدالة الاقتصادية والاجتماعية. وبينما يقتفي الكتاب تاريخ فجوة الدخل والثروة بين الفقراء والأغنياء، فإنه يركز على الأسباب التي أدت إلى عودة اتساع الفجوة الاقتصادية والاجتماعية منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين، بعد أن كانت قد انخفضت بشكل كبير منذ منتصف القرن الماضي. ويرى مؤلف الكتاب بول كروجمان الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 2008 أن السياسات الحكومية وخاصة تأسيس شبكة الحماية الاجتماعية أو ما يعرف عموما بسياسات "دولة الرفاه" كان لها الفضل الأكبر في خفض فجوة الدخل والثروة منذ ثلاثينيات القرن العشرين وحتى السبعينيات، ثم أدت السياسات القائمة على العودة للهجوم على هذه السياسات إلى اتساع هذه الفجوة من جديد.

ويشير الكاتب إلى أن الانتصارات الانتخابية التي حققتها الحركة قد ارتكزت على استغلال مشاعر الاستياء العرقية والثقافية، وكذا استغلال المخاوف المتعلقة بالأمن القومي، وذلك على الرغم من عدم شعبية سياساتها التي أدت إلى تركيز الثروة في يد الأغنياء. ويدعو الكاتب قبيل انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٨ إلى ضرورة تبني الحزب الديمقراطي ما أطلق عليه "الصفقة الجديدة الجديدة".


ISBN 978-977-313-7335

